الشاطر بصيلي عبد الجليل

معالم تاريخ سودان وادي النيل

من القرن العاشر إلى القرن التاسع عشر الميلادي



مكتبة الشريف الأكاديمية
للنشر والتوزيع
الخرطوم
2009 - 2010

ظفرت العصور السابقة لتلك الفترة والعصور اللاحقة بها بعناية العلماء من أثريين وجغرافيين واثنوغرافيين فكشفت تلك العناية عن حياة الجماعات كشفًا كان من شأنه أن يلقى عليها ضوءًا وأن يقدم من متفرق أحداثها رواية تاريخية متصلة الحقائق. ولكن الحال تختلف إذا انتقلنا للعصر الذى أشرنا إليه. ومن ثم فقد أسدى الأستاذ الشاطر بصيلى بكتابه هذا للدارسين والمهتمين بتلك الحقبة التاريخية الفريدة.. فالكتاب يقدم للقارىء الصورة التى تمكن من مواصلة البحث والتحقيق لسد ما قد يكون فاتنا نرجو أن يتقبلها القارئ بالروح التى أملتها، وبالمساهمة فى متابعة الدراسات.

Design رؤاة
02 33036809

مكتبة الشريف الأكاديمية
للنشر والتوزيع

معالم تاريخ سودان وادي النيل

(من القرن العاشر إلى القرن التاسع عشر الميلادي)

بقلم
الشاطر بصيلي عبد الجليل

معالم تاريخ سودان وادى النيل

من القرن العاشر إلى القرن التاسع عشر الميلادى

المؤلف

الشاطر بصيلى عبدالجليل

الناشـــــر

مكتبة الشريف الأكاديمية

للنشر والتوزيع

شارع الجمهورية تليفون: 783429 ـ 792450

التنفيذ الفنى وتصميم الغلاف



رقم الإيداع: 2009/1776

دراسات تاريخية سودانية



معالم تاريخ سودان وادى النيل

(من القرن العاشر إلى القرن التاسع عشر الميلادى)

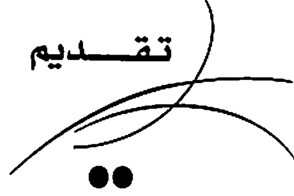
بقلم

الشاطر بصيلى عبد الجليل

أمين مكتبة معهد الدراسات السودانية
كلية الآداب - جامعة القاهرة
(سابقًا بخدمة إدارة السودان)

مكتبة الشريف الأكاديمية
للنشـــر والتوزيـــع

بسم الله الرحمن الرحيم



تقديم

للسيد الأستاذ الكبير
محمد شفيق غربال

هذه الكلمة ليست على سبيل التقديم . فلصاحب الكتاب ـ الأستاذ الشاطر بصيلى ـ من المكانة فى عالم البحوث التاريخية السودانية ما يغنيه عن أى تقديم . ولكننى أحببت أن أظهر ما تركته قراءة هذا الكتاب قبل طبعه فى نفسى من أثر . فحرصت على أن أضع فى أوله هذه الكلمة .

وقد اتجه الأستاذ بصيلى قبل قدومه لمصر بسنين إلى العمل المخلص الصادق فى تحقيق الكثير من مسائل التاريخ السودانى فى مختلف العصور . ونعم ما فعل . فالبحوث السودانية فى موقفها الراهن أكثر حاجة للتحقيق العلمى ونشر الوثائق التاريخية منها لأى نوع آخر من العمل العلمى . وأكثر عصور التاريخ السودانى حاجة للجهد هو بالضبط العصر ما بين القرون الخامس عشر والتاسع عشر أو ما يصح أن يسمى عصر الإمارات والرياسات العربية الأفريقية .

ولقد ظفرت العصور السابقة لتلك الفترة والعصور اللاحقة بها بعناية العلماء من أثريين وجغرافيين واثنوغرافيين فكشفت تلك العناية عن حياة الجماعات كشفًا كان من شأنه أن يلقى عليها ضوءاً وأن يقدم من متفرق أحداثها رواية تاريخية متصلة الحقائق . ولكن الحال تختلف إذا انتقلنا للعصر الذي أشرنا إليه . ومن ثم فقد أسدى الأستاذ الشاطر بصيلى بكتابه هذا للدارسين يدًا تذكر فتشكر .

وطريقة الأستاذ الشاطر بصيلى تقوم على أن يورد فى المسألة شتى الآراء . ثم يعطى لكل رأى ما له وما عليه ويخلص من هذا إلي الرأى الذى يرى . فهو إذن لا يورد شيئًا بلا دليل . وهو إذن لا يفرض على القارىء شيئًا بعينه . بل هو يتيح له ألا يقبل شيئًا إلا بعد اقتناع . على أن

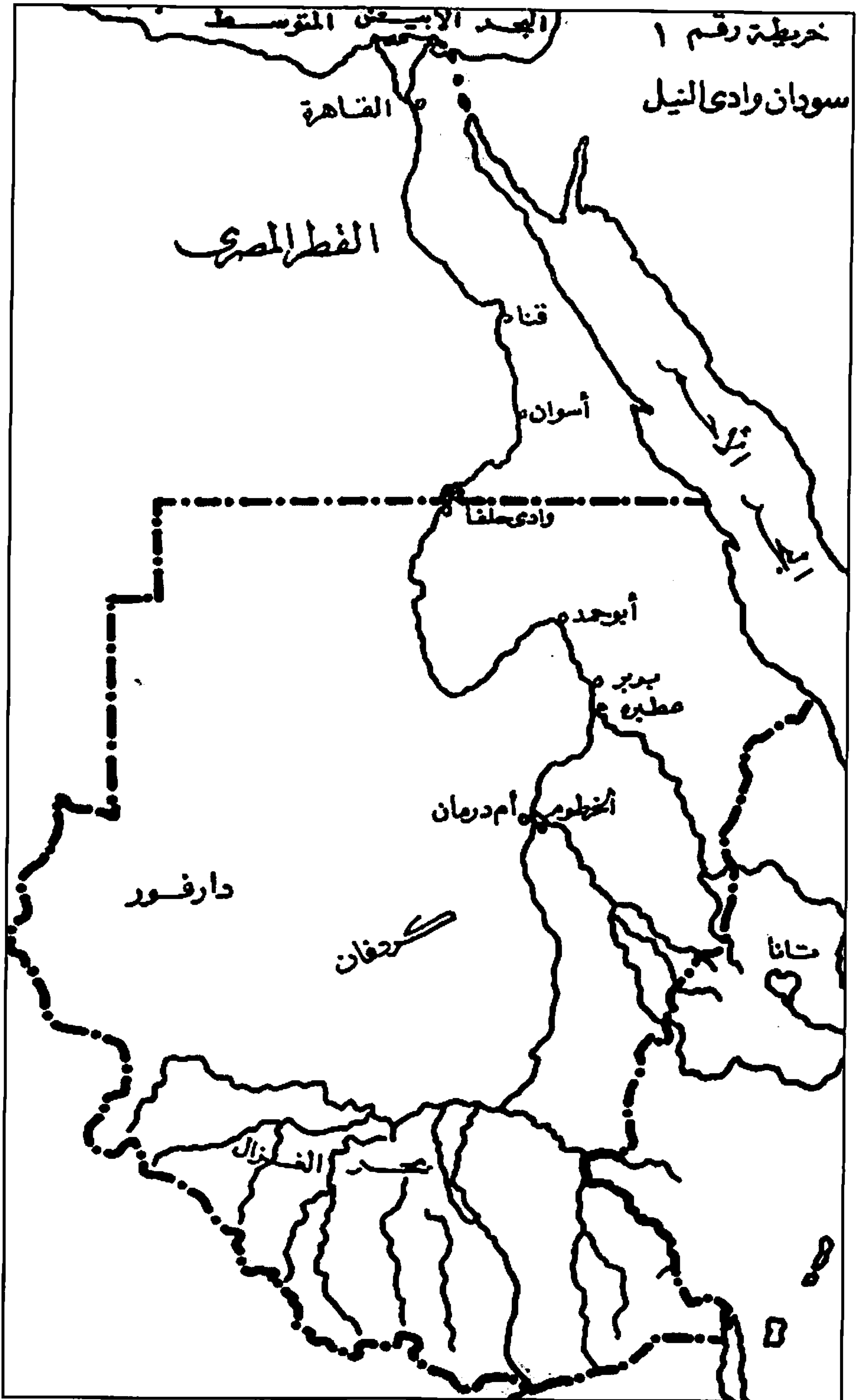
المؤلف كان حريصًا فى نفس الوقت على أن يكمل التحقيق بالرواية المتصلة فجاء الكتاب كتابًا بالمعنى الحقيقى .

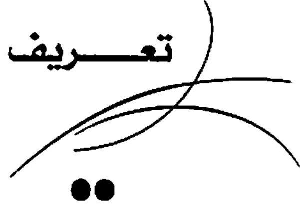
وأن كان لى أن أرجو لنفسى ولغيرى من الدارسين تكملة يتولاها الأستاذ الشاطر بصيلى فهى أن يعالج على النحو الذى نحا دراسة الأمارات العربية الأفريقية فى غير سودان وادى النيل . وهذا لأنى أعتقد أن الدراسة المقارنة لتلك الأمارات تعين كثيرًا على فهم تكوينها وأنظمتها وثقافتها . على أن تكمل الدراسة المقارنة ببيان اتصال تلك الأمارات بالعالم حولها وخصوصًا بمنابعها الغربية والأفريقية . وأدعو الله فى الختام أن يمكن الأستاذ الشاطر بصيلى من المضى فيما هو فيه من خدمة العلم وأن يلقى من قومه فى شطرى الوادى ما هو خليق به من التشجيع والعون .

محمد شفيق غربال

معهد الدراسات السودانية
يولية سنة 1955




خريطة رقم ١
سودان وادي النيل
البحر الأبيض المتوسط
القاهرة
القطر المصري
قنا
أسوان
وادي حلفا
أبو حمد
بربر
عطبرة
الخرطوم
أم درمان
دارفور
كردفان
تانا
بحر الغزال



لقد أتاحت لى السنوات الثلاث والثلاثون التى أمضيتها فى سلك الإدارة المدنية فى السودان فرصة الانتقال بين ربوعه المختلفة ، والتعرف على مظاهر الحياة فى صورتها الواقعية ، وكان من نصيبى أيضًا أن عاصرت مراحل تطور المجتمع فى الفترة من نهاية الحرب الكبرى الأولى إلى مابعد نهاية الحرب العالمية الأخيرة ، وقد وجهت اهتمامى منذ اللحظة الأولى التى دخلت فيها البلاد إلى دراسة تاريخه كما جاء فى مختلف المراجع المطبوعة وتابعت قراءة ماجاء فى الدوريات والنشرات وفى الصحف ، وقارنت بين ماورد فى هذه المطبوعات بين ماتجمع لدى من روايات ووثائق خطية يحتفظ بها أهل البلد فوجدت أن الحاجة قوية ، وبخاصة بعد اضطراد التقدم فى مظاهر الحياة اليومية إلى تحقيق ماكتب عن تاريخ البلد ، وتفسير ماجاء فى الكتب على ضوء حياة المجتمع ، ولهذا اتجه تفكيرى منذ سنوات خلت إلى محاولة سد هذه الثغرة ، وقد بدأت هذه المحاولة بكتابة جذاذات بما جاء فى المطبوعات المختلفة ، ويوميات ومذكرات بما فى المخطوطات المحلية ، وتصوير البعض ، وتفصيلات الأحاديث التى دارت مع الأهلين بصدد تاريخهم ، وقد وجدت من جميع من تحدثت إليهم أصدق المعونة والوفاء وبين هؤلاء الكثير من العلماء والفقهاء وأهل المعرفة ، وقد تجمعت لدى من العناصر ما ساعد على كتابة دراسة عن السلطة السنارية وأصول أسرتها ، التى شكلت موضوع جدل أكاديمى بين الباحثين من الأجانب ، وقد تم إعداد هذه الدراسة فعلاً قبيل الحرب الأخيرة إلا أن ظروفها القاسية قد حالت دون نشرها بعد أن وصلت إلى المطبعة فعلاً .

وحاولت بعد عودتى من السودان فى عام ١٩٥١م اعداد البحث لنشره فى فى صورته التى تم عليها من قبل ، وعندما بدأت فى اتخاذ الخطوات اللازمة لذلك ، وجدت أن تطور الأحداث فى

السودان تتطلب باديء ذى بدء دراسة تاريخية تحليلية لمختلف مراحل تطور المجتمع فى جنوب الوادى ، وماتركته تلك التطورات من انطباعات وانعكاسات ، لتعاون على تفسير مظاهر الحياة وتقريبها إلى الأذهان فى صورة أقرب إلى الواقع ، وأن يتبع ذلك القيام بدراسات تفصيلية فى مختلف نواحى النشاط ، لذا استقر الرأى على المطلب الأول لشدة الحاجة إليه فى بناء السودان الجديد ، وقد توفرت على كتابته فى العامين الماضيين ، خلال فترات الفراغ المحدودة وإننى لا أدعى أن الموضوع قد استكمل بحثه بل حاولت مخلصًا أن أبرز الصورة التى تجمعت لدى عناصرها عن الفترة من تاريخ السودان فى القرن التاسع إلى القرن التاسع عشر الميلادى ، وقد تكون هذه الحقبة من الزمن طويلة وليس من اليسير معالجة معالمها فى كتاب محدود الحجم ، لكننا إذا أخذنا بعين الاعتبار الفارق النسبى بين حياة الفرد العادى التى لاتتجاوز عمليًا الأربعين عامًا وبين حياة الأمم التى قد تتجاوز فى مرحلتها الحضارية مايقرب من الثمانية قرون نجد أن الفترة التى ضمها الكتاب ـ عشرة قرون تقريبًا ـ ليست بالكبيرة نسبيًا ، وأن ضرورة استكمال البحث تقتضى الرجوع إلى مصادر مظاهر الحياة فى الماضى البعيد والقريب ، فالحياة بالنسبة للمجتمع فى حيويتها تتفاعل ظواهرها المتتابعة الحلقات ، وليس من السهل الوصول إلى نتائج إيجابية دون ربطها بعضها بالبعض وتحليلها والتعرف على سلوكها وما تركته من أثر فى تكوين حالة حضارية تمثل الكم من هذه الظواهر ، وقد تستنفذ كل ظاهرة منها عددًا من السنين يتفاوت فى عدده بين العشرة والعشرين عامًا متمشية فى ذلك مع تطور العلاقات مع الدول المعاصرة . فالأحداث الكبرى فى جنوب الوادى (السودان) كنشأة السلطنة السنارية وانهيارها ، وامتداد الإدارة المصرية ، والثورة المهدية لم تكن كل منها إلا نتاج تفاعل فى ظواهر اجتماعية ترجع فى مصادرها إلى أقدم العصور .

وكما أوضحنا من قبل فإننا قد بذلنا جهد المجتهد المتواضع لاخراج هذه الدراسة على الصورة التى تمكن من مواصلة البحث والتحقيق لسد ما قد يكون فاتنا نرجو أن يتقبلها القارئ بالروح التى أملتها ، وبالمساهمة فى متابعة الدراسات ولايسعنى إذ أتحمل مسئولية مافى الكتاب إلا أن أتقدم بوافر الشكر والثناء عرفانًا بالجميل الذى أسداه السادة الأساتذة وإخوانى الكثيرين من تشجيع وهذا العون موجه فى الحقيقة وواقع الأمر إلى السودان ، كما يصور مدى الاهتمام

بدراساته وتقدم المعرفة الخاصة به لكى يتسنى تشييد أسسه ومقوماته على قواعد سليمة ، وأخص بالذكر السادة الأستاذ الكبير محمد شفيق غربال الذى تفضل بتقديم البحث ، ودكتور محمد عوض محمد ، دكتور سليم حسين ، دكتور سليمان حزين ، دكتور محمد متولى ، محمد أحمد حسونة ، و أ . ج . أركل ، ودكتور محمد محمود الصياد ، والأستاذ صالح خليل وريتشارد هل ، ودكتور جورجي صبحى ، والأستاذ عبدالفتاح حسن والأستاذ عبدالفتاح إبراهيم والأستاذ أحمد عبد السلام كفافى ، ودكتور محمد أحمد أنيس ودكتور عبدالمجيد عابدين والسيد إبراهيم رياض المحامى والسادة عبدالعزيز إسماعيل وأحمد عيسى وبدر الديب ، لاهتمامهم بالبحث وتشجيعهم على اتمامه ودكتور محمد فؤاد شكرى لتوجيهاته ونصائحه التى كان لها أطيب الأثر فى إعداد البحث ودكتور حسن عثمان للتشجيع والعون وكذا فضيلة الشيخ يوسف بقوى ، والسادة محمد كامل ودكتور فرديك سليزاك ، محمد المعتصم سيد ، ومحمد عبدالرحيم ، وسيد مدنى يحيى ، وحاج الشيخ عمر دفع الله ، وأحمد محمد صالح الزاهد ، عبدالغنى سعودى ، صلاح الدين الشامى ، وعمر محمد على ومحمد أحمد الجابرى ، والانسة ماريون لا بورده ، وأحمد محمد سلامة ، وعبدالرحمن الفيصل الشاطر ، ويوسف الأمين أحيمر ، والمهندس المرحوم طه صالح والمرحوم الأستاذ محمد صلاح الدين الباقر ، وإلى جميع من تفضلوا باسداء المعونة .

كما أقدم جزيل الشكر على المعونة الصادقة التى قدمها السيد أنيس أبو فاضل صاحب مطبعة أبوفاضل ، وللسادة أعضاء أسرة مطبعته .

وأعتذر للقارىء الكريم عما قد يكون فى الكتاب من أخطاء مطبعية لم أنتبه إليها عند مراجعتى الأصول .

الشاطر بصيلي عبد الجليل



مقدمة

يجتاز السودان اليوم مرحلة دقيقة فاصلة من مراحل حياته ويضطرب حاضره بوراثات عميقة غائرة فى تاريخه قروناً طويلة ، وهى نتاج دورات متتابعة من الاستقرار حينا والقلق والمكائد والفتن حينا آخر . ومن الأصول العريضة التى تبنى عليها النهضة السودانية الحديثة ، معرفة تاريخ السودان ، ودراسته دراسة موضوعية تطورية فى شتى نواحى النشاط الإنسانى ، وهذه الدراسة تساعدنا كثيراً على تفسير الحاضر ، فإذا ما اجتمعت بين أيدينا معرفة ماضينا وحاضرنا ، سهل علينا أن نضع الخطوط الرئيسية لإرساء قواعد سليمة لمستقبل السودان ، دون أن نتعجل الأحداث أو ننحرف عن القصد أونيأس من العلاج ، الذى قد يقتضى جهود أجيال متتابعة يعمل كل منها على إتمام عمل سابقه . ولا بد إذن من جهود علمية مضنية ، يقوم بأعبائها نفر من أبناء الوادى ، يهبون أنفسهم للحق ، فيتتبعون مظاهر المرض ثم ينفذون إلى أسبابه .

وللسودان مركز خطير فى أرض العروبة والإسلام ، فهو موطن لعدد كبير من القبائل ، التى ترجع بأصولها إلى مهد الدعوة الإسلامية ، وهو معبر للهجرات الدينية والتجارية ، بين أقصى أركان القارة الأفريقية ، وبلاد الشرق بعامة وأرض الحجاز بخاصة . وقد اختلطت القبائل التى هبطت أرض السودان واندمجت بدرجات متفاوتة ولا تتم دراسة تاريخه إلا إذا رجعنا إلى تطورات الأحداث فى الأقطار المجاورة التى كان لها أثر فعال فى السودان .

وللسودان أيضا منزلته فى الاقتصاد الأفريقى ، بحكم مركزه كمعبر قلب القارة الأفريقية ، التى يحاول الاستعمار الأوروبى أن يقيم فيها امبراطوريته الثالثة ، ويود الاستعمار أن يجعل

السودان دويلات تتربص لبعضها الدوائر . ولاشك فى أن مستقبل أفريقيا وثيق الاتصال بمستقبل السودان وقدرته على الإفادة من امكانيته الضخمة ، وتحريره لاقتصاده القومى ، من التيارات التى انحرفت به إلى أهداف جانبية ، ولايتم لنا ذلك إلا إذا استطعنا توجيه المشاعر القومية ، فى عمل دائم نحو هدف يعمل الجميع للوصول إلى تحقيقه . ففى طريق تحقيق هذا الهدف تذوب الفوارق ، وتحل محلها روابط تزداد تماسكًا وقوة من يوم إلى يوم ، ومن جيل إلى جيل فى ظل حياة ، متكاملة الأركان واضحة المعانى سليمة الوسائل .

والكتاب الذى نقدم له ، يعطينا صورة للمعالم الرئيسية لتاريخ السودان الشمالى من بدء ظهور الدعوة الإسلامية حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى ، وماكان للمجتمع من أثر فى الهجرات ونشأة الدويلات العربية الإسلامية ، وتطور نظمها من إقطاعية مطلقة إلى إقطاعيات قبلية ، ثم قيام الحلف السنارى ، فى بداية القرن السادس عشر الميلادى ، الذى قام على أساس «الجمهورية التجارية» ثم أخذت تتسرب إلى ذلك النظام تقليد وعقائد موروثة ، لم يكن من السهل على المجتمع التخلى عنها ، لأكثر من سبب ، كما اهتم الكتاب ببيان أثر الدعوة الإسلامية ، فى السودان وصراع المجتمع الخفى ، وهو الصراع الذى نشب بين الحضارتين المحلية والتى جاءت بها الدعوة الإسلامية .

وبينما نجد أن الذى كتب عن السودان ، فى مختلف نواحى نشاطه ، كثير وكثير جدًا لايحصره العدد ، فإن المصادر الأولية لتاريخ السودان الإسلامى بالذات قليلة جدًا ، وماوجد منها تتضارب رواياته ، ولهذا اختلط الأمر على بعض الكتّاب ، فوقع منهم من وقع فى خطأ مقصود أو غير مقصود ، بسبب غموض العبارات الواردة فى تلك الروايات ، الأمر الذى جعل أولئك الكتاب ، يحاولون تفسيرها فى الصورة التى بنيت عليها دارساتهم ، وبرزت فى كتابتهم . وبالاضافة إلى ذلك حاول هؤلاء الكتاب اعتبار التطورات المحلية كوحدة قائمة بذاتها والحقيقة كما أوضحناها فى البحث أن الأحداث المحلية كانت نتاج تفاعل مشتركة عناصره منها ماهو محلى وما هو من الأقطار المجاورة بخاصة مصر وأثيوبيا . ولذلك فقد جعلنا ا لمنهج الذى التزمناه فى معالجة موضوع هذا الكتاب ، يقوم أساسًا على تصوير المجتمع وتحليله من الناحيتين

الموضوعية والتصورية ، لأن هذين العنصرين مرتبطان ارتباطًا يساعد على تفسير صحيح للأحداث الواقعية . واعتمدنا فى هذه الدراسة كثيراً على روايات ووثائق محلية ، ننشرها لأول مرة وقد أمدتنا بمعلومات تلقى ضوءاً على الكثير من التطورات والتنظيمات الخاصة بجهاز الحكم كما أن هذه الوثائق قد ساعدت على تحقيق أصل البيت السنارى وهو الأمر الذى اختلفت فيه الآراء ، وبقى مشكلة معلقة كما ذكر كروفورد فى كتابه «مملكة الفونج السنارية»[١] بل اقترح كروفورد فى كتابه ، إجراء بحوث اركبولوجيه فى منطقة الفونج ، للوصول إلى حل لهذه المشكلة ، ولكننا استطعنا بفضل ما وصل إلينا من روايات من شرق السودان ووثائق خطية ممهورة بختم أحد السلاطين ، أن تقيم الحجة على أن هذه الأسرة قد انتقلت من جنوب غرب ارتيريا ، وهى المنطقة التى يبدو أنها قد مارست الحكم فيها الفترة من الزمن وقد ساعدنا على التحقق من الفترة السابقة لانتقالهم إلى حوض وادى النيل الأزرق . ما كتبه الرحالة داود روبينى ، وما كشف عنه روسينى من آثار «مقابر الفونج» الكثيرة المنتشرة فى منطقة حوض بركة والمناطق المجاورة .

وكشفت الروايات والوثائق ، التى اعتمدنا عليها عن وجود بعض سلاطين ، تولوا الحكم فى سنار ، ولم ترد أسماؤهم فى المخطوطات المتداولة .

وكثيراً ما اعتمدنا على التقاليد والعادات المتبعة فى اختيار السلاطين وتنصيبهم ولاية الملك . وما يتبع فى ولاية المشائخ للمشيخة والمانجلية ، وبمقارنة ذلك بتقاليد الأقطار المجاورة يتبين فى وضوح التيارات ، التى أثرت فى تقاليد السلطنة ، والتى هى نتاج الطابع الدينى ، المتغلغل فى بناء المجتمع السودانى الذى احتفظ بذلك الطابع ، فى صور تكيفت بالظروف القائمة من وثنية ومسيحية وإسلامية ، وما زالت بعض آثارها ملموسة حتى اليوم .

وينتهى موضوع البحث بالكتاب الثالث الخاص بامتداد الإدارة المصرية إلى السودان ، وظروف ذلك الامتداد ، وما أدخله من تعديلات على نظام الحكم ، وما كان لذلك من أثر فى حياة المجتمع المحلى ، ولم يكن من السهل على المجتمع أن يتخلى عن تقاليده وعاداته الموروثة ،

---

(١) هذا كرفورد ص ١٤٣-١٥٥ .

الأمر الذى جعل الإدارة المصرية تصطدم بتلك التقاليد ، وتدخل معها فى صراع خفى ، وكانت هذه أولى تجاربها القاسية ، وقد حاولت مصر ارساء قواعد الحكم ، بما يتمشى مع حالة البلاد الواقعية ، وذلك بالمراسيم التى أصدرها سعيد باشا خلال زيارته للسودان فى ١٨٥٧م ، وكانت هذه المراسيم نتاج ما اكتسبته مصر خلال ما يقرب من الأربعين عامًا الأولى ، من امتداد الإدارة المصرية ، غير أن الوقت الذى صدرت فيه تلك المراسيم قد جاء متأخرًا ، حيث اشتد الضغط الأوروبى على مصر فى مسألة ابطال الرقيق ، وكان من نتيجته الاستعانة بالأوروبيين الذين اسندت إليهم مناصب ذات مسئولية من الدرجة الأولى فى إدارة البلاد ، وقد عمل هؤلاء على تقويض الجهاز الإدارى وافساده بادخال عناصر ضعيفة . وأخذت بعد ذلك الأحداث فى مصر تتطور فى سرعة فائقة ، واشتد التنكيل فى السودان على يد الأوروبيين لتنفيذ إبطال الرقيق ، بوسائل عنيفة وصارمة ، وأحدثت فجوة عميقة الغور فى المجتمع السودانى ، تعطلت معها أسس الاقتصاد القومى ، التى أسهم فيها الرقيق بنصيب وافر .

وقامت فى مصر ثورة عرابى التى استغلها دهاقنة تمرسوا بتمزيق الشعوب وتحطيم قيمها واتلاف نفوسها وعقائدها ، فجاءت الجيوش البريطانية إلى مصر ، لفشل الحركة الوطنية ومساندة الخديوى ، وهى فى الحقيقة وواقع الأمر تستخدم الطرفين المتخاصمين لمصلحتها للسيطرة على وادى النيل .

وفى السودان أخذت الدعوة المهدية ، مظهرها السافر وحاول عبدالقادر باشا حلمى معالجة الموقف ، بالطريقة التى تتناسب مع الوضع المحلى ، ولم تمهله السيطرة البريطانية من اتمام خطته ، فكان استدعاؤه وتعيين هكس تنفيذًا للنصيحة البريطانية ، كما كشفت عن ذلك الوثائق ، وسيطر هكس بدوره على الموقف فى السودان ووجهه لخدمة مصلحة بلاده ، لتهيئة الفرصة المناسبة للانفراد بالسودان ، وابعاد الإدارة المصرية وبدأ الصراع بين الدول الاستعمارية ، وقد تعرضنا فى هذا البحث لمختلف المراحل والوسائل التى تذرعت بها تلك الدول للتدخل فى حوض النيل ، والتى برزت فى صورة معاهدات واتفاقات ، وهدفنا من هذا العرض المتتابع ، ربط الحلقات بعضها ببعض للوصول إلى نتائج واضحة المعالم تبين لنا الأهداف التى رسمتها الدول الاستعمارية .

ومما لاشك فيه أن صاحب الرسالة المهدية كان يهدف أولا وقبل كل شىء إلى الدعوة إلى اصلاح ماقد كان فى نظره مغايراً للطريق القويم ، إلا أن سرعة تطور الأحداث فى الداخل وملابساتها فى الخارج ، قد انتقلت بالدعوة التى بدأت كظاهرة اجتماعية ، تجاوبت مع الشعب ، فتشكلت بالمظهر الدينى العنيف مخالفة فى ذلك ماعهدناه فى مثيلاتها فى الفترة التى سبقت امتداد الإدارة المصرية إلى جنوب الوادى ، وهذه الظاهرة بعيدة العمق متأثرة بحالة المجتمع ، وتتطلب هذه الظاهرة دراسة أكثر توسعًا وعمقًا وذلك بمقارنتها مع الحركات الدينية المماثلة التى قامت فى شمال أفريقيا وفى الجزيرة العربية وغيرها ، وذلك فى القرن التاسع عشر الميلادى ، وقد تميزت بالدعوة المهدية السودانية بطابعها المحلى الخاص . وسوف يكون لهذه الدراسة خطرها فى توضيح مواضع الضعف التى أفاد منها المستعمرون فى صورة أو أخرى للوصول إلى أهدافهم . وتنتهى دراسة هذا الكتاب بعرض تطور الصراع الاستعمارى بين الدول الكبرى ، وانتقال ميدانه إلى حوض النيل الأعلى وأثيوبيا ، وذلك فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر الميلادى .

ولايفوتنا أن نذكر أننا لم نتعرض فى صورة تفصيلية لهجرات القبائل وترحالها من دار إلى أخرى ، بل اكتفينا بدراسة عامة تتناسب مع موضوع الكتاب ، وأملنا كبير فى أن يتوفر نفر من أبناء الوادى للاهتمام بهذه المسألة اهتمامًا أقليميًا لغيوا وتتصل جهودهم ، حتى يتضح الماضى الذى به نستطيع فهم الحاضر وبناء المستقبل ، ونرجو أن يعنى الباحثون بدراسة المرأة السودانية ، وأن تحظى بالعناية اللائقة بالدور الذى لعبته فى حياة المجتمع ، فقد اسهمت بنصيب وافر فى النشاط اليومى الخاص والعام ، وكانت مصدر قوة محركة خطيرة لها نفوذها وسيطرتها ، الأمر الذى تميزت به عن إخواتها فى الكثير من دار الإسلام .

ولاشك فى أن أبناءالوادى أقدر على فهم مشاكله على وجهها الصحيح ، والله الموفق إلى طريق السداد .

منشية البكرى

أ. ب . ع

القاهرة فى ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٥٤

الكتاب الأول

السلطنة السنارية
فى موطنها الأول

معالم تاريخ سودان وادى النيل



تمهيد

١ ـ الوضع الاقليمى

بلاد السودان [١] ، أو «سودان وادى النيل» على وجه التحقيق والتحديد ، يحتل فى حدوده الادارية مايقرب من ألف ألف من الأميال المربعة ، وهو فى ذلك يعادل مجموع مساحة ثمان دول أوروبية هى : السويد ، النرويج ، الدانمرك ، الجزر البريطانية ، إيطاليا ، أسبانيا ، فرنسا ، والبرتغال . وتبلغ المسافة بين أبعد نقطتين بين حدوده مايقرب من الأربعمائة والألف من الأميال طولاً ، ومايقرب من المائتين والألف من الأميال عرضا ، ونبدأ حدوده الجنوبية من شمال خط الاستواء ، وتنتهى فى الشمال عند منطقة وادى حلفا . وتقع على حدوده الجنوبية ، أوغندا والكنغو البلجيكى ، وشرقًا أثيوبيا والأرتيريا ، والبحر الأحمر . وغربًا أفريقيا الاستوائية الفرنسية وليبيا . وشمالاً القطر المصرى ، الذى يكون الشطر الشمالى لوادى النيل . ويجرى النهر مخترقًا مناطق متباينة . وكان من نتيجة هذا التباين تكوين مجموعات من السكان ، خضعت كل منها وتكيفت حياتها بما تتطلبه البيئة الخاصة بكل منها . ويقسم السودان بين أهله إلى قطاعات ، لكل منها مميزاتها الخاصة وهذه القطاعات هى :

(١) «دار صباح» (مشرق الشمس) وتشمل البحر الأحمر ومنطقة البطانة وتنتهى جنوبًا عند حوض نهر الوهد والدندر .

---

(١) هذا الاسم يشمل أصلا البلاد من ساحل البحر الأحمر وأثيوبيا شرقا حتى المحيط الأطلسى غربًا . وعرف به القسم المكون لجنوب وادى النيل فى الفترة الحديثة كما عرف السودان الغربى بالسودان الفرنسى . وكلمة السودان التى يقصد بها بلاد السودان كلمة غير واضحة الحدود .

(٢) «الصعيد» وتشمل المنطقة الواقعة جنوب شرق الخرطوم (حوض النيل الأزرق) والجزء الشرقى من النيل الأبيض شمالى كوستى .

(٣) «الجنوب» ويشمل البلاد الواقعة جنوبى بلدة كوستى على النيل الأبيض ويكون القسم الأول من هذه المنطقة ، وهو «كوستى حتى الملكال» على طول النيل الأبيض ـ الممر أو المدخل إلى الجنوب الرئيسى ، الذى يشمل حوض بحر الغزال والروافد التى تصب فى مجرى النيل فى تلك المنطقة .

(٤) «دار غرب» (مغرب الشمس) وتشمل ثلاث مناطق ، أولادها «كردفان» وثانيتها «دارفور» وثالثتها جبال تقلى والداير وغيرها من مجموعة جبال النوبا ، وتعرف محليًا بالجبال .

(٥) «السافل» وتشمل جميع المناطق الممتدة على جانبى النيل شمالى الخرطوم إلى وادى حلفا .

وتسكن هذه المناطق مجموعات من القبائل والبطون عرفت مواطنها باسم القبيلة الكبرى صاحبة النفوذ والتفوق مثل دار الشايقية ، دار المحس ، دار الميرفاب ، دار جعل[٢] ، البشا (البجه) الشكرية ، وغير ذلك مما سنتعرض له تفصيلا فى موضعه من هذه الدراسة .



وإذا رجعنا إلى خريطة عامة عليها أفريقيا شمال خط الاستواء ومعها ذلك الجزء من آسيا غربى صحراء غوبى والخليج الفارسى وحوض الدجلة والفرات كذا حوض البحر الأبيض ، فإنه يتبين لنا حوض النيل فى شطريه الشمالى والجنوبى (مصر والسودان) ويربض عن يمينه حوض البحر الأحمر . الأمر الذى ازدادت معه أهمية حوض وادى النيل من الناحية الاستراتيجية العامة . فوادى النيل حلقة متصلة بموارد المياه ومواطن الخصب فى القارة الأفريقية . ويربط البحر الأحمر بين المحيط الهندى والبحر الأبيض المتوسط ، الذى يخرج إلى

---

(٢) الجعليون ـ الذين تقول نسبتهم أنهم ينتمون إلى إبراهيم الجعل ـ فقد تكون هنالك جماعات تنتسب إلى هذا العباسى وهذا لايغير من الحقيقة الواقعة شيئًا وهى أن هذه المنطقة تسكنها جماعات تنتمى إلى أكثر من مجموعة ليس بينها رابط مع «إبراهيم الجعل ـ المقصود من نسبتهم شجرة الأنساب التى تحتفظ بها القبيلة .

المحيط الأطلسى ، وبعبارة أخرى فإن حوض النيل يحتل مركزًا يلتقى عنده الشرق والغرب ، فى تجارته كما أنه مفتاح القارة الأفريقية . وكان طبيعيًا أن تربط بين شطرى الوادى مصلحة مشتركة لذات حوض النيل ، وهما الحارسان على هذا المدخل الطبيعى ، وإذا رجعنا إلى هجرات المجموعات البشرية ، فى داخلية المنطقة بين صحراء غوبى والمحيط الأطلسى شمالى خط الأستواء ومنها من دخل أفريقيا ، أو خرج منها سواء كان ذلك عن طريق القرن الأفريقى (بوغاز باب المندب وما حواليه) أو عبر البحر الأحمر أو عن طريق برزخ السويس ، فإننا نجد الكثير من المجموعات التى تكونت من الهجرات ، قد حطت رحالها فى حوض وادى النيل ، وفيه بقيت لفترات من الزمن تفاوت أجلها بالقدر الذى كانت تمليه الظروف المحلية ، ولا نريد ونحن فى هذا المقام أن نتعرض إلى تفصيلات تلك الهجرات ، وما إلى ذلك من امتداد الحضارة والمدنية ، وفتح أسواق جديدة . وهذه المسألة الخاصة ، تتطلب بحثًا يقوم به أخصائى وحتى بعد تقدم المواصلات فى أفريقيا ، وفتح شواطئها المختلفة للتجارة الأوروبية ، فإن وادى النيل ما زالت له أهميته وخطورته الاستراتيجية فى أفريقيا فهو اليوم ملتقى المواصلات المختلفة والمستودع الذى تدخل عن طريقه المؤن والعتاد ، فى حالة الحرب التى تشمل منطقة البحر الأبيض المتوسط .

٢ ـ تعريف أقليمى:

ـ الأقليم:

عرفت بلاد السودان قديمًا بأرض كوش . وقد ورد هذا الاسم فى قراءات متعددة فى ألواح تل العمارنة ، (التى كتبت فى القرن السابع عشر قبل الميلاد) فقد ورد هذا الاسم فى تلك الألواح كاشو (Kacho) كاشا (Kacha) كاشا (Kashsha) كاسى (Kasi) كاشى (Kashshi) ، [٣] وقد وردت فى لوحة الملك عيزانه «نجاشى أتيوبيا ، كسو (Kasu) وفى اللغة المروية «ف س» أو «ق ص» ، وهذه أقرب فى نطقها إلى قصى وقد كتبت هذه الكلمة فى صور أخرى منها ، كرسا (Kersa) كرسى (Kersi) كرتينا الخ الخ [٤] وقد حاول الكتاب القدامى

(٣) بدج ٣ ، جزء أول ، ص ـ ٣ هومل ص ٥٧٠ .

(٤) بورخارد ، ص ٥٠١ ، ابن حوقل ، ص٥٧ .

ربط هذه الكلمة ب« كوش» من أحفاد نوح عليه السلام ، وليست هذه إلا محاولة خاطئة ، لأنها تقوم على توزيع سكان الأرض بالنسبة إلى أبناء وأحفاد سيدنا نوح ، ولايستند هذا التوزيع إلى أساس علمى ، وإذا رجعنا إلى التوراة (٥) ، نجد أن كوش التى وردت فيه ، قد اقترنت مع «صور» فى موضع ، ودلت فى مواضع أخرى على مناطق بعيدة كل البعد عن المنطقة جنوبى الشلال الأول ، فهنالك منطقة كيش (٦) فى العراق وعرفت بهذا الاسم فى صورة أو أخرى ، متأثرة باللهجات المحلية جماعات سكنت بابل كما عرفت بها جماعات فى اليمن قيس ، ومن الصعوبة بمكان تحديد العلاقات والصلات التى تربط بين هذه المجموعات ، التى قامت فى أجزاء متباعدة فى آسيا وأفريقيا ، وتحقيق هذه المسألة يتطلب دراسة منظمة .

وقد كان الكتّاب من العرب ، أكثر تدقيقًا من الأغريق فى تحديد المنطقة جنوبى الشلال الأول ، وتعريف مناطقها بأسمائها القريبة من الصحة ، ولايفوتنا أن نذكر فى هذا المقام أن كوش أو «كاسو» إلخ التى عرفت بها البلاد جنوبى الشلال الأول لم يكن إلا اسم القبيلة الأكثر قوة وعددًا والمعروف أن هذه القبيلة قد سكنت حوض النيل الأزرق وقبيلة ديجون (٧) فى حوض نهر العطبرة ـ وقبيلة المقرة (الماكورة) قد سكنت منطقة دنقلة ، وقبيلة نوب (النوبة) فى المنطقة بين الشلالين الأول والثانى ، وقد شاركت هذه القبائل فى مواطنها بعض الجماعات الصغيرة التى بلغ بعضها مرتبة من القوة والكثرة العددية ، الأمر الذى جعل تفوقه وانتزاع التسمية للدار التى يقطنونها ، كما أن بعض هذه المجموعات الصغيرة قد اختفى بامتصاصه فى البيئة المحلية الغالبة ، أو بالهجرة تحت ضغط الظروف المحلية .



(٥) كوش الابن الأول لوالده حام ـ التكوين ، الاصحاح العاشر آية ٦ ، أشعيا اصحاح عشرون ، آية ٤ ومابعدها ، مزامير ، المزمور السابع والثمانون آية ٤ .

(٦) جواد على ، أول ، ص ٣٠٦ ومابعدها ـ قام فيلد بدراسة هذه المنطقة وكتب عنها أيضًا كبرس .

(٧) مكمبكل تاريخ للعرب فى السودان ص ١٧١ جزء أول .

٢ ـ السكان:

وقد استطاعت هذه القبائل بعد هجرتها من شمال الوادى دفع السكان القدامى[٨] تدريجيًا نحو الجنوب ، حتى شملت منطقة نفوذهم رقعة من الأرض من الشلال الأول ، حتى حوض النيل الأزرق ، ومن هنالك أخذت فى الانتشار فى شكل مروحة شرقًا وغربًا وجنوبًا وشمال شرقى نحو أثيوبيا والبحر الأحمر . وحملت معها أسس الحضارة المصرية ، وتأثرت هذه القبائل بعض الشىء بالبيئة المحلية ، وذلك بدخول عادات وتقاليد محلية ـ انطبعت بالطابع الفرعونى .

وقامت فى البلاد أكثرمن زعامة ، فى حدود المناطق الأقليمية التى يتكون منها الجزء الأوسط من حوض وادى النيل (السودان) وسيطرت على هذه الزعامات أسرة اتخذت مدينة «نوب تا» عاصمة لها ، وفى عهد هذه الأسرة هاجرت إلى الجنوب جنود أبسماتيك [٩] البالغ عددهم حوالى الربع مليون ، وقد أقطعوا منطقة النيل الأزرق . وانتقل الحكم من «نوب تا» إلى «مرو» فى القرن الرابع قبل الميلاد ، بسبب امتداد النفوذ الرومانى إلى مصر ومنها إلى شاطىء البحر الأحمر جنوبى سواكن للسيطرة على طرق القوافل والتجارة مع الشرق . واستمر الحكم فى «مرو» حتى هجوم عيزانا ملك أثيوبيا ، على حوض نهر العطبرة وتخريب مملكة «مرو» فى منتصف القرن الرابع الميلادى ، وقامت بعد ذلك مملكة «علوة» [١٠] وقوامها من المصريين أحفاد جنود أبسماتيك .

وانتقلت البلاد من الوثنية إلى المسيحية ، فى صورة ما ، واحتفظت زعامتها بالطابع التجارى ، الذى تميزت به طوال الأحقاب الماضية ، واستمرت هذه الزعامة تنتقل من جيل إلى جيل ، حتى الحكم السنارى ، ولايفوتنا أن نذكر أن هذه الزعامة التجارية ، قد قامت فى مختلف أطوارها فى زاوية معينة ، وهى نقل التجارة عن طريق الحصول على عمولة الوسيط ، أو الحصول على رسوم حماية التجارة فى طرق القوافل الخ الخ . ولم تعن هذه الزعامات ، فى وقت من

---

(٨) أركل نبذة عن تاريخ السودان .

(٩) الشاطر بصيلى «النفوذ اليونانى فى حوض النيل الأزرق . . . . الخ .

(١٠) المصدر أنف الذكر .

الأوقات بقيام صناعات محلية ، أو غلات للتصدير على صورة كبيرة ــ وبقيت المسيحية يتجاذبها المذهبان الملكانى واليعقوبى حتى ظهور رسالة الإسلام فى وادى النيل ، وعند ذلك أخذت الأحوال فى التطور التدريجى كما سنبينه فيما بعد .

٣ ـ الإسلام ووادى النيل الأوسط:

جاء الإسلام إلى الجزء الأوسط ، من حوض وادى النيل (السودان) ، عن طريق مدخلين هامين أولهما وفق الترتيب التاريخى ، أثيوبيا ، وثانيهما شمال الوادى (مصر) . وجاءت عن طريق أثيوبيا جماعات قليلة العدد ، بينما عبرت مصر إلى السودان مجموعات متلاحقة فى أعداد وفيرة ، كما سنتعرض له فيما بعد . جاء الإسلام فى السنوات القليلة التى تلت وصول الهجرات الإسلامية إلى أثيوبيا فى عهد المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وما تبع ذلك من هجرات أخرى بسبب حروب الردة ، وغير ذلك من الدوافع . كما أن العرب قد دفعهم هجوم القراصنة فى البحر الأحمر على تجارتهم وعلى الموانىء العربية ، إلى احتلال بعض المناطق الاستراتيجية على الجانب الغربى للبحر الأحمر ، لحماية المصالح التجارية ، من عدوان سكان الجانب الأفريقى (١١) ومن هذه المحطات وغيرها ، التى امتدت على طول الشاطىء الأفريقى ، حتى بحر الزنج (١٢) ، أخذت الجماعات الإسلامية فى التغلغل داخل البلاد ، فى الهضبة الأثيوبية وحوض وادى النيل ، كما تمكنوا (١٣) من إنشاء ولايات إسلامية فى نطاق الوطن الأثيوبى (١٤) .

---

(١١) قام القراصنة من أهل الجانب الأفريقى للبحر الأحمر بهجوم على ميناء جدة وخربوها وكان ذلك فى عام ٧٠٢م وخشى المسلمون أن تمتد يد القراصنة إلى الداخل فتصل إلى الأماكن المقدسة . لذلك عمدوا إلى احتلال مجموعة جزائر دهلك (تتكون هذه المجموعة من جزائر كثيرة وأهم المسكون منها دهل ، حرات ، كبارى ، دركه ، ديقاريخ ، نوره ، نقره ، ويطلق اسم دهلك على جميع الجزر) .

(١٢) أنشأ العرب محطاتهم على الساحل الغربى للبحر الأحمر فى سواكن ، باضع ، أوناسى ، دهلك ، زيلع ، بربه ، مقديشيو ، مرخه ، براوه ، ممبا ــ عزانيا (زنربار) وقد تبادلت عيذاب مع سواكن المركز التجارى .

(١٣) عثر بعض الانجليز فى عام ١٩٠٥م على قبر لعربى فى «رودسيا» وعليه مادل على اسم صاحبه «سلام المتوفى فى عام ٩٥ هجرية (٧٠٤م) كما وجدت آثار عربية فى مختلف البقاع الأفريقى (الرواد لفؤاد صروف ص ٨٧) .

(١٤) أنشاه المسلمون سبعة ولايات اسلامية فى أثيوبيا وهى أوفات ــ دوادو ــ اربينى ــ أو عربينى أصلها أربين ــ حديه ــ سرخه ــ أوسركى ــ بلى ــ دارا (أنظر الخريطة نمرة ٣) .

وفى الوقت الذى أخذت فيه الجماعات الإسلامية فى الانتشار على الساحل الأفريقى للبحر الأحمر الذى عرفه العرب منذ أقدم العصور كان المسلمون قد دخلوا شمال الوادى (مصر) وأخذوا فى العمل على امتداد نفوذهم نحو البلاد ، جنوبى الشلال الأول ، ومن الملاحظ أن تلك البلاد ، لم تكن فى اعتبار المسلمين أرض جهاد بوصفها من بلاد الحبشة ، التى وجدت فيها أولى الهجرات الإسلامية ، خير رعاية من النجاشى (١٥) وبهذا السبب تأثرمسالك المسلمين فى تلك المنطقة الشرقية من السودان ، وكان لذلك المسلك طابعه السلمى المترامى الاتجاهات ، والذى انتهى إلى قيام الولايات الإسلامية فى أثيوبيا . وتمكن المسلمون من السيطرة على مرافق التجارة بين داخلية البلاد الأثيوبية وحوض وادى النيل الأوسط وما وراء ذلك من البلدان الأفريقية من جهة ، وبين الشرق الأقصى من جهة أخرى .

ويجمل بنا أن نتعرض بعض الشيء إلى مجريات الحوادث فى البلاد الأثيوبية ، خلال الفترة التى سبقت قيام البيت السنارى فى حوض النيل الأزرق ، وذلك لنتمكن من تتبع التطورات وأثرها فى حوض النيل الأوسط . ومما لاشك فيه أن «أثيوبيا» عنصر له خطورة ، فى دراسة المنطقة الشمالية الشرقية لأفريقيا بسبب موقعها على القرن الأفريقى ، وساحل البحر الأحمر ، ومنها يخرج النيل الأزرق وروافد النيل الأخرى ومن شاطئها المطل على البحر الأحمر والزنج ، أخذ النشاط العربى الإسلامى فى الأزدياد ، حتى تم للمسلمين عزل أثيوبيا عزلا تامًا عن العالم الخارجى بخاصة بعد استيلائهم على ميناء زولا (١٦) ثغر أكسوم ، ومخرج أثيوبيا الوحيد إلى البحر الأحمر فانقطعت علاقات أثيوبيا مع البلدان الأجنبية حتى قال جبن «لقد رقدت أثيوبيا فى سبات عميق زهاء الألف عام ، نسوا فيها العالم الذى نساهم (١٧) ، وقد

(١٥) أحمد النجاشى كما جاء فى الرواية العربية بينمانجد أن الروايات الأثيوبية وغيرها قد التزمت الصمت عن هذه الواقعة ، وقبر هذا النجاشى موجود بين قريتى حوزين واطبى . وقد زاره الإمام أحمد القرين فى النصف الأول من القرن السادس عشر الميلاد . وقد قام مؤخرًا بتجديد بناء الضريح الحاج (ازماج محمد عبده من أ هالى عدوه كما ورد فى كتاب أثوبيا ـ عمر محمد على ص ١٤٢ طبع القاهرة ١٩٥٤ .

(١٦) تقع «زولا» أو «أدولس» فى منتصف الجانب الغربى من خليج «أرفلى» وهو القسم الجنوبى من خليج «أنسلى» الذى تقع عليه مصوع وفيه مجموعة جزائر دهلك .

(١٧) جبون ، الفصل السابع عشر .

سببت هذه العزلة تدهور حالة البلاد الداخلية ، وقامت ولايات متطاحنة فيما بينها ، لتولى الزعامة كما ضعفت العلاقات الدينية مع الكنيسة المصرية ، وقد مكنت هذه الحالة المتدهورة من قيام جماعة من الفلاشة [١٨] بثورة فى أواخر القرن العاشر الميلادى ، انتقل معها زمام الحكم إلى أميرة يهودية ، اسمها استر أو اسات ، وقد حاربت هذه الملكة الديانة المسيحية ، وخربت الكنائس ، وقد استنجد النجاشى بملك النوبة جرجس ، دون جدوى ، ونقل مؤرخ عربى ماجاء فى كتاب النجاشى لملك النوبة ، حيث يقول «هو امراه ملكه على بنى الهموية تارت عليه ، وعلى ثورته ، وسبت منها خلق كثير ، وأحرقت مدن كثيرة ، وأخربت البيع ، وطردته من مكان إلى مكان بنى الهوية دين الهوية الهموية ، ملكه على دين اليهودية ، أزال أمر الأمراء ، التى قامت عليهم (هوان) . وكان اسم الملك فى ذلك الزمان لا لماسه ابن شنو [١٩] وهو تفسيرها أسد واسم امرته مستقل كيرى الذى تفسيره عظيم هو الصليب [٢٠] . .

وحكمت أسرة هذه الملكة حتى عام ١١٣٧م حيث انتقل الحكم إلى البيت الذى عرف بالزغوى . وقد ارتد الكثيرون عن مسيحتهم إلى اليهودية والوثنية وذلك لأن المسيحية لم تكن قد رسخت كعقيدة يؤمنون بها . . . وبينما كان البيت الأول (أسرة الملكة أستر) على دين الموسوية يضطهد المسيحيين ويتعقبهم فان البيت الزغوى قد أحسن معاملة المسيحيين . وقد استطاع المسلمون فى الفترة التى قضاها هذان البيتان فى الحكم ، من التوسع فى بسط نفوذهم الاقتصادى ، وامتداد رسالتهم إلى جزيرة «مرو» [٢١] ويعتقد أن البيت الزغوى قد دان المسيحية ، وهذا أمر مشكوك فيه ، لأن بطارقة الكنيسة الأورثوذكسية لم يتعاونوا مع هذا البيت ، عند اعتلائه الحكم وأظهروا معارضتهم [٢٢] الأمر الذى جعل بعض ملوك هذه الأسرة يحاولون

---

(١٨) الفلاشة يطلق على اليهود ، القاطنين فى أثيوبيا وهم من اليمن .

(١٩) شنو صحتها شنبو معناها أسد .

(٢٠) جويدى فى المجلة الأسيوية الإيطالية ص ١٨١/١٦٤ . بدج ٣ ، جزء أول ص ٢١٤ .
ومابعدها ـ روسينى ، جزء أول ص ٢٨٦/٢٨٥ ـ بدج ٢ ، جزء أول ص ٢٣٤/٢٣٣ .

(٢١) بدج ٣ ، ماجزء أول ، ص ٢٨٤ .

(٢٢) يحتمل أن تكون معارضة الكنيسة الأرثوذكسية لخلافات مذهبية كما يحتمل أن يكون هذا البيت قد حاول أن يحيى تقاليده الموروثة فى ظل الكنيسة المسيحية .

بدعاياتهم صرف الأهالى عن الكنيسة التى يرأسها المطران القبطى ، والاتجاه إلى الكنائس التى بنوها تحت رعايتهم . وذلك لتحطيم مقاومة المطران ، غير أن هذا الاتجاه فى الواقع قد ساعد على توسيع شقة الخلاف ، التى أضعفت من نفوذ البيت الزغوى ، لأن السكان وهم من البدائيين المغرقين فى البداوة ، يصعب جداً إن لم يكن من المستحيل صرفهم عن معتقدهم على هذه الصورة . وتبع ذلك أن سلطة الملوك لم يكن معترفًا بها إلا فى مناطق محدودة ، واشتد التوتر والتذمر ، لفصل الكنيسة عن الدولة مما مهد لانتقال الحكم إلى البيت السليمانى .

٤ ـ تطور العلاقات بين البيت السليمانى والمسلمين:

لقد كان من أثر استعادة هذا البيت للحكم ، فى أعقاب الأسرة الزغوية ، تبدل فى العلاقات ، الأمر الذى أخذ مظاهر وألوان متباينة ، من الاضطهاد والعدوان ، والنجاشى كان فى خشية من قيام المسلمين بتدبير لإقصاء أسرته عن الحكم وإرجاع البيت الزغوى ، الذى حكم البلاد زهاء أربعة قرون . وقد وجد النجاشى أن المسلمين يسيطرون سيطرة كاملة على التجارة ، بين موانئ البحر الأحمر وداخلية البلاد الأفريقية بعامة ، وحوض النيل وأثيوبيا بخاصة ، وكانت الموانىء واقعة فى أيدى المسلمين . الأمر الذى جعل موارد أثيوبيا و علاقاتها مع خارج البلاد ، فى قبضة المسلمين وكانت من نتائج ذلك ، اختفاء المدن الأثيوبية التى كانت مزدهرة بالتجارة فى الماضى ، ومنها مدينة «أكسوم» التى فقدت أهميتها بامتداد النشاط العربى على ساحل البحر الأحمر ، وأصيبت البلاد بأزمات اقتصادية ، بسبب ماحدث من جدب وقحط وتولدت عنه المجاعات . وخلقت هذه المشاكل المتاعب للبيت السليمانى الذى رأى العمل على الحد من نشاط المسلمين ومن سيطرتهم على مرافق التجارة ، وطرق القوافل ، وأول خطوة قام بها النجاشى كانت محاولته عقد اتفاقات مع الولايات الإسلامية ، فى الوطن الأثيوبى ، يعترف فيها المسلمون بالسيادة المطلقة للنجاشى ، مقابل ضم بعض المناطق إلى هذه الولايات . وقد كان من نتائج هذا العرض أن أضعف من حدة الحركة التى أراد القيام بها رجل من رجال الدين يدعى «محمد أبو عبدالله» الذى تراءى له أنه مبعوث العناية الإلهية المكلف بفتح بلاد أثيوبيا .

وقد جمع حوله الكثير من الرجال من قبائل الجاله والصومال ، وأعدهم للجهاد ، وكانت هذه الجماعات من الجاله والصومال ، من المجموعات البدائية المغرقة فى البداوة ، التى جعلت إفادتهم من تعاليم الدين وتنظيماته للمجتمع غير ذات أثر . فقد كان الأمر بالعكس ، فإنهم استطاعوا أن يكيفوا التعاليم الدينية ، بما يتمشى مع عاداتهم وتقاليدهم القبلية ، وكان من الهين إثارة أمثال هؤلاء وحشدهم ، وفى عراك يجدون فيه إشباعًا لروحهم القبلية ، وكسبًا ماديًا مما سينالهم من الغنائم ، واستطاعت هذه المجموعات أن تخلق من الزعامة الدينية قوى منافسة للسلاطين الذين كان هدفهم من الحكم ، هو المصلحة التجارية فقط ، ولم تكن هنالك روابط تجمع بين سلاطين الولايات الإسلامية التى قامت فى الوطن الأثيوبى ، وتسبب عن ذلك تغلب النجاشى على الولايات الواحدة تلو الأخرى وإخضاعها لسلطانه .

استمرت الحروب الداخلية بين المسلمين والأثيوبين ، حتى النصف الثانى من القرن الخامس عشر ، وقد بدأها أول ملك من البيت السليمانى ، «يكوّن أملاك» (١٢٧٠ ـ ١٢٨٥م) وخلفه يقبه صهيون (١٢٨٥ ـ ١٢٩٤) ، الذى شن حربًا عدوانية سافرة ضد المسلمين . وقد حاول النجاشى إخفاء أهدافه السياسية وذلك باستغلال الأزمات ، التى كانت تحدث بينه ومصربسبب المطران المصرى فى كرسى أثيوبيا [٢٣] أو بسبب ماكان يبلغه من اضطهاد سلطان مصر الأقباط . وقد يتبادر إلى الذهن أن أسبابًا دينية ، هى التى دفعت إلى هذا العدوان من جانب النجاشى على الولايات الإسلامية ، وهذا غير صحيح على الأقل فى مراحل الصراع الأولى ، التى استمرت أكثر من قرنين . والتى دفع إليها التنافس الاقتصادى ، الذى كان فى قبضة العرب ، الأمر الذى جعل أثيوبيا تعانى الضيق .

---

(٢٣) حاول النجاشى «يكون أملاك» أول ملك فى البيت السليمانى بعد الأسرة الزغوية (عام ١٢٧٥م) اقناع السلطان ركن الدين بيبرس عن طريق وساطة سلطان اليمن لتعيين مطران للكنيسة الأثيوبية فى الكرسى الذى بقى شاغرًا منذ سنة ١٢٥٠ ، (مفضل ص ٢١٩/٢٢٣) وقد عمل هذا النجاشى على الأخذ بسياسة التذرع بخلق المبررات للعدوان على المسلمين ومن ذلك قيامه بتعزيز حدوده مع أوفات (أنظر مقال روسينى عن البيت الزغوى من مجلة R.R.A.L عدده مجلد ٤ ص ٤١٤) وكان أن رفض السلطان بيبرس أن يستمع لطلب هذا النجاشى بشأن المطران .

أنتهز النجاشي عامده صهيون (١٣١٤ ــ ١٣٤٤) [٢٤] اضطهاد السلطان الناصر محمد قلاوون للقبط ، بأن أرسل بعثة إلى مصر لوقف الاضطهاد ، مهدداً باتخاذ إجراءات مماثلة مع مسلمى أثيوبيا ، وتحويل مجرى مياه النيل ، لأهلاك سكان وادى النيل ، ودفعت هذه التطورات حق الدين سلطان أوفات إلى الاستعداد للإغارة على النجاشى . وقد انتهت هذه الحركة بانتصار الأثيوبين وجعل ولايتى أوفات وفاتجار سلطنة واحدة تدين بالسيادة الأثيوبية وتولى أمرها السلطان خير الدين أخ «حق الدين» الذى وقع فى الأسر ــ وطلب سلطان أوفات من سلطان مصر الناصر محمد ليتدخل لإصلاح ذات البين ولتسوية مشاكلهم مع النجاشى .

وبينما كانت الحرب تستعر تارة وتخمد تارة أخرى بين المسلمين والمسيحيين فى أثيوبيا ، كان خان المغول أرغون بن أيغا ، الذى كان ينزع إلى النصرانية ، قد أرسل الوفود إلى البابا ، مستنهضاً الهمم للاشتراك فى حملة صليبية ، لاخراج المسلمين واحتلال القطر المصرى ، وكان ذلك بعد فشل الحملة الصليبية السادسة على مصر وإخراج الصليبيين من الشام ، غير أن البابا لم يستجب لرغبة الخان ، لانهماكه فى مشاكله الأوروبية ، وعند ذلك وجه أرغون رسله إلى الملك فيليب الجميل ملك فرنسا للقيام بالدعوة لتنفيذ هذه الخطة ، والتى كان ضمن مشروعاتها مهاجمة مصر عن طريق بحر القلزم ، وذلك بارسال أسطوله من الخليج الفارسى ، وأن تدبر حملة ثانية لغزو مصر أيضًا عن طريق البر ، وكان لزامًا أن تتحد أثيوبيا مع الفرنجة ، لتكون أرضها قاعدة لتلك التجهيزات ، وقد حدث فعلا أن أرسل النجاشى «ودام أرعد» (١٢٩٩ ــ ١٣١٤م) رسله إلى البابا كلمنت الخامس . وحاول المبشر جوردان كانتالا مبشر بمباى ، إحياء الفكرة فى عام ١٣٢٤م إلا أن الشقاق بين ملوك أوروبا والباباوات جعل التفكير فى هذا الموضوع أمرًا مستحيلاً . غير أن الفكرة لم تمت ، وبقيت معلقة تتأثر بمجريات الظروف [٢٥] ، فى الوطن الأثيوبى كنتيجة للصراع بين المسلمين والنجاشى ، وقد وصل ذلك العراك نقطة التحول عندما

---

(٢٤) أرسل مسلمو «أوفات» بعثة إلى سلطان مصر الناصر محمد وذلك فى الفترة بين سنة ١٢٣٢ وسنة ١٢٣٨ وكان على رأس هذه البعثة عبدالله الزيلعى (أنظر العمرى ص ٢ ــ ٢)

(٢٥) ذكر ابن تغرى لبردى فى كتابه النجوم الزاهرة «عن الحملة المصرية» على جزيرة قبرص (فى ١٤٢٥/١٤٢٦م) وفى سياق حديثه أشار إلى «الحاج نور الدين على» الذى كان رسول النجاشى إلى الفرنجة .

انهزمت جيوش النجاشى ، التى أرسلها لغزو عدال فى ١٤٧٤/١٤٧٣م . وحاول السلطان محمد ابن أظهر الدين ، الذى حكم ولاية عدال فى الفترة ١٥١٨/١٤٨٨م ، أن يجنح إلى السلم مع الولايات المسيحية غير أن جهوده قد ذهبت أدراج الرياح بسبب الغزوات التى قام بها أمير هرر(٢٦) وكانت العادة أن لكل أمير السلطة التى تخوله شن الحرب والصلح وأن الجنود فى الإمارات التى تضمها الولاية تابعون للأمير وليس للسلطان من الأمر شيئًا غير الحصول على حصته من الضرائب (٢٧) ، وهذا هو نفس النظام اتبعته السلطنة السنارية .

وحاولت الملكة هيلانة ، التى تولت وصاية ابنها الملك «لبنا دنقل» (١٥٠٨ ـ ١٥٤٠) أن توطد العلاقات مع «عدال» لفتح طرق التجارة ، وأرسلت لذلك البعوث إلى البلدان التى يهمها الأمر ، ومنها مصر غير أن هذه المساعى من جانب الملكة هيلانة (٢٨) قد فشلت ، ولهذا اتجهت نحو الدول المسيحية بارسال مبعوثها متى الأرمنى إلى ملك البرتغال (٢٩) للتعاون على طرد المسلمين والأتراك الذين بدأ خطرهم فى الزيادة وبخاصة بعد فتح القسطنطينية ، والتوسع بضم غربى آسيا ومصر والسيطرة على شرق البحر الأبيض المتوسط وشمال البحر الأحمر ، وطلبت أثيوبيا تقسيم مناطق النفوذ فى البحر الأحمر للعمل المشترك وضد المسلمين والأتراك كما يأتى :

ملك فرنسا = يحتفظ بقوة عسكرية فى سواكن .

ملك أسبانيا = يحتل زيلع .

ملك البرتغال= يتخذ من مصوع قاعدة لقواته .

وأن تعمل هذه الجيوش ومعها قوات أثيوبيا . على غزو جزيرة العرب مهد الاسلام ، وطرد الأتراك والمسلمين من مصر وغيرها .

---

(٢٦) الفارز فى كتابه ص ٣٠٥ ـ ٣١٠ .

(٢٧) فتوح الحبشة ص ١٢ .

(٢٨) أمبراطورة أثيوبيا وإحدى الزوجات الأربع للنجاشى ـ مريم وهى ابنة الجراد أبون ـ سلطان مقاطعة دوارو الإسلامية وقد تنصرت وتزوجها النجاشى المذكور ، وقد فرض هذه العادة النجاشى زرأ يعقوب (الذى حكم من ١٤٣٤ إلى ١٤٦٨) عندما تغلب على ولاية حدية الاسلامية .

(٢٩) المقريزى «الإلمام بأخبار من بارض الحبشة من ملوك الإسلام» (مطبعة التأليف القاهرة ١٨٩٥م) حيث يقول فى ص ٥ (. . . . . ثم كتب إلى ملوك الأفرنج بحثهم على ملاقاته لإزالة المسلمين . . .) .

وأخذت العلاقات بين المسلمين والنجاشى فى الفترة التالية فى التطور السريع نحو مرحلة فاصلة ، وبخاصة بعد دخول عناصر أجنبية لنصرة أثيوبيا فى صراعها مع المسلمين ، الأمر الذى صبغ الحرب بالصبغة الدينية ، وماكان لها أن تتخذ هذه الصبغة ، لولا تدخل الدول المسيحية الأوروبية ، وعجز سلاطين الولايات الإسلامية عن تسوية مشاكلهم مع النجاشى ، ويرجع ذلك العجز إلى فقدانهم السيطرة الكاملة على ولايتهم لضعف جهاز الحكم الذى استأثر بجانب كبير منه رجال الدين وصارت مقاليد الأمور الفعلية تنتقل من هذا الجانب إلى ذلك وهكذا دواليك ، حتى يطغى الأقوى ويجرف الجانب الثانى ، وكان طبيعيًا أن يكون الأقوى هو جانب رجل الدين لما له من سلطان روحى ، فى بيئة حديثة عهد بالإسلام ، ومغرقة فى البداوة كما سبق أن أوضحنا ، وهذه هى الحالة وما وصلت إليه فى المناطق الإسلامية ، وهذا أيضًا هو مادفع المملكة هيلانة المسلمة أصلا ، أن تفقد الأمل فى قيام حسن جوار ومودة بين المسلمين والمسيحيين فى أثيوبيا ولذلك لجأت إلى طلب المعاونة مع الفرنج .

وأخذت الأمور فى التطور السريع فى القرن السادس عشر ، وكان لتدخل البرتغال نصيبه ، فى تبدل الموقف ورجحان كفة المسيحية فى أثيوبيا واستشهاد الإمام أحمد القرين [٣٠] ، وانتقل الصراع من الوطن الأثيوبى ، إلى حوض البحر الأحمر بامتداد السيطرة العثمانية ، وبخاصة بعد نزول قطع بحرية عثمانية فى مياه ذلك البحر فى عام ١٥٣٨م . كما أثارت مطامع البرتغال فى الوطن الأثيوبى ، مشاعر أهله [٣١] فطردوهم من البلاد ، بعد أن تعقبوهم بالتعذيب والتقتيل ، وطلب النجاشى من باشوات سواكن ومصوع المساعدة ، فى منع هؤلاء الفرنجة من دخول الأراضى الأثيوبية .

٥ ـ تطور الصرا وأثره فى السودان

أوضحنا مراحل العلاقات بين المسلمين والمسيحيين فى الوطن الأثيوبى فى تطور تلك العلاقات ، فى الفترة التى سبقت المرحلة الفاصلة ، التى انتهت بهزيمة المسلمين بعد مقتل

(٣٠) الإمام أحمد بن إبراهيم الغازى وكنيته (القرين) أى الأشول بدأحياته فى عراك مع السلطان أبوبكر واستولى على الملك وقاد حملة الجهاد فى أثيوبيا حتى استشهد فى عام ١٥٤٣م أنظر تفصيلات حروبه ، فى كتاب عرب فقيه «فتوح الحبشة» نشره رينيه باسيه فى جزءين .

(٣١) لودلفس ـ ص ٣٥٠/٣٦٦

الإمام أحمد القرين ، فى السنوات العشر الأخيرة فى النصف الأول من القرن السادس عشر . ونجده لزاماً علينا أن نذكر فى شيء من الأسهاب بعض التفصيلات ليتمكن القارئ من تكوين فكرة عن التيارات ، التى مهدت لما حدث فى السودان ، من تطور فى نظام الحكم .

فقد كان للصراع الذى وقع بين الفريقين المتحاربين فى أثيوبيا ، أثره فى المجموعات العربية ، التى نزلت فى حوض وادى النيل الأوسط (السودان) فقد اتخذت كل مجموعة منهما رقعة من الأرض ، للتوطن بها وذلك بعد أن قام هؤلاء بكشف البلاد (٣٢) ، للتعرف على مدى صلاحيتها لقبول النازحين ، الذين حافظ بعضهم على حياته البدوية ، ونزل البعض الآخر على ضفاف النيل ، وهناك اختلط بالسكان المحليين ، وكونت كل قبيلة دارها الخاصة بها ، وخضعت للبيئة الأقليمية ، التى دفعت مظاهرها الطبيعية إلى قيام وحدات أقليمية وحدت بينها مصالح اقتصادية مشتركة ، ولو أنه لم يكن لتلك المصالح المشتركة من أثر فى توجيه حياة المجتمع ، فإنها لم تحد من الصراع الخفى بين النازحين والسكان الأصليين ، وهكذا بقيت الحياة غير مستقرة ، حتى السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر وأوائل القرن الذى تلاه . ففى تلك الفترة أخذ الصراع فى أثيوبيا ، بنصيبه فى إدخال نظم جديد على حياة المجتمع فى مختلف المشيخات فى السودان . وقد كان لمجريات الأحوال فى شمال أثيوبيا فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى ، أثرها المباشر فى قيام سلطان فى سنار ، والجمع بين المشيخات فى وحدة ، تزعمها البيت السنارى . فى سيادة رمزية حددتها المصلحة التجارية ــ ولم يربط بين تلك المشيخات وبين السكان ولاء ، على الطراز الذى كان فى القطاع الغربى .

أما الإمام أحمد بن إبراهيم الغازى ، (المكنى بالفريق أى الأشول) ، فقد بدأ حياته الأولى ، فى المنطقة الواقعة بين قلديسى وهرر ، وتزوج من ابنه الإمام محفوظ أمير زيلع ، وكانت العداوة قائمة بين القرين والسلطان أبو بكر ، بسبب قبل الأخير للجراد أبون فى زيلع . لذلك نجد أن القرين ، قد أمضى سنواته الأولى فى محاربة السلطان أبوبكر ، حتى تغلب عليه وقتله ، وأقام عمر دين سلطاناً بدلا من أخيه أبوبكر ، الذى قتل ، وبعد هذا النصر ، وجد أن فى قدرته أن

(٣٢) مخطوطة الشيخ أبو دلق ــ الملحق الأول .

يمتنع عن دفع الجزية للنجاشى ، الذى أرسل حملة بقيادة حاكم بالى فى ١٥٢٧م لاخضاع القرين الذى انتصر على هذه الحملة ، وبعد أن كبدها هزيمة منكرة ، وأسرع القرين إلى إعلان «الجهاد» وبخاصة أن الأحوال فى حوض البحر الأحمر ، قد أخذت فى التطور بسبب المنافسة بين الأتراك والبرتغاليين على السيادة على طرق التجارة البحرية بين البحر الأحمروالخليج الفارسى - والتف الأتباع من الصومال وغيرهم ، حول القرين الذى اكتسح الجيوش الأثيوبية ، الواحدة تلو الأخرى وصار النجاشى «لبنا دنقل» طريداً يتنقل من جبل إلى جبل ، وأخذت الرقعة التى يحكمها المسلمون ، فى الازدياد شمالاً حتى عام ١٥٤١م عندما وصلت المساعدة البرتغالية التى طلبتها الملكة هيلانة وكان وصول هذه الإمدادات مفاجأة للمسلمين ، لم يستعدوا لها ، كما أن أخبار هذه الحملة ، قد أوقدت حماس الأثيوبيين ، الذين اشتدت عزيمتهم . وكانت الموقعة الأولى بين الإمام وأعدائه ، فى المنطقة الواقعة بين أميا آلاجى وبحيرة الشانجى ، وذلك فى عام ١٥٤٢م ، وقد جرح فى هذه الموقعة القرين ونجا من الأسر . وأرسل القرين إلى الباشا التركى ، فى زبيد طالبا منه نجدة من الجنود والأسلحة ، وقد أرسل إليه الباشا تسعمائة من حملة البنادق وعشر مدافع ، وقد مكنت هذه النجدة من إحراز انتصار على البرتغاليين ، ومقتل زعيمهم خريستوفر دى جاما ، وتشريد رجاله ، الأمر الذى حمل القرين على الاعتقاد ، بأن الحال قد استتب له ، فأعاد النجدة التركية بعد أن وصلت قواته حتى شمال بحيرة تانا ، حيث أقام معسكر قيادته ، واشتبك بعد ذلك مع النجاشى قلاوديوس وحلفائه من البرتغال . وانتصر عليهم فى نهاية عام ١٥٤٢م ، وتفرقت قوات القرين فى أوائل عام ١٥٤٣م ، ويبدو أن من أسباب تفرق الجنود ، وغالبيتهم من أهل صحارى الصومال والدناقل ، ازدياد المقاومة السلبية من الأهالى ، فى المنطقة شمالى بحيرة تانا .

وقد جاء فى الجزء الأول من كتاب تحفة الزمان (٣٣) الذى دوّن فيه مؤلفه التفصيلات عن حروب المسلمين فى أثيوبيا قبل استشهاد الإمام ، مايدل على اتساع رقعة الصراع ، «إن الإمام

---

(٣٣) تحفة الزمان لمؤلفه شهاب الدين ابن الشيخ أحمد بن عبدالقادر بن سالم بن عثمان من جيزان . المعروف بعرب فقيه وقد نشر الجزء الأول من هذا الكتاب وعلق عليه فى ترجمة فرنسية رينيه باسيه ، ومما يؤسف له أن الجزء الثانى من هذا الكتاب مازال مفقوداً ويظن أن نسخة منه موجودة فى مكتبة إمام اليمن .
انظر أيضًا كتاب الإسلام فى الحبشة لترمنجهام ومقال شيرولى ص ١٠١/٣٩

أحمد القرين قد خرج من بقى مدر (٣٤) إلى مزجه (٣٥) فى رمضان سنة واحدة وأربعين وتسعمائة هجرية (١٥٣٥ ميلادية) ومنها إلى أرض سمين (٣٦) ومن ثم إلى وقره (٣٧) ، ثم إلى بلاد الدنيبا (٣٨) التى يقول عنها أنها بندر الذهب ، عليها بلدان كثيرة بلاد النوبة ، التى يخرج منها الذهب ، فرتب فيها ، واتخذها مسكنًا ، وأصلحها جميعًا . . وأعطى ثغر تاكه ، (٣٩) وهو بلاد الهمج (٤٠) .

---

(٣٤) بقى مدر Begameder – Midra انظر الخريطة ٤ .

(٣٥) مزجه Mazaga وتنطق الجيم كالجيم التى ينطق بها أهل القاهرة .

(٣٦) سمين Samen بلاد عسيرة ذات حصون مانعة وجبال شامخة لم يكن للخيل فيها من سبيل ولم يكن فى بلاد أثيوبيا أعسر منها (فتوح الحبشة ص ٣٤١) راجع الخريطة غرة ٤ .

(٣٧) وقره Wagora انظر الخريطة غرة ٤ .

(٣٨) بلاد الدنيبا ، المنطقة المجاورة لبحيرة تانا التى تعرف أيضا باسم تانا أودمبعه .

(٣٩) ثغر تاكه هى كسلا ، المقصود من ثقر أنها البلد التى تقع مباشرة قبل ولاية أخرى أى عند مدخلها .

(٤٠) ورد ذكر «الهمج» فى أكثر من موضع فى كتاب «فتوح الحبشة» عن اشتراكهم فى الحروب فى جانب المشتركين ، ونجد هنا تحديدًا واضحًا عن دار «الهمج» التى أعطى ثغرها للوزير عباس ، ونجد أن جماعة عرفت باسم «الهمج» قد لعبت دورها الهام فى تاريخ السلطنة السنارية عندما تمكن الشيخ محمد أبو اللكيلك ، وهو من الهمج من انتزاع الحكم من سلاطين ستار» فى حوالى عام ١٧٦٢ ميلادية ، وانفرد هذا الشيخ وخلفاؤه من أقربائه ، من بعده بمنصب الوزارة ، وبتصريف شئون السلطنة ، حتى السنوات القليلة التى سبقت امتداد الحكم المصرى وكانت كلمتهم هى العليا يعزلون السلاطين ويولونهم دون تعقب ، وهنالك أيضا فلول تعرف «بالهمج» فى «دار فنج» (المنطقة جنوبى سنار على النيل الأزرق) (أنظر سلجمان ص ٤١٥و ٤١٦ و ٤٢٠) وهذه الفلول أخذت طريقها نحو الاختفاء كوحدة اجتماعية بسبب غلبة المؤثرات المحلية وتوجد فى المنطقة الشمالية وجنوبى مدينة «بربر» من «الهامق» فما هى إذن العلاقات التى تربط أولا «همج» ثغر التاكه الذين شملت دارهم مواطن الحمرات بالقرب من كسلا (التاكه القديمة) وثانيا همج الوزارة السنارية والفلول التى نزحت جنوبًا نحو دار فتح حيث اختطلت بالأهلين المحليين وثالثا «هامق» منطقة بربر . لقد كانت هذه المشكلة موضع دراسة خاصة لسنوات عديدة خرجت منها بأن «همج» الوزارة السنارية هم «همج» كتاب فتوح الحبشة وهم بطن من قبيلة الحمران (بفتح الحاء والميم) وينطق البعض هذه الكلمة بضم الحاء وسكون الميم وقد تميز أفرادها بالشجاعة وركوب المخاطر وسعة الحيلة وهذه الصفات هى التى مكنت الشيخ محمد أبو اللكيلك من الوزارة بعد انتصاره فى كردفان فى السنوات الأولى من منتصف القرن الثامن عشر الميلادى وهى التى مكنت «رابح فضل الله» وهو من الهمق من إنشاء مملكته فى السودان الغربى بعد تركه سليمان الزبير الذى لم يستمع لنصحه وقد حارب رابح الفرنسيين حتى خر صريعًا مستشهدًا فى حرب الاستعمار الأوروبية . نزحت هذه الجماعة من الهامق فى أعقاب انتقال السلطان السنارى إلى حوض النيل الأزرق ويحتمل أن تكون الدوافع التى عملت على انتقال البيت السنارى هى التى أثرت بدورها فى هجرة «الهمج» حيث أن موطنها الأول واحد ولا يعلم على وجه التحقيق الطريق الذى سلكته هذه الجماعة فى أفواجها المتلاحقة ، سكن بعضهم فى سنار واشترك فى معترك الحياة ومكنتهم صفاتهم الخاصة من الوصول إلى الوزارة ، ذهب البعض نحو «دار فنج» لسبب أو آخر واختلطوا بالسكان المحليين وكانوا بلاشك قلة تمثل طبقة حاكمه=

للوزير عباس (٤١) ، واستراحت المسلمين (٤٢) ومن هذا يتضح لنا أن مسرح القتال قد شمل الجزء الشمالى لبلاد أثيوبيا ، جنوبى الرقعة التى قامت فيها ولايات إسلامية ، سيطرت على طرق القوافل بين الساحل وداخلية البلاد الأثيوبية وسودان وادى النيل وكان لزامًا أن يفكرجماعة من أصحاب المصالح الاقتصادية ، سواء كانوا أسرة حاكمة ، أو من كبار المشتغلين بالقوافل ، فى الهجرة من مواطن القتال إلى ملجأ يجدون فيه أمنًا ، ورعاية لمصالحهم ، لذلك لم يكن بد من الانتقال إلى حوض وادى النيل ، بعد أن اشتد القتال بين الأثيوبيين . ولم يتعرض الإمام للولايات الاسلامية ، التى قامت فى أقصى الشمال والشمال الغربى من أثيوبيا ، بل تركها وشأنها وأهتم بتوسيع فتوحاته ، التى وصلت حتى منطقة بحيرة تانا . وكانت فى أقصى الشمال مملكة البلى أو البلو ، وقد هبطت عليها مجموعة من الحباب ، وأجتاحت المنطقة بين خور أنسبا والبحر الأحمر ، واشتبكوا مع البلى ، وحدوا من سيطرتهم ، وكان ذلك فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى ، وحدث فى نهاية القرن العشرين عامًا الأولى من ذلك القرن ، أن امتد نفوذ الأتراك إلى سواكن ، بعد احتلالهم لمصر فى عام ١٥١٧ . ودخول الكشاف من قبل

= فقدت طابعها الخاص بمرور الزمن وكان للأم المحلية أثرها القوى فى هذا التحول بعد زوال الحكم ، أما تلك البيوت التى نجدها اليوم فى منطقة بربر (وخاصة فى بلدة العبيدية) فقد انصرفوا عن حياتهم الأولى وانخرطوا فى حياة المجتمع الجديد إلى حد كبير واحتفظوا بقدر من صفاتهم المميزة التى ورثوها عن أجدادهم الأوائل بسبب الأم التى نجدها فى هذه المنطقة من القبيلة نفسها .

ومسألة أخرى لاتقل أهمية عن موضوع العلاقات التى ربطت بين «الهمج» الذين نزلوا فى مختلف الأماكن وهذه هى كلمة «همج» التى عرفت بها مجموعات التاكه وسنار ودار فتح ومنطقة بربر وينطق الاسم فى المنطقة الأخيرة «هامق» وقد تبين أن الاسم كما ينطق به فى منطقة بربر هو الصحيح ونجد أن الاختلاف بين الكلمتين قد حصل فى الحرف الأخير حيث كتب الجيم بدل القاف الصعيدية وإذا رجعنا إلى الكلمات التى جاءت فى «عرب فتيه» وحرف الجيم جزء منها نجد أن المؤلف قد استعمل هذه الحروف فعلا لتصوير صوت القاف التى ينطق أهلها القاف الصعيدية فى صورة «جيم» أهل القاهرة وقد عمل هذا الرسم الخاطئ على خلق كثير من المحاولات لارجاعها إلى مصدر يتفق مع كلمة «همج» ومن ذلك أن الفونج قد استعبدوا «الهمج» وهكذا لعب الخطأ فى التصوير الصوتى دوره الهام .

وذكر «نيقارلس» فى كتابه الشايقيه ص ٧ أن مجموعة من البشارين تسكن فى الصحراء مشرقى أرقوا وتعرف باسم (Hamok) وبما قدمنا نجد أن هذه الصلة بين الهامق وبين البشارين ترجع إلى أنهم من شرق الوادى .

(٤١) حاول الوزير عباس بعد استشهاد الامام أحمد القرين أن يوحد بين الولايات الإسلامية دوارو وفاتجار وبلى لمحاربة النجاشى الذى انتصر عليه فى عام ١٥٤٥ ميلادية (أنظر كونزلمان ص ٢٣ ــ ٢٥ من المقدمة) .

(٤٢) فتوح الحبشة ص ٢٤٤

العثمانيين إلى منطقة النوبة السفلى والمحس . أما ما كان من أمر المنطقة الشمالية الغربية لأثيوبيا ، فتذكر الروايات المتواترة بين سكان شرق السودان أن قتالا قد حدث بين الفونج ، وبين قوة مشتركة من البلى والأرتيقة ، وذلك فى السنوات العشر الأولى من القرن السادس عشر الميلادى [٤٣] . وقد انتهت هذه الحروب بهزيمة البلى ، والأرتيقة ، ويشير التقرير الذى نشره روسينى ، عن حفرياته فى خور بركة ، أن حربًا قد حصلت فى تلك المنطقة ، بين الفونج والقبائل ، وأصيب الفونج فيها بهزيمة منكرة فروا بسببها إلى حوض النيل الأزرق ، ويبدو أن هذه الحرب قد وقعت بعد زيارة داود روبينى ، الذى زار المنطقة فى أوائل عام ١٥٢٢ميلادية ، فقد وصل هذا الرحالة ميناء سواكن فى ديسمبر سنة ١٥٢١ ميلادية ، وغادرها بعد شهرين من إقامته فيها ، وسافر مع قافلة تجارية كبيرة إلى أرض كوش ، وقد سلكت هذه القافلة الطريق الساحلى ، حتى منطقة مصوع ، ومنها نحو الغرب إلى منطقة «الملم» ، مخترقة حوض التكازى ويذكر روبينى أنه قابل السلطان عميرة ، فى عاصمته فى تلك المنطقة والتى تقع بالقرب من منبع نهر النيل (روافد النكازى) ويقول أن سيطرة عميرة قد شملت البلدان الواقعة على نيل مصر [٤٤] وهذا يعنى أن سلطان عميرة قد امتد على البلاد النوبية ، التى شملت حوض النيل الأوسط ، حتى حدود المحس شمالاً ، وهذه المنطقة لم يتدخل فى أمرها الإمام أحمد القرين وجاء فى كتاب «فتوح الحبشة» « . . . . ودخل أشرف إلى عند الإمام من عند الدنيبا ، أربعون فارسًا كلهم أشراف مع شيخهم شرف الدين بن على ، والشريف عبدالرحمن ، وتقبلهم الإمام وأعطاهم أرض أطراف بلدان إلى طرف بلاد النوبة ، واصطلحت جميع الدنيبا إلى بلاد النوبة[٤٥] وقد أعطى الإمام ، كما سبق أن أشرنا ، ثغر تاكه ـ ثغر الهمج (الهمق) إلى الوزير عباس ، ولا يعلم على وجه التحقيق ، موقع هذا الثغر ، الذى أعطاه الإمام للوزير عباس ، ويبدو أنه على الحدود الأثيوبية الشمالية الغربية ، على المدخل إلى منطقة التاكه (كسلا) كما لا تعلم العلاقة بين هؤلاء الأشراف ، الذين وفدوا على الإمام فى الدنيبا ، ومما لاشك فيه أن دار هؤلاء

---

(٤٣) بول ص ٧٦/٧٧ .

(٤٤) رحلة روبينى فى : ـ (١) أدلر (٢) جرايتز (٣) بيرفلت (٤) نيوباور (٥) هللسن ـ مدونات المجلد السادس عشر .

(٤٥) فتوح الحبشة ص ٢٤٦/ ٢٤٧ .

الأشراف كانت قائمة فى الرقعة الواقعة بعد حدود الدنيبا مباشرة من ناحية التاكه أو الأرتيريا التى لم تكن خاضعة للسلطان السنارى . كما أننا لانعلم على وجع التحديد العلاقة بين هؤلاء الأشراف والسلطان السنارى الذى كان فى كرسى الحكم فى سنار ، وهو السلطان عبدالقادر ابن السلطان عميرة (٤٦) .

٦ ـ الوطن الأول للأسرة السنارية:

ونجد لزامًا علينا ، أن نحاول التعرف على التطورات ، التى حدثت فى القسم الشمالى والشمال الغربى لاثيوبيا ، وماكان لها من أثر فى السودان ، ومدى ارتباط ذلك بالسلطنة ، التى قامت فى سنار ، فى القرن السادس عشر الميلادى . ونجد من الضرورى أن نرجع إلى ماقبل ذلك التاريخ ، فقد تعرضت هذه المناطق لموجات من الهجرات القبلية المتباينة ، وكان من نتيجة الاصطراع القبلى ، دخول تعديلات كثيرة ، على الأوضاع الأقليمية ، فمدن أختفت وأخرى نشأت . وقامت مدن على أنقاض غيرها ، بأسماء جديدة أو مصحفة عن القديم ، لذلك نجده من العسير أن نصل فى يسر إلى تحديد مواقع المدن ، التى ورد ذكرها فى المصادر التاريخية ، والروايات عن الفترات المتعاقبة . ومما يضاعف الصعوبات ، أن ماجاء فى المصادر وغيرها ، قد نقل عن أفواه رجال القوافل ، من غير أهل البلاد ولهؤلاء لهجاتهم الخاصة ، وأثرها ظاهر بصفة خاصة ، فى حرفى الجيم والقاف ، ومثال ذلك كلمة «الهمق» وقافها تنطق كالجيم القاهرية أو القاف الصعيدية ، فالكاتب نقلها فى أقرب حرف ، وهو الجيم فى لهجته المحلية (٤٧) .

وقد كان الجزء الشمالى ، من أثيوبيا موضع اهتمام المسلمين ، نسبة لموقعه الاستراتيجى ، على طرق القوافل بين البحر الأحمر ، وداخلية البلاد الأثيوبية ، وحوض النيل . فقد ذكر اليعقوبى ، فى كتابه عن هذه المنطقة التى عرفها باسم مملكة البجة (٤٨) وهم بين النيل والبحر ، ولهم عدة ممالك ، فى كل بلد ملك منفرد ، فأول مملكة البجة من حد أسوان ، وهى آخر عمل

---

(٤٦) اتفقت الروايات على أنه قد حكم عشرة أعوام بعد وفاة والده السلطان عميرة ، عدابروس الذى قال أنه حكم ثمان سنوات ، وهناكلك رواية تقول أن أخيه نايل قد تولى الحكم بعد وفاة والده وهذه ضعيفة .

(٤٧) انظر هامش ٤٠ .

(٤٨) تاريخ اليعقوبى (أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (٨٧٢م تقريبًا) ص ٢١٧ ــ ٢١٨ .

المسلمين ، من التيمن بين الشرق والغرب إلى حد بركات [٤٩] ، وهم الجنس الذى يقال لهم نقيس ، ومدينة المملكة يقال لها هجر [٥٠] ، ولهم قبائل وبطون ، كما تكون للعرب ، فمنهم الحدرات وحجاب [٥١] والعمائر [٥٢] ، وكرفر [٥٣] ومناسه [٥٤] ، ورسفه [٥٥] ، وغريريعه [٥٦] ، والزنافج . وفى بلادهم المعادن ، من التبر الجوهر ، والزمرد ، وهم مسالمون ، والمسلمون يعملون فى بلادهم فى المعادن .

والمملكة الثانية من البجه ، مملكة يقال لها «بقلين» ، كثيرة المدن واسعة ، يضارعون فى دينهم المجوس الثنوية : يسمون الله عز وجل الزبحير الأعلى ويسمون الشيطان «صحح حراقة»[٥٧] . . وهم الذين ينتقون لحاهم ، ويقلعون ثناياهم ، ويختتنون وبلادهم بلاد مطر .

ثم المملكة الثالثة ، يقول لها بازين ، وهم يتاخمون علوة من النوبة ، ويتاخمون بقلين من البجه ، ويحاربون هؤلاء ، وزرعهم الذى يأكلونه (دخن) وهو طعامهم واللبن .

والمملكة الرابعة يقال لها جارين ، ولهم ملك خطير ، وملكه مابين بلد يقال له باضع ، وهو على ساحل البحر الأعظم ، إلى حد بركات ، من مملكة بقلين إلى موضع يقال له الدجاج ، وهم قوم يقعلون ثناياهم .

المملكة الخامسة ـ قطعة من باضع إلى فيكون .

المملكة السادسة ـ مملكة النجاشى .

وجاء فى موضع آخر من كتاب اليعقوبى ، أن «هجر» عاصمة البجه الحدارب ، و تقع على مسيرة خمسة وعشرين يومًا من بلدة العلاقى ، (على النيل جنوبى الشلال الأول) ، ويضيف اليعقوبى أنها كانت محطة ، يتخلف إليها التجار من المسلمين .

---

(٤٩) خور بركة .

(٥٠) أنظر الخريطة نمرة ٣ .

(٥١) الحدارب والخباب .

(٥٢) الأم مرأر (٥٣) غير معروفة (٥٤) منسه . مازالت موجودة (٥٥) و (٥٦) غير معروفة . (٥٧) يقول روسينى فى كتابه تاريخ أثيوبيا ص ٢٧٢ ومابعدها ما يفيد بأن هذه الكلمة تجريه .

وقد ورد اسم مدينة «هجر» فى «عقد الأمان» ، الذى أعطاه عبدالله ابن الجهم إلى كنون بن عبد العزيز عظيم البجه فى عام ٢١٦هـ (٨٣١م) والذى احتفظ فيه بشروط ، منها «وذلك أن يكون سهل بلدك وجبلها ، من منتهى حد أسوان من أرض مصر إلى حد ما بين دهلك وباضع ، ملكًا للمأمون عبدالله بن هرون أمير المؤمنين أعزه الله (٥٨) . . . .» ومن هذه الشروط ــ فيما عدا مايختص بمعاملة المسلمين والذميين وحق الاقامة ــ ما جاء بخصوص المساجد ، حيث قال «وعلى أن لاتهدموا شيئًا من المساجد ، التى ابتناه المسلمين بصنجه (٥٩) ، وهجر ، وبسائر بلادكم طولاً وعرضًا ، فإن فعلتم شيئًا من ذلك ، فلا عهد لكم ولا ذمة» .

ومما جاء فى كتاب اليعقوبى ، عن مالك الخمس ، والذى كتبه بعد ٧٨٢ ميلادية ، أى بعد حوالى أكثر من أربعين عامًا من الأمان آنف الذكر . يبدو أن مملكة نفيس فى حدودها ، التى أوضحها اليعقوبى ، هى التى قامت فى القطاع الذى اشترط الأمير ملكيته . وتدخل فيه مناجم المعادن كما تشقه الطرق التجارية مع ساحل البحر الأرتيرى عند باضع ، وفى هذا تمهيد لسيطرة العرب على التجارة ، إلى داخلية حوض وادى النيل ، وبالتالى امتداد نفوذهم غربًا ، إلى حوض النيل الأعلى ، وجنوبًا نحو بلاد أثيوبيا .

ذكر المقريزى أن «هجر» يسكنها رئيس يرجع إليه جميع رؤسائهم (البجه) إلى حكمه ، وهى أقصى جزيرة البجه (٦٠) وقد حاول روسينى (٦١) أن يربط هذا الاسم مع أباى نجران ، ويقول متسنجر أنها على خط عرض ١٦,٣٧ ، وتعرف باسم «هجر» وبها كنيسة قديمة مخربة ، تعرف

---

(٥٨) المقريزى ــ ص ٢٧٣ ومابعدها .

(٥٩) يقول مونريت دى فيلارد ص ١٠٢ أن صنجه هذه سنكات» التى تقع حاليًا على خط السكة الحديد بين بورت ــ سودان والعطبرة وكانت فيما مضى محطة لها أهميتها على مفترق طرق القوافل من مختلف المناطق وتقع فى قلب القطاع الذى شرط الأمير ملكيته للخليفة بمقضى عقد الأمان ، ويحتمل أن يكون لاختلاف اللهجات أثره فى التصحيف الذى أصاب الصاد والجيم الذين تحولا إلى سين وكاف ، ويحتمل كثيرًا أن الاسم «صنجه» قد قصد به المكان الخرب «سنجه ديب» الموجود شمالى شرق كسلا . وهذه الكلمة تتكون من «سنجه» أو«صنجه» التى هى اسم لاحدى بطون قبيلة الدجون التى كانت تسكن فى حوض العطبرة و «ديب» محرفة عن الكلمة النوبية القديمة «دف» أى «المهجور» أو «الخرب» ولا نعلم بالضبط أى المكانين قد سبق الأخر ويتوقف تحقيق ذلك على القيام بدراسة اركيولوجية .

(٦٠) المقريزى ص ٢٦٨ .

(٦١) روسينى ــ مقال ص ٦٢٥ .

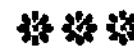
باسم آخر نجران (Agre Nejirn) ، وأنها واقعة على طريق الحجاج ، من أثيوبيا إلى بيت المقدس . وإذا رجعنا إلى ماذكره اليعقوبى ، إن هذه البلدة تقع على مسيرة خمسة وعشرين يومًا من العلاقى ، وأن التجار من المسلمين يتخلفون إليها ، وإلى قول المقريزى أن «بلدة هجر تقع فى أقصى جزيرة البجه» فلا يسعنا والحالة هذه ، إلا أن نرفض التفسيرين ، اللذين تقدم بهما روسينى ومتسنجر وغيرهما .

أولا : لأن أقصى جزيرة البجة لايكون إلا فى موضع نحر الغرب ، من جزيرة دهلك (مصوع) .

ثانيًا : أن مسيرة الخمسة والعشرين يومًا من العلاقى ، توصلنا إلى وادى النكازى ــ ستيت ، وفى هذا تأييد لما كتبه روبينى فى رحلته .

ثالثًا : لم تكن للتجار من المسلمين من مصلحة ، إلا أن يذهبوا إلى بلد له قيمته الاقتصادية ، وكل هذه مجتمعة تحدد اقليم (الملم) . وتشير إلى بلدة أم حجار (أوم هجر ، فى اللهجة المحلية) وقدعرفت هذه البلدة قبل وبعد زيارة روبينى ، وذلك لمركزها التجارى وسيطرته على طريق القوافل ، وبين داخلية البلاد الأثيوبية وحوض النيل وبين موانى البحر الأرتيرى . وهذا الموقع على الرافد تكازى ــ ستيت ، قد أكسب البلدة موقعًا فى أقصى الجزيرة البجة ، ومركزًا تجاريًا للقوافل .

وتميز هذا الموقع الأقليمى بقيامه على المدخل بين حوض وادى النيل وأثيوبيا ، الأمر الذى جعل القوافل تتخذه منفذًا لها بين تلك البلاد وساحل البحر الأرتيرى فى مختلف موانيه من مصوع وباضع وسواكن . . . الخ . كما اتخذته الهجرات المختلفة ، معبرًا لها نحو مهاجرها .



٧ ــ ويهمنا بعد أن أوضحنا ماكانت عليه المنطقة الشمالية الغربية لأثيوبيا من أهمية اقليمية ، أن ننتقل إلى عرض الآراء المختلفة عن أصل السلطنة السنارية ، فإن هذه الآراء تقول أن هذه الأسرة ترجع إلى :

١ - إنهم من قبيلة الشلك ، التى كانت تسكن على شاطئ النيل الأبيض جنوبى الليس (بالقرب من الكوه) .

٢ - إنهم من الغرب ـ من دارفور فى رأى ومن برنو فى رأى آخر .

٣ - إنهم قد جاءوا من الحبشة .

وقبل أن نناقش هذه الآراء ، يجمل بنا أن نوضح بقدر ما لدينا من معلومات عن الفونج ، وهل هم البيت ، أم الشعب الذى حكمته هذه الأسرة .

اختلفت الآراء حول مصدر كلمة (فنج) أو (فونج) التى أطلقت على سلطنة سنار ، يقول أنها ترجع إلى كلمة بون (Bwon) ، فى لغة الشاك ، والبعض الآخر يقول أنها من كلمة فون (Fon) ، فى لغة النوير ورأى ثالث يردها إلى كلمة بونج (Bunj) ، وهذه قريبة من كلمة فونجى (Foni) ، وجميع هذه الكلمات معناها الغريب ، أما مسألة تناسخ الحروف الباء والفاء وغيرها ، ليحل أحدها محل الآخر ، فأمر له وجوده فى جميع اللغات وبالأخص الباء والفاء فى لغتى النوبة والشلك ، عرف البيت السنارى بالسلطنة الفنجية ، أو بمعنى آخر الـ «فنج» ومترادفاتها ، استعلمت للتعريف بطبقة البيت الحاكم ، وتوسع البعض فى استعمال هذه الكلمة ، حتى شملت ضمنا الشعب ، الذى حكمه البيت السنارى حكمًا مباشرًا ، والواقع أن القول بأن هذا التعريف يشمل الشعب مسألة لا تتفق مع حقيقة الأمر ، فابن سليم الأسوانى الذى زار مملكة علوة فى أواخر القرن العاشر الميلادى ، فى بعثه جوهر الصقلى لأمراء السودان ، يقول أن أرض الجزيرة السنارية سكنتها قبيلة عرفت باسم كرتينا ، أو كرسة أو كرما ، أوكاسو ، كما أن اسم القبيلة ، ورد ذكرها مع قبيلة العنج ، بوصف أن هاتين القبيلتين جزيرة سنار وذلك فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى ، عندما زار البلاد رسول السلطان قلاوون ، ومن هذه يبدو ان اسم الفنج (Fung) وصل إلى الجزيرة بعد القرن الثالث عشر الميلادى ، وهناك احتمال بأن هذا الاسم قد جاء مع جماعات من البيت الزغوى ، بعد سقوط سلطانهم فى الحبشة عام ١٢٨٦ ميلادية وقيام ملوك الحبشة بمطاردتهم واضطادهم ، وقد تكون لهؤلاء الفنج صلة بالداجو الموجودين فى بلاد الفور ، والذين يقول عنهم بارت (Barth) ، بأنهم حكموا دارفور فى القرن

العاشر الهجرى ، ويعتقد بأنهم يختلفون عن الزغاوى ، كما أنه يقول باحتمال أن موطنهم كان فى جبال فازوغلى جنوب سنار ، ويقول الداجو عن أنفسهم أنهم فننجا (Fininga) فإذا صحت هذه الدعاوى ، فيكون هؤلاء هم الشلك الذين ذكرهم بروس خطأ ، بأنهم حاربوا العرب وانتصروا عليهم فى موقعة بالقرب من أريجى [٦٢] غير أن هذه الرواية أصابها بعض التصحيف كما سنبينه فيما بعد ، وبقى اسم الفونج مشتركًا بعد ذهاب أهله ، ونجد اسم «فونج» فى صورة أو أخرى منتشراً فى أكثر من منطقة من بحيرة فكتوريا والكنغو .

الوادى الأول:

إن هذه الأسرة من قبيلة الشلك .

ترجع الشلك فى أصلها إلى قبيلة لو (Luo) التى يعتقد أنها كانت تسكن فى منطقة بحيرة «فيكتوريا نيانزا» وذلك قبل هجرتها إلى السودان ومن الدراسات التى قام القس هفمير النمسوى ، نجد أن قبيلة «لو» القليلة العدد فى الوقت الحاضر ، والتى تسكن فى منطقة بحر الغزال ، كانت فى الماضى القبيلة الكبرى التى تفرعت منها الشلك وذلك حين قادها ملكها الأول نياكنج (Nyakang) إلى مواطن جديدة ، امتدت فى العصر الحديث إلى شمال الكوه (على النيل الأبيض) ، وبينما نجد أن القبائل الوثنية الأخرى ، تحتفظ ببعض العادات والتقاليد التى تتفق اتفاقًا كليًا مع مثيلاتها فى العهد الفرعونى ، فإن أثر ذلك فى قبيلة الشلك ، يدل على أن هجرتها إلى جنوب السودان [٦٣] حدثت فى عهد ليس بالبعيد .

يقول الرحالة جيمس بروس [٦٤] الذى زار سنار حوالى عام ١٧٧٢ ميلادية ، أن مملكة سنار قامت فجأة باستيلاء مؤسس ذلك البيت على حوض النيل الأزرق بعد غزوة خاطفة ، وتفصيل ذلك على حد روايته أن قبيلة من السود غير معروفة كانت تسكن على الجانب الغربى للنيل الأبيض (خط عرض ١٣ شمالا) وإنها قامت فى جموع عديدة ، مستخدمة عدداً من

(٦٢) بروس جزء رابع ص ٥٤٨ ومابعدها .

(٦٣) يقول وسترمان إنهم قد وصلوا إلى موطنهم الحالى فى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى .

(٦٤) سلجمان ص ٤٢٤ .

القوارب فى هجومها على المدن العربية ، وأن ذلك الجيش من الزنج يعرف فى وطنه باسم الشلك ، وعند تأسيس ذلك الحكم ، كان الشلك عبدة أوثان ، وسرعان ما اعتنقوا الدين الإسلامى لغرض التجارة مع القاهرة واتخذوا «الفونج» اسما لهم وكانت هنالك ثلاث حكومات رئيسية ، فى مملكة سنار ، أولاها «الليس» (٦٥) عاصمة الأقليم من أربجى ، مما جعل العرب يخضعون لأولئك الغزاة ، ويتصالحون على نصف الماشية يعطى للشلك ، ويقبلون تقديم جعل سنوى من نصف نتاج ماشيتهم خلال العام ، وتعهد ود عجيب بالقيام بتأديب القبائل العربية الأخرى البعيدة التى تسول نفسها بالعصيان والتوقف عن دفع المال للشلك ، وقد دافع عن هذا الرأى كثيرون منهم الأستاذ أ . هـ كين (A.H. Keane) الذى اعتبر أن الشلك هم أصل الفونج ملوك سنار ، وأنهم اختلطوا بالعرب اختلاطًا وثيقًا ، ويعارض هذا الرأى روميلى جسى باشا ، فى كتابه سبع سنوات فى السودان (٦٦) ناعيًا على صاحبه وأشياعه بعبارات التقريع والسخرية متسائلا كيف تدهور أولئك الشلك من ذلك الملك الشامخ العريض ، الذى استمر عدة قرون ناشرًا لواءه على أكثر الرقعة التى نعرفها اليوم بالسودان ، الشلك فى يومنا هذا ينكرون صلتهم بذلك البيت السنارى . ويقول الشلك إنهم قاموا بمحاربة تلك المملكة الإسلامية كلما سنحت لهم الفرص بذلك . ويقول الأستاذ إيفانز برتشارد بأن كلمة فونج أو فونجى لاتخرج عن كونها تعريف لطبقة حاكمة معينة ، حكمت فى دار الفونج ومركزها سنار - كما أبدى شكوكه فى أن أحدًا من علماء الأجناس ، قد كتب رأيًا صريحًا يرجع البيت السنارى إلى الشلك (٦٧) ويقول بأن وسترمان له رأى أورده فى كتابه (٦٨) لكنه لميقل صراحة بأن الفونج من الشلك فى زمن مضى أو حاضره ، ولكنه يعتقد بأن هنالك أدلة على وجود الشلك فى دار الفونج فى عدد يجعل من السهل إشتراكهم بنصيب فى تكوين الطبقة الحاكمة(٦٩) .

---

(٦٥) الليس شمال الكوه على النيل الأبيض .

(٦٦) جسى ص ١٥١/١٥٢ .

(٦٧) إيفانس برتشارد مقال ص ١٥٧ .

(٦٨) وسترمان .

(٦٩) يظهر أن نصيبهم كان عن طريق الرقيق

ذكر وسترمان فى كتابه عن الشلك ، بعض المفردات المتقاربة فى لغة الشلك عن كلمة فونج ويحاول رد اسم «عمارة» (٧٠) السلطان الأول للأسرة فى سنار إلى «عمارو» أو «عماكرا» المستعملة فى لغة الشلك ، كما ذكر أن قول السلاطين بأنهم من الفونج يجعل المرء يظن أن اختيارهم لبنى أمية يرجع إلى تقارب هذا النسب مع جد الشلك «أمرى» Nyakng (Omoi) جد الشلك المباشر (٧١) .

وقد أثار موضوع أصل الفونج وصلتهم بالشلك جدلاً كبيرًا على صفحات مجلة السودان فى رسائل ومدونات ، وقف فيها شتاوى ونولدر (٧٢) فى جانب الرأى القائل بأن الفونج لايمتون بصلة إلى الشلك ، كما دافع آركل (٧٣) عن رأى بروس .

يبدو مما أوضحناه أن جيمس بروس كان ضحية قبوله نظرية «الألوان» فى تمييز الأجناس ومقدار رقيها وانحطاطها حيث يقول «أن ملك سنار يدعى بأنه من القبيلة العربية الشريفة ، وهى بنى أمية ،لكن فصيلة شعره وتقاطيعه المنبسطة السوداء تدلان على أنه من الشن جالا (Shangale) التى اسمها (الشلك) (٧٤) وأن هذه النظرية هى الآن فى طريق الزوال لاعتمادها على أسس غير مقنعة .

الرأى الثانى:

إن هذه الأسرة جاءت من الغرب .

١ ــ من دارفور .

٢ ــ من برنو .

حاول آركل (٧٥) تقديم رأى جديد وحشد لدعمه المعلومات ، التى جمعها خلال المدة التى قضاها فى دارفور والتى جمعها بالمر والتى جاء فيها ما جعل آركل يستخلص أن البيت

---

(٧٠) صحته عميره كما جاء فى الوثائق .

(٧١) شاتوى ونولدر مقال ص ٢٤٧ ــ ٢٥٨ ــ ٦١ ــ ٦٦ ــ ١١١ ــ ١١٧ .

(٧٢) فى مدونات الأجزاء الثالث عشر والرابع عشر والسابع عشر على التوالى .

(٧٣) آركل مقال المدونات الجزء الخامس عشر ص ٢٠١ ــ ٢٥٠ .

(٧٤) مرى ص ٤١٧/٤١٨ بروس الجزء السابع ص ٩٠/٩١ .

(٧٥) آركل . مقال ص ٢٠١/٢٥٠ فى الجزء الخامس عشر من المدونات كذا ص ٨٧/٩٧ من الجزء السابع والعشرين من المدونات .

السنارى ، اسـمه الملك عثمان الذى طرد من برنو عام ١٤٨٦م ويبدو مما كتبه أركل فى مقاله الذى نشر فى كتاب الزراعة فى السودان أنه يتمسك بهذا الرأى باهماله الإشارة إلى الرأى القائل بأن الأسرة السنارية ترجع إلى بيت من قبيلة الشلك كما أهمل الرأى القديم الذى يرد البيت السنارى إلى الفور .

الرأى الثالث:

إنها جاءت من الحبشة وينقسم ثلاث آراء فرعية .

١ ـ السلطنة من أصل عربى .

٢ ـ السلطنة من بنى أمية .

٣ ـ السلطنة من هلاله .

ينفرد هذا الرأى بمصادر أساسية وأخرى ثانوية نجدها مبعثرة هنا وهناك وفيها تتوفر الوثائق التى تلقى الضوء مؤيدة هجرة السلطان الأول من شمال غرب الحبشة وقيام ملكه فى حوض النيل الأزرق ، كما أن هذه الوثائق توضح العلاقات التى كانت قائمة بين الحبشة وحوض النيل الأزرق . فضلاً عن توضيحها دعاوى الأحباش بتملك السهول الواسعة الواقعة بين حوض الدندر والرهد و القاش وجزء من نهر العطبرة بما ذلك سهول القلابات . وتبدو هذه الدعاوى فى شكل مطالب محددة فى حالات قيام حكومات ضعيفة فى الجانب السودانى ـ وأهم المراجع .

١ ـ رحلة داود روبينى الذى زار السلطان عميرة فى عاصمته «لملم» وذلك قبيل انتقاله إلى سنار مباشرة .

٢ ـ ماجاء فى كتاب «تاريخ لاتيوبيا لمؤلفه لود لفس (طبع عام ١٦٨٤م طبعة ثانية) .

٣ ـ خطاب من السلطان عجيب .

٤ ـ الروايات المحلية السودانية المتداولة .

٥ ـ مذكرات الضابط الايطالى تلمنتى التى حققها ونشرها روسينى العالم الإيطالى .

٦ ـ رحلة أوليا شلبى .

رحلــة داود روبينى(٧٦)

أوضحنا فيما سبق أن هذا الرحالة قد هبط ميناء سواكن فى ديسمبر سنة ١٥٢١ ميلادية ، وغادرها فى قافلة كبيرة تزعمها «أبوكامل» وقد اخترقت هذه القافلة الطريق الساحلى إلى منطقة مصوع ومنها إلى المنطقة التى أسماها «الملم» والتى قابل فيها السلطان عميرة ، الذى امتد سلطانه على البلاد الواقعة على حوض النيل الأوسط . ويصف هذا الأقليم بأنه بلاداً بها مروج وغابات وجبال وصحراوات ويقول إنه بعد تركه عاصمة السلطان عميرة فى طريقه إلى سنار ، قد عبر أنهاراً كثيرة وأن أرضها رخوة لدرجة أن الخيل التى كان يستخدمها قد غاصت فيها حتى البطن . وقد جاء ما يؤيده هذه الرواية فى كتاب فتوح الحبشة (٧٧) .

وبعد مسيرة ثمانية أيام وصل إلى سنار ، حيث قابل أمين بيت المال المدعو «العبيد» ولا شك فى أن هذه الرحلة قد حدثت فى أكتوبر ـ نوفمبر أوحواليه من عام ١٥٢٢ ميلادية أى بعد انتهاء فصل الأمطار فى الهضبة الحبشية مباشرة .

(ب) لودلفس فى كتابه تاريخ حديث لأثيوبيا.

يقول هذا المؤلف «وفى الجنوب مملكة سنار أو الفند (يقصد الفنج) ويحكمها سلطان شديد اليأس وقد كان فيما مضى يدين بالولاء للحبشة . أما اليوم فهو مستقل يسيطر على ذلك الجزء من النوبة القديمة (٧٨) .

(ج) كتاب السلطان محمد بادى عجيب:

جاء فى هذا الكتاب الذى أرسله السلطان إلى بنو أميه (كذا فى نصه) الساكنين دار ضنقله (دنقله) استبدلت الدال بالضاد وتنطق القاف كالقاف الصعيدية أوكالجيم القاهرية وقد بين فى هذه الرسالة نسب الأسرة السنارية وصلتها بالأمويين وقد كان هذا السلطان كما ورد فى رسالته السلطان العاشر من البيت السنارى (٧٩) .

---

(٧٦) هامش ٤٤ .

(٧٧) فتوح الحبشة ص ٢٠١ ـ وكروفورد صفحة «٢٣٩» .

(٧٨) لود لفس ص ٨٧ .

(٧٩) راجع الملحق الرابع .

(د) الروايات المحلية المتداولة:

١ ـ تقول مخطوطة تاريخ سنار . . . ابتدأ أمر الفنج كانوا بمحل يعرف بلول بتفخيم اللامين . . . فصل فى ذكر نسب الفنج قيل أنهم البنى أمية لما انتزع منهم الملك وهربتهم البنى العباسى جاء منهم رجلان إلى هذا المحل (يشير إلى لول) استولدوا النسا وأن الفنج من سلالتهم وقيل إنهم بلى هلاله . . . .) (٨٠) .

٢ ـ تقول الروايات المتداولة فى شرق السودان أن «الفونج» قد أرسلوا قواتهم لقتال البلى والأرتيقة وقد حصلت الموقعة الفاصلة عند أبواب ميناء سواكن فى السنة السادسة من القرن السادس عشر الميلادى وأسفر القتال عن هزيمة البلى والأرتيقة . ويبدو أن التطاحن لم تخمد ناره ويشير روسينى أن قتالا قد نشب بين هذه المجموعات وانتهى بهزيمة الفونج وهربهم من شرق السودان (٨١) .

(هـ) مذكرات الضابط الايطالى لويجى تلمنتى:

قام كونتى روسينى بدراسة المذكرات التى كتبها الضابط لويجى تلمنتى والتى شملت ملاحظاته عن المقابر التى وجدها فى طريقه فى خور بركة فى شهر يوليه سنة ١٩٠٢ ميلادية وقد نشر روسينى مقاله الذى جاء فيه :

«مقابر الفنج (٨٢) ـ يجد المرء مقابر عديدة على طول وادى الرافد القريب وخور بركة وبعض هذه المقابر فى مجموعات متراصة أو متباعدة وهذه هى مقابر الفنج الذين أسسوا مملكة فى سنار فى القرن الخامس عشر الميلادى . وينهى مقاله بأن مقابر عديدة موجودة فى دورة طه Daura Taha ويذكرأنه قد علم أن الفنج قد هزموا هزيمة منكرة على حد قول الرواة الذين يقولون أن الفدين Al Gheden الموجودين الآن فى أرتيريا يمتون بصلة القربى إلى الفنج وأنهم هربوا إلى موطنهم الحالى (سنار) بعد الهزيمة المنكرة (٨٣) .

---

(٨٠) ملحوظة تاريخ سنار ص ٤/٣ المخطوطة بالمكتبة الأهلية بفينا .

(٨١) بول ص ٧٧/٧٦ .

(٨٢) مقال روسينى فى الملحق الثانى .

(٨٣) ذكر روسينى فى رسالة خاصة للمؤلف أنه قد استقى هذه المعلومات من الأهالى .

(و) رحلة أوليا شلبى [٨٤] :

زار هذا الرحالة العنمانى السودان فى ١٦٧٢ ميلادية وقد سجل فى رحلته أغنية شعبية (دوبيت) سمعها عند السلطان فى سنار وهى فى لغة سكان الجزء الغربى من الأرتيريا . وقد ذكر ترجمة تركية مع النص المحلى وتحتوى هذه الأغنية على غزل وحب وهذه الأغنية جديرة بالتحقيق والدراسة المقارنة فالأدب الشعبى السودانى قد تأثر كثيراً فى مناطقه الشرقية بالأدب الشعبى لقبائل أثيوبيا وغيرها عن طريق الهجرات من جنوبى غرب الجزيرة العربية .

ز ـ ذكر روسينى فى مقال له [٨٥] «أن هنالك قصة متواترة تقول إنه قد كانت للفنج محلة فى ريالاف بالقرب من ريبا الواقعة على وادى أقره (Agra) .

وذكر متسنجر «أنه قد ورد فى سلسلة من أنساب قبيلة «منسه» أن الاسم الثالث لأحد بطونها التى تسكن جنوبى الحباب هو فنجانى (Fungiai) وهنالك بلدة تعرف باسم عد فنجابى التى تقع على ثلاثين ميلا من خور أقوردا .

لقد استعرضنا فيما سبق مختلف الآراء عن أصل الأسرة السنارية ومايستند إليه كل رأى من تلك الآراء ولاشك أن الرأى القائل [٨٦] بأن الموطن الأول للسلطنة قبل انتقالها إلى السودان كان فى منطقة لملم فى جنوب غربى أرتيريا ونستطيع أن نحدد أن العاصمة قد كانت فى «أوم هجر» المعروفة الآن بأم حجار وسواء كانت تلك الأسرة من بنى أمية أو من البلى فهى عربية الأصل على أى حال . أما الآراء الأخرى فلم تستطع أن تقف مع الرأى الأول .

٨ ـ هجرة السلطنة إلى موطنها الجديد

أوضحنا تطورات الأحوال فى المناطق التى قامت فيها الولايات الإسلامية فى شمال أثيوبيا ، والمدى الذى وصلت إليه العلاقات بين المسلمين والأثيوبين من جهة وبين القبائل

---

(٨٤) أنظر رحلة أوليا شلبى (بالتركية) الجزء العاشر ص ٨٩٦ وقد أعدت ترجمة عربية للقسم الخاص برحلة السودان والحبشة .

(٨٥) مقال روسينى فى مجلة الجمعية الأسيوية الايطالية مجلد.٢٢ عام ١٩٠٢ ص ٧٢ .

(٨٦) محاضرة المؤلف بعنوان «على أطلال مدينة سنار» التى ألقيت بنادى الموظفين بواد مدنى ـ طبع القاهرة سنة ١٩٣٥ .

الإسلامية وبعضها ، فكل هذا قد دفع السلطان عميرة إلى الانتقال إلى حوض النيل الأزرق ، متخذاً فيه عاصمته الجديدة بعد «الملم» وإقامة علاقات اتحادية مع المشيخات التى كانت قائمة فى حوض وادى النيل الأوسط ، محتفظًا لنفسه ببعض مظاهر السلطان الرمزية .

ويرجع اختيار مدينة «سنار» (٨٧) كمقر للحكم ، لأكثر من سبب فى مقدمتها موقعها الأقليمى الاستراتيجى فى قلب القطاع . الذى يكون المجال الحيوى الطبيعى لامتداد سيطرة البيت الحاكم قبل تركه للملم بسبب الظروف المتغايرة ، ويسيطر موقع هذه المدينة على الطرق النيلية والقوافل الأمر الذى أضفى عليها أهمية كبرى كمركز تلتقى فيها مختلف الطرق التجارية ، حيث يحدث تبادل السلع الواردة من البقاع الأفريقية المختلفة ومن مصر ومن الشرق الأقصى عبر سواكن ومصوع وأثيوبيا .

ويجمل بنا قبل أن ننتقل مع السلطنة إلى مركزها الجديد فى حوض النيل الأزرق ، أن نحدد التاريخ الذى هجرت فيه عاصمتها فى منطقة «الملم» وأن نستعرض العوامل التى خلقت الاتحاد بين المشيخات القائمة حينذاك فى بلاد السودان وبين السلطان .

فقيام السلطان فى عاصمته «سنار» لم يكن حادثًا فجائيًا كما جاء فى الروايات المحلية (٨٨) بل سبقته عوامل داخلية تولدت من مظاهر حياة المجتمع الأمر الذى سوف نناقشه فيما بعد . وقد كانت هناك عوامل خارجية فى مقدمتها امتداد النفوذ العثمانى إلى حوض البحر الأحمر وما تبع ذلك من وصول قطع من الأسطول العثمانى إلى مياه ذلك البحر لتعزيز سلطانها

---

(٨٧) مدينة «سنار» على النيل الأزرق (فى شرق الجنوب الشرقى للخرطوم) ـ وهى مدينة عريقة فى القدم ويقول البعض أن هذا الاسم يرجع إلى ساحرة اسمها سن النار كانت تسكن فى هذه البقعة وأن ثورًا من ماشية عميرة كان يتدلى يرعى فى تلك الغابة ليلا ويأتى فى ليلته فتبعوه فى بعض الأيام فرأوا دارها ونهرها فنزلوا من مويه وقطع أشجارها الملك عميرة دونقس (انظر مخطوطة تاريخ سنار دار الكتب المصرية رقم ١٨م) وهذا نسخ من الخيال الخصب لتعليل مصدر الاسم . عرفت هذه المدينة قديمًا باسم (جزيرة الماء أو الأخت) (بصيلى مقال) وهناك استحالة مادية فى امكانيات منطقة جبل مريا على إيواء جموع من الجنود وغيرهم بسبب قلة الماء وهذا عامل مهم وثانيًا أن المنطقة لا تخرج عن كونها جبلية وأرضها الصالحة للزراعة لاتزرع إلافصل الخريف (بالأمطار) ومما يلفت النظر أن ما جاء بالمخطوطة آنفة الذكر يدل على أن الجنود تجمعت حول الملك عميرة فى منطقة جرداء دون أن تفطن إلى وجود مجرى النهر حتى دلها عليه الثور!!

(٨٨) تاريخ مدينة سنار مخطوطة فى دار الكتب المصرية ص ١٠ .

والمحافظة على سلامة موانى جانبى البحر الأحمر (الأسيوى والأفريقى) التى بسط عليها العثمانيون بسيطرتهم ومطاردة البرتغاليين الذى نأخذ نشاطهم فى الأزدياد لبسط نفوذهم على اثيوبيا ، وقد مكن النفوذ العثمانى فى حوض البحر الأحمر من سيطرة المسلمين سكان الساحل الأفريقى للبحر الأحمر على مرافق التجارة بين الساحل والمناطق الأفريقية الداخلية بما فى ذلك أثيوبيا(٨٩) .

تقول المصادر السودانية التى جمعت من الروايات الشفوية وغيرها وكتبت فى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر الميلادى وفى مقدمتها كتاب الطبقات لود ضف الله وتاريخ مدينة سنار للكاتب الشونة (٩٠) أن السلطان السنارى قد أنشأ عاصمته فى السنة العاشرة من القرن العاشر الهجرى (السنة الرابعة بعد الخمسمائة وألاف ميلادية) وهذا لايتفق مع ماكتبه الرحالة داود روبينى ، الذى زار السلطان فى عاصمته فى منطقة لملم فى عام١٥٢٢ ميلادية حيث أمضى هذا الرحالة نحو العشرة شهور ، رافق فيها السلطان فى رحلاته الدورية التى كان من عادته أن يقوم بها مرة كل شهر لناحية من نواحى مملكته . وقد سقطت تفصيلات تلك الرحلات من مدونة داود روبينى غير أن الرحالة قد أوضح بما لايقبل الشك أن زيارات السلطان المشار إليها قد شملت القطاع الممتد من منطقة لملم حتى حوض النيل (٩١) ونجد سنداً لما ذكره داود روبينى فى الروايات التى جمعها روسينى (٩٢) وفيما كتبه لودلفس (٩٣) عن علاقة السلطان مع النجاشى وكذلك ماكتبه فرنسسكو الفارز (٩٤) ، الذى زار الحبشة فى حوالى ١٥٢٠ ميلادية ونقل فى كتابه ماسمعه عن حنا السريانى عن أحوال بلاد علوة ولم يذكر شيئًا عن وجود سلطان فى سنار فى ذلك الوقت .

---

(٨٩) أنظر لودلفس ص ٧٤/٧٣ .

(٩٠) نشر كتاب الطبقات لأول مرة فى عام ١٩٣٠ ميلادية فى طبعتين إحداهما علق عليها الشيخ إبراهيم صديق والثانية طبعها داود منديل أما كتاب تاريخ سنار فمازال مخطوطًا ومنه نسخة فى دار الكتب المصرية تحت رقم ١٨م .

(٩١) كتاب الرحالة اليهود لناشره الكان ناثان ادلر طبع لندن ١٩٣٠ ص ٢٥٧ حيث يقول أن ملكة الجعل (الجعليين) يحكمها الملك أبو عقارب وهو خاضع للسلطان عميرة . ويرجع سبب إهمال بعض التفصيلات أن الرحالة لم يكتب يومياته كاملة بل أملاها من ذاكرته .

(٩٢) الملحق الثانى .

(٩٣) انظر هامش ٧٠ .

(٩٤) الفارز ص ٣٥٢ .

ويبدو أن تدهور العلاقات بين النوبة السفلى ومصر للعداوة التقليدية بين العرب زعماء المشيخات فى النوبة وبين المماليك فى مصر ، وقيام الكشاف أو «الغز» الذين أرسلهم السلطان سليم بزعامة حسن قوسى [٩٥] لحكم البلاد بين الشلالين الأول والثالث قد جعلت البلاد جنوبى الشلال الثالث فى عزلة اقتصادية ، الأمر الذى دفع المشيخات إلى الاتجاه نحو ساحل البحر الأحمر ، والاتصال بالسلطان عميرة الذى كان مسيطرًا على تجارة ذلك القطاع الذى شمل المنطقة المؤدية إلى حوض النيل الأزرق ومراكز تجمع التجارة فيه . وهكذا دفعت الظروف إلى قيام الاتحاد .

وقد اتصل السلطان عميرة ومركزه فى منطقة لملم بالسلطان العثمانى سليم الذى حكم من ١٥١١ ـ ١٥٢٠م وذلك بأن أرسل إليه كتابًا أعده الشيخ السمرقندى ، موضحًا به أنساب العرب أهالى السودان وطلب منه أن لا يغزو البلاد وسكانه من المسلمين الذين لايجوز شرعًا فتح بلادهم بالسيف . وهو الخطاب الذى ذكر نعوم شقير [٩٦] خطأ أنه أرسل إلى السلطان سليم . ووجه الخطأ أن السلطان سليم لم يصل إلى سواكن ولم يحتلها بشخصه وإنما احتلها الباشا العثمانى فى أعقاب الفتح العثمانى لمصر فى سنة ١٥١٧ ميلادية ، وأننا نخالف هذا الرأى القائل بأن السلطان قد جاء إلى سواكن لغزو السودان ، فالأصح أن يكون السلطان عميرة قد أرسل ذلك الكتاب (حوالى عام ١٥١٧م أى بعد ضم مصر إلى تركيا) وكان عميرة يهدف من ذلك أن يعمل السلطان العثمانى على وقف التعدى الذى وقع على الحدود الشمالية من السودان بين قبيلتى الغربية والجوابرة وهما من البربر الذين نزحوا إلى مصر فالنوبة السفلى . وقد دفع وصول الكشاف إلى بلاد المحس إلى توثيق عرى الاتحاد بين المشيخات فى السودان والسلطان عميرة وعاصمته فى لملم . ونرجح أن هجرة السلطان إلى حوض النيل الأزرق قد سبقتها محاولات استطلاعية مهدت لسيطرته على ذلك القطاع .

(٩٥) استنجدت قبيلة الغربية التى سكنت أرض المحس بالسلطان سليم بعد الفتح العثمانى لمصر ليعينها على رد عدوان قبيلة الجوابرة التى كانت منتشرة فى النوبة وقد استجاب السلطان لهذا النداء بارسال حملة بقيادة حسن قوسى الذى تمكن من طرد الجوابرة إلى منطقة دنقلا وحدث أن ابن جنبلان الذى خلف حسن قوسى بعد وفاته قد اشتبك مع القبائل التى تسكن شمالى منطقة دنقلا فى موقعة فاصلة عند «حنك» حيث أقيمت قبة ضمت القتلى واعتبرت هذه المنطقة الحد الفاصل بين حكم الكشاف . والبلاد الجنوبية .

(٩٦) أنظر نعوم شقير الجزء الثانى ص ٧٢/٧٤ .

والمعروف أن مملكة علوة قد زالت فى السنوات القليلة من أول القرن السادس عشر الميلادى ، ويستخلص مما جاء فى رحلة روبينى أن السلطان عميرة لم ينتقل من عاصمة أسرته فى منطقة لملم إلا بعد الربع الأول من القرن السادس عشر الميلادى أو قبيل ذلك بعام أو عامين على أكثر تقدير ، أعنى فى سنة ١٥٢٣ أو ١٥٢٥ ميلادية . ويؤيد هذا الرأى ماجاء فى الروايات المحلية فى شرق السودان عن القتال الذى حدث بين الفونج من جهة والأرتيقة والبلى من جهة أخرى ، كما أشرنا إليه من قبل ، ونرى أن هذا الصراع قد دفع بالسلطان إلى الانتقال إلى موطنه الجديد فى حوض النيل الأزرق . ولايفوتنا أن نذكر أن تلك الحقبة كانت مليئة بالأحداث والتطورات ، فميناء سواكن صارت عثمانية فى سنة ١٥٢٠م وكانت المراكب البرتغالية تجوب مياه البحر الأحمر لمنازلة الأتراك وأن هذه المراكب قد بقيت فترة من الزمن فى خليج مصوع ، التى صارت عثمانية فى سنة ١٥٢٧ ميلادية . وأغارت السفن البرتغالية على ميناء السويس فى ١٥٤٠م غير أنها قد فشلت .



وننتقل الآن إلى بيان المجموعات الأقليمية التى كانت قائمة عند قيام الاتحاد بين المشيخات والسلطان . ومن ثم إلى المجتمع فى بنيته ومظاهر نشاطه ونظم الحكم والاقتصاد . وإننا بذلك نحاول أن نصور أثر ذلك فى تطور نظام الحكم فى مختلف المراحل .

توزيع السكان فى حوض النيل الأوسط

ينقسم السودان سبع مناطق تأثرت كل منها بالحياة الأقليمية الخاصة وهى :

١ ـ السكان المشتغلون بالزراعة والتجارة فى السودان

(أ) المجموعة الأقليمية الأولى :

تقع هذه المنطقة بعد شلالات حنك شمالا وجنوبى الشلال الرابع جنوبًا ، وهى الرقعة من الأرض التى عرفت بمملكة المقرة ، التى سقطت فى أوائل القرن الرابع عشر الميلادى ، بعد حياة

ناهزت العشرين قرنًا ، شاركت فى خلالها مصر فى المدنية والثقافة كما شاركت مصر فى محنها بسبب دخول الفرس والروم الخ . . . وقد حافظ أهلها على لغتهم وأسس مجتمعهم ، ومن أقسامها :

١ ـ دار الجوابرة وحدودها من شلالات حنك شمالاً حتى حلة «تيتى» جنوبًا وبها مشيخات أرقو وجزيرة مقاصر والخناق .

وتسكن هذه المنطقة الجوابرة والنوبة وهما الغالبية وقليل من المهاجرين المصريين وبعض العرب الذين يرجعون فى أصلهم إلى البشا (البجه) وتصدر زعامة هذه المشيخات ملك أرقو الذى بسط نفوذه على المشايخ الأخرين . ويسكن هذه المنطقة جماعة من الهامق وهم فى الصحراء شرقى جزيرة أرقو [٩٧] .

٢ ـ دار البديرية وتبدأ من حلة تيتى حتى جبل داقر (حد دار الشايقية) وبها مشيخات الخندق ودنقلا العجوز وجزيرة تنقس وأبكر والدفار ويتزعم هذه المشيخات ملك دنقلا العجوز .

وتسكن البديرية والنوبة فى هذه الرقعة عدا قطاعى كورتى وامبقول حيث تسكن مجموعة الطريفية التى تنتمى إلى البديرية .

٣ ـ دار الشايقية وتقع بين جبل داقر حتى الشلال الرابع وبها مشيخات حنك وقوشابى ومروى والعمرى .

وسكانها من الشايقية الذين يكونون الغالبية العظمى وجماعات قليلة من النوبة الذين يعيشون فى درجة الموالى للشايقية .

وتميزت دار الشايقية بأنها وهى منقسمة أربع مشيخات كما أوضحنا إلا أنها كانت تستجمع كلمتها وتوحد قواتها فى جبهة واحدة لمقابلة العدو الذى يتعدى على إحداها ، بينما نجد أن سكان دار الجوابرة ودار البديرية متفرقوا الكلمة لا يفتأون عن مناوأة بعضهم البعض .

وتحتل دار الشايقية مركزًا استراتيجيًا على طرق القوافل ، بين ذلك الجزء من وادى النيل والغرب (دارفور وفزان والمغرب الأقصى) وبين وادى النيل ، وساحل البحر الأحمر ومصر عبر

---

(٩٧) أنظر هامش ٤٠ .

صحرا العطمور ، وكانت العلاقات مع الغرب زاهرة وخاصة بعد قيام سلطنة الفور ، وكان لهذه العلاقات أثرها فى قيام الشايقية بالانفصال عن الاتحاد السنارى كما سنبينه فى موضعه فيما بعد .

(ب) المجموعة الأقليمية الثانية :

تحتل هذه المجموعة رقعة من الأرض وتبدأ من الشلال الرابع حتى رأس الوادى (عند مصب العطبرة بالنيل) وسكان هذه المجموعة أقل عدداً من المجموعة أقل عدداً من المجموعة الأقليمية الأولى ويرجع ذلك إلى طبيعة بلادهم الصخرية القاحلة ، وبخاصة فى القسم غربى بلدة «أبوحمد» وتنقسم هذه المجموعة إلى :

(١) دار المناصير ــ من الشلال الرابع حتى غرب أبوحمد ــ تميزت هذه المنطقة بأن أراضيها الصالحة للزراعة تنحصر على شاطئ النيل الصخرى بسبب طغيان الرمال على الأراضى الخصبة ، وقد دفعت هذه الحالة من الجدب إلى فقر السكان واحترافهم السطو على القوافل ، وقد عرفت هذه المنطقة فى الزمن القديم باسم «شنقير» ومعناها «نقود» أو «مال» وكانت هذه البلاد معروفة بهذا الاسم قديماً لوقوعها على الطريق إلى مناجم المعادن فى صحراء العطمور .

(٢) دار الرباطاب ــ تبدأ من حلة الشماخية (غرب أبوحمد بنحو خمسين كيلو متراً) حتى الشلال الخامس (شمالى بلدة العبيدية) وهذه منطقة أكثر يسراً من دار المناصير وتتألف القبيلة التى تسكن هذه البلاد من شعب كثيرة منها الكبير فى مجموعته ومنها القليل وكانت لهم زعامتان إحداهما فى الشمال والثانية فى الجنوب .

(٣) دار الميرفاب ــ تبدأ من الشلال الخامس حتى رأس الوادى وفيها زعامة هذه المجموعة الأقليمية ومركزها مدينة بربر الشهيرة بمركزها التجارى حيث تلتقى فيها الطرق التجارية بين مختلف البلاد ، عن طريق النيل جنوباً إلى الخرطوم ومابعدها وتتصل عن طريق القوافل بموانىء البحر الأحمر .

وطغيان الرمال على الأراضى الخصبة فى هذه المنطقة واضح الأثر .

والعلاقات بين المجموعتين الأولى والثانية وثيقة العرى فى مختلف نواحى النشاط .

وما زالت هذه المنطقة مجهولة تمامًا من الناحية الأثرية (الأركيولوجية) وقد ورد ذكر بعض بلدان من جنوب هذه المجموعة فى لوحة ملك أكسوم عيزانا الذى غزا بلاد مرو (بين نهر العطبرة والنيلين الأزرق والرئيسى) .

اللغة السائدة هى العربية العامية متأثرة باللهجات الخاصة بالبطون كل فى منطقته ومازالت اللغة محتفظة بالكثير من الكلمات النوبية القديمة كما احتفظت بعض الأماكن بأسمائها القديمة مع بعض التصحيف .

(ج) المجموعة الأقليمية الثالثة :

تبدأ من الجانب الأيسر لنهر العطبرة حتى شمال «أربجى» ، وأرضها أكثر خصبًا وإنتاجًا من سابقتيها وشملت :

١ ــ الدامر ــ وقامت فيها زراعة بيت المجاذيب الدينية .

٢ ــ دار الجعليين ــ مركزها شندى حيث يقيم الملك وضمت بعض المشيخات الصغيرة وحدث فيما بعد قيام أكثر من زعامة للجعليين خضعت لسلطان العبد أللاب المباشر .

٣ ــ دار العبد اللاب ــ من جنوبى شندى حتى شمال بلدة «أربجى» وضمت هذه بعض المشيخات المتفرقة على حوض النيل وفى شمال الجزيرة ومركزها فى بلدة «قرى» حيث أقام عبدالله جماع ، الذى مارس سلطاته المباشرة على هذه المجموعة وقد امتدت سلطاته على هذه المجموعات الأخرى باسم السلطان السنارى . واحتفظت دار العبد اللاب فى حدودها على ماكانت عليه «علوه» .

(د) المجموعة الأقليمية الرابعة :

احتلت هذه المجموعة قطاع الحكم السنارى ، الذى شمل أرض الجزيرة من مدينة «أربجى» شمالا حتى دار فنج جنوبًا وفيها مشيخات خشم البحر . فازوغلى . كنجارا ، ومن ناحية الشمال فقد امتد القطاع عبر البطانة متخذًا طريقًا شماليًا شرقيًا ، للمحافظة على طرق القوافل بين داخلية البلاد وموانى البحر الأرتيرى وشمل هذا القسم من القطاع مشيخة رأس الفيل والجزء الجنوبى من ولقايت وتعرضت أطراف هذا القطاع لمنازعات بين ملوك أثيوبيا وسلاطين سنار .



٢ ـ مناطق الرعى والزراعة البدائية:

المجموعة الأقليمية الخامسة:

قامت هذه المجموعة فى أرض البطانة التى تحد جنوبًا بالنيل الأزرق ورافد الرهد شرقًا ، وتتعدى حدودها الشمالية حوض العطبرة وتفصل بين هذه المنطقة والنيل الرئيسى (بين العطبرة والخرطوم) المدن والأراضى الزراعية القائمة على النيل . وقد قامت فى هذه المنطقة أكثر من ولاية ، عصفت بها الحروب الداخلية وغزو الأثيوبيين مما ساعد على طغيان الرمال بطبقات كثيفة بفعل الرياح الموسمية التى تعرف بالهبوب .

ففقدت بذلك الأرض خصائصها وهجرها أهلها وتحول من بقى منهم إلى حياة الرعى .

المجموعة الأقليمية السادسة:

تحتل هذه المجموعة المنطقة رقعة الصحراء الشرقية التى تبدأ من جنوبى أسوان حتى دهلك (مصوع) ، وتكاد أن تكون هذه المنطقة صورة لما كانت عليه مملكة نفيس التى ذكرها اليعقوبى والتى تكلمنا عنها فيما سبق .

ولم تكن هذه المنطقة واقعة تحت سيطرة السلطنة السنارية المباشرة ، وبخاصة الجزء الجنوبى منها ، الذى تعرض فيه سلطان الفنج للامتداد والانكماش ، متأثرًا بالعلاقات مع البشا والاثيوبيين ، بخاصة بعد القتال المرير الذى حدث فى القرن السادس عشر الميلادى [٩٨] كما حدثت منازعات وقتال بين سنار وأثيوبيا بسبب الحدود .

المجموعة الأقليمية السابعة:

احتلت هذه المجموعة الصحراء غرب النيل من دنقلا شمالا حتى تقلى جنوبًا ، وتعرضت هذه الرقعة لاعتداء سلاطين السودان الغربى والفور . وكانت القوافل التجارية بين مختلف البلدان الأفريقية وحوض النيل تخترق هذه المنطقة ، فى نقل السلع المتبادلة بين حوض النيل وموانىء البحر الأرتيرى من ناحية وداخلية أفريقيا من ناحية أخرى . وإلى هذا يرجع اهتمام سلاطين السودان الغربى والفور بالعمل على امتداد نفوذهم إلى هذه المنطقة .

---

(٩٨) انظر الملحق الثانى لمذكرات الضابط الايطالى تالا مونت .

ولم تكن ولاية تقلى من القوة بمكان عند قيام السلطان السنارى فى حوض النيل الأزرق ، وبقيت على هذا الحال حتى اشتداد المنافسة بين سنار والفور . فى القرن السابع عشر الميلادى .

تطورات الوضع السياسى:

يجمل بنا قبل أن تتعرض لحياة المجتمع فى مختلف مظاهر نشاطها ، أن نتعرف على الوضع السياسى وتطوراته ، كما نتعرف على العلاقات والروابط التى كانت قائمة بين شطرى الوادى (مصر والسودان) بخاصة والعلاقات مع دار الإسلام بعامة ، وذلك فى الفترة التى سبقت انتقال السلطنة الزرقاء [٩٩] إلى حوض النيل الأزرق ، ولاشك فى أن التعرف على العلاقات والروابط ، التى أشرنا إليها سوف يفسر لنا تطور حياة المجتمع ، كما تصور لنا سلوك الأفراد فى هذا المجال الذى تأثر بالآراء التى نقلت إليه ، وما ترتب على ذلك من تقدم .

فقد قامت فى البلاد دويلات ومشيخات إسلامية على أنقاض ما كان قائمًا من دويلات مسيحية أوشبه مسيحية ووثنية ، وكان لزامًا بعد أن استكملت تلك الدويلات والمشيخات الاسلامية مراحل تطورها ، أن تتطلع سلطة مركزية تجمع فى صورة ما ، بين تلك الدويلات والمشيخات [١٠٠] استجابة لدوافع النمو الطبيعى .

كانت البلاد أصلا محكومة بملوك مؤلهين ، وكان كل شىء ملكًا لهؤلاء المؤلهين ، وكان طبيعيًا أن تتغير تلك النظم بدخول المسلمين إلى البلاد ، فى هجرات جماعية متلاحقة ، وكان شأن تلك الهجرات العربية فى صدر الإسلام مختلفًا كل الاختلاف عما عرفته البلاد فى علاقتها وصلاتها من العرب قبيل الرسالة المحمدية ، فقد كانت تلك العلاقات والصلات محصورة فى نطاق التبادل التجارى ، وما إلى ذلك من معاملات . أما فى العهد الإسلامى فقد خرج العرب من بلدهم فى أخطر تجربة وأقساها هدفها بناء (أمة) إسلامية لها قوميتها الموحدة ، تضم المواطن التى امتدت إليها رسالة الدين الجديد . وكان طبيعيًا أن تظهر مشاكل كثيرة بعد

(٩٩) عرفت السلطنة السنارية بالزرقاء وسلطنة الفور بالخضراء ومصر بالسلطنة الحمراء .

(١٠٠) أنظر نهاية الفصل السابق حيث أوضحنا الدويلات (المشيخات) التى كانت قائمة فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى (العاشر الهجرى) والتى دخلت فى حلف مع السلطات السنارى .

التوسع الإسلامى الذى شمل مناطق متباينة من النواحى الاجتماعية ، وقد احتلت هذه المشاكل اهتمام الخليفة عمر بن الخطاب رضوان الله عليه ، الذى أخذ بمعاونة مستشاريه فى وضع دستور للدولة الإسلامية الكبرى ، إلا أن المنية قد عاجلته ولعبت بعد ذلك الفتن والقلاقل دورها ، والتى كان من أبرز نتائجها تعطيل الحركة التهذيبية التى جاءت مع رسالة الإسلام ، وتغلب الخصائص والمميزات الشخصية لمختلف الشعوب ، التى امتد إليها سلطان المسلمين .

دفع الوضع الأقليمى للسودان إلى الدخول فى روابط اقتصادية مع البلدان الإسلامية ، الواقعة خلف حدوده ، كما اتصل مع الشرق الأقصى عن طريق البحر الأحمر ، أما عن العلاقات بين شطرى الوادى (مصر والسودان) فإنها قد كانت أعمق أسسًا مما كانت عليه مع البلدان الأخرى من دار الإسلام وغيرها ، مرجع ذلك إلى أن شطرى الوادى يطلان على منفذين إلى المحيطات ، وهما البحر الأبيض المتوسط ، والبحر الأحمر ، كما أنهما يحتلان المدخل الأول إلى قلب القارة الأفريقية (١٠١) ، الأمر الذى أدى إلى جهود موحدة ، للافادة من هذا الوضع الاستراتيجى ، بما فيه مصلحة البلدين ، ولا نريد أن نذهب بعيداً فى توضيح الصلات البعيدة العمق ، ويهمنا أن نحدد العلاقات فى فجر الإسلام وفى السنوات التى تلت ذلك (١٠٢) .



ورد ذكر النوبة لأول مرة فى وثيقة اسلامية هى عهد الأمان الذى أعطاه عمرو بن العاص لأهل مصر ، ونصه كالآتى كما ذكره الطبرى (١٠٣) .

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم (مفردها صليب) وبرهم وبحرهم . لايدخل عليهم شىء من ذلك ولاينتقص ولا يساكنهم النوب . وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زيادة

---

(١٠١) راجع خريطة نمرة ٥ .

(١٠٢) راجع المجلد العاشر من موسوعة «مصر القديمة» للدكتور سليم حسن .

(١٠٣) الطبرى طبعه غوى . القسم الأول صفحة ٢٥٨٨/٢٥٨٩ نشرها استانلى لين بول فى أعمال الأكاديمية الأيرلندية الملكية مجلد ٢٤ ص ٢٢٧/٢٣١ .

نهرهم خمسين ألف ألف . وعليهم ماجنى لصونهم ، فإن أبى أحد منهم أن يجيب ، رفع عنهم من الجزاء بقدرهم ، وذمتنا ممن أبى بريئة وأن نقص نهرهم من غايته إذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك . ومن دخل فى صلحهم من الروم والنوب فله مثل مالهم وعليه مثل ماعليهم . ومن أبى وأختار الذهاب ، فهو آمن حتى يبلغ مأمنه ، أو يخرج من سلطاننا عليهم ماعليهم ، أثلاثًا فى كل ثلث جباية ثلث ماعليهم ، على مافى هذا الكتاب عهد الله وذمته وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذم المؤمنين وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأسًا وكذا فرسا على أن لايغزوا ولايمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة . شهد الزبير وعبدالله ومحمد أبناه وكتب وردان وحضر . . وذكر النوبة فى هذه الوثيقة إن دل على شىء فهو يدل على ما كان عليه النوبة من نفوذ اقتصادى بالنسبة للتجارة الواردة والصادرة عبر بلادهم . ثم أن الأمور لم تكد تستقر فى مصر بعض الشىء حتى أرسل عمرو بن العاص حملتين إلى الحدود الجنوبية لوقف التعدى من القبائل القاطنة فى جنوبى أسوان ولتأمين الحدود ولفتحها التجارة ، وكانت حملة تحت أمرة عقبة بن نافع بن عبد القيس الفهرى (أخ عمر ولامه) وأخرى بقيادة عبدالله بن سعد بن أبى سرح ولايعلم بالضبط أى الحملتين قد سبقت الأخرى ، وقد ذكر البلاذرى (١٠٤) أن حملة عقبة بن نافع الفهرى قد أرسلها عمرو بن العاص بعد فتحه لمصر ، وأن هذه الحملة قد انصرفت بجراحات كثيرة ، والمؤكد على أى حال أن حملة عبدالله بن سعد بن أبى سرح قد أرسلت فى سنة عشرين أو فى إحدى وعشرين من الهجرة ، وأنها اشتبكت مع النوبة فى قتال انتهت إلى «مصالحة هدنة» ، تقرر فيها تبادل بعض المعونة والهدايا فكان على النوبة أن يقدموا إلى المسلمين ثلاثمائة وستين رأسًا إلخ إلخ ، ومن الجدير بالذكر أن هذه المصالحة قد جاء فيها ، «وليس على مسلم دفع عدو عرض لكم (يشير إلى النوبة) ولا منعه عنكم من حد أرض علوة إلى أرض أسوان» .

وقد عرفت مصالحة الهدنة هذه بالبقط (١٠٥) وقد أصدر عبدالله بن سرح عهده هذا عقب حملته الثانية ، التى دخلت بلاد النوبة حتى مدينة دنقلة ، وذلك فى العام الحادى والثلاثين

---

(١٠٤) البلاذرى فـ ٢٣٨ ومابعدها .

(١٠٥) البقط ما كان يؤخذ من النوبة فى كل عام فى قرية القصر التى تقع جنوبى مدينة أسوان بما يقرب من الخمسة أميال ويرجع هذا الاصطلاح إلى الأصل الرومى ، حيث يعرف هذا النوع من الاتفاقات بـ (bactum) ومنها (Pact) وتدل=

من الهجرة عندما نكثت النوبة العهد السابق ، وذلك بعد وفاة الخليفة الثانى عمر بن الخطاب رضوان الله عليه ظناً منهم ، كماهى عاداتهم التى تميزوا بها فى مختلف العصور إنهم فى نكثهم للعهد الذى قطعوه على أنفسهم فى ولاية خليفة سابق ، قد يصل بهم إلى تخفيف ما اصطلح عليه أصلا ، وهذه الظاهرة ما زالت قائمة فى المجتمع ، وبعد استسلام ملك النوبة فليدروت تقرر الصلح على ثلثمائة وستين رأسًا من الرقيق فى كل سنة ، ووعده عبدالله بن سعيد بهدية سنوية من حبوب وملابس إلخ وكتب عبدالله بن سعد أمانًا ، اشترط لقيامه أن يؤدى النوبة فى نهاية كل عام عدداً من الرقيق تحددت أوصافه . كما أشترط عدم التعرض للمسلمين من إقامة شعائرهم الدينية وحفظ المسجد الذى ابتناه المسلمون فى دنقلة وغير ذلك ، ولم يشر الجانب العربى إلى ما وعد به عبدالله بن سعد من حبوب وملابس الخ (١٠٦) . وقد وفى الجانبان العربى والنوبى بالتزاماتهما حفظًا للعلاقات الوثيقة ، الأمر الذى استمر نافذاً أكثر من ستة قرون ، حتى حدثت تطورات فى العلاقات السياسية بين شطرى الوادى فى القرن السابع الهجرى كان من نتيجتها قيام حلف جديد ربط بين شطرى الوادى وسوف نتعرض لهذه التطورات فيما بعد .

هذا ما كان من العلاقة مع البلاد النوبية التى على حوض النيل الأوسط ، أما العلاقات مع البشا (البجة) فقد تحددت فى عقد الأمان الذى أعطاه عبدالله بن الجهم إلى كنون بن

= هذه المصالحة لحسم خلاف بين دول لا غالب ولا مغلوب بل أن الطرفين أو أكثر متعاقدين على قدم المساواة وهى أقرب شىء فى تفسيرها إلى أنها عربون صداقة متبادلة أما البقط الذى اصطلح عليه العرب عقب غزوة عبدالله ابن سعد ابن أبى سرح عام عشرين أو واحد وعشرين هجرية هو ثلثمائة وخمس وستين رأسا من الرقيق لبيت مال المسلمين وللأمير بمصر غير ماذكر أربعون رأسًا ولخليفته المقيم بأسوان وهو المتولى لقبض البقط عشرون رأسا وللحاكم المقيم بأسوان الذى يحضر مع أمير أسوان قبض البقط خمسة رؤوس ولاثنى عشر شاهدًا عدولا من أهالى أسوان يحضرون مع الحاكم قبض القط اثنى عشر رأسا من الرقيق وكانت النوبة قد دفعت إلى عمرو ابن العاص أربعين رأسًا من الرقيق فلم يقبلها وردها إلى كبير البقط الذى اشترى بثمنها جهازًا وخمرًا وأرسله لملك النوبة وبعث عبدالله أبن أبى سرح ما وعد النوبة به من الحبوب قمحًا وشعيرًا وعدسًا وثيابًا وخيلاً ثم تطاول الرسم على ذلك فصار رسمًا يأخذونه عند دفع البقط كل سنة وصارت الأربعون رأسًا التى أهديت إصلا إلى عمرو بن العاص يأخذها والى مصر (انظر المقريزى المواعظ والاعتبار ص ٢٩٩/٢٨٩ الجزء الثالث ـ نشر فييت مطبعة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية ـ القاهرة سنة ١٩٢٢) .

(١٠٦) أنظر المقريزى ص ٢٩٦ جزء ثالث .

عبدالعزيز البشا فى عام ٢١٦ هجرية (٨٣١ ميلادية) وقد سبق أن أوضحنا ماجاء فى ذلك العقد [١٠٧] من امتيازات منها أيلولة ملكية القطاع من جنوب أسوان حتى جنوب دهلك (مصوع) للخليفة .

وحدث فى عهد المماليك البحرية تدهور فى العلاقات بين المماليك ، الذين آلت إليهم مقاليد الحكم وبين العرب والعربان المسلمين فى القطر المصرى . وكان ذلك مدعاة لقيام العربان بإثارة الفتن والقلاقل ، وكانت البلاد مهيأة لتلك الأحداث لسبب ما تغلغل فى المجتمع المصرى من آراء وأساليب جديدة من العهود السابقة وقد قتل فى هذه القلاقل ألوف من العربان فقدوا ماشيتهم وممتلكاتهم ، وذهب الكثيرون منهم صوب شطرى الوادى الجنوبى هربًا من انتقام المماليك ، و توالت حملات المماليك نحو الجنوب ، حيث كثرت المشاحنات والحروب الداخلية التى عطلت الحياة وهددت البلدان ا لواقعة شمال الشلال الأول . وانتهت الحملات التى أرسلها المماليك على النوبة بأن أجلس شكنده [١٠٨] على كرسى الملك فى دنقله فى عام خمس وسبعين وستمائة هجرية (١٢٧٦م) ولما نصبوه خلفوه بأن يكون نائبًا للسلطان وجرى قسمه كالآتى «والله والله والله وحق الثالوث المقدس والإنجيل الطاهر والسيدة الطاهرة العذراء أم النور والمعمودية ، والأنبياء والرسل الحواريين والقديسين والشهداء والأبرار ، وإلا أجحد المسيح كما جحد ديوس وأقولى فيه ما تقوله اليهود ، وأعتقد ما يعتقدونه ، وإلا أكون ديوس ، وأطعن المسيح بالحربة ، كما طعنوه اليهود ، أننى أخلصت نيتى وطويتى من وقتى هذا وساعتى هذه لمولانا السلطان الأعظم الملك الظاهر ركن الدنيا والدين بيبرس خلد الله ملكه وأننى أبذل جهدى وطاقتى فى تحصيل مرضاته ، وإننى ما دمت نائبه لا أقطع ماقرر على فى كل سنة تمضى ، وهو مايصل من مشاطرة بلادى على ما كان يتحصل لمن تقدم من الملوك بالنوبة ، وأن يكون النصف من المتحصل لمولانا السلطان مخلص فى كل فن (حق) والنصف الآخر مرصدًا لعمارة البلاد وحفضها (حفظها) من عدو يطرقها ، وأن يكون على

---

(١٠٧) راجع عقد الأمان فى صفحة ٢٢ وهامش ٥٨ .

حدث أن نقض البشا عهدهم بغزو صعيد مر الأعلى حتى بلدة اسنا وذلك فى عام ٢٤١ هجرية (٨٥٥ ميلادية) فى عهد الخليفة جعفر المتوكل وأرسلت حملة لتأديبهم واضطركبير البشا إلى التسليم فأحسن العرب معاملته وأرسل مكرمًا ليطأ بساط أمير المؤمنين فى بغداد . وكانت هذه الحملة تحت أمرة محمد بن عبدالله القمى .

(١٠٨) المقريزى ص ٢٩٨/٢٩٧ ، ومفصل ص ٢٣٩/٢٣٦ .

فى كل سنة من الأفيلة الثلاثة ومن الزرافات ثلاثة ومن الفهود خمسة ومن الصهب الجياد مائة ومن الأبقار الجيدة أربع مائة رأس ، وأننى أقرر على كل نفر من الرعية الذى تحت يدى فى البلاد من العقلاء البالغين دينارًا عينًا ، وأنه مهما كان لداوود ملك النوبة ، ولأخوه (أخيه) شنكوا ولأمه ولأقاربه ومن عهد من عسكره بسيوف العسكر المنصور ، أحمله إلى الأبواب العالية ، وإننى لا أترك شيئًا منه قل ولاجل ولا أخفيه ، ولا أمكن أحدًا من اخفائه ، ومتى خرجت عن شىء مما قرر على أعلاه كنت بريئًا من المسيح ومن السيدة الطاهرة ، وأخسر دين النصرانية ، وأصلى لغير الشرق وأكفر بالصليب ، وأعتقد مايعتقدونه اليهود ، ثم أننى لا أترك أحدًا من العربان ببلاد ا لنوبة صغيرًا ولا كبيرًا ، ومن وجدته احتطت عليه ، وأرسلته إلى الأبواب العالية ، وإننى مهما سمعته من الأخبار الضارة والنافعة طالعت مولانا السلطان فى وقته وإننى لا أنفرد بشىء من الأشياء وأننى عبد مولانا السلطان عن نصيره وغرس صنائعه وسيفه المنصور ، وأنا ولى من والاه ، وعدو من عاداه ، والله على ما أقول وكيل وشهيد .

وأقسم شكنده يمينًا ثانية . إننى متى ورد على مرسوم السلطان فى ليل أو نهار يطلبه إلى الأبواب الشريفة يحضر لوقته وساعته ، ولا يتأخر بوجه من الوجوه ، إلا بمقدار ما يدبر ما يحتاج إليه من أمور السفر (١٠٩) . ومن هذا يتضح لنا أن شطر الوادى الجنوبى قد صار وفق ماجاء فى هذه المواثيق التعهدية «دار الصلح» . ولم يمض طويل وقت حتى كانت الهجرات العربية الجماعية قد تغلغلت فى بلاد النوبة والبشا ، وكونت عنصرًا خطيرًا أو خاصة بعد مصاهرة المهاجرين للأسرات الحاكمة ، الأمر الذى مكن أبناء العرب من مقاليد الحكم بفضل التقاليد المحلية التى تمنح ابن الأخت وابن البنت حق الوراثة دون ولد الصلب ويقولون أن ولادة ابن الآخت وابن البنت أصح ، وأن يكون من زوجها أو من غيره فهو ولدها على كل حال (١١٠) .

---

(١٠٩) مفصل جـ ٢ ص ٢٣٩ وتاريخ هذا القسم ٢٤ مايو سنة ١٢٧٧ وجاء فى المقريزى (ص ٢٩٨ جزء ثالث) عن تقسيم بلاد النوبة «أن تكون بلاد النوبة نصفين نصفها للسلطان ونصفها لعمارة البلاد وحفظها ماخلا بلاد الجبال فإنها كلها للسلطان ونصفها لعمارة البلاد وحفظها ماخلا بلاد الجبال فانها كلها للسلطان لقربها من بلاد أسوان وتكون نحو الربع من بلاد النوبة وأن يحمل مابها من التمروالقطن والحقوق الجارية بها العادة من قديم الزمان أن يقوموا بالجزية مابقوا على النصرانية ويدفع كل بالغ منهم فى السنة دينارًا عينا . . والتزم (شكنده) أن يحمل جميع ما لداود ولكل من قتل وأسر من مال ودواب إلى السلطان مع البقط القديم» .

(١١٠) المقريزى ص ٢٦٧ و ٢٦٨ .

وكان من أثر هذا العهد الذى قطعه شكنده ، امتداد سيطرة سلطان شمال الوادى المباشرة على المنطقة السفلى للنوبة المعروفة بالمريس ، وهى الواقعة بين الشلال الأول وبلدة كرسكو ، والتى تبعد عن شمالى وادى حلفا بحوالى الستين ميلا ، وصارت المقررات المعتادة من الضرائب على البلح والقطن وغير ذلك من المحصولات تدفع السلطان ، كما كانت تجبى الجزية من المواطنين الذين يحتفظون بغير الإسلام دينًا وذلك بواقع دينار واحد عن كل ذكر بالغ . وبعد وفاة السلطان بيبرس تولى الحكم قلاوون وفى عهده قتل شكنده وأستولى على كرسى الملك (berrek) الذى لاقى حتفه على يد بعض المماليك وقام شمعون باعباء الحكم ، ولم تكن علاقات هذا الملك طيبة مع أمير (الأبواب) الواقعة على حوض النيل جنوبى مصب نهر العطبرة ، وقد أرسل هذا الأمير بعثة إلى السلطان شاكيا (شمعون) لتعرضه للطريق التجارى بين الأبواب وشمال الوادى . وحاول شمعون أن يضعف من أمر هذه الشكوى ، بارساله وفدًا إلى السلطان ليكسب ثقته ، غير أن السلطان قد أرسل بعض الأمراء إلى الامارات الواقعة جنوبى مملكة دنقلة [١١١] كما أرسل مندوبًا إلى شمعون ، وقد استطاع أمراء الأبواب والبعصة (والأخيرة واقعة بين النيل وكسلا جنوب شرقى شندى) من تدعيم شكايتهم من ملك النوبة ، ولهذا أرسل قلاوون حملة عسكرية لتأديب ملكها ، وانتهت هذه الحملة بهروب شمعون وتولية ابن أخته ملكًا ، وبعد عودة الحملة عاد شمعون وأستولى على الحكم ، فأرسلت قوة كبيرة فى عام ١٢٨٩م وقد صحبها اثنان من الأمراء النوبيين ، واستطاع شمعون أن يهرب ثانية ، ونصب ابن أخته الملك داود ملكًا على دنقلة ، وتكررت المأساة بعد عودة لحملة بظهور شمعون ، وذلك فى ١٢٩٠م واغتصابه الحكم بعد أن قتل الملك وبعض حكام الأقاليم الشمالية لمعاونتهم للسلطان ، وكتب شمعون إلى قلاوون معلنًا ولاءه ، واستعداده لدفع الجزية المقررة ، وبقى على عهده الذى قطعه فترة من الزمن ، دون أن يقوم بتعكير العلاقات ، وحدثت ثورة قام بها الأمير آنى من حكام الجنوب ، وتولى الملك بوديما (Boudima) الذى كان فى مصر الحكم فى دنقله بدلا من شمعون . وفى عهد السلطان الناصر محمد قلاوون أرسل عز الدين الأفرم على رأس حملة إلى الأبواب ، التى كان ملكها فى مطاردة الأمير الثائر آنى .

---

(١١١) جاء فى مخطوط تاريخ قلاوون ٩ إلى صاحب باره والى صاحب التاكه والى صاحب كدروا والى صاحب ديفوا والى صاحب أرى والى صاحب صفال والى صحاب سانج والى صاحب كوسه .

وأخذت الأحوال فى الجنوب تسير فى خطى سريعة نحو النهاية ففى عام ١٢٩٩ أصيب المماليك بهزيمة فى حمص الشام فى حربهم مع المغول .

وقد كانت هذه الهزيمة فرصة استغلها العربان فى مصر فى عام ١٣٠٢ ميلادية ، باحداث قلاقل دفعوا ثمنها غاليًا فى الرجال والمال ، وشرد من بقى منهم على قيد الحياة ، فالتجا الكثيرون منهم إلى بلاد النوبة ، هربًا من الاضطهاد وتعقب المماليك لهم ، وأرسل السلطان حملتين فى عامى ١٣١٢ و ١٣١٦ ميلادية إلى بلاد النوبة ، التى كان يحكمها الملك كرنبس . وقد صحب الحملة الثانية الأمير النوبى عبدالله برشنبو (١١٢) ابن أخت الملك داود . وقد أسندت إلى هذا الأمير مقاليد الحكم فى دنقله بعد أسر ملكها كرنبس(١١٣) وقريبه إبراهام اللذين نقلا إلى القاهرة وانتهت بعزله كرئيس الدولة النوبية المسبحية الشمالية . وسادت البلاد قلاقل ومطاحنات ، بين الجالس على كرسى الحكم والنفر من المغامرين الذين تطلعوا لانتزاع السلطة . فقد حدث بعد عودة الحملة أن قتل كنز الدولة الملك عبدالله واستولى على الحكم ، فأرسل السلطان حملة صحبها إبراهام الذى وعده السلطان بولاية الملك إذا تغلب على كنز الدولة وقد تم له ذلك ، غير أنه لم يعش طويلاً فتوفى عام ١٣٢٣ . وظهر كنز الدولة ونادى بنفسه ملكًا على كرسى دنقله . وأرسل السلطان حملة صحبها كرنبس للتخلص من كنز الدولة وأعادت الحلقة المفرغة دورتها بعد عودة الحملة بظهور كنز الدولة واغتصابه مقاليد الحكم . واشتدت الاضطرابات الداخلية ، التى تخللتها جهود الجماعات العربية التى دخلت البلاد لتكوين ديارها التى أوضحناها فيما سبق ، واستمرت هذه الحالة أكثر من قرن كان فيها كل من شمال الوادى وجنوبه فى عزلة ، بسبب هذه الاضطرابات الداخلية فى كل منهما . وانتهت هذه

---

(١١٢) تربى هذا الأمير فى القاهرة تربية إسلامية وقد اختلط اسم هذا الأمير على «ماك ميكل» الذى ذكر فى كتابه تاريخ العرب فى السودان أن اسمه عبد بن «سنبو» وقال أنه زنجى بسبب اسم والده «سنبو» والحقيقة أن الاسم «برشنبو» معناه «ابن الأسد» وكان النوبة يميلون إلى استخدام أسماء الحيوانات حربًا على عادة شمال الوادى (أنظر كتيب النوفذ اليونانى فى حوض النيل الأزرق) للمؤلف .

(١١٣) ورد اسم كرتيس فى وثيقة «دير سمعان» التى جاء فيها ــ كما حققه مارجيلوت على نسخة بودليان ــ ان كرنيس تولى الحكم فى عام ١٣١٢م (٧١١ هجرية) بعد مقتل أخيه الذى لم يعرف اسمه وكان ذلك فى العام الثانى من ولاية السلطان الناصر الذى أرسل حملة فى عام ١٣١٥م إلى دنقلا انتهت بتنصيب عبدالله برشنبو ابن أخت الملك داود (انظر مقال جريفت وثائق مسيحية من النوبة الذى نشر فى محاضر الأكاديمية البريطانية الجزء الرابع عشر عام ١٩٢٨) .

الحال بدخول الزعامات القبلية للمجموعات الاقليمية فى اتحاد تزعمه السلطات السنارى الذى انتقل إلى عاصمته الجديدة فى قطاعه الإقليمى الذى شمل حوض النيل الأزرق جنوبى مدينة «أربجى» واستمر السلطان السنارى فى ممارسة سلطانه من عاصمته «سنار» التى أعاد بناءها .

وكان قيام هذا الحلف بين المشيخات المحلية والسلطان السنارى أمرًا قررته الاستجابة لعراك حياة مجتمع فى صورة جديدة تمخض عنه ذلك الصراع الخفى بين المجموعات العربية التى دخلت البلاد فى طرف وبين السكان من أهالى البلاد فى طرف آخر ، وقد صهر هذا التزاوج المجتمع الجديد فى قالب تغلبت فيه مميزات البيئة المحلية التى اتخذت من أنساب تربطها بالعرب مدارج ارتقت بها إلى القول بانحدارها من بيوت الأشراف من العباسيين الذين دخلوا البلاد فى أعقاب مختلف الهجرات العربية . وهنالك مجموعات من الوطنيين المستضعفين بقيت محتفظة بمركزها الاجتماعى المتواضع وتتغير علاقاتها مع أصحاب الاقطاعات سواء كانت قبلية أو فردية عما كانت عليه فى سابق العهود ، بل بقيت هذه العلاقات على سابق عهدها المتوارث وبخاصة فى مناطق المجموعات الإقليمية الأولى والثالثة والسادسة ، وليس معنى هذا أنه لم تكن هناك فئات مستضعفة فى المناطق الأخرى ، بل كانت هنالك جماعات من السكان الأصليين تحكم فيهم القائمون على الأمر ، كما هو الحال فى المجموعات الإقليمية الأولى والثالثة والسادسة . وأن هذه الجماعات على استضعافها لم تكن موضع تعسف أو اضطهاد ، بل كانوا يعاملون كطبقة خاصة ، ترتفع فى مستواها الاجتماعى على الرقيق ، فهم يملكون حرية ممارسة العمل كما يرغبون ، ولا يدخلون فى المعاملة بالبيع والشراء وكل ما فى الأمر إمكانية نقلهم من سيد إلى سيد ، ولا تربطهم بالسيد إلا بعض التقاليد مثل اصطناعهم للحرب وتقديم بعض الهدايا فى المناسبات (كالزواج ـ الولادة ـ الطهور إلخ إلخ) ، وقد أخذت هذه التقاليد فى الاختفاء السريع .

وهكذا سارت الحياة على أطراف متناقضة استغل بعضها الرؤساء الروحيين ، الذين سلكوا بها منهجًا خاصًا أملته عليهم نظرياتهم الخاصة . وسار فى الجانب الأخر أصحاب السلطان ولم يكن بين هذه الجماعات ما يربط بينها نحو أهداف معينة . فكل من المعسكرين اتخذ طريقه نحو تحقيق مصلحته الذاتية . وكان طبيعيًا والحالة هذه أن تتعطل الحياة وأن تنتهى إلى ما وصلت إليه من تعطيل الشعور عند الأفراد بضرورة التطور الذى يتمشى مع طبيعة الأشياء .

ومكن فقدان التوازن بين المعسكرين الروحى والمدنى من تمهيد الطريق وتعبيده للجماعات القوية لتستولى على الحكم كلما سنحت الفرص التى يضعف فيها رجال الصدارة من هذا الفريق أو ذاك .

٥ ـ المجتمع:

(أ) بيئته ـ حياته ـ مظاهر نشاطه الاجتماعى:

جاء المهاجرون كما سبق أن أوضحنا فى جموعهم التى بدأت فى قلة بعد فتح مصر[١١٤] ثم أخذت هذه القلة تتزايد تدريجيًا حتى تحولت إلى موجات متلاحقة من الفارين من شمال الوادى وذلك فى القرنين السابع والثامن من الهجرة (الثالث عشر والرابع عشر الميلادى) ، ويرجع تطور الخروج من شمال الوادى فى موجات من الفارين إلى ما أصاب القوم من اضطهاد وعدوان من المماليك الذين تملكوا زمام الحكم فى مصر بعد انتزاعه من العرب أصحاب السلطان أصلاً والذين نظر إليهم المماليك ، وبخاصة المماليك البحرية ، كعنصر غير مرغوب فى بقائه فى البلد الذى آلت إليهم مقاليد حكمه وذلك لخوف المماليك وقلقهم من قيام العرب والعربان بإشاعة الفتن والثورات فى كفاح لاسترداد سلطانهم المغتصب . ولم يكن هناك من طريق غير هجرة العرب للخلاص مما حاق بهم بسبب ما حدث فى مصر من تغييرات ، بانتزاع أداة الحكم وانتقال السلطان من أيدى العباسيين إلى الطولونيين الاخشيديين ثم إلى الفاطميين فالأيوبيين والمماليك .

وجاءت إلى جنوب الوادى فى ركاب هذه الهجرات مختلف العقائد والمذاهب الفكرية وبخاصة مع اتباع الفاطميين من جند وغيرهم[١١٥] . وقد بلغ النزاع أشده فى أوائل القرن السابع الهجرى عندما أنزل المماليك بالعربان أفدح الخسائر[١١٦] ، الأمر الذى بلغت معه موجات الفرار ذروتها فى طريقها صوب جنوب الوادى حيث الملجأ الطبيعى .

---

(١١٤) لقد حد العهد الذى أعطاه عبدالله بن سعد بن أبى سرح من الهجرة إلى البلاد جنوبى الشلال الأول واتخاذها موطنًا غير أن هذا الخطر قد أهمل بعد أن استعاد سكان الوادى ما بينهم من قديم الصلات والروابط .

(١١٥) جاءت مع هؤلاء المذاهب الشيعية التى انتشرت فى صورة أو أخرى غير أن مدى انتشارها ضيق جدًا وهذا الموضوع جدير بالدراسة وأثارها ما زالت باقية إلى اليوم .

(١١٦) المقريزى البيان والأعراب عما بأرض مصر من الأعراب .

جاءت هذه الجموع ولها من القوة الروحية المستمدة من الحماس للرسالة الدينية الجديدة ما جعلها تتغلغل فى سرعة فائقة فى المجتمع المحلى ، وتكتسح أسسه التى قامت فى ظل نوع من العبادات لم يكن راسخ الأركان بل كان طابعه الغالب تلك البقايا من المعتقدات القديمة التى ورثوها من عهود الوثنية السحيقة فى قدمها والمتعددة المعبودات وكان يسيرًا على المهاجرين العرب تقويض جهاز الملكية التى مارسها رجال مؤلهون من رجال الكهنوت . وقد وجد المهاجرون عونًا على ذلك عن طريق المصاهرة ، كما تمكنوا من إنشاء مشيخات وملكيات يحكمها زعماء القبائل التى اختار كل فريق منها المنطقة التى تتناسب مع بيئته بالقدر الذى قدمته الظروف المحلية فى الوطن الجديد ، وأخذت الزعامات القبلية العربية فى تكوين ديارها التى أخذت فى التوسع بانضواء المجموعات القليلة العدد الضعيفة الجانب فى حمى هذه القبيلة أو تلك . وتمكنت الزعامات العربية من السيطرة الكاملة على مصير الوطن الجديد فى مختلف مناطقه الإقليمية فى البادية وفى الحضر وفى الريف . ولم يحاول المهاجرون انتزاع السلطان من الأسرات الحاكمة المحلية بقوة السيف بل تركوا الأمر ليأخذ طريقه العادى ، وشغلوا أنفسهم بتوطيد أقدامهم فى الأرض الجديدة موضعًا موضعًا ، فمنهم من اشتغل بالزراعة وبممارسة الحرف فى المدن وفى مواطن الخصب ، واختلط بذلك مع السكان اختلاطًا كاملاً ، وشاركهم فى حياتهم ومظاهر نشاطهم ، ومنهم من ضرب فى مسالك الصحراء يخط سجل حياته بين خطى بعيره ومضارب خيامه ، يردد أناشيده وأشعاره التقليدية ، عازفًا بمزماره متنقلا من واد إلى وادى ، طلبًا لمواطن المرعى فى مختلف مواسمها . وكان اختلاط هؤلاء بأهل المدن فى أضيق الحدود . ومن المهاجرين أيضًا من اشتغل بنقل التجارة على ظهور الإبل على الطرق الصحراوية بين النيل وموانىء البحر الأحمر وشمال الوادى والمناطق المجاورة ، كما اشتغلت جماعات فى استخراج المعدن(١١٧) . وكان اختلاط هؤلاء بالقبائل التى سكنت ساحل البحر الأحمر .

---

(١١٧) يقول المقريزى ص ٢٧٧ «وقدم عليهم مشيرًا إلى البشا» أبو عبدالرحمن بن عبدالله ابن عبدالحميد العمرى بعد محاربته النوبة فى سنة خمسة وخمسين ومائتين ومعه ربيعة وجهينة وغيرهم من العرب فكثرت بهم العمارة فى البجة (الباشا) حتى صارت الرواحل التى تحمل الميرة إليهم من أسوان ستين ألف راحلة غير الجلاب التى تحمل من القلزم إلى عيذاب .

واستطاع المهاجرون المحافظة على تقاليدهم العربية الموروثة بفضل تتابع الهجرات المتلاحقة ، والتى كانت تحمل دائمًا فى ركابها دمًا عربيًا جديدًا ، الأمر الذى حال دون غلبة التقاليد واللغات المحلية غلبة كاملة كما كان متوقعًا أن يحدث بين جماعات اتخذت الزوجات والسرارى من أهل الوطن الجديد ، الأمر الذى تحيا معه الحياة الشعبية والمحلية بامتصاص الوافدين ، وتكييفهم بعد صهرهم فى قالب الحياة المحلية فتدخل لغة الوافدين وتقاليدهم فى صراع مع منافساتها من المحليات . غير أن هذا الانتصار الذى كسبه العرب فى الجولة الأولى من صراعهم السلمى ، لم تكتب له الغلبة النهائية بعد أن نضب معين الهجرات المتلاحقة ، وبعد مضى الزمن الكافى فى الاصطراع الخفى بين العرب وأهل البلاد ، وكان أثر ذلك واضحًا فى العرب الذين اشتغلوا بالزراعة ومارسوا الحرف ، ولا شك أن دراسة علمية منظمة فى مختلف المهاجر سوف تكتشف الكثير عن التطورات ، التى حدثت كما تبين ما كان من روابط بين المناطق وبعضها ودراسة اللهجات المحلية وما أصابها من تغيير وتبديل سواء كانت عربية خالصة أو محلية ، سوف يزيل الستار عن مراحل الصراع فى البيئات الإقليمية المتباينة .

أحدثت الهجرات فى مراحلها المتعاقبة كما سبق أن أشرنا تطورات فى نظم الحكم ، وفى حياة المجتمع ومظاهر نشاطه الاقتصادية والسياسية فقد أزالت ما كان قائمًا من فوارق بين الراعى والرعية ، وما بينهما من عبودية مطلقة واستردت الرعية حريتها الفردية ، بزوال جهاز الحكم المتوارث وقيام التقاليد القبلية العربية بعد أن كانت مقاليد الحكم تنتقل إلى ابن الأخت أو ابن البنت : وصارت الأرض ملكًا للجماعة القبلية متمثلة فى شخص زعيمها ، بعد أن كانت ملكًا خاصًا لرئيس الدولة أو موقوفه على المعابد وكان الأهلون عبيدًا لا يملكون الأرض ، بل يعملون عليها لمصلحة الحاكم ورئيس المعبد أو من ينوب عنها(١١٨) وقر . ولم يكن ذلك النوع من التقاليد التى أقامها النظام القبلى من حيث زوال قدسية الحاكم وإختفاء الفوارق بين

---

(١١٨) المقريزى ص ٢٨١/ ٢٨٢ جزء ثالث . وقد كان ملك النوبة استعدى المأمون حين دخل مصر على هؤلاء القوم (النوبة) بوفد وفدهم إلى الفسطاط ذكروا عنه أناسا من أهل مملكته وعبيده باعو ضياعًا من ضياعهم ممن جاورهم من أهل أسوان وأنها ضياعه والقوم عبيد لا أملاك لهم وإنما تملكهم على هذه الضياع تملك العبيد العامرين (وكان أن أنكر النوبة الأقرار لملكهم بالعبودية وطالبوا بمعاملتهم كالمسلمين فى علاقتهم مع حكامهم ، أنظر نفس المصدر ٢٦٣/٢٦٤ عن مملكة علوة حيث يقول نقلا عن ابن سليم الأسوانى» وملكهم يسترق من شاء من رعيته بجرم وبغير جرم ولا ينكرون ذلك عليه بل يسجدون له ولا يعصون أمره على المكروه الواقع لهم وينادون الملك «يعيش فليكن أمره» .

الأهالى وصاحب السلطان ، وصارت الأرض توزع على الجماعة يقومون على استغلالها ، ودفع الجعل المعين لشيخ القبيلة أو زعيم الدار ، إلا مرحلة من مراحل التطور من النظام الاقطاعى المطلق إلى نظام يعطى للفرد نصيبًا من جهوده ، بعد دفع الإتاوة المعينة للزعيم الذى يقوم بدفع جزء منها لحاكم الدار . ولم يكن نظام توزيع الأرض الزراعية ، بين أفراد القبيلة عادلاً مطلقًا ، يقتنع به الجميع حتى لا يكون نواة للتذمر الذى يبدأ خفيًا ثم يتخذ طريقه نحو الظهور فى شكل أو آخر .

جاء المهاجرون من العرب تظاهرهم القوة المعنوية المستمدة من أسس الدين الجديد ، الأمر الذى أكسب هؤلاء القوم مظهرًا قويًا ، تضاءلت أمامه الروح المعنوية المحلية ، وكان من اليسير أن يستولى العرب على مشاعر سكان السودان الذين كانوا فى حالة من الإنحلال والفوضى ، التى أخذت فى الازدياد منذ اللحظة الأولى لدخول المسيحية فى البلاد . وقد كانت ربوع السودان بعد دخول المسيحية إليها بعيدة لحد ما عن متناول السلطان الأجنبى (البطلمى والرومى) الذى سيطر على مصر . وكان لزامًا والبلد تدين بالوثنية والعبادات القديمة ، أن يعمل رجال الكهنوت عند دخول المسيحية ، وقد كانت مقاليد الأمور الدنيوية والدينية فى يدهم ، أن يعملوا على تكييف رسالة الدين بالطابع المحلى الذى يخدم مصلحتهم الخاصة أولا . فكان هؤلاء الكهنوت أول من تقبل الدين الجديد ، واعتنقه ليحتفظ بمركزه فى المجتمع ليمارس تقاليده وعقائده الموروثة فى ظل الدين الجديد ، وحتى لا تفلت من أيديهم مقاليد الحكم التى توارثوها عن آبائهم وأجدادهم ، وقد ساعد التطاحن المذهبى بين اليعقوبية والملكانية على اضمحلال مركز البعثتين التبشيريتين ، فقد أرسل الأمبراطور جوستنيان بعثته للتبشير بالمذهب الملكانى كما أرسلت فى نفس الوقت الأمبراطورة تيودورا زوجته بعثة أخرى للتبشير بالمذهب اليعقوبى وكان ذلك فى حوالى عام ٥٤٣ ميلادية .

وحاول رجال كل من البعثتين ضم أكبر عدد ممكن من الأنصار إلى هذا المعسكر أو ذاك لتساعد الكثرة على التفوق على الفريق القليل العدد ، دون اعتبار إلى رسوخ العقيدة من عدمه ، وهكذا تحولت الجهود التبشيرية لغير الغرض الذى جاءت من أجله ، باستخدامها مختلف الوسائل والدعايات للقضاء على الفريق المضاد ، وطبيعيًا أن يكون ذلك على حساب الدين ،

الذى جاؤوا به مبشرين وقد أفاد هذا الوضع سكان البلاد وقادتهم لتثبيت أقدامهم فى ظل الرسالة الجديدة وهكذا استطاعت البلاد المحافظة على الكثير من تقاليدها فى ظل المعركة التى تبادل فيها كل فريق الغلبة إلى حين ، حتى جاء الإسلام إلى مصر فكانت أن تمكنت اليعقوبية التى أزرها العرب ، وهى دين الكنيسة المصرية من القضاء نهائيًا على الملكانية مذهب الباباوات الذى أيده الرومان وقد بقيت التقاليد الوثنية فالمسيحية المتوارثة فى صورة أو أخرى حتى يومنا هذا . ومن تلك التقاليد الباقية «الطاقية أم قرين» التى يلبسها الملوك وسوار الذهب(١١٩)» ومراسيم تقاليد الحكم للمشيخات الصوفية أو الإدارية ، ومنها أيضًا ما هو متبع فى استقبال إمام المسجد فى أيام الجمعة ففى بعض المناطق يستقبل الإمام عند باب المسجد ، ويسير أمامه حامل السيف الخشبى التقليدى أو «العكاز» حتى باب المنبر حيث يسلم إلى الإمام قبل صعوده المنبر(١٢٠) ومنها صليب الكحل على جبهة الطفل وعملية التغطيس فى الماء(١٢١) .

ويرجع بقاء هذه التقاليد وممارستها فى ظل الإسلام إلى تلك الجماعات من الأشراف واضرابهم ممن انتشروا فى دار الإسلام ، بعد ولاية عثمان رضى الله عنه للخلافة بعد أن منعهم الخليفة عمر بن الخطاب رضوان الله عليه من الهجرة ، وكان لهؤلاء وما تميزوا به من حرص على المال وطمع فى الاستكثار منه ، وهم فى ذلك إلى العقائد والرغبات التى استقرت فى أعماق نفوسهم من ممارستهم التجارة قرون عديدة كانت مقاليدها فى يدهم وهم سدنة البيت الحرام وقد أكسبتهم خبرة فى الأعمال الاقتصادية وولايتهم للقوافل ، الحنكة والدهاء ونفاذ البصيرة كما جعلتهم أن يزدروا بالقيم التى جاء بها الدين الإسلامى ، فى سبيل مصلحتهم القريبة والبعيدة ، فاستطاعوا أن يكيفوا الوضع الدينى الجديد بما يتناسب مع مغامراتهم بعد أن فقدوا طريقهم إلى الولاية والسلطان . وجاء فى مخطوطة «تاريخ سنار» . «وأيضًا فى مدة خلافة أمير المؤمنين هارون الرشيد قدم إليه جماعة من بر السودان وهو ببغداد وطلبوا منه أن يرسل معهم

---

(١١٩) أبوصالح الأرمنى ص ٢٦٠ ومقال كروفورد «الطاقية أم قرين» الذى نشر فى مجلة السودان فى مذكرات ومدونات ص ٣٤/٣٣٣ من المجلد السادس والعشرين (عام ١٩٤٥) ومما يجدر التنبيه إليه أن «القاف» فى «أم قرين» تنطق كحرف الجيم عند أهل مدينة القاهرة أو كالقاف الصعيدية .

(١٢٠) حامل السيف الخشبى «أو العكاز» هذا يمثل صورة من الصور التى ترمز إلى الوظيفة التى يحتلها الجندى وسنتعرض لهذا فى مراسيم تقاليد الحكم .

(١٢١) عملية التعميد .

علماء يعلموهم أمور الديانة فأرسل معهم سبعة علماء من بنى العباس ووصلوا إلى دنقلة وأقاموا بها وتناسلت منهم ذرية[١٢٢] كثيرة» وإذا رجعنا إلى كتاب الطبقات نجد تصويرًا لحالة البلاد الفكرية والروحية ، كما تناقلتها الأجيال حتى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى ، حيث دونها الشيخ ضيف الله فى طبقاته[١٢٣] وليس من شك أن كثيرًا من التعديل تغيير وتبديل قد أصاب الروايات التى أخذت سبيلها عن طريق النقل الشفوى من جيل إلى جيل وقد بعدت الشقة فى بعض التراجم لأكثر من ثلاثة قرون وهذه الفترة الطويلة كفيلة بإحداث ما نجده من خوارق العادات وكرامات أراد بها ناقلوها وهم اتباع هذا الشيخ أو ذاك أن يرفعوا من قدره بالنسبة لغيره . ويجدر بنا أن نذكر ما للبيئة المحلية والزوجات والسرارى من أهالى البلاد من أثر فى تكييف الحال التى كانت تختلف باختلاف مناطق نفوذ رجال الدين الذين لم تكن تربطهم سياسة دينية موحدة بل كانت هناك منافسات بين أولئك المشايخ مصدرها التلاميذ ومن تشيع للعلماء من أنصار ومريدين .

ان هذه الظاهرة ظاهرة التشيع لأصحاب السجاجيد ، ورفعهم إلى مراتب الكشف عن الغيبيات والاتيان بالمعجزات وخوارق العادات تصور لنا ما كان عليه المجتمع من تدهور فى حياته المعيشية الأمر الذى دفع أفراده إلى الالتجاء إلى هؤلاء الرؤساء الروحانيين طلبًا للنجدة والغوث فى قضاء الحاجات ، من دفع للأذى والضر وجلب للمنفعة والخير والمثوبة عند الله تعالى وصرف للعدو ولم تكن هذه الحالة من المعتقدات فى الشعوذة والسحر وما إلى ذلك[١٢٤] وليدة

---

(١٢٢) بنصه من مخطوط تاريخ ملوك السودان وأقاليمه ص ٢ ـ دار الكتب المصرية (صورة شمسية نقلا عن المخطوط المحفوظ بالكمية الأهلية بباريس تحت رقم ٥٠٦٩) .

يبدو أن هذا الطلب قد تقدم به بعض حاشية قيرقى ابن كبير النوبة زكريا بهنسى الذى قدم على المعتصم (٢٠٨ ـ ٢٢٧ هـ ـ ٨٣٣ ـ ٨٤٢م) لتسوية مشكلة البقط المتأخر كما يبدو أن قيرقى قد صحب نفر من مسلمى دنقلة لتسهيل مهمته فى بغداد .

(١٢٣) قام بنشر كتاب الطبقات الأستاذ سليمان داود منديل فى عام ١٩٣٠ كما قام الأستاذ الشيخ إبراهيم صديق بنشرطبعة أخرى فى عام ١٩٣٠م بعد أن حقق ماجاء فيها وعلق عليه وهذا الكتاب جدير بالدراسة الخاصة فى مختلف نواحى الموضوع وفى مقدمتها تحقيق ماجاء فى الكتاب وتنقيته م اقد يكون مضافًا إليه لغرض ما .

(١٢٤) يتطلب موضوع «الشعوذة والسحر» دراسة دقيقة على أسس علمية فى محاولة لكشف أسرارها فهذه لاتخرج عن كونها أداة للسيطرة على عقول العامة وتسخيرهم كما كان يفعل رجال الكهنوت فى الوثنية والكثير من الأعمال التى يظن لأول وهلة أنها من المعجزات وخوارق العادات ومنها صناعة المطر واستخراج الذهب من بعض الزواحق بعد حرقها =

الهجرات العربية بل هى عريقة فى القدم توارثها القوم من آبائهم وأجدادهم عن أقدم العصور الوثنية عندما تمخضت عنها حياة مجتمع ارتبط بسلفه من الغابرين وغيرهم فى صورة أو أخرى من التقديس والتبريك ، وأخذت هذه المعتقدات تتطور مع انتقالها من عصر إلى عصر . وتمسك باحيائها فى العهد الإسلامى بعض الرجال الذين استأثروا بالتعليم الدينى وورث خلفاؤهم عنهم القيام بهذا النشاط وقد يكون رجل الدينى الأول عارفًا لرسالته قائمًا بها على وجهها الصحيح غير أن الأمر قد أصابه التعديل والتبديل جيلاً بعد جيل وبخاصة أن دخول أمثال هؤلاء العلماء للبلاد لم يكن متصل الحلقات . وكان للمرأة الوطنية أثرها الخطير فى تكييف الرسالة التعليمية فى نطاق التقاليد والعادات المحلية التى توارثتها عن بيتها ، وقد ساعد ذلك على جعل الإفادة من القرآن والعلوم النقلية محدودة وصار طلاب العلم يحفظون عن ظهر قلب ما يرويه مشائخهم دون المعرفة والعمل على تبسيط المعارف ونشرها لتساهم فى تقويم المجتمع . وآية ذلك أن مسألة الزواج والطلاق كانت تباشر دون استكمال العدة الشرعية فى الوقت الذى كان فيه علماء الدين (الفقهاء) يمارسون نشاطهم .

وسرعان ما اختفت الشخصية العربية فى المناطق المنعزلة التى اختلطوا فيها بالكثرة من السكان المحليين وكان من الطبيعى أن تتأثر المقومات التى جاء بها الإسلام وتختلط بالتقاليد والعادات الموروثة كما سنبينه فيما بعد ، وبهذا صار المجتمع تربة صالحة تنمو فيها الدعوات التى تبدأ مرحلتها الأولى بالتوجيه إلى الإصلاح ثم يتحكم فيها الأنصار والأتباع فيفقد صاحبها سيطرته ويخضع للتيارات التى توجهه لتحقيق أهداف الجماعة أو الجماعات صاحبة المصلحة والتى كانت تتصيد الفرصة المواتية لتحقيق مطامعها بتشجيع الحركات الخفية ذات الطابع القومى وتقوم على رعايتها حتى تستكمل مظاهرها وتستهوى الاتباع وعند ذلك تعمل الجماعة أو الجماعات ذات المصلحة على توجيه الحركة نحو أهدافها الحقيقية ويجد الزعيم نفسه ، وقد جرفته الحركة عاجزاً عن ملاحقتها فى خطاها . ويرجع ضعف القائم على الدعوة وعجزه عن السير بها فى طريقها الذى رسمه لها إلى أسباب نفسانية فهو قد اعتكف فترة من الزمن طويلة أو قصيرة فى نوع من الاستذكار والعبادة فى خلوات قد تستمر لأيام وشهور على غذاء من القلة

= وغير ذلك مما لا يسمح المجال بالتوسع فى ذكره فهذا يرجع إلى «مهارة علمية» يستخدم فى انجازها بعض العناصر التى تساعد على عملها .

بمكان ويخرج بعد أن يشعر ببلوغه المرتبة التى تمكنه من إظهار دعوته . والفكرة أصلاً قد قامت فى باطنياته ثم صهرتها فترة الاعتكاف وأعطتها الصورة المناسبة ، ولا شك أن هؤلاء بعد خروجهم من خلواتهم يكونون فى حالة عصبية مرهقة ، بسبب الاجهاد الطويل والصوم وبذلك تكون الأعصاب قد تحطمت تحطيمًا بالغًا فتفقد قدرتها على الاستمرار على تحمل الأعباء فى نواحيها المختلفة ـ وأنى أعرف أكثر من حالة نادى فيها أصحابها بأن أحدهم «نبى الله عيسى» وثان بأنه «قطب الزمن» الخ الخ . . وقد استطاع أهلهم حجزهم لفترة من الزمن قاموا فيها على رعايتهم وبذلك هدأت أعصابهم وعادوا إلى صوابهم .

ولهذا نجد أن البلاد لا تخلو فى سنة من سنى حياتها الطويلة من قيام أكثر من حركة اتخذت مظاهر مختلفة فبعضها يستشرى ويحدث أثرًا بعيدًا يكون فى الغالب معطلاً لتقدم الحياة اليومية وهذا النوع يسلك مسلك العنف فى دعواه ونشرها وتلتف حوله الجماعات من المتزمتين التى تجد فى مثل هذه الدعوات ما يفرج عنها كربتها . وهناك دعوات لا يلجأ زعماؤها إلى العنف بل تأخذ طريق اللين والمسايرة بما يتمشى والحياة اليومية وتكتب لهذا النوع الغلبة والبقاء .

وتتميز الدعوات التى تستشرى وتعطل تقدم الحياة بظهورها فى المناطق المنعزلة التى يغلب فيها العنصر المحلى حيث تلقى مثل هذه الدعوات من الأنصار والمريدين ما يساعد على امتداد السيطرة إلى مناطق أخرى لا تستطيع الوقوف أمام التيار أو أنها تجد فى الدعوة الجديدة مخرجًا لها من حالة قائمة لا ترضاها .

ونذكر عن سبيل المثال لا التحديد بعض الحوادث التى حصلت فى أوائل القرن الحالى .

عام ١٩٠٣ قام محمد أمين الشريف البرناوى (نسبة إلى برنو) بحركة دينية فى «دار جمع» انتهت باشتباكه مع إدارة السودان والقبض عليه وشنقه فى الأبيض .

عام ١٩٠٤ ادعى محمد ود آدم بأنه «نبى الله عيسى» وقد قتل فى معركة مع الجنود فى سنجه .

عام ١٩٠٤ ذهب حسن ود حسونة من «أبى دليق» بالبطانة إلى كردفان وأثار حركة دينية إنتهت بالقبض عليه وعند التحقيق ظهر أن هدفه كان لجمع المال كما ورد فى المصادر الرسمية ، وقد أفرج عنه بضمان «حسن السير والسلوك» .

عام ١٩٠٨ اشتبك «عبد القادر ود حبوبه» فى الكتفية بالجزيرة مع إدارة السودان وتقول الدوائر الرسمية أن عصيان «ود حبوبه» يرجع إلى حكم أصدره مفتش المركز لصالح عمه الشيخ عبد الله مساعد العمدة وأخيه محمد ، وذلك فى منازعة عن أرض طالب ود حبوبه بردها إليه . أما الأسباب التى تختفى وراء هذه الحادثة هى أن رجال المساحة المصرية الذين عهد إليهم بالقيام بتخطيط أرض الجزيرة تمهيداً لمشروع زراعة القطن قد وضعوا أوتاداً حديدية لتحديد المناطق غير أن رجال ود حبوبه قد قاموا برفع هذه الأوتاد بسبب اعتقادهم بأن مثل هذه الأوتاد سوف يمنع المطر الموسمى الذى تقوم عليه زراعتهم . فذهب المفتش مونكريف ومعه المأمور اليوزباشى محمد شريف إلى «ود حبوبه» فى قريته وعندما قابله المفتش وجه إليه عبارات لوم قارصة إلى الحد الذى دفع بعض أنصاره أن يطعنوا المفتش طعنات أفضت إلى موته وقتل معه المأمور . وأخذت هذه الحادثة صورة خطيرة أقلقت إدارة السودان ومرجع ذلك إلى قرب عهدها بنهاية المهدية وعلاقة «ود حبوبه» بذلك النوع من الحكم . فأرسلت القوات من الجيش المصرى إلى الجزيرة وقامت الدوريات النيلية فى النيل الأبيض بين الخرطوم وكوستى ظنًا بأنها حركة من المهدويين واسعة النطاق وانتهت الحملة بهزيمة أنصار ود حبوبه الذى قبض عليه بعد ذلك وقتل مع بعض أتباعه شنقًا وسجن آخرون وقد أقامت هذه الإجراءات ضجة فى الصحف المصرية وفى العام الإسلامى .

عام ١٩٠٩ و١٩١٧ . وهناك حوادث بين ١٩٠٩ و١٩١٧ منها حادثة فى الرماش بجوار سنجه والثانية فى كسلا .

عام ١٩٢١ قام الفقيه عبد الله السحينى بدعوته فى مركز نيالاً وانتهت باخماد ثورته .



وقد يبدو غريباً أن تظهر هذه المحاولات الانقلابية أو الحوادث العنيفة فى مثل هذا العدد فى هذه الفترة القصيرة من الزمن فى الوقت الذى تنعدم فيه كلية مثل هذه الحالات من الحوادث العنيفة فى عهد السلطنة السنارية وفى الستين سنة الأولى من امتداد الإدارة المصرية إلى السودان أى من عام ١٨٨٠ . ففى الثمانين من القرن الماضى (١٨٨٠ ميلادية تقريبًا) بدأت الزوبعة تتجمع ولم يمض طويل وقت حتى تمخضت عن حركة مهدى السودان فى مظهرها

العنيف . كما سنبينه فى الكتاب الثالث من هذه الدراسة . وبعد وفاة المهدى ببضعة أعوام قام أبو جميزة بدعوته فى دارفور وناصره الكثيرون ومنهم الأمير أبو الخيرات من بيت سلاطين الفور ومطالب بالعرش(١٢٥) وكان هدف أبو جميزة أن يغزو أم درمان ليقضى على حكرمة الخليفة عبد الله التعايشى لولا أن عاجلته المنية وعجز خليفته عن القيام بتنفيذ خطة سلفه كما أن الحركة لم تأخذ مرحلتها الأولى الكافية لتمكين أبو الخيرات من السيطرة عليها توجيها لتخدم مطامعه .

وهناك حادثة أخرى حدثت فى النصف الثامن من القرن السابع عشر الميلادى وذلك عندما ذهب الشيخ حمد النحلان ابن محمد البديرى المشهور «بود الترابى» إلى الحجاز لتأدية فريضة الحج وهناك فى مكة نادى بنفسه «المهدى المنتظر» فمسك الحجاج بتلابيبه وأوسعوه ضربًا وحبس من صحبه ثم أطلق سراحه . وقد أرسل هذا الشيخ تلميذه «ميرف» إلى سنار لاعلان دعوته بأنه «المهدى المنتظر» فأمر الملك بادى أبو دقن بقتله وهكذا قضى على هذه الدعوة . ولما عاد الشيخ محمد النحلان إلى السودان كان قد تخلى عن عودته وكرس حياته فى العبادة(١٢٦) .

وقد يبدو هذا عجيبًا حقًا إلا أن هذا العجب سوف يتلاشى فيما أرى إذا رجعنا إلى ما جاء فى كتاب الطبقات والروايات المحلية . فالطبقات قد ذكرت تراجم حوالى خمسين ومائتين من الشخصيات الدينية التى كان لكثير منهم . كما أوضح الكتاب المذكور مراتب صوفية وكرامات ظاهرة . فمنهم «قطب الوجود»(١٢٧) و«حامل لواء أهل الأعيان» و«الأربعين الذين وصلوا القطبانية» الخ لخ(١٢٨) وهنالك عدد كبير من الشخصيات الدينية لم يذكرها صاحب الطبقات

---

(١٢٥) ظهر أبوجميزة بدعوته الدينية فى ١٨٨٨م وقد حدث أن استدعى الخليفة عبدالله التعايشى الأمير زقل من دارفور تاركًا يوسف ابن السلطان ابراهيم على ادارتها ولما ظهرت اتجاهات يوسف إلى الاستقلال أرسل الخليفة . عثمان جانو أمير كروفان لكبح جماحه ، غير أن يوسف قد هرب إلى جبل مرة حيث قتل فى ١٨٨٨م . ونادى أخوه أبو الخيرات بنفسه سلطانًا وانضم الحركة التى تزعمها أبو جميزة ولكنه فشل بعد وفاة هذا الزعيم الدينى ، ولم يكن خليفته من الكفاءة بمكان .

(١٢٦) انظر كتاب الطبقات ص ٦٠ .

(١٢٧) المصدر آنف الذكر ص ٨ ترجمة الشيخ الزين أبن الشيخ صغيرون .

(١٢٨) أنظر كتاب الطبقات ترجمة «عبدالرحمن بن جابر» ص ١١١ وتراجم تلاميذه الذين بلغوا درجة القطبانية .

لسبب أو آخر . سواء لعدم وصول أخبارهم إلى الشيخ ود ضيف الله أو أنهم عاشوا فى زمن لاحق لكتابة الطبقات غير أن الفقهاء فى مختلف المناطق فى يومنا هذا يحتفظ كل منهم بسلسلة من أسماء الفقهاء من أهله وأهل منطقته ولكل من هؤلاء روايته عن مفاخر أولئك الفقهاء وما وصلوا إليه من مراتب عالية فى التصوف . ومن هذا أجد أن الفترة التى تولى فيها السلطان السنارى والستين عامًا من امتداد الإدارة المصرية إلى السودان أى الفترة من حوالى ١٥٠٠م إلى ١٨٨٠م لم تخل سنة من سنواتها من هذا النوع من الحركات الدينية مع اختلاف واضح فى مظاهرها . فبينما نجد أن الحركات التى حدثت بعد ١٨٨٠م حتى ١٩٢١م . قد سلكت مسلك العنف الذى فرضه الفراغ المفاجئ الذى تسبب عن الإسراف فى إلغاء الرقيق وهو دعامة اقتصادية أساسية فى قسوة بالغة على يد أجانب أطلقت لهم الحرية فى إدارة البلاد السودانية فأفسدوا الجهاز الإدارى وتعطلت الحياة الاقتصادية وكان من نتيجة ذلك قيام الثورة المهدية التى سوف نتعرض لها فى القسم الثالث الخاص بامتداد الإدارة المصرية إلى السودان . أما الحركات التى ظهرت قبل ١٨٨٠م فقد اتخذت صورة بعيدة عن العنف فقد كان التنافس قائمًا بين الفقهاء وأتباعهم كما أوضحنا من قبل وكانت العلاقات بين الزعماء الدينيين المحليين والحكام على خير ما يكون بل وصلت الأمور إلى أبعد من هذا فقد كانت لهؤلاء الفقهاء الكلمة العليا فالسلاطين يتقبلون وساطاتهم ويستجيبون لها . كما كان السلاطين والحكام يلجأون إلى الفقهاء طالبين منهم الدعاء لقضاء حاجاتهم وحل مشكلاتهم وشفاء مرضاهم الخ الخ[١٢٩] ولاشك أن الفقهاء فى تلك الفترة التى سبقت عام ١٨٨٠م قد شغلوا مرتبة الرئيس الدينى فى المنطقة وبجوار هذا تضاءلت سلطة الملك أو الزعيم المحلى . وقيام هذا النوع من الحكم الذى تتوزع فيه السلطات بين اثنين «رئيس دينى» و«رئيس مدنى» لم يكن غريبًا على المجتمع لما ورثه عن أسلافه من عادات وتقاليد قديمة الأمر الذى سنتعرض له فى القسم التالى .

---

(١٢٩) أنظر خطاب الشيخ محمد بن الوزير الشيخ عدلان وزير السلطان بادى آخر سلاطين الفنج إلى الشيخ أحمد بن إبراهيم الفرضى . (الملحق السادس) .

٥ ـ المجتمع:

(ب) نظام الحكم:

كانت مقاليد السلطان فى العهود التى سبقت سيطرة العرب القبلية قائمة على أسس دينية يتولى تصريفها رجال من طبقة الكهنوت يتبادلون السلطة على نحو ما كان يفعله اضرابهم فى مصر التى ورث عنها هؤلاء فى الشطر الجنوبى الوادى (السودان) . فالملوك مؤلهون يعاونهم رجال الكهنوت ، وقد انطبعت هذه النظم بالطابع المحلى الذى تأثر إلى درجة بالغة بمجريات الأحوال فى الشمال وبما أصاب حياة المجتمع من دخول الجماعات الإفريقية البدائية فى دائرة نفوذ حكومات جنوب الوادى . وقد بقيت هذه النظم فى صورها المختلفة حتى الفترة التى بدأت فيها الهجرات العربية تشق طريقها نحو الجنوب فى مجموعات متلاحقة اختلطت بالسكان المحليين وصاهر زعماء القبائل العربية بيونات الحكم فى المواطن التى استقرت فيها رحالهم وتمكنوا عن طريق هذه المصاهرة من ولاية السلطان تدريجيًا وكان لزامًا أن تترك المرأة الوطنية صورة من تقاليدها ومعتقداتها التى ورثتها عن بيتها فى أبنائها ومن هؤلاء الأبناء من تدرج لولاية الحكم بحق وراثة أبناء الأخت أو أبناء البنت وكانت مقومات السلطان قائمة على عناصر متشابكة من الدين والتقاليد والمعتقدات ذات الجذور البعيدة العمق فى حياة المجتمع ولم يكن من اليسير أن تقتلع هذه العناصر بل قدر لها أن تصطرع فى عراك خفى مع عناصر الحكم ومقوماته التى جاء بها المهاجرون .

قامت زعامة العنصر الوطنى للحكم على علاقة وثيقة الارتباط بالدين وبممارسة أنواع من السحر والشعوذة والتى ترتبط بدورها بحياة المجتمع ومظاهر نشاطه . قد تكون المراحل الأولى لانتقال الحكم لأبناء العرب أثرها فى اختفاء بعض المقومات التى قامت عليها الزعامة الوطنية وذلك بعد أن بسط العرب سيطرتهم وممارستهم للحكم حسب التقاليد القبلية العربية ـ غير أن هذا الاختفاء كان مؤقتًا فبدلاً من أن يمارسه الزعيم العربى قد قام بجانبه الفقيه الدينى الذى اختص بأمور الدين والسحر والشعوذة فى شكل أو آخر كما أشرنا إليه فى الصفحات الأولى من هذا الباب ولم يحتفظ الزعيم العربى إلا ببعض المظاهر التى تمت بصلة للدين والسحر منها خروجه فى المواسم لبذر أولى البذور وغيره من الاحتفالات وفقًا للتقاليد المرعية التى يتولاها

الزعيم بحكم صدارته . ولم يكن انتقال السلطان إلى العرب ومن قام بجانبهم من الفقهاء عاملاً على إحداث تغييرات ذات أثر فى المجتمع فى حياته اليومية التى استطاعت أن تكسب الغلبة وأن تبقى فالنظم العربية قد أعطت الوطنيين حقوقًا خرجت بهم من استعباد الحكام السابقين للعرب وجعلت للفرد كيانًا تساوى فيه مع العرب غير أن ذلك لم يقطع صلة الوطنين بماضى تنظيمات مجتمعهم . ليس من السهل أن تحل نظم جديدة مكان نظم قديمة ما لم تكن ـ هذه النظم الجديدة متمشية مع التطور الطبيعى للأشياء والأحداث رد فعل بعيد الأثر فى تهيئة الأرض الصالحة للانقضاض على هذه النظم الجديدة عندما تحين الفرصة لذلك . بصرف النظر عن صلاحية هذه النظم الجديدة وتفوقها على القديم الموروث فالمسألة يتحكم فيها الرأى الوطنى وفق تكوينه الاجتماعى الخاص به والذى يحدد عقله هو ما يتمشى مع طاقته وحاجياته اليومية .

توارثت طبقة رجال الكهنوت الحكم فى المدن الكبيرة وتولى أقاربهم وأنصارهم حكم المناطق الريفية وكان انتقال الحكم محصوراً فى أبناء الأخت وأبناء البنت كما سبق أن أوضحنا . وكانت الأرض الزراعية ملكًا خاصًا لأولئك الحكام أو موقوفة على المعابد الدينية وهى فى ذلك صورة لما كانت عليه فى شمال الوادى مع اختلاف لا يعتد به لقيام معبودات محلية بجانب المعبودات المصرية . وقد ترك للمواطن العادى العمل على الأرض وفلاحتها وكان عليه أن يتقبل ما يجود به عليه مالك الأرض لاستقامة حياته التى لم تكن بأحسن مستوى معيشة الرقيق الذى استخدم بكثرة فى الزراعة ورعى الماشية والخدمة البيتية كما جند لخدمة الحاكم فى حروبه وغاراته التى يشنها على أعدائه . وقد عملت حالة المناخ فى المناطق المختلفة على الاستكثار من تملك الرقيق إلى الدرجة التى صارت معها جميع الأعمال اليدوية شاقة أو خفيفة موكولة إلى سواعد الرقيق . وقد توارث القوم هذه التنظيمات الاقطاعية التى قامت أساسًا على الرقيق الذى صار حجر الزاوية فى حياة المجتمع وسوف نتعرض فيما بعد إلى أثر هذا العنصر فى مجريات ما حدث من ثورات وقلاقل .

ومما يجدر ذكره أن الزراعة قد احتفظت بأسسها البدائية ولم يصبها تطور من ناحية النوع أو الإكثار من المحصول لأغراض تجارية أو من ناحية الآلات التى كانت استخدم فى فلاحة

الأرض . وبقيت الزراعة محصورة فى الأذرة(١٣٠) بأنواعها الخاصة بمختلف المناطق ويعتمد فى زراعة هذه الغلة على الأمطار الموسمية التى كانت كثرتها وقلتها من موسم لآخر تتحكم فى المحصول الإنتاجي وقامت بجانب هذا المحصول الغذائى الرئيسى بعض الزراعات المحدودة من خضر وفاكهة لسد الحاجيات المحلية ويتم التبادل التجارى عن طريق المضايقة وكان الرقيق والريش والعاج وبعض المصنوعات الجلدية والذهب والمنسوجات القطنية المعروفة بالدمور من السلع التى تستبدل بالتجارة الواردة مع القوافل .

كانت البلاد عند دخول الهجرات العربية الجماعية فى حالة من الإنحلال والتطاحن بعد ما أصاب مدنية البلاد من تدهور فى أعقاب الهجوم الاتيوبى الذى شنه النجاشى عيزانا على مروء فى منتصف القرن الرابع الميلادى . فقد صارت البلاد منقسمة شيعًا متفرقة يحارب بعضها البعض الأمر الذى جعل الروح المعنوية المحلية تتضاءل وتخبوا أمام الروح القومية التى حملها المهاجرون من العرب والمستمدة من الحماس الدينى الإسلامى وقد أخذ هؤلاء المهاجرون فى العمل على بسط سيطرتهم التدريجية حتى آلت إليهم مقاليد الحكم وتمكنوا من إدخال التنظيمات العربية القبلية على المجتمع المحلى . وكان من تلك التنظيمات ما يتمشى مع التطور الطبيعى لتقاليد محلية وكان البعض الآخر تطورًا مفاجئًا للحالة القائمة وقد أصاب ذلك حياة المجتمع بتصدع عميق الأثر فى حياة الأسرة وعلاقتها مع الزعيم والأرض الأمر الذى قام على روابط دينية . فقد تولى شيخ القبيلة الحكم فى مجموعته القبلية ومن سكن معهما فى دارها من العشائر المتحالفة وسار الحكم وراثيًا فى بيت الشيخ . وتكونت من مجموعات القبائل بحكم الرقعة الأقليمية التى اتخذتها ديارًا لها زعامات أقليمية تولاها «شيخ المشايخ» الذى يكون عادة شيخ أقوى قبيلة فى المجموعة وقد عرف هذا اللقب فى عهد السلطنة السنارية باسم الملك(١٣١)

---

(١٣٠) ورد ذكر الأذرة فى كتب الرحلات كغذاء رئيسى فى البلاد كما زرع القمح فى المناطق الشمالية (دنقلا) ويبدو أن الأذرة الشامية قد دخلت البلاد مع العرب بعد قيام السلطنة السنارية وهذا النوع من الأذرة يعرف فى البلاد باسم «عيش الريف» ويقصد بالريف «شمال الوادى» وتعرف أيضًا باسم «قنقر» (قاف صعيدية) وهذه نوبية معناها أوراق القمح ويجدر القيام بدراسة يقصد منها التعرف على تحقيق دخول النباتات التى لم تكن معروفة قبلا سوف تكشف عن العلاقات الاقتصادية بين البلد ومصادر انتاج الأنواع المستوردة .

(١٣١) يرجح أن أصل هذه الكلمة من الأثيوبية حيث معناها عظيم كما ذكره بدج فى كتابة المصرى جزء ٢ ص ٢١٢ .

أو المانجل[١٣٢] وتستعمل كلمة «أرباب» مع هذين اللقبين للتكريم الرفيع وتطلق أرباب على أفراد الأسرات المالكة .

وكان الشيخ يمارس مسئولياته فى مجلس الأجاويد وذلك فى المسائل الخارجية عن سلطاته التقليدية التى يباشرها بشخصه وهذه تتلخص فى توزيع الأراضى الزراعية على رؤساء البيوت وأن يحافظ على حقوق القبيلة فى الأراضى التى تحتلها والأبار التى تستخدمها الطرق والمفازات (العقبات) الواقعة فى حدودها الأقليمية وإذا كانت القبيلة ضاربة القبيلة فى الصحراء فشيخها يتولى إصدار أمره بالرحيل والنزول والقيام فى مواطن المرعى الموسمية وتختص كل قبيلة بموطن مرعاها الخاص بها والذى يحدد عادة بأشجار مطلة على حدوده الأربعة ويفضل زراعة الأشجار عن وضع أحجار بسبب أن موجات زحف الرمال تنكسر عند الأشجار وتطغى على الأحجار وتخفى أثرها . وعلى الشيخ أن يكون عارفًا بتقاليد القبيلة وتقاليد القبائل المجاورة لها فى الدار وأن يكون حافظًا للأنساب وأن يقوم باتضافة الغرباء الذين ينزلون دار القبيلة وفى بعض القبائل يأخذ الشيخ على عاتقه مسئولية ما يحدث فى حدود دار قبيلته من حوادث يدفع التعويض ودية الدم . بهذا حق له أن يحصل على جانب من المال أو الغلة ويحتفظ به لمصلحته .

كما كان على الشيخ أن يتولى تنظيم إقامة الأعياد التقليدية وغير ذلك من العادات القائمة فالشيخ بذلك رمز القبيلة يتولى إدارة شئونها الخاصة والعامة ويفض مشاكلها وينظم علاقاتها مع شيخ المشايخ . وهو الذى يقوم بجمع العشور عن الأرض الزراعية والتى تكون عادة هينًا ويرسل جزءاً منها إلى شيخ المشايخ وهذا بدوره يدفع جانبًا إلى خزينة السلطنة السنارية عند قيامها على رأس اتحاد المشيخات فى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى (التاسع الهجرى) .

فإذا قارنا بين تنظيمات المجتمع التى توارثها القوم وبين ما استحدثه العرب نجد أن الوطنى قد استرد شخصيته وكيانه فى المجتمع كما استرد حريته فى أرضه التى يستغلها بزوال الفوارق بينه وبين حكامه من الغابرين وصار عليه أن يدفع للزعيم القبلى المحلى المقرر من الضرائب وكان من

(١٣٢) أطلق هذا اللقب على زعماء قرى (قاف صعيدية) خشم البحر الدندر ـ القضارف بيلا ـ دنقلا ـ الكيلى ـوامتد فى زمن لاحق إلى زعماء القضيات (ينطق القاف أحيانا غينا) والبديرية من قبائل كردفان . وتعرف هذه المناطق باسم المانجليات مفردها مانجليه نسبة للمناجل ـ وهذا لقب لم يتحقق مرجعه بعد تحقيقا يختفى معه الشك ويعتبر هذا من أرفع ألقاب السلطنة السنارية أنظر هامش/ ٥٢ .

نتيجة هذا التطور دخول تحسين على مستوى المعيشة للأفراد وتبعًا لذلك فتحت آفاق جديدة غير أن طريق التطور والتقدم قد أصيب بنكسة (أولاً) بسبب ما أصاب شمال الوادى من تدهور وانحلال وتطاحن تحت حكم المماليك وكان لهذا أثره فى العلاقات بين شطرى الوادى وبخاصة من الناحية الاقتصادية لتوقف التبادل التجارى (ثانيًا) أن التغييرات الذى استحدثها العرب فى الزعامة القبلية والعائلية والأرض اقتلع جذوراً بعيدة العمق فى حياة المجتمع وتقاليده الدينية . ورغم أن هذا الإصلاح قد أدخل تحسينات لها قيمتها إلا أنه لم يأخذ طريقه الطبيعى للتطور فى فترات كافية تسمح لقبول الإصلاح الجديد والدفاع عنه .

وتأثرت بلاد جنوب الوادى (السودان) بالحالة التى قامت فى شمال الوادى (مصر) وتعطلت معها التجارة فاختل الأمن وكثر التعدى بسبب الصراع الذى دفعت إليه الأطماع القبلية وكان من نتيجة هذه المطاحنات اشتداد الضيق الاقتصادى والانحلال الاجتماعى . وكان أثر هذه الحالة واضحًا فى الجزء الشمالى من جنوب الوادى (النوبة السفلى) لاتصاله الوثيق بشمال الوادى حيث أخذت الأحوال فى التدهور كما أوضحنا وتأثرت المنطقة الوسطى من البلاد بالنشاط العربى على ساحل البحر الأرتيرى وقد امتد هذا النشاط نحو حوض النيل الأزرق وشق طريقه نحو المشيخات المترامية فأدخل فيها روحًا جديدة من الانتعاش الاقتصادى الذى خلق العناصر المشتركة التى مهدت لقيام حلف بين المشيخات مع السلطنة السنارية .



(جـ) التنظيمات الاقتصادية:

قامت الحياة اليومية للفرد والمجتمع على أسس وثيقة الارتباط بالعقيدة الدينية التى كفلت مطلق التصرف للزعيم المحلى الذى يختار عادة من رجال الدين كما سبق لنا شرحه . وكانت الأرض هى الركن الأساسى الذى نشأت عليه العلاقات بين الزعيم والعامل على الأرض . واختص الزعيم بملكية الأرض بوصفه صاحب السلطان وهو الذى يجرى توزيعها على أصحاب البيوتات من رعيته بالقدر الذى يتناسب مع إمكانياتهم على العمل الزراعى . وكان التوزيع فى كثير من الأحوال مثار مشاكل ومصدر تذمر وقلق . فقد يعتبر الزعيم أن ما قام به توزيعًا عادلاً بينما يرى العاملون على الأرض غير ذلك . وبقيت ملكية الزعيم للأرض قاعدة سارت عليها

المجموعات العربية فى صورة تتناسب مع تقاليدهم وما ألفوه فى مواطنهم الأولى وفى معابر هجراتهم وصارت الملكية للأرض فى عهد العرب معترفًا بها وحددت العلاقات بين الملكية الجماعية للقبيلة صاحبة الدار كطرف أول وبين العامل على الأرض والمنتفع بها كطرف ثان هذا فيما يختص بالأراضى الزراعية وهى الواقعة عادة فى المناطق التى تجرى فيها المياه المستديمة الجريان أو الموسمية ، أما عرب البادية فكانت علاقاتهم بالأرض مختلفة كل الاختلاف عما هى عليه فى الحضر . وكان من أثر حالات التدهور التى أصابت شمال الوادى وجنوبه فى القرن الخامس عشر الميلادى ما ساعد على ركود العلاقات التجارية وصار كل من شطرى الوادى فى عزلة . وتوقف دفع البقط بأيلولة مقاليد الحكم للعرب فى جنوب الوادى وكان طبيعيًا أن تصاب العلاقات بتوقف تام لما بين العرب فى الجنوب والمماليك فى الشمال من تنازع وصراع .

وقد ورث العرب التنظيمات المحلية الخاصة بالأرض التى كانت متبعة فى المناطق التى اتخذوا فيها مهاجرهم وقد اختلفت هذه التنظيمات بعض الشىء بين منطقة وأخرى ومرجع ذلك إلى ظروف البيئة والمناخ التى تحكمت فى إعداد الأرض للدورات الموسمية وعلى هذا الأساس صار تقدير درجة تربة الأرض كما هو مبين بالملحق رقم (٥) .

واحتفظ الزعيم بمساحة من الأرض لاستغلالها لمصلحته الخاصة وعرفت هذه باسم «العمارة» وكان الزعيم أو السلطان السنارى فيما بعد يتصرف فى جزء من أرض العمارة عن طريق الهبة خاصة للفقهاء الروحيين . وصارت هذه الهبات نواة للملكيات التى سمح للفقهاء وورارثيهم بالاحتفاظ بها واستغلالها لمصلحتهم .

وكان على العامل على الأرض[١٣٣] وعلى صاحب المال والتجارة والماشية أن يدفع كل فى حدوده ضرائب معينة كما هو مقرر فى جداول الملحق رقم ٥ وكانت هذه الضرائب بما فيها الفطرة والزكاة تدفع فى غالب الأحوال عينية بخاصة فى الريف والبادية البعيدة عن مراكز تجارة القوافل ، ويقوم نظام التعامل بالدفع العينى على أساس المقايضة . وبالإضافة إلى هذه الجبايات ، فقد كان من حق الشيخ المحلى للدار أو القبيلة الضاربة فى بطن الوادى ، أن يحصل ما يسد به المطالب التى يقوم بها بوصفه زعيمًا ، كالضيافة واقامة الأعياد التقليدية وغير ذلك . وكان على

---

(١٣٣) يعرف محليا باسم سيد السوقة (Sid - El M.su.q) .

الزعيم المحلى أو القبلى أن يدفع جزءاً مما يحصله لزعيم الدار الإقليمية ، وكان على زعيم الدار هذا أن يدفع نصيبًا إلى خزينة السلطان السنارى ، التى كما يبدو من خطاب السلطان عدلان (ملحق رقم ٤) إنها كانت قائمة فى العواصم الاقليمية ـ ولا يفوتنا أن نذكر أن الأهالى كانوا يدفعون ضرائب للرؤساء الروحيين المحليين فى صورة النذور أو الهدايا ، وقد كانت هذه مباشرة بين المواطن والشيخ ، ولم تكن محددة بل تركت لقدرة المواطن . وهكذا استمرت الأسس التى قامت عليها الجبايات ، وانتقلت من جيل إلى جيل ولم يكن للفرد ما يفيده منها ، بل كان يدفع ما يخصه للشيخ المحلى وهذا بدوره يدفع عن قبيلته أو داره إلى زعيم الدار الأكبر خزينة الذى يدفع المقررات إلى خزينة السلطان السنارى وقد كانت مقررات السلطان السنارى شكلية غير مجحفة كما أن الزعماء كانوا يحصلون ضرائبهم بنسبة القدرة الشخصية لا على أساس فرض رسم معين يتساوى فيها الجميع . كما كان الزعيم المحلى لا يحصل ضرائب من الفقراء ومتوسطى الحال .

ومما يسترعى الالتفات أن مراكز تجمع التجارة فى السودان التى اتخذتها القوافل محاطًا لرحالها ، كانت قليلة الأثر فى النهوض بالزراعة والصناعة والتعليم ـ النهوض الذى من شأنه أن يحدث تطورًا اجتماعيًا اقتصاديًا ، ويرجع ذلك إلى أن القوافل كانت أساسًا يتولى شئونها زعيم يتسلم السلع من مكان إلى مكان ، ويقوم بعملية التبادل ويعرف هذا الزعيم «بالخبير» ، وهو القائم على الإبل ورجالها ، وكانت طرق القوافل تسير بعيدًا عن المدن ، وتصور لنا هذه الحالة ما كان عليه الفرد والمجتمع من تأخر وركود ذهنى وجمود تعليمى ، ولم تكن حياة المدن فى تلك الآونة بأحسن حالاً من الحياة فى الريف .

وبالإضافة إلى ما تقدم فإن العلماء من رجال الدين وغيرهم الذين دخلوا البلاد من وقت لآخر لم يكن لهم كذلك الأثر المحسوس فى بعث شعور الفرد ويقظته للسير نحو مستوى للحياة أفضل . وكان شأن أولئك العلماء شأن أمثالهم من رجال القرنين التاسع والعاشر الهجرى الذين عرف عنهم التباغض والسعى لدى الحكام وأصحاب الجاه لقضاء مصالح الناس طمعًا فى عطاياهم .



قدمنا فيما سبق صورة من العلاقات بين صاحب الأرض المعروف محليًا باسم «سيد الأصل» سواء كان هو الزعيم القبلى أو الشيخ المحلى أو الملتزم القائم على الأرض وقد كانت هذه نظم «الاقطاع» فى الشطر الجنوبى من الوادى ، الأمر الذى لا يختلف كثيرًا عن نظم الاقتطاع فى الأقطار الشرقية . وإذا قارنا هذه الأسس مع مثيلاتها فى بلاد الفرنجة نجد أن الفارق شاسعًا بين الأهداف والغايات المرجوة من قيام الاقطاع . قام الاقطاع فى بلاد الفرنجة على أساس استغلال الأرض والانتفاع بها كمصدر من مصادر الاقتصاد الطبيعى لبناء دولة . فقد منح الزعيم سواء كان ملكًا أو أميرًا الأرض للأشراف والفرسان الذين كان من واجبهم الأول الولاء لصاحب الأرض ، وكان عليهم أن يحتفظوا بقوات مجهزة تجهيزًا كاملاً كما تقضيه ظروف العصر ، الذى عاشوا فيه وكانت هذه القوات مستعدة لتلبية نداء الزعيم بالاشتراك فى حربه لأعدائه . وهكذا كان على الشريف أو الفارس أن يقوم نيابة عن زعيمه بتكوين جيش ، يدفع له مرتباته وتكاليف تجهيزه ، ومن هذه التنظيمات نشأت فكره قيام «الدولة» بانتقال التزامات الإشراف والفرسان إلى «سلطة مركزية» وصار تمويلها عن طريق الجبايات المختلفة ــ أما الاقطاع فى السودان كما فى غيره من البلاد الشرقية فقد قام أصلاً على أساس دفع المال لصاحب الأرض وهو الأمير صاحب الزعامة التى تستند على العلاقات الدينية والمعتقدات التقليدية من سحر وغيره . فكان الزعيم يقوم بافتتاح الموسم الزراعى بصلواته ، كما كان يمارس طرد الأرواح الشريرة بالعزائم على الأرض عند استصلاحها للزراعة لأول مرة ــ وكان على العامل على الأرض أن يدفع ضرائب عينية شملت الرقيق الذى كان يستخدم فى العمل على الأرض وغير ذلك من الخدمات البيتية ، وكان على الزعيم القبلى أن يبعث بجزء مما يحصله من قبيلته إلى زعيم الدار وكان على الزعيم الأكبر أو السلطان السنارى أو ما نجل العبد لاب فيما بعد أن يكون جيشه ، ويحتفظ به فى عاصمته ويقوم رجال هذا الجيش بالعمل على أرض «العمارة» فى وقت السلم ، ويجمع أفراد هذا الجيش من الرقيق الذى تقوم الغزوات الموسمية ، التى تعرف فى بعض المناطق بالنهاضة ، بصيده من مواطنه فى المناطق البدائية ، وكانت هذه الغزوات مصدر كسب العيش للمشتغلين بهذا الغزو من رجال القبائل القائمة على حدود مواطن السكان البدائيين ، ومن هذا يتبين لنا أن العاملين على الأرض والزعماء المحليين فى المناطق الزراعية لم يرتبطوا مع الزعيم برباط الولاء . أما القبائل الضاربة فى الصحراء فتكاد علاقاتها مع الزعيم الأول أن تكون

غير قائمة ، وفى بعض الحالات التى تكون فيها دار القبيلة التى تسكن الصحراء قائمة على طريق تجارى فإن أتاوة تدفع لزعيم هذه القبيلة لتأمين الطريق للقوافل .

ونشأت عن هذا الظروف حالة من الركود والجمود ، الذى أدى بدوره إلى فوضى ذهنية تحكم فيها الفقهاء ، كما قام صراع خفى كانت من نتيجته خلق ضيق اقتصادى ، وتدهور معاشى ، وبخاصة أن البلاد قد تعرضت إلى وقوع مجاعات دورية فى كل سبع سنوات تقريبًا ، وذلك لاعتماد الزراعة اعتمادًا كليًا على الأمطار الموسمية التى تختلف من موسمٍ إلى موسم . ولم تكن فى البلاد نظم للرى والصرف والإفادة من مياه النيل وروافده .

وقد زادت الأمور تعقيدًا باختلال سير القوافل بين السودان ومصر حيث كان حكم المماليك قد دخل فى مرحلته الأخيرة ، قبل الفتح العثمانى لمصر فى عام ١٥١٧ ميلادية ، ولم يحدث هذا الفتح تحسينًا كبيرًا فى استقرار الأحوال بالنسبة للسودان .

هذا ما كانت عليه المشيخات الإسلامية فى حوض وادى النيل التى دخلت فى اتحاد مع السلطان السنارى وذلك حتى السنوات الأخيرة من القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) عندما انتقل ذلك السلطان إلى عاصمته الثانية فى «سنار» وسوف نتعرض لموضوع هذه السلطنة فى الكتاب الثانى من هذه الدراسة .

ولم نتعرض إلى بلاد كردفان (تقلى) ودار فور ، لأنها لم تدخل فى بادئ الأمر فى نطاق المشيخات التى تكوَّن عنها الاتحاد السنارى ـ ولأن دخول تقلى ودار فور فى محيط العلاقات السنارية لم يحدث إلا بعد تغلب العنصر الإسلامى فى تلك البلاد بعد قيام السلطنة السنارية فى حوض النيل الأزرق بفترات متباعدة .



الكتاب الثانى

السلطنة السنارية
فى حوض النيل الأزرق

معالم تاريخ سودان وادى النيل



السلطنة السنارية
فى حوض النيل



لقد استعرضنا مجريات الحوادث وتطورها ، فى الحقبة التى سبقت هجرة السلطان عميرة وأسرته من منطقة «الملم» إلى حوض النيل الأزرق فى السودان ، واتخاذه مدينة «سنار» ، التى أعاد عمارتها لتكون عاصمة للملكة فى تنظيماته الجديدة . كما أوضحنا حياة المجتمع فى السودان ، وأثر الهجرات العربية ، وما أدخلته على مظاهر الحياة ، وما كان من أثر الصراع الخفى ، الذى نشب بين المجموعات من المهاجرين من العرب والمجتمع الوطنى . وقد كان من أثر ذلك الاصطراع بدء حياة جديدة لها أسسها المستمدة من اختلاط المهاجرين والوطنيين وتزاوجهم .

وقد أوضحنا الظروف التى مهدت لقيام الحلف الاتحادى الذى تزعمه السلطان عميرة دونقس أول سلطان للبيت السنارى بعد انتقاله إلى حوض النيل الأزرق ، ولا نعلم على وجه التحديد الأسس التى قام عليها ذلك الحلف بين مختلف المجموعات القبلية والزعامة المركزية فى سنار ، والثابت أن هذا الحلف قد تدرج فى مراحل متعددة ، لم تلبث أن أخذت صورتها النهائية فى السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر الميلادى ، بقيام حلف من المشيخات والشيخ عبد الله جماع شيخ العبد اللاب بوصفه أقوى الزعماء المحليين فى تلك الفترة من الزمن ، والذى دخل بدوره فى حلف مع السلطان عميرة ، وبهذا تم الحلف الاتحادى فى صورته الأخيرة . وقد كان الشيخ عبد الله جماع ومقره فى «قرى» ، الزعيم المباشر للمجموعات القبلية من قرى حتى «حنك» فى شمال دنقله ، أما السلطان عميرة دونقس ، وهو الذى تميز بحمل اللقب «السلطان ـ دونقس[1]» ، فقد احتفظ بحق اختيار المرشح لتولى المانجلية

(١) اتخذ السلطان الأول عميرة أو عمارة لقب «دونقس» وهذه كلمة اليومية معناها «دو» أصلها «DJAN» و «NEGUS» ومعناها عظيم «نقس» معناها أى نجاشى وبذلك يكون اللقب «النجاشى العظيم» .

أو الشياخة[٢]، وقد جرت العادة بحكم الظروف القبلية المحلية، أن يكون هذا المرشح من بين أفراد أسرة بيت الزعامة القائم، ثم أن السلطان لم يكن له ليتدخل فى تصريف شئون المشيخات الداخلية، وفى علاقاتها بعضها ببعض، بل اكتفى بزعامته الرمزية، وحصوله على نصيبه من الضرائب والزكاة وغيرها التى كانت تدفع إلى خزينة السلطان المحلية [٣]، التى أقامها السلطان فى عاصمة كل دار أو أقليم، لكن تدفع إليها هذه المخصصات، ويصرف منها فى الأوجه التى يأمر بها السلطان، ولم تكن هذه الخزينة المحلية إلا فرعًا من بيت المال أو الخزينة العامة لمال المسلمين الذى صار السلاطين يتصرفون فى موارده، وفى اتجاهاتهم الخاصة غير مقيدين بالتشريعات الإسلامية، الخاصة بإدارة بيت مال المسلمين، وكان على السلطان كما ذكرت روايات العبداللاب أن يساعد قرى فى حالة الحرب.

وكانت موارد السلطنة زعيمة الحلف، كذا موارد الزعماء فى مختلف المناطق، ملكا للزعيم المحلى، وبالاضافة إلى ماكان يجمعه السلطان من منطقته التى يبسط عليها نفوذه المباشر، فإنه يتحصل على نصيب من العشور والضرائب، التى يجمعها المشائخ من مناطقهم، كذا على نصيب من الرقيق الذى تصطاده النهاضة فى المواسم، وكان للسلطان نصيب من الرسوم التى تحصل فى محطات الجمارك، وأهمها فى دنقله وقرى وتشلجه [٤]، وكان للسلطان وكلاء فى القاهرة وأسيوط وبعض المدن الأخرى مثل اسنا ودراو وأسوان، للقيام بالشئون التجارية الخاصة بالقوافل، والتى كان للسلطان نصيب وافر فى أموالها.

وكانت للسلطنة صلات وثيقة بالباشا التركى فى موانىء البحر الأحمر (سواكن ومصوع)، كما كانت لها علاقات خارجية مع اليمن التى كانت تستورد منها السيوف والدروع [٥]، ومع

---

(٢) المانجل «لقب يمنح الزعيم الدار» وهو أرفع ألقاب السلطنة بعد السلطان وتأتى بعده مرتبة الشيخ أو الملك وهو زعيم فى جزء هذه الدار.

(٣) راجع الملحق الرابع.

(٤) تقع تشلجه (Chelg) شمالى بحيرة تانا ـ داخل الحدود الحبشية وهذه الحالة أقرب إلى النظام الذى اتبعته حكومة السودان فى إنشاء نقطة تجارية فى جمبيلا داخل الحدود الحبشية على نهر بارو (السوباط) للتبادل التجارى، وكانت إيرادات تشلجه الجمركية تقسم مناصفة بين سلطان سنار ونجاشى الحبشة.

(٥) ملحق ٣= قصة الشيخ أحمد إبراهيم الذى سافر إلى مخا باليمن واستورد سيوفًا ودروعًا.

الهند وغيرها من بلاد الشرق الأقصى ، كما كانت للسلطنة علاقات مع المغرب الأقصى [٦] ، عن طريق القوافل عبر كردفان ودارفور ، وعن الطريق المباشر بعيداً عن دارفور فيما بعد ، . وذلك اشتد التنافس بين الفور وسنار .

ويتبين لنا من هذا أن اللامركزية المطلقة كانت طابع الحكم ، وفى الديار المختلفة تمارسه وفق عاداتها وتقاليدها المحلية ، وقد تميز الاتحاد بين المجموعات الأقليمية ، الذى تزعمه السلطان السنارى بتقاليد «الجمهورية التجارية» على النحو الذى كان متعارفًا عليه فى الجزيرة العربية ، مع مادخل عليه من تعديلات اقتبست من مواطن الهجرات قبيل انتقال البيت السلطانى إلى حوض النيل الأزرق .

وكانت التقاليد الخاصة بالجمهورية تربط بين الجماعات من أصحاب المصلحة الاقتصادية الذين يوجهون بالغ اهتمامهم نحو استثمار المال فى مناطق معينة ، وكان طبيعيًا أن يمتد نفوذهم إلى المناطق التى تقوم على الطرق التجارية بين مراكز تجمع السلع ، ومراكز التسويق لتأمين المواصلات وتقديم ماتحتاج إليه القوافل أو السفن من مؤن ومعونة .

وقد قامت تنظيمات الإدارة فى المشيخات التى دخل زعماؤها فى حلف مع سنار فى نطاق يكفل تأمين المصلحة التجارية فقط ، وترك كل شىء عدا ذلك يكيف نفسه وفق ظروفه الخاصة لهذا نجد أن السلطنة السنارية بوصفها زعيمة الجمهورية التجارية ، لم تحاول القيام بتنظيم جهاز للحكم على أركان ثابتة من شأنه أن يشمل جميع نواحى النشاط ، ومن شأنه أن يتطور لقيام دولة بمعنى هذه الكلملة السياسى ، ويمتد نفوذها الفعلى على مختلف المشيخات ، وتجمعها مع الزمن فى وحدة كاملة ، إلا أن الأسرة السنارية قد اكتفت بتطبيق تنظيمات الجمهورية التجارية ، وكانت تلك التنظيمات جامدة تعطل معها النشاط الفردى ، ومما يلفت النظر أن الأسرة السنارية لم تراع فى تطبيقها تنظيماتها التجارية الاعتبارات المحلية ، التى تختلف اختلافًا كليا عما كانت عليه الأحوال فى الجزيرة العربية ، ففى حوض وادى النيل الأوسط ، المساحات الواسعة من الأراضى الزراعية ، وكانت فى البلد صناعات وحرف أخذت فى التدهور وأهملت

---

(٦) كتاب جيمس جراى جكسن ص ٢٨٢ ومابعدها .

السلطنة إيجاد هيئة مركزية لتنسيق جهود مختلف الجماعات فى المشيخات نحو هدف واحد ، بل ترك كل أمر لايتصل بالمصلحة الاقتصادية على حالته فى نطاق التقاليد قديمة العهد التى خضع لها توزيع الأراضى ، والتى تجعل الزعيم مالكًا للأرض كما سبق أن أوضحنا ، ولم تكن العلاقة بين المنتفع والزعيم قائمة على الولاء ، وكان الزعيم أو السلطان يعتمد على جيشه المكون من الرقيق والمرتزقة ، وكان للشيخ المحلى أن يعلن الحرب ، على من يجاوره من زعامات دون الرجوع إلى السلطان ، وهكذا أخضعت إدارة الحكم لنظامين متنافرين بالنسبة للمجتمع ، أولهما نظام الجمهورية التجارية ، الذى يهدف إلى استغلال موارد الشعب لخدمة الزعماء ، وثانيهما نظام الاقطاع الشرقى الذى يوزع الأرض على السكان للعمل عليها ، وللزعيم نصيب ، ولهذا لم يكن من السهل التوفيق بين هذين النظامين ، وبين قيام حكم صالح ، إلا إذا أعيد تنظيم الجمهورية والاقطاع الشرقى ، بما يكفل التطور الطبيعى لخلق قومية ومشاعر تلتقى عندها مختلف المجموعات القبلية ، أما وقد أهملت الزعامات تنظيم الحكم ، بما يتجاوب مع خلق حياة جديدة عامة ، فإن قوة الزعامات وضعفها وتدهورها وإنحلالها كان مرهونًا بأثر العوامل الاقتصادية الخارجية ، من حيث قوة هذه العوامل أوضعفها ، وكانت من أسباب الانحلال والتفكك ، الذى أصاب السلطة ، لتعطيله المجتمع كلية من ممارسة أقل حقوقه .

وكانت سلطة السلطان المباشرة محصورة فى حدود قطاعه فى حوض النيل الأزرق ، ومثلت البطانة ، وهو الطريق المؤدى إلى موانئ البحر الأحمر ، وكان لمنطقة حوض النيل الأزرق طابعها الخاص الموروث عن مملكة علوة القديمة وعاصمتها «سوبا» (٧) وقد قامت هذه المملكة بعد سقوط المملكة المروية فى منتصف القرن الرابع الميلادى وتخربت مدنها وتشرد سكانها ، وتعرضت مملكة علوة لدخول هجرات ، كانت فى الأكثر من مجموعات كبيرة من القبائل الأفريقية ، ومن جماعات أثيوبية (الحبشة) وبخاصة بعد عودة البيت السليمانى الذى استرد الحكم فى أثيوبيا (الحبشة) من البيت الزغوى ، قرابة نهاية القرن الثالث عشر الميلادى عام (١٢٧٥) وتعقب البيت السليمانى مناوئيه ومن تعاون معهم كما اضطهد المسلمين لما كان بينهم والبيت الزغوى من علاقات ، واضطرهم إلى الفرار فى جماعات كبيرة إلى حوض النيل

(٧) سوبا أو علوه = جنوبى شرقى الخرطوم مباشرة على الشاطىء الأيمن للنيل الأزرق .

الأزرق بوصفه المجال الطبيعى وحدثت هذه الهجرات بخاصة فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلادى ، وقد اتخذت الجماعات الأثيوبية لنفسها بعد نزولها فى حوض النيل الأزرق لقب «فنج» أو «فونج» ، وتصحف «فنينجا» [٨] ، ومعناها البيت الحاكم وقد ورث البيت السنارى هذا اللقب ، وذلك عندما انتقلت السلطنة ، وعلى رأسها عميرة ، «دونقس» إلى سنار .

وجاءت موجات أخرى من المجموعات الأفريقية العربية من الجنوب والشمال ، واشتد تدفقهم فى القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر الميلادى ، ودخلت هذه المجموعات فى صراع من الجماعات الأثيوبية ، انتهى الأمر بخروجها من البلاد إلى الغرب ــ بلاد دارفور[٩] .

وقد اختلط أمر هذه الهجرات الأثيوبية والأفريقية ــ العربية على بروس [١٠] فاعتقد أنها جماعة من الشلك الذين يسكنون الشاطىء الغربى للنيل الأبيض ، والذين قاموا بغزوة فى عدد خضم من الزوارق على المنطقة العربية فى الجزيرة ، ووقعت بينها معركة فاصلة بالقرب من مدينة أريجى ، انتصر فيها الغزاة وفرضوا إرادتهم على العرب ، ويضيف بروس أن هؤلاء كانوا من الوثنيين ، واعتنقوا الإسلام فيما بعد بسبب العلاقات التجارية مع القاهرة ، أى أن اعتناقهم للإسلام قد دفعت إليه رغبتهم فى المحافظة على التجارة مع مصر . والحقيقة وواقع الأمر كما سبق أن أوضحنا لم يكن أولئك الذين قال عنهم بروس أنهم من الشلك ، إلا جماعات من البيت الذين نزلوا فى حوض النيل الأزرق .

وقد تميز القطاع السنارى ، فى حوض النيل الأزرق بصفته المسيحية التى تأثرت كثيرًا بالتقليد والعقائد الدينية القديمة ، وقال فى ذلك الفارز [١١] الذى نقل عن حنا السريانى ، الذى زار بلاد النوبة فى السنوات الأولى من القرن السادس عشر الميلادى ، أنه قد رأى فى بلاد علوه حوالى الخمسين والمائة من الكنائس ، مزدانة بصور العذراء مريم ، ومع ذلك فإن السكان

(٨) مكميكل ص ٧٥ .
(٩) نفس المصدر السابق ص ٧٥ .
(١٠) بروس الجزء الرابع ص ٤٥٨/٤٥٩ .
(١١) الفارز ص ٢٥٢ .

فى تلك البلاد (التى تشمل بصفة خاصة أرض الجزيرة) كانوا كما قال فى حالة بعيدة عن اليهودية أو المسيحية أو الإسلام ، وأنهم فى حاجة إلى التبشير بالدين المسيحى .

وقد ذكر جكسن حادثًا يدل على بقاء العادات الوثنية إلى وقت متأخر ، حيث اضطر السلطان عبدالقادر الذى خلف والده السلطان عميرة حوالى ١٥٣٧م إلى قتال السكان المحليين فى جبال مويا وسقدى (١٢) ، لأنهم ظلوا يقدمون فتاة فى كل عام قربانًا للآلهة ، كى لا تمنع عنهم الأمطار(١٣) ، وبقى الكثير من التقاليد والعادات الوثنية الموروثة عن المدنية المصرية القديمة فى صورة أو أخرى حتى اليوم ، وقد تركت هذه التقاليد أثرها فى الجماعات الإسلامية التى دخلت البلاد السودانية ، فأضعفت تمسكهم بالشريعة ، حتى قيل أن الرجل صار يطلق امرأته ، ويعقبه عليها غيره من يومه بدون وفاء عدة (١٤) . ورغم أن هناك تضارب فى الروايات المحلية ، عن هذه النقطة إلا أن المؤكد أن التعاليم الدينية لم تستقر فى القلوب ، وأنها تأثرت بالظروف المحلية ، وكانت المحاولات لنشر الدين متروكة لنشاط العلماء المحليين الذين لم تكن تربطهم سلطة مركزية إدارية أو روحية ، وقد تكيف وضع أولئك العلماء بحالة المجتمع ، التى سبق الكلام عنها . وكان للمجتمع أثره فى بقاء الوثنية بعد دخول المسيحية والإسلام إلى البلاد ، وإذا نظرنا من وجهة اقليمية إلى وضع الجزيرة ، نجد أنها أكثر خصبًا وأوسع رقعة ، وأن سكانها الأصليين لم يهجروا بلدهم هذا حتى فى أسوأ الظروف التى أطاحت بالمملكة المروية فى منتصف القرن الرابع الميلادى ، ولم يكن من السهل على بيئة كهذه كثيفة السكان عريقة التقاليد الوثنية أن تتقبل الدين الجديد قبولا حسنًا ، وبخاصة أن الظروف المحلية لم تمكن العلماء من خلق أجيال تخلفهم ، ونجد دليلا على بقاء مظاهر المسيحية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلادى ، فيما كتبه الفارز الذى أشرنا إليه من قبل ، وفى بكارى (Beccari) ،

(١٢) جكسن «سن النار» ص ٢١ .

ونجد هذه العادات عادة التقرب للاله فى شكل أو آخر منتشرة فى المنطقة من هضبة أثيوبيا حتى دارفور والغرب فقد ذكر براون فى كتابه «أسفار فى أفريقيا» ص ٣٠٣ أن سكان الجبال يقدمون الآلهة الجبال قرابين ضحيتها ولد أو بنت فى حفل رسمى تقرع فيه الطبول الكبيرة .

(١٣) مقال المؤلف (النفوذ اليونانى فى حوض النيل الأزرق» إلخ إلخ .

(١٤) أنظر تاريخ سنار مخطوطة وكتاب الطبقات .

الذى يقول أن اقتراحًا قد قدم إلى روما فى عام ١٦٩٤ ميلادية ، لتأسيس إرسالية تبشيرية فى سنار لخدمة المسيحيين الكاثوليك الذين قيل أنهم هربوا من أثيوبيا بسبب الاضطهاد المذهبى ، وأعيد تقديم الاقتراح فى يناير سنة ١٦٩٧ من الكاردينال سكربنتى (Secrapenti) الذى نجح فى الحصول على موافقة البابا باعتماد مبلغ يقرب من العشرة آلاف من الجنيهات ، وفعلا تأسست الارسالية فى مدينة أخميم فى صعيد مصر وذكر الرحالة العثمانى أوليا شلبى ، أن من بين الأسماء التى يستعملها أهالى حوض النيل الأزرق ، «جرجس» وهذا اسم مسيحى .

وإذا رجعنا إلى التقاليد والعادات فى أرض الجزيرة ، وبعض المناطق من سودان وادى النيل ، التى لم يتركها أهل القدامى ، نجد فيها دليلا على أن مجموعات السكان المحلية قد دخلت فى رعوية المشيخات ، التى أقامها العرب والتى دخلت فى اتحاد مع السلطنة السنارية التى امتدت سيطرتها المباشرة على قسم كبير من مملكة علوة التى اختفت فى السنوات الأولى من القرن السادس عشر الميلادى ، ولاشك أن الذى دفع السكان القدامى إلى قبول الحكم الجديد ما كانت عليه الأرض من خصوبة نظمت مجتمعهم وحياتهم ، وكانت لهؤلاء تقاليدهم الدينية ، ولهم لغتهم ومدنيتهم الموروثة ، وكان لزامًا أن تدخل هذه العوامل مجتمعة فى صراع ما حمله السكان الجدد .

ومما يؤسف له أن تاريخ السلطنة السنارية الذى وصل إلينا ، لم يدون إلا فى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى [١٥] ولهذا نجد أن ما كتب عن السنوات الأولى يقتصر على ذكر اسم

(١٥) المخطوطات التى دونت فى أوائل القرن التاسع عشر (بعضها قد نشر) والتى وصلت إلينا هى كالآتى :

أ) طبقات «ود ضيف الله» فى خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء فى السودان نشرها السيد سليمان داود منديل طبع الخرطوم ١٩٣٠م وطبعة أخرى أعدها وعلق عليها فضيلة الشيخ إبراهيم صديق - طبع القاهرة فى ١٩٣٠م .

ب) تاريخ «مدينة سنار» جمعه وكتبه أحمد الحاج أبو على المعروف بكاتب الشونة الذى كان موظفًا بالديوان فى الخرطوم وينتهى تاريخه حتى عام ١٨٣٥ . ومنها نسخة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٨م .

جـ) تاريخ «مدينة سنار» ويشمل تاريخ السلطنة السنارية حتى نهاية عهدها وهذه المخطوطة تكون القسم الأول من مخطوطة كاتب الشونة آنفة الذكر - وقد نقلها عن الأصل أحد الفقهاء فى الخرطوم كطلب المبشر اجتاز كنوبلخر الذى أودعها فى مكتبة فينا الأهلية - وهناك بعض الاختلاف بين النسختين ب . وج ليس من اليسير تحقيق ذلك إذا لم تحصل على النسخة الأصلية لكاتب الشونة .
=

السلطان وتاريخ ولايته للحكم وتاريخ اعتزاله ، ولم توضح لنا الأسس التى قامت عليها السلطنة ، وعلاقاتها الداخلية والخارجية ، ولهذا كان علينا أن نتلمس الخيوط ونتتبعها هنا وهناك فى مختلف المصادر لكتابة تاريخ أقرب إلى الصحة ـ فالسلطنة فى سنواتها الأولى ، التى جاوزت القرنين من الزمان ، وقد حكمها سلاطين من أبناء الصلب للسلطان عميرة ، مؤسس البيت السنارى فى عاصمته فى حوض النيل الأزرق ، وانتقل الحكم بعد ذلك إلى بيت عين الشمس ، الذى يمت للبيت السنارى بصلة الرحم ، انتزع الهمق (الهمج) الذين تولوا المشيخة الحكم من أولئك السلاطين ، وسنبين ذلك فى موضعه ، ولما كانت السلطنة قد أهملت بادئ ذى بدء أن تقيم جهازاً لسلطانها يتمشى مع حالة البلاد وتطورها ، فإن الزمام قد أخذ يفلت من يد السلاطين ، عندما تأثرت التجارة بعوامل خارجية .

ويجمل بها أن نستعرض تاريخ السلطنة ممثلا رجالاتها من سلاطين وغيرهم ، وماوقع فى فترات ولايتهم الحكم أو الزعامة من احداث وهذه تصور لنا من الناحية الواقعية ، وتساعدنا من ناحية أخرى على تفسير تلك الحوادث ، ومجريات أمورها وأثر ذلك فى الحياة اليومية .

فالسلطان عميرة بن عدلان (ورد فى بعض الروايات «عمارة») هو السلطان الأول للبيت السنارى ، عند قيامه فى حوض النيل الأزرق ولم يحظ فى الروايات المحلية ، التى وصلت إلينا فى أكثر من مخطوط بأكثر من تاريخ ولايته وتاريخ وفاته ، وتحالفه مع الشيخ جماع (شيخ قرى) على غزو حوض النيل الأزرق . وبقى تاريخ هذا البيت غامضاً عن الفترة التى سبقت انتقاله ، وقد كان قائماً كما سبق أن أشرنا يمارس سلطانه فى منطقة «الملم» على الأقل السنوات الأخيرة

= د) تاريخ ملوك القوة والسودان وأقاليمه ــ كاتبه مجهول أو منقول عن النسخة ب مع تعديلات وإضافات وتنتهى فى عام ١٨١٣م ومنها نسخة دار الكتب المصرية (منقولة عن نسخة المكتبة الأهلية بباريس وهى تحت رقم ٢٥٤٧ .

هـ) تاريخ مختص بأراضى النوبة ومن ملكها منذ ملوك الفنج ـ كاتبها مجهول ــ وهى أصلا مأخوذة عن كتاب الشونة مع تعديلات وإضافات أهمها الطعن فى إدارة أحمد ممتاز باشا وهنالك ، يجعلنا نعتقد أن الذى أوعز بذلك ، معنى بك الشامى (الذى كان وكيلاً لمديرية الخرطوم لما كان بينه وبين ممتاز باشا من علاقات سيئة وقد اعتمد نعوم بك شقيرومكميكل على هذه النسخة ، وقد نقل غوردون منها نسخة أودعها فى المتحف البريطانى وهناك نسخة أخرى أرسلت إلى المعية السنية غير أنها فقدت ، وتوجد فى مكتبة جامعة الاسكندرية نسخة من هذه المخطوطة ــ وقد نشرها السيد الدكتور مكى شبيكة (طبع الخرطوم ١٩٤٧) ضمن مطبوعات كلية غوردون التذكارية بالخرطوم . تاريخ رقم (١) .

من القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر الميلادى واستناداً على قول روبينى نجد أن قيام السلطنة فى سنار لم يكن إلا امتداداً لحكم سابق لجأ أصحابه إلى حوض النيل الأزرق ، بعد أن تغيرت الظروف فى الموطن السابق ، وصار الاستمرار هناك مستحيلا لدرجة ما ، ولم تذكر الروايات عن السلاطين الثلاث الأولى ، الذين تولوا بعد عميرة أكثر من تاريخ الولاية وتاريخ الوفاة . واختلفت الروايات فى الترتيب الزمنى لعبد القادر ونايل الذين حكما بعد عميرة بالتوالى ، أو سبق أحدهما الآخر ، ويرجع هذا الاختلاف فى الرواية ، إلى إنها قد كتبت بعد انقضاء أكثر من ثلاثة قرون من ظهور السلطان عميرة فى السودان ، ومن عهد السلطان دكين ولد نايل ، وهو الخامس بعد عميرة ، نجد أن هذه المعلومات قد أخذت فى الازدياد ، فقد ذكرت الروايات عن هذا السلطان [١٦] ، إنه «ملك العادة» الذى رتب الدواوين ، وأجرى قوانين مربوطة لا يتعداها أحد من جميع أهل مملكته ، وجعل كل جهة من جهات مملكته رئيسًا ، معلومًا ورتب عليه ما رتبه ، وكان دخولهم وجلوسهم عنده حسب الرتب الأعلى فالأعلى ، وهذه التنظيمات الديوانية تكشف لنا عن تغلغل الآراء والنظم العثمانية ، وأثرها على السنار ، ولا غرو فقد كان لباشوات سواكن [١٧] ومصوع من العثمانين وكلاء تجاريين فى سنار واريجى[١٨] ، ويبدو أيضًا أن النفوذ الهندى لم يكن بأقل خطر من النفوذ العثمانى ، فقد كانت للهنود جاليات من التجار «البنيان» فى موانىء البحر الأحمر وفى داخلية البلاد ، نجد فى الصورة التى تركها كايو ، عن السلطان بادى (آخر ملوك سنار) ملابسه وحذاءه صورة طبق الأصل مما كان يلبسه المهراجات فى الهند فى ذلك الزمن .

وقد سار خلفاء السلطان دكين على نهجه حتى ولاية السلطان عبدالقادر (حكم من ١٦٠٢ ـ ١٦٠٦) ولم تذكر الروايات المحلية عنه شيئًا غير تاريخ ولايته ووفاته على حد قولها ، لكن

(١٦) أشار النجاشى فى كتابه الذى أرسله إلى سلطان سنار فى ٢١ يناير سنة ١٧٠٦ م إلى العلاقات الطيبة التى كانت قائمة بين الحبشة وسلطانها دكين وقد ورد اسم هذا السلطان فى المؤلفات الأجنبية وخاصة «بروس» محرفًا حيث كتبه (De Kim) دى كم وفسره بأنه ملك من ملوك القيروان وكتاب النجاشى المشار إليه قد أرسل من النجاشى نقلا هيمانوت للسلطان بادى للسماح للبعثة الفرنسية وعلى رأسها «دى رول» بالسفر إلى الحبشة .

(١٧) بنصه من مخطوطة تاريخ ملوك الفونج والسودان أقاليمه ـ دار الكتب المصرية نمرة ٢٥٤٧ .

(١٨) عرف باشا سواكن بباشا سنار .

المصادر الحبشية تلقى الضوء على حياة هذا السلطان الذى عزل من الحكم بسبب لهوه وخلاعته ، وقد هرب إلى تشلجه ، حيث التجأ إلى النجاشى ، الذى منحه إقامة تتناسب مع مركزه السابق ومما يؤخذ على هذا السلطان إنه عقد اتفاقًا مع النجاشى ، واعترف فيه بتبعيته للحبشة ، وقبل «نقارة» محلاة بسلسلة ذهبية ، وتبادل الهدايا مع النجاشى على النحو الذى يوحى بخضوع سنار لسيطرة النجاشى وسيادته ، ويبدو أن وجود عبدالقادر فى بلد على الحدود الحبشية السنارية وقد أساء إلى العلاقات بين البلدين ، فقد جاء فى حوليات النجاشى «سوسنيوس» ، أن عبد القادر قد أجبر على مغادرة الحبشة بدعوى المحافظة على العلاقات الودية مع سنار .

وتولى الحكم بعد عبدالقادر عدلان ولد آى ، الذى أدخل تعديلات على التقاليد والعادات المرعية الأمر الذى سبب قلقًا وتذمرًا ، كان من نتيجته قيام حركة تمرد وعصيان أخذت مظهرها فى محاولة الشيخ عجيب ود عبدالله زعيم العبد اللاب الانفصال عن الاتحاد السنارى وقد أشتبك مع عدلان فى معركة فاصلة فى الكلكول [١٩] قتل فيها الشيخ عجيب ، وفر أهله إلى دنقله ، فأرسل السلطان الشيخ إدريس بن محمد الأرباب [٢٠] ، ومعه عفو السلطان وطلب من أهل عجيب العودة إلى بلدهم «قرى» حيث أسند إلى العجيل أكبر أبناء عجيب منصب والده وتميز عهد هذا السلطان بهجرة كثير من العلماء من مصر والمغرب والجزيرة العربية وغيرها إلى السودان ، ومن هؤلاء العلماء من رجال الدين ، الشيخ حسن ودحسونة الأندلسى [٢١] ، والشيخ إبراهيم جابر البولادى المصرى [٢٢] ، والشيخ محمد المصرى [٢٣] وقد أدخل هؤلاء طريق الصوفية إلى البلاد .

---

(١٩) الكلكول فى رواية وكركوج فى رواية أخرى وولد أبى عمارة فى رواية ثالثة وهذه جميعها واقعة فى منطقة على الشاطىء الشرقى للنيل الأزرق جنوب شرقى الخرطوم .

(٢٠) طبقات وضيف الله ـ ص ٧ طبع القاهرة سنة ١٩٣٠م .

(٢١) المصدر نفسه ص ٦ .

(٢٢) المصدر نفسه ص ٤٧ .

(٢٣) المصدر نفسه ص ١٦٩ وهو الشيخ محمد بن على بن قرم الكيمانى المصرى .

وأختلفت الروايات المحلية ، فى مدة حكم هذا السلطان ، فالمخطوطات تقول أنه حكم ثلاث سنوات ، انتقل بعدها إلى رحمة مولاه ، بينما تذكر الطبقات فى ترجمة الشيخ صغيرون ، أن الملك عدلان بعد ماقتل الشيخ عجيب فى كركوج ، سافر بجيوشه إلى دنقله ، فلما جاء فى «حفير مشو» عزله الفونج عن الملك ، وولوا بدله بادى سيد القوم ، وهذه مسألة جديرة بالتحقيق ، وتعوزها الوثائق وإننا نشك كثيرًا فى أن عدلان هذا كان ملكًا على سنار ، ونرجح إنه كان يشغل منصب «سيد القوم» وهو «الوزير الأول» ، والذى عليه قيادة الجيش (٢٤) ويحتمل أنه كانت له شخصيته القوية ، التى حجبت السلطان ، وتولى الملك بعده السلطان بادى سيد القوم ابن السلطان عبدالقادر ، الذى خلع وهرب إلى أثيوبيا ، وقد أرسل النجاشى للسلطان بادى سوارًا من الذهب وككرا إلخ إلخ ، ولما كانت مثل هذه الهدايا ، لاترسل عادة إلا من سيد إلى مسود ، الأمر الذى أغضب بادى ، فأرسل النجاشى اثنين من الخيل الهزيلة العرجاء العمياء ، ويهدف بذلك أن يشعر النجاشى بأن سنار لاتدين بالولاء للحبشة (٢٥) وتقدم فى نفس الوقت بالشكوى ، من وجود والده عبدالقادر فى تشلجه يزاول نشاطًا يتنافى مع علاقات حسن الجوار بين البلدين ، فقد تعاون مع النجاشى فى حملته على الملكة صديقة التى كانت تحكم على المنطقة المجاورة لحدود الحبشة ، ويغلب إنها كانت فى حوض نهر العطبرة ، ويبدو أن تطور العلاقات واحتجاج سنار ، قد أديا إلى إخراج عبدالقادر من الحبشة غير أن ذلك لم يحسن العلاقات كما كان مرجوًا ، فقد حدث أن هرب «غالب» حاكم مقاطعة مزقه ، ودخل إلى السلطنة السنارية ، وقد

(٢٤) الفصل الثانى «الترتيب الزمنى لسلاطين سنار» .

(٢٥) حكم السلطان بادى من سنة ١٦١١ ميلادية (تقريبًا) وقد ورد ذكره فى المخطوطات المحلية «بادى المعروف» بسيد القوم ولقب سيد القوم هذا من الألقاب التى كانت شائعة الاستعمال فى أوائل عهد السلطنة السنارية فبينما كان يعرف به الشيخ المتولى الوزارة فقد عرف به أيضًا القائم على شئون السلطان الخاصة ـ وقد أشار بروس فى كتابه (مجلد ٤ ص ٤٦٠) بأنه المتولى تنفيذ قتل السلطان عندما يصدر إليه الأمر بذلك واستعمل هذا اللقب أيضا لامناء المشايخ الدينين كما ورد فى الطبقات ـ ترجمة الشيخ حسن ود حسونة ـ ص ٤٩ . . خمسمائة عبد كل واحد شايل سيفا قبضته وابزيمه ومحاجيره فضة ولهم سيد قوم وجندى وعكاكيز .

ونجد أن الانجسنا يطلقون (Scn,i - Kung) وبالعربية «سيد القوم» على الشيخ المتولى شئون القرية وله صفة قيادة الحرب ، والنظر فى الشئون الخاصة بأهل القرية وما يعجز عن حله يرفعه إلى الملك الذى يتولى المسألة بالاشتراك مع سيد القوم والأجاويد . ووظيفة سيد القوم كما هى اليوم فى الانجسنا وراثية .

رفض السلطان تسليمه ، أو إعادة خيل النجاشى وشارات الحكم التى حملها غالب معه ـ وأوعز السلطان إلى نايل ود عجيب ليشن غارات على منطقة بحيرة تانا . ولم يكن من المستطاع أن ينتقم النجاشى من السلطان لهديته المهينة وما تلاها من مشاكل وذلك بسبب مشاغله الداخلية غير أنه أخذ فى العمل على استمالة نايل إلى جانبه ليفيد منه عندما تحين الفرصة . وانتقل الحكم بعد بادى إلى ابنه رباط الذى حكم أكثر من خمسة وعشرين عامًا ، وقد ترك له بادى تركه مثقلة بالمشاغل التى تصور لنا مظهراً من مظاهر بداءة التحول فى تاريخ البيت السنارى ، ولم تذكر لنا المصادر المحلية شيئًا عن تلك التطورات ، بينما تلقى المصادر الأخرى ضوءاً على مجريات الأمور فى عهد السلطان رباط . فالنجاشى قد أخذ فى الاستعداد لغزو أراضى السلطنة السنارية ، ولم يمض طويل وقت حتى استطاع إرسال ثلاث حملات واحدة منها لغزو (كسلا) ، والثانية على حوض العطبرة ، والثالثة اكتسحت الحدود بين التاكه والنيل الأزرق وكان ذلك فى عام ١٦١٩ كما ذكر بائز فى تاريخه . وقد استطاع سكان التاكه ، ومنطقة الحدود الهرب فى الوقت المناسب قبل وصول جنود الأحباش ، أما الحملة التى أرسلت إلى حوض العطبرة ، فقد تمكن قائدها من أسر الملكة فاطمة التى كانت تحكم فى شرق منطقة «الميرفاب» (بين مصب العطبرة وبربر) ، وتعرف هذه الملكة باسم نجاشية الروم [٢٦] ويبدو كما جاء فى المصادر الأثيوبية ، أن هذه الغزوات كان القصد منها التأديب والحصول على الأسلاب .

وجاء فى الروايات بتاريخ مملكة تقلى أن الملك «قيل أبو قرون» (حكم من ١٦٤٠ إلى ١٦٦٨م تقريبًا) ، قد تزوج من «عجايب» ابنه السلطان رباط ، وقد أغفلت هذه الروايات ذكر الظروف التى عملت على التقرب بين السلطان السنارى وملك تقلى بالمصاهرة ،أما تفسير ذلك من تاريخ تقلى خلال تلك الفترة فهو أن السلطان السنارى قد لجأ إلى كسب مودة تقلى للعمل سويًا على الحد من نفوذ الفور ، وبخاصة أن تقلى بحكم موقعها الجغرافى بين سلطنتى سنار ودارفور ، وهى بحكم هذا الموقع تعتبر قلعة أمامية بالنسبة لتجارة القوافل من والى سنار ، ولكن هذه المحاولة فشلت لأن نفوذ الفور قد أخذ فى الامتداد إلى حوض النيل فى دار الشايقية حيث أراد الفور أن

(٢٦) لا يعلم على وجه التحقيق مصدر هذه الكلمة . فهل هى تشير إلى الروم أى الأغريق أو هى تصحيف لكلمة أروم (Urum) فى اللغة الكنزية ومعناها أسود على حد قول بورخا ردت ص ١٥٧ .

تسير قوافلهم التجارية متجهة إلى دار الشايقية ، ومنها إلى موانى البحر الأحمر بعيدًا عن مناطق النفوذ السنارية ، وبقيت العلاقات قائمة بين الفور والشايقية حتى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر الميلادى كما تبينه الوثيقة رقم ٣ ، وهى التى أرسلها سلطان الفور محمد الفضل ابن عبدالرحمن (حكم من ١٨٠٠ إلى ١٨٣١م) ومعها هدايا مختلفة ليستعين بها الفقيه محمد أبو جبة (أبو دلق) على إقامة المسجد وعمارته ، واطعام المساكين فى دار الشايقية ، وبعد وفاة السلطان رباط وانتقال العرش إلى ابنه بادى أبو دقن ، وقد استمر فى ا لحكم فترة طويلة بلغت السلطنة السنارية فى خلالها عصرها الذهبى ، كما بدأت تتجمع الزوبعة التى نقلت الحكم من يد خلفه الثالث إلى بيت الأونساب .

وتميز عهد السلطان بادى أبو دقن بعلاقاته الطيبة مع علماء الأزهر لما كان يرسل لهم من عطايا ، فنظموا القصائد فى مدحه ، ومنها قصيدة الشيخ عمر المغربى الذى بعث بقصيدة للسلطان بادى مع خبيره الشيخ أحمد علوان استهلها بقوله :

أيا راكبًا يسرى على متن ضامر ... إلى الغرب يهدى نحو طيب الذكر
ويطوى إليه شقة البعد والنوى ... ويقتحم الأوعار فى المهمة القفر
وينهض من مصر وشاطئ نيلها ... وأزهرها المعمور بالعلم والذكر
لك الخير ان وافيت سنار قف بها ... وقوف محب وانتهز فرصة الدهر [٢٧]

وقد بنى هذا السلطان مسجد سنار ، وقصراً للحكومة ، وجعله من خمس طبقات فوق بعضها ، وأقام مخازن عديدة لحفظ مهمات الحكومة من أسلحة وغيرها ، وأقام أيضًا حائطًا كبيرًا حول القصر ، وجعل فى ذلك الحائط تسعة أبواب خصص كل باب منها لواحد من كبراء دولته ، وكانت كل هذه الأبواب تفتح فى حائط مستقيم ، وأمام هذه الأبواب سقيفه بعمدان ، وفيها دكة عالية تعرف بـ دكة [٢٨] من «ناداك» تسمع فيها الشكاوى والقضايا ويصدر السلطان حكمه . وكان مجلس السلطان هذا يجتمع كالعادة صباحًا ومساءً خلال أيام الأسبوع عدا أيام

---

(٢٧) أنظر مخطوطة تاريخ سنار (نسخة المكتبة الأهلية : باريس) ص ٧ ومابعدها .

(٢٨) المصدر السابق ص ١٠ .

السبت والأربعاء ، التى يخرج فيها السلطان وحاشيته إلى بيته الريفى فى العيرة ، «الواقعة على مسافة قصيرة من العاصمة» .

وحدث فى عهد هذا السلطان أن ذهب الفقيه حمد النحلان المعروف بود الترابى إلى الحجاز وهنالك نادى بنفسه أنه «المهدى المنتظر» ، فضربه الحجاج وحبسوه ، وبعد ذلك أرسل أحد تلاميذه المدعو «ميرف» وقال امش فى سنار وقل المهدى ظهر ، فأمر الملك بادى بقتله (٢٩) .

كما اشتد فى عهد هذا السلطان التنافس التجارى بين سنار والفور الأمر الذى اتخذت معه تقلى موقفاً أكثر ميلا إلى الفور منه إلى سنار ، ولم تكن للمصاهرة التى تمت فى عهد السلطان رباط من أثر فى تخفيف حدته ، ومرجع ذلك إلى طبيعة المجتمع فى كل من تقلى ودارفور ، وأسس الحكم فيهما مما جعل ذلك التقرب بينهما سهلا ، فالحاكم فى البلدين يهدف إلى نشر الرسالة الإسلامية بين شعبه ، وحكام الأقاليم فيها يدينون بالولاء الكامل للزعيم الأكبر ، وكان الأمر على عكس ذلك فى الجمهورية التجارية السنارية .

وقد تأثرت تقلى بحكم موقعها الأقليمى بالمنافسة التجارية الشديدة بين سنار والفور ، ولما كان الفور أشد بأسًا وأقوى نفوذًا من سنار ، فان تقلى اتجهت نحو تحسين علاقاتها مع الفور الأمر الذى أغضب مجموعة الحلف السنارى ، وعلى ذلك فقد انتهز السلطان بادى على نحو ما جاء فى الروايات المحلية حادث تعرض ملك تقلى لتجارة خاصة بصديق له ، فأرسل حملة للانتقام من تقلى ، واستمر القتال بضعة أيام وانتهى بصلح ، صارت تقلى بمقتضاه تدفع جزية سنوية لسنار ، ولم يهتم الفور بنجدة تقلى لأن أهتمامهم كان متجهًا نحو امتداد نفوذهم إلى دار الشايقية ، وفتح الطريق التجارى مع حوض النيل بعيداً عن المرور عبر منطقة تقلى .

ولقد كان لهذه العلاقات بين الشايقية والفور وأثرها فى تقوية مركز الشايقية أنفسهم حيث أنهم شقوا عصا الطاعة على سنار ، ودخلوا فى حرب مع العبد الأب واسطة الحكم السنارى ، وزعيمة المشيخات الشمالية المتحالفة مع سنار . وكانت تلك الحرب فى السنوات الأخيرة من حكم السلطان بادى .

---

(٢٩) أنظر كتاب الطبقات (نشر الشيخ إبراهيم صديق) ص ٦٢ .

وقد أشتد فى عهد السلطان بادى ، أو فى السنوات القليلة التى سبقته نشاط البعثات الدينية من الفرنسسكان ، ويسندهم بابا روما ، والجزويت ومن خلفهم لويس الرابع عشر ، وكل من هاتين الجماعتين تحاول بسط نفوذها فى أثيوبيا ، وبجانب ذلك يهدف لويس إلى فتح أسواق تجارية فى أثيوبيا وسنار وأخذ الفرنسسكان [٣٠] فى التودد إلى السلطان السنارى ، لتسهيل سفر رجالهم عبر بلاده من مصرإلى أثيوبيا بدلا من السفر من القاهرة إلى أثيوبيا ، عن طريق عيذاب وسواكن بسبب العراقيل التى يقيمها باشا سواكن ، وتتابعت بعد ذلك الرحلات عن طريق النيل كما فعل الرحالة العثمانى أوليا شلبى فى سنة ١٦٧٢م ، أما البعثات فقد سارت عبر الصحراء من أسيوط إلى الواحات ، ومن ثم إلى بلده «مشيو» (على النيل شمالى دنقله) ، وتخرج القوافل من منطقة دنقله مخترقة صحراء البيوضة إلى منطقة شندى ، ومنها إلى قرى وأربجى وسنار .

وذكر أوليا شلبى فى رحلته ، إنه قد شهد حربًا وقعت فى منطقة دنقله فى أكتوبر أونوفمبر سنة ١٦٧٢ ميلادية ونرجح أن تكون هذه الحرب هى التى حدثت بين الشايقية والشيخ الأمين ود عجيب . شيخ ا لعبد لأب وزعيم المشيخات الشمالية المتحالفة مع سنار . وترجح أسباب هذا القتال إلى امتداد نفوذ الفور إلى دار الشايقية كما أشرنا من قبل . وقويت بذلك شوكة الشايقية ، وحاولوا الانفصال عن الحلف السنارى ، الأمر الذى دفع الشيخ الأمين إلى انتهاز الفرصة المناسبة للاشتباك مع الشايقية للحد من نفوذ الفور وأضعاف الشايقية ، وجاءت المناسبة فى التجاء أحد الخارجين على هذا الزعيم إلى دار الشايقية ، فأرسل فى طلبه إلى الشيخ عثمان سيد دار الشايقية الذى رفض تسليمه أو قتله ، ولم يتوان الشيخ الأمين ود عجيب من الزحف برجاله على دار الشايقية ، وعسكر على شاطىء النيل أمام دلقه [٣١] ، وأرسل إلى الشيخ عثمان بالتسليم فى مدة لاتزيد عن خمسة أيام ، ولما كانت القوة التى تحت أمرة عثمان قليلة ، فإنه قد لجأ إلى جمع الخيل التى أخذ فى تلوين جلودها بلون لكل مرة يرسلها فيها للشرب من النيل على مرأى من معسكر الأمين الذى ظن أن عثمان سوف يهاجمه بقوة كبيرة ، فأرسل فى اليوم

(٣٠) بيلبوتيكا ــ جزء أول ص ١٢٧ .

(٣١) دلقه ــ جزيرة جنوبى بلدة مروى على مسافة تقرب من الستة والخمسين ميلا .

السادس إلى عثمان ليوافيه للمفاوضة ، وجاء عثمان بمفرده لكشف الخبر ، والتحقق من نوايا الأمين ، وعندما دخل عثمان وجد الأمين يلعب «المنقلة» ، وأشار الأمين لبعض رفاقه بالحضور للقبض على عثمان غير أن أحد الشايقية من أصدقاء الأمين صرخ فى عثمان باللهجة الأقليمية للشايقية وقال «وحياة الرب شرك أم حبيبة فى رقيبك طب» ومعناها «انج بنفسك قبل أن يقبض على رقبتك شرك الطير» فأسرع عثمام إلى ظهر جواده إلى جزيرته ، وكان الماء على عمق بسيط ، وجمع رجاله وحزم أمره على القيام بهجوم خاطف على العبد اللاب ، وفى ظلام الليل أعد جميع ما لديه من ماشية حمير وغنم وماعز ، وربط على ظهركل منها كمية من القش الجاف ، وعبر بها فى صمت وسكون ، وأخذ رجاله وعندما وصل إلى مكان قريب من معسكر العبد اللاب أشعل النار فى القش ، وطارد الحيوانات فى اتجاه المعكسر ، فأحدث ذلك هرجا ومرجًا بين العبد اللاب ، وأخذ رجال عثمان فى قتل من يقع فى يدهم ، ووجد الأمين جالسًا على فروة الصلاة فى انتظار الموت . ولما وصل إليه عثمان قال له وهو شاهر سيفه أننى أعفو على أن تضمن لى استقلال الشايقية ، ولم يسع الأمين إلا أن يؤمن عثمان على استقلال بلاده ، وقطع المواثيق له بذلك .

وقد لعبت المرأة الشايقية دورها التقليدى فى تقدم المقاتلين والمبادءة بالحرب واشعال الحماس فى الجند للاستماتة فى القتال (٣٢) .

وكان تحديد التاريخ الذى حدثت فيه هذه المعركة بين الشايقية والعبد اللاب موضع جدل ، والغالب أنها حدثت فى وقت مابين عامى ١٦٥٩ و ١٦٨٠ ميلادية ، ونرجح أن القتال الذى شهده أوليا شلبى ، وهو فى طريقه إلى سنار وحدد تاريخه فى شهر رجب ١٠٨٣هـ (أكتوبر/ نوفمبر سنة ١٦٧٢) هو القتال الذى انتهى كما سبق أن أوضحنا باستقلال الشايقية عن الحلف السنارى . وترك لنا أولياشلبى وصفا خياليًا عن المعركة ، ولم يذكر شيئًا عن تفصيلات القتال

(٣٢) جاء فى كتاب الشايقية نكولس Nicholls بالانجليزية ص ١١/١٠ الدور الذى لعبته عديلة والدة الشيخ عثمان فى الخروج أمام جند الشايقية وهذه تعيد إلى الذاكرة والدور الذى لعبته الفتاة مهيرة بنت الشيخ عبود عند ملاقاة الشايقية للحملة المصرية بقيادة إسماعيل كامل بن محمد على وقد وقعت فى الأسر فأحسن إليها وأعادها إلى معكسر والدها مكرمة معززة الأمر الذى أعجب والدها وكان ان طلب الصلح مع إسماعيل الذى حافظ على ابنته وأكرمها .

أكثر من إنها كانت حرباً بين هارديقان عابد النار وبربر ستان . وأن القتال قد انتهى بهزيمة هارديقان ــ والمقصود بهارديقان الشايقية ، وبربر ستان العبد اللاب ، بينما حقيقة الواقع على عكس ذلك ، فالشايقية (هارديقان) قد انتصر على العبد اللاب (بربرستان) ، وإذا راعينا ظروف أوليا شلبى المختلفة نجد أن أخطاءه وخلطه بين الأسماء والحوادث أمرًا غير مستبعد .

وقد نتج عن هذه الحرب تحول طرق التجارة بعيداً عن متناول الشايقية كما كانت القوافل تزود بحراسة قوية لحمايتها من تعدى الشايقية ، وأشار إلى هذه الحالة أوليا شلبى نفسه ، وبونسيه (Poncet) وكرمب (Krump) والفرنسسكان ، وغيرهم من الرحالة الذين زاروا منطقة دنقله فى تلك الفترة .

وبعد وفاة السلطان بادى أبودقن تولى السلطان أونسه بن ناصر بن رباط على حد قول الروايات المحلية ، ولكن هذه الروايات على مايبدو لنا غير صحيحة بل المرجح أن يكون سلطان آخر قد حكم بعد السلطان بادى أبودقن ، وهو السلطان عدلان بن محمد ، أما السلطان أونسه فيرجح أنه قد حكم بعد عدلان بن محمد ، والدليل على ذلك أنه يوجد خطاب يحمل ختم السلطان عدلان بن محمد ، وجاء فى ختام هذا الخطاب «يامن يتولى السلطنة الزرقاء من بعدنا الفنجية قد يجرى لما كان مرتب لصاحب هذا المسجد المذكور أنه توصيت (توصية) من السلطان جمرة الأموى سنة ألفًا وأربعة وثمانون (أى ١٦٧٣/١٦٧٤م) (٣٣) ، وهذا التاريخ هو تاريخ الخطاب وليس تاريخ توصية السلطان جمرة الأموى ، والدليل على ذلك أن اسم السلطان جمرة ، قد ورد فى وثيقة أخرى ، أنه تولى الحكم فى الفترة السابقة لعام ١٦٠٢ ميلادية ، ورب معترض يقول أن قائمة السلاطين التى أعطيت إلى الرحالة بروس (٣٤) ، ذكرت أن السلطان بادى أبودقن توفى فى ٢٨ ديسمبر سنة ١٦٧٠م (٦ ذو الحجة سنة ١٠٩١هـ) فهذه القائمة قد كتبت بعد حوالى مائة عام من حكم عدلان ، ولا مفر لنا من قبول الوثيقة الخطية الأصلية ، التى صدرت عن السلطان نفسه .

---

(٣٣) أنظر الملحقين نمرة ٧ و ٨ .

(٣٤) أنظر قائمة الترتيب الزمنى لولاية الحكم ص ٩٨ ومابعدها .

وحدثت فى عهد «أونسه» زيادة النيل عن المنسوب العادى للفيضان ، وكان ذلك فى عام ١٦٨٣ ميلادية ، وتسبب عن تلك الزيادة أضرارجسيمة ، وغلاء شديدًا جدًا أكل فيه الناس لحم الكلاب ، لذلك عرفت بسنة أم لحم ، وأنتشر الجدرى فى صورة وباء تخربت بسببه الحلال (مفردها حلة ـ القرية) الكثيرة ، وصارت الحاجيات الغذائية ، وفى مقدمتها الأذرة وهى الغذاء الرئيسى تباع بأغلى الأثمان .

وبعد وفاة هذا السلطان ، تولى ابنه بادى الأحمر ، الذى لم يكن موفقًا فخرج عن طاعته أهله من الفونج والشيخ أمين أرادب ، وولد عجيب ، وأقاموا ملكًا آخر اسمه «أوكل» ونادوا بعزله ، ولكن بادى الأحمر تمكن من إخماد حركتهم .

وتميزت الفترة التى قضاها السلطان بادى الأحمر فى الحكم بدخول البعثات الأوروبية الدينية فى طريقها إلى الحبشة ، وكانت «سنار» مركزًا للصراع والدسائس التى كان يحيكها كل فريق من هؤلاء المبشرين لتعطيل منافسه من مواصلة السفر إلى الحبشة ، ففى عهده جاء الرحالة الفرنسى بونسيه ، وهو من الجزويت [٣٥] (١٦٩٨/ ١٧٠١م) .

ودخل السودان فى أعقاب بونسيه مباشرة ، رجال من الفرنسسكان الذين أسسوا مركزهم التبشيرى فى بلدة أخميم فى صعيد مصر للعمل فى بلاد الفونج [٣٦] وأثيوبيا ومن هؤلاء الفرنسسكان الأب يوسف الذى كان فى سنار سنة ١٦٩٩م إلى ١٧٠٣ ومن ١٧٠٥ إلى ١٧١٠ ومعه باسكال الذى اشتغل طبيبًا للسلطان السنارى بادى الأحمر لمدة سنتين ، وسافر إلى أثيوبيا ، وخلفه فى عمله كطبيب للسلطان كرمب البافارى [٣٧] .

وفى الوقت الذى كانت فيه بعثة الفرنسسكان دائبة النشاط والحركة بين غندار (شمالى بحيرة تاتا فى الحبشة) وسنار والقاهرة ، كان القنصل الفرنسى فى القاهرة دى ماليت (De Maillet)

---

(٣٥) وهو ثالث رحالة من الذين دخلوا السودان ولهم مذكرات عن أسفارهم أولهم داود روبينى (١٥٢١/١٥٢٣م) ثم أوليا شلبى (١٦٧٢/١٦٧٣م) وبعد ذلك جاء بونسيه وزملاؤه .

(٣٦) أنظر صفحة ٧٥ حيث أوضحنا أن اقتراحًا قدم إلى البابا لتأسيس مراكز تبشرية فى سنار لخدمة المسيحيين الكاثوليك الذين قيل إنهم هربوا من الحبشة بسبب الاضطهاد المذهبى .

(٣٧) أنظر كتاب كرمب وقد نشر ملخصًا له كروفورد فى كتابه ص ٣١٣ ـ ٢١٦ .

يعد التجهيزات لارسال بعثة إلى الحبشة عن طريق سنار وقد سافرت هذه البعثة من القاهرة فى ١٩ يوليه سنة ١٧٠٤م وعلى رأسها جاك لنوار ـ دى رول الذى كان قنصلا لفرنسا فى دمياط بالقطرالمصرى ، ووصلت هذه البعثة إلى سنار فى حوالى العاشر من يولية من العام التالى (١٧٠٥م) بعد أن حجزت لفترات طويلة فى بلدة مشو (شمال أرقو فى دنقله) ، وكان هدف هذه البعثة أولا إنشاء علاقات تجارية بين الحبشة وفرنسا لكى تتمكن الأخيرة من فتح أسواق جديدة لتصريف منتجاتها الصناعية ، وثانيا التبشير الدينى ، وتركيزه فى يد الجزويت ، وثالثًا جمع المعلومات عن الامكانيات العسكرية فى الممالك التى تزورها البعثة ، وكانت فرنسا تخشى أن يفلت منها سوق الحبشة بدخول جماعات من الصنّاع الأجانب لتلك البلاد ، ويتعلم الأهالى منهم صناعاتهم ، ولم يكن للفرنسسكان أن يتركوا الباب مفتوحًا لامتداد نفوذ الجزويت ، ومن ورائهم التجارة الفرنسية دون إحباط هذه المساعى الفرنسية التى بدأت فعلا بالبعثة الاستطلاعية التى رأسها «بونسيه» .

وقد قام الفرنسسكان بتنفيذ خططًا إيجابية فى صورة حملات من الدس لدى نجاشى الحبشة وسلطان سنار عن بعثة «دى رول» فأشاعوا فى سنار أن هذه البعثة سوف تعمل على تحويل مجرى النيل الأزرق ، وتحريض النجاشى على الهجوم على الأتراك واحتلال سواكن ومصوع ، ومن سوء طالع تلك البعثة أن الفيضان فى عام ١٧٠٥م وهو العام الذى وصلت فيه إلى سنارة كان منخفضاً مما أكد الاشاعات التى راجت وكان أن ذهب دى رول ورجال بعثته ضحية لهذه الخلافات الذهبية بين البابا وملك فرنسا ، فقد قتل وصحبه فى سنار (فى حوالى الساعة الثالثة من ظهر يوم ٢٥ ديسمبر سنة ١٧٠٥) .

وأوغر مقتل بعثة دى رول صدر نجاشى الحبشة تقلا هيمانوت ، وبخاصة بعد أن أرسل رسولاً خاصًا يحمل كتابًا لسلطان سنار بادى الأحمر للسماح لهذه البعثة بمتابعة سفرها إلى غندار[٣٨] ، وكان أن وصل هذا الرسول إلى سنار بعد مقتل رجال البعثة ، واعتبر النجاشى تقلا هذا الحادث ماسًا بكرامته ، وأعتقد أن القاهرة هى المسئولة عنه لذلك أرسل كتابًا شديد اللهجة يهدد فيه بتحويل مياه النيل الأزرق عن مجراه .

---

(٣٨) نص الخطاب الذى حمله المبعوث الحبشى إلى سلطان سنار فى كتاب لجران ص ٤٧٢/٤٧٠ أيضًا فى كتاب بدج ـ جزء أول ص .

ويبدو أن النجاشى لظروفه الداخلية لم يتمكن من الانتقام لكرامته من سنار ، واستمر العداء والصراع المذهبى من جراء المنافسة بين الفرنسسكان والجزويت ، وكان اعتقاد الجزويت أن أثيوبيا مجالهم التبشيرى ، وكان الفرنسسكان يرون أنهم دخلوا الحبشة من قبل ، ومن حقهم القيام بالتبشير منفردين . وأخذ القنصل الفرنسى فى القاهرة دى ماليت يتخبط فى اتهاماته لمقتل رجال البعثة ، فمرة يقول أن النجاشى هو الذى حرض سلطان سنار على ارتكاب الجريمة ، ومرة أخرى يتهم سلطان سنار ويطلب من باشا سواكن «عمر» فى كتاب له بتاريخ ٣٠ نوفمبر سنة ١٧٠٦م ، أن يعترف بشيخ العبد اللاب فى قرى كسلطان فعلى لدولة سنار ، وأن يرسل أحد الأغوات إلى سنار لعزل السلطان بادى ، وأن يقطع العلاقات التجارية مع سنار ، وقد بنى مالت اتهاماته على الأخبار المتناقضة التى نقلها إليه بعض الخدم الذين كانوا مع دى رول(٣٩) .

وأخذت حالة التوتر بين الحبشة وسنار فى الظهور والاختفاء طوال فترات حكم الأباطرة من الأحباش الذين تولوا الحكم بعد النجاشى تقلاهيمانوت واكتفى هؤلاء بإرسال غزوات على الحدود السنارية ، واستمر الحال على هذا المنوال حتى عهد للنجاشى اياسوا الثانى (حكم من ١٧٣٠/١٧٥٥م) وكان على سنار السلطان بادى أبو شلوخ (حكم من ١٧٢٥ إلى ١٧٦٢م) فأعد ياسو جيشًا كبيرًا لغزو سنار ولكنه فشل ، كما سنبينه فيما بعد .

ولاشك فى أن هذه الفترة التى برز فيها الصراع بين الفرنسسكان والجزويت فى صورة واضحة المعالم تتطلب دراسة وافية سوف لايجد فيها الباحث عنتًا لكثرة الوثائق المتصلة بتاريخها (٤٠) .

وتولى بعد بادى الأحمر ، ابنه أونسه ، وكان صاحب لهو وفساد ، فاتبع هواه كما ذكرت الروايات المحلية ، وقد استعدى ذلك عزله ، ولأسباب لم تعلم بعد اجتمعت كلمة أهل الرأى من الفونج وزعماء الدولة على اختيار «نول» سلطانًا بعد أن بقى العرش شاغرًا من أبريل

---

(٣٩) وهذه الحادثة وما نقله الخدم عنها وتصرفات ما ليت نجد منها صورة لما حدث فى مقتل اسماعيل باشا كامل ابن محمد على حرقًا فى شندى وأتهم الملك نمر استنادًا على قول أحد العساكر المحليين .

(٤٠) بيليوتيكا جزء أول وثان ، أيضًا كروفورد ويحتوى على بيلوغرافيا وافية .

سنة١٧١٩ إلى يونيه ١٧٢٠م . وكان هذا الذى أختاروه ينتمى إلى البيت السنارى عن طريق الرحم بعد أن كان ينحدر من الصلب سلاطين الأسرة السنارية التى حكمت حتى السلطان أوسنه . وقد ذكرت الروايات المحلية عن «نول» أنه سيد قوم بيت الشمس «الأونساب» (٤١) ، وأنه لم يمكث فى الحكم طويلا ، وانتقل الحكم إلى ابنه بادى أبو شلوخ ، وهو على حد قول الروايات آخر ملوك الصولة والشوكة وقد حكم أكثر من خمسة وثلاثين سنة عاونه فى نصفها الأول تقريبًا وزيرًا حكيمًا اسمه «دوكه» وبعد وفاة هذا الوزير استقل السلطان بادى بادارة شئون الدولة ، وأسرف فى الطغيان وارتكاب الجرائم حتى عرف «باجهمان» وأطلق يد أولاده وبطانته فارتفعت الشكاوى لكنه تغاضى عن جرائمهم ومفاسدهم وأنزل العقاب بمن يطالب بحقه المغتصب ـ وفى عهد هذا السلطان ، وقعت الحرب الحبشية الثانية ـ حدثت الحرب الأولى فى عهد السلطان رباط كما أشرنا إلى ذلك فى موقعه من قبل .

وترجع أسباب هذه الحرب الثانية إلى أكثر من سبب ظاهرها الانتقام لمقتل دى رول وبعثته فى عام ١٧٠٥م ، والتى سبق أن فصلنا أمرها فيما سبق لكن الحقيقة التى دفعت إلى هذه الحرب بعد تسعة وثلاثين عامًا تقريبًا هى أن الأحوال الداخلية فى الحبشة قد اضطربت بعد موت النجاشى تقلا هيمانوت ، وتنازع العرش من بعده أقارب هذا النجاشى ، وأنقسمت البلد معسكرين بعضهم يناصر ولى عهده والبعض نادى بملك آخر ، ويبدو أن الصراع المذهبى بين الفرنسسكان والجزويت كان له أثره فى التطاحن الداخلى ، وبالاضافة إلى ذلك فان النجاشى أياسو الثانى قد أهتم ببناء القصور ، وأهمل أمر الرعية مما أثار الأهالى عليه ، وحتى يتخلص من استياء رعاياه وتذمرهم فانه أعد لغزو السلطنة السنارية .

جاءت الجيوش الحبشية عن طريق حوض نهر الدندر ، وأخذت فى شق طريقها حتى وصلت إلى أبواب مدينة سنار ، ورأى السلطان بادى اخلاء المدينة قبل أن تعبر إليها جيوش الأحباش لكن الموقف قد تغير بموافقة السلطان على اقتراح تقدم به الأمير خميس ، وهو من الفور الذين لجأوا إلى سنار ، وكان مقترحه أن يقود أربعة آلاف من الفرسان على أن ينقض

(٤١) الأونساب هم بيت الشمس ويتحتم على السلطان السنارى أن يتخذ زوجته ـ السلطانة ـ من هذا البيت .

بهؤلاء على الجيش الحبشى الرئيسى من الخلف ورغمًا عن أن هذه الخطة قد نقلها أحد زعماء القبائل من سكان شرق سنار إلى النجاشى الذى هرول لملاقاته إلا أن خميس قد استطاع الانقضاض على مؤخرة الجيش الرئيسى الذى كان بقيادة الراسى ولد لول وأنزل به هزيمة منكرة تشتت بعدها الجيش الحبشى وهرب النجاشى إلى بلاده بعد أن غنم الجيش السنارى الكثير من المهمات ومنها التاج وأدوات الحكم الأخرى ومنها ماهو دينى بالغ الأهمية ، ودفع الأحباش مبلغًا كبيراً من المال لاسترجاع هذه الأدوات . واشترك فى هذه الحرب فى الجيش السنارى الشيخ محمد أبوالكيلك الذى أخذ نجمه فى الصعود واستطاع فيما بعد تولى منصب المشيخة ـ الوزارة ، واغتصاب السلطة الفعلية للسلطان .

وكانت الموقعة الفاصلة بين سنار والحبشة ، وفى السابع من أبريل سنة ١٧٤٤ ميلادية فى مكان يقال له «الزكيات» على نهر الدندر وراجع الخريطة رقم ٦ .

وبعد هذه الحرب وهذا الانتصار أرسل السلطان بادى حملة إلى كردفان لقتال المسبعات(٤٢) ، الذين كانوا يسيطرون على الجانب الغربى وقد اختلفت الروايات فى أسباب هذا الغزو ، كما اختلفت هذه الروايات فى أمر القوات التى أرسلت فقد جاء فى مخطوطه تاريخ سنار أن جيش الفونج خرج بقيادة الوزير ولد تومه (٤٣) ، وانضم إليه الشيخ عبدالله ولد عجيب (ملك قرى) ومعه أخوه شمام ومعهم جنودهم ، وتولى القيادة العامة الشيخ عبدالله ، وكان مع الجيش السنارى الشيخ محمد أبوالكيلك وتقابل الجيشان ـ الجيش السنارى ومعه جنود قرى ـ وجيش السلطان هاشم المسبعاوى وحدثت الموقعة الفاصلة فى القحيف (٤٤) ، وانتهت بهزيمة منكرة للجيش السنارى ومقتل الشيخ عبدالله والوزير ولد تومه ، فاستطاع الشيخ محمد أبو الكيلك أن يعيد تنظيم الجيش السنارى ، وأن يذكى الروح المعنوية بينهم ، ونجح فى ذلك وهجم على

---

(٤٢) المسبعات وسلطانها هاشم المسبعاوى كانت تسكن فى أطراف كردفان الغربية القريبة من حدود الفور . وتربط بين السلطان هاشم وبيت السلطات فى دارفور صلة العمومة كما ذكر التونسى فى كتابه ص ٧٨ وما بعدها . وحصلت معارك بين هاشم وسلطان الفور تيراب .

(٤٣) جاء فى مخطوطه سنار ص ١١ أن ولد تومه هو من أهالى جند توت (بالقرب من شندى) وقد تولى الوزارة بعد الشيخ دوكه .

(٤٤) القحيف مكان فى غرب كردفان .

المسبعات وهزمهم (٤٥)، ولما وصلت أخبار القتال إلى الملك بادى أصدر أمره إلى الشيخ محمد أبواللكيلك، بولاية قيادة الجيش ومطاردة المسبعات وإبعاد خطرهم .

وتقول رواية العبد اللاب (٤٦)، التى ترفع بطبيعة الحال من شأن الشيخ عبدالله وأبنائه، وتهبط بالسلطان السنارى إلى مرتبة أدنى، مما كان عليه العبد اللاب تقول المسبعات لكردفان وتوغلهم فى أراضيها التى لم تكن تحت سيطرتهم، فذهب الشيخ عبدالله ولد عجيب لطردهم، وقتل الشيخ عبدالله فى الموقعة التى نشبت بينهما كما قتل معه أخوه شمام ومحمد العجيل ابن شمان، وأن سلطان سنار لما سمع بهذه الهزائم خشى أن يقوم الشيخ مسمار ابن الشيخ عبدالله ولد عجيب بحركة جنونية للأخذ بثأر أهله من المسبعات، وبهذا يدخل السلطان السنارى طرفًا ثالثًا فى القتال بجانب العبداللاب تنفيذًا للمعاهدة (٤٧) بين العبد اللاب والفونج ـ وحدث فعلا توتر بين ملك العبد اللاب السلطان السنارى، تدخل لانهائه الشيخ إدريس الأرباب (٤٨) وأعد سلطان سنار حملة مشتركة بقيادة الشيخ محمد أبو اللكيلك لقتال المسبعات .

وذكر جكسن أن الأمير خميس الذى كان يقود القوة التى انفصلت على مؤخرة جيش الحبشة وسببت هزيمته ـ كان وراء الحملة إلى كردفان بسبب تعطشه للانتقام من المسبعات والفور لأنهم تعقبوه لقتله ونجا بالتجائه إلى سنار وخميس أصلا من قواد الفور البارزين .

وفى الوقت الذى كانت فيه الحرب دائرة الرحى فى كردفان كان السلطان بادى غارقًا فى مفاسده ولهوه، وأكثر من النساء، وعندمابلغ مسلك السلطان حدًا غير لائق، قرر الزعماء إرسال الوفود إلى الشيخ محمد أبو اللكيلك فى كردفان لابلاغه بما وصل إليه الحال فى سنار من فساد وظلم واخلال بالتقاليد القائمة حيث أسند السلطان الوظائف الهامة إلى جال من بطانته، وترك

---

(٤٥) ذكر جكسن فى كتابه سن النار ص ٥١ أن الموقعة التى انتصر فيها الشيخ محمد أبواللكيلك كانت فى مكان له «شمكاتا» وهى أيضًا فى غرب كردفان .

(٤٦) نشرها المستر أ . بن فى مجلة السودان فى مدونات ومذكرات الجزء السابع عشر ص ٥٩ ومابعدها .

(٤٧) لم يصل إلينا ما يؤيد عقد معاهدة بين السلطان والعبد واللاب ،ويحتمل أن يكون المقصود من المعاهدة ـ الاتفاق الذى تم بموجبه الحلف بين السلطان السنارى ـ عميرة والشيخ عبدالله جماع .

(٤٨) أنظر مقال المستر أ . أ . بن فى مجلة السودان فى مدونات ومذكرات الجزء السابع عشر ص ٥٩ ومابعدها .

لهم حرية التصرف دون معقب فاستخفوا بالقيم وبأهل البيوتات طلب الزعماء من الشيخ محمد أبو اللكيلك العودة إلى سنار لوضع حد لهذا الانحلال الذى شمل مختلف مظاهر الحياة ، وقد استجاب الشيخ محمد ، وعاد إلى سنار وبعد مفاوضات عزل السلطان الذى خرج منفيا إلى سواكن ، وفى هذا الصدد يقول الرحالة بروس أن هذا السلطان قد التجأ بعد عزله إلى الحبشة حيث استقبله الراس «سهيل ميخائيل» الذى وعده باعادته إلى عرشه إذا وافق النجاشى على غزو المملكة السنارية ، وانتقل بادى مع الراس ميخائيل إلى معكسر النجاشى ، حيث قدم بادى فروض الطاعة والتبعية بتقبيله الأرض فى حضرة النجاشى ، فرحب به وطلب إليه أن يتذرع بالصبر حتى تحين فرصة مناسبة لاعادته إلى عرشه ، وفى الوقت نفسه أقطعه النجاشى ولاية «رأس الفيل» ، ولكن بادى قد ذهب ضحية مؤامرة دبرها له بعض المهاجرين من سنار الذين زينوا له فرصة السفر إلى منطقة حوض نهر العطبرة لاعداد جيش من أهالى تلك المنطقة ، والهجوم على سنار لاسترداد عرشه . وقد وقع فى الفخ الذى نصب له ، وذلك بعد دخوله السودان فإن الشيخ ولد حسن حاكم تيوه (بين القضارف ورافد الرهد) قبض عليه وقتله غيله ، وبخلع هذا السلطان ونفيه على هذه الصورة انتقلت السلطة الفعلية من يد زعماء السلطنة إلى الشيخ محمد الذى تولى الوزارة .

وبعد عزل السلطان أقام الشيخ محمد أبو اللكيلك ابن السلطان المخلوع ناصر سلطانًا على سنار ، واحتفظ الشيخ لنفسه بجميع سلطات الملك الذى صار رمزاً لاحول له ولاقوة ، وتوقف بقاؤه على كرسى الحكم على رضاء الوزير ، وبهذا التغيير فى الأوضاع أصيبت نظم الجمهورية التجارية بضربة قاسمة تحولت معها إلى تنظيمات للحكم أقرب إلى الاقطاع فى صورته الشرقية ، وكان ذلك التحول سببًا مباشراً فى تذمر الزعماء فى المناطق المتحالفة مع سنار ، وبخاصة بعد أن بدأ الشيخ محمد أبو اللكيلك بالعزل والتعيين وفقًا لرغباته ، وتثبيتًا لسياسته التى ترمى إلى الاحتفاظ فى أسرته ، والشيخ محمد أبو اللكيلك هذا كما سبق أن أشرنا من جماعة الهمق (التى تحرفت إلى الهمج) ولا نعلم على اليقين عن ماضيه أكثر من أنه كان مقدمًا (قائدة جماعة) على الخيالة فى الجيش السنارى ، والذى حارب النجاشى أياسو فى سنة ١٧٤٤م .

وقد أخذ الشيخ محمد بعد توليه المشيخة فى العمل على توطيد مركزه ونشر سلطانه كما أخذ فى تلمس الأسباب لمطاردة منافسيه والتخلص منهم بطريقة أو أخرى فكان أن قتل من كبار الأسرة السلطانية ، وصار يولى يعزل كما شاءت له مصلحته الخاصة حتى السلطان ناصر نفسه قد امتد إليه العزل ، وتحديد إقامته فى حلة البقرة (بضم الباء وسكون القاف وفتح الراء) وانتهى الأمر بقتله بعد اتهامه بالتآمر مع جماعة من الفونج على الفتك بالشيخ محمد (٤٩) .

ونادى الشيخ محمد أبو اللكيلك باسماعيل ابن السلطان بادى ، وأخ السلطان ناصر ملكًا على سنار ، وأصيبت البلاد فى سنوات مشيخة الشيخ محمد الأخيرة بغلاء شديد وزيادة فى فيضان النيل تسبب عنها التلف وانتشار الأمراض (٥٠) . وبعد وفاة الشيخ محمد تولى منصبه الشيخ بادى ولد رجب ابن أخ الشيخ محمد ، وقد حاول الفونج التخلص منه ، إلا أن مؤامرتهم انكشفت ، فكانت النتيجة عزل اسماعيل ونفيه إلى سواكن كما انتقم الشيخ من أعوانه ، وأخذت الفتنة تعمل فى الخفاء ، فكان التطاحن الداخلى بين القبائل والزعامات وقتل فى هذه الفتنة الشيخ بادى ولد رجب نفسه ، وتولى رجب بن محمد . وفى أثناء غيبته فى كردفان اشتدت حركة المقاومة والتف المناوءون لوزارة الهمق بالسلطان عدلان بن اسماعيل الذى خلف والده بعد نفيه ، وقد زين هؤلاء للسلطان أن يضرب ضربته فى غيبة الشيخ رجب للخلاص من الهمق ، واستنجد السلطان ببعض القبائل المناصرة له لمساعدته فى حركته ليقضى على الهمق ومعاونيهم ، ومن بينهم الشيخ إبراهيم أخ الشيخ رجب كما أراد قتل الأنقيب (٥١) النعيسان الذى هرب إلى كردفان عندما تأكد من تدبير السلطان لقتله وبوصوله إلى معسكر الشيخ رجب دخل عليه وبادره دون أن يحييه كما تقضى التقاليد بقوله :

«يؤاجركم القيوم فى حكم اللى قتل الصقر اللى يحوم اللى هنا وهناك مين إللى قتل محموم فيكم مشى وإلا برايا أنا أقوم» .

---

(٤٩) مخطوطة سنار ص ١٣ ب .

(٥٠) مخطوطة سنار ص ١٤ .

(٥١) الانقيب هو اللقب المحلى الذى يعرف به الشاعر المحلى الذى يرافق أصحاب الجاه والسلطان يقرض لهم الشعر وينشدهم أبيات المدح والتحريض على الحرب ويدخل السرور على نفس سيده بالغناء والقصص .

وحملت هذه العبارة نبأ مقتل الشيخ إبراهيم أخ الشيخ رجب ، وهو الذى يشير إليه «بالصقر اللى يحوم» أى الصقر الذى يرتاد ساحة الوغى ، وقوله «اللى هنا وهناك مين اللى قتل محموم» أى أنتم الذين هنا وهناك أن الصقر قد قتل غيلة ، وطلب الانتقام لقتله فى قوله «فيكم مشى والا برايا أنا أقوم» أى هل منكم من يثأر له ، وإلا أنا أتولى الآخذ بالثأر له ، وفى هذا القول استنهاض للهمم ، واستفزازها لسرعة العمل للأخذ بالدم .

ولم ينته النعيسان من نعيه حتى هب الشيخ رجب فزعًا مردداً ، «أقتل أخى» ونادى إلى بطانته قائلا «دنجر» أى دقوا النحاس (طبول الحرب) إعلانًا للخبر واستمر البكاء والحزن ثمانية أيام . وحزنت النسوة والجوارى أربعين يومًا لم ترفع فيها امرأة رأسها كما تقضى العادات والتقاليد المحلية فى مثل هذه الظروف ، ومنها النوم على الأرض ، وعاد الشيخ رجب بجيوشه إلى سنار ، وحصل قتال مع الجيش الذى أعده السلطان عدلان فى مكانه يقال له انطرحنا فى الجزيرة ، وكان قتالاً شديداً ، انتهى بهزيمة جيش السلطان الذى توفى مغمومًا مقهورًا ، لما لحق جيشه من خذلان . واندلعت نيران الفتنة ، واشتد أوارها فأكلت اليابس والأخضر ، وانقسمت البلد معسكرات تتطاحن فى عراك مستمر ، وصارت مقاليد الأمور تنتقل من يد إلى يد فى فترات متقاربة ، وأخذ الزعماء ينادى بعضهم بسلطان بينما ينادى الفريق الثانى بسلطان ثان ، وهكذا حتى بلغ عدد من تولى فى الفترة من ١٧٨٧ حتى حكم سنار فى منتصف ١٨٢١م أى خلال مايقرب من أربعمائة وثلاثين عامًا تسعة ملوك وهم أوكل الذى ولاه الشيخ ناصر ، لم يمكث إلا قليلا ، وخلفه طبل ثم بادى ثم رباط وقد قتل هؤلاء الثلاثة فى الحلفاية (شمال الخرطوم) فى الحروب الداخلية بين الزعماء ، وجاء بعدهم حسب ربه ثم نوار وقد قتله الشيخ لخوفه من سطوته ، وتولى بعده بادى وكان صغير السن ، وبعد قليل نادى الشيخ كمتور بسلطان آخر اسمه رانفى ، واشتبك الفريقان المتعارضان ، وانتهى القتال بالصلح على أن يعزل بادى وأن يبقى رانفى ، وبعد فترة استمرت عامًا واحداً كان فيه العرش شاغراً أعيد بادى إلى العرش ، وقد حكم بادى حوالى الثمانية والعشرين عامًا من مجموعة الأربعة وثلاثين عامًا التى حكم فيها تسعة ملوك كما أشرنا فتكون بذلك المدة التى حكم فيها الثمانية ملوك الآخرين هى ست

سنوات تقريبًا ، وتنقص من هذه المدة عاما كان فيه العرش شاغرًا ، وبهذا تكون مدة حكم الثمانية ملوك الآخرين خمسة سنوات تقريبًا ، ومن هذا يتبين مدى ما أصاب البلاد من انحلال وتعطيل لمرافق الحياة ، وما ساد من قلق وفزع كثرت معه هجرات القبائل ، وبخاصة فى المنطقة الوسطى من السودان وهى التى تشمل أرض الجزيرة والبطانة (٥٢) . وكانت هذه الحالة المتدهورة فرصة سانحة لازدياد نفوذ رجال الدين من الفقهاء ، وسيطرتهم على العامة الذين لجأوا إليهم لسؤال الله تعالى ليرفع عنهم الغمة .



وبينما كانت الأمور تسير من سيء إلى أسوأ ، تغيرت الأحوال فى مصر باختفاء الحكم المملوكى ، وهرب جماعة منهم إلى شمال السودان محاولين تثبيت أقدامهم وإقامة حكومة يسيطرون بها على البلاد فزاد بذلك الظلم والتدهور مما دفع الزعماء من مختلف نواحى السودان إلى الهجرة إلى مصر ، ومنهم من سافر إلى الحجاز حيث التقوا بمحمد على (خلال حرب الوهابيين) وقد طلب هؤلاء منه المعونة لوضع حد للقلاقل والحروب المحلية بعد أن توقفت التجارة وتعطلت الحياة الاقتصادية ، وخيم على البلاد شبح الخراب والدمار .

وجاءت المعونة المصرية بعد الانتهاء من حرب الحجاز فى صورة حملة قادها إسماعيل كامل ابن محمد على كما سنبينه فيما بعد ، وطويت صفحة من تاريخ السودان بتنازل السلطان بادى آخر ملوك سنار عن ملكة يوم دخول الحملة إلى عاصمة البلاد حيث وقع السلطان الوثيقة التى اعترف فيها بتبعيته للسلطان العثمانى وتسليمه إدارة البلاد إلى حكم مصر الذى امتد إلى السودان فى عام ١٨٢٠/ ١٨٢١ ميلادية .

ويجمل بنا قبل أن ننتقل إلى امتداد الحكم المصرى إلى السودان أن نستعرض تطور الأحوال فى السودان والعوامل التى قوضت أركان السلطنة السنارية ، وسببت انحلال المملكة .

(٥٢) من هؤلاء المهاجرين من نزل فى المنطقة شمالى مدينة أسوان مباشرة (أبو الريش قبلى وبحرى) وتقول الروايات المحلية أن جدهم ونس قد جاء إلى أسوان فى طريقه للحجاز وفى أسوان وافاه القدر المحتوم وبقى ابنه الذى كان صغيرًا حتى بلغ الرشد ثم عاد إلى السودان .

فالسلطنة قد بدأت سنواتها الأولى التى امتدت أكثر من قرن فى رعاية التجارة التى أقامت على أساسها جهاز الحكم ، ووطدت علاقتها مع باشوات البحر الأحمر من العثمانيين ، وبقيت الحال قائمة على جانب واحد لم تتجاوب معه مشاعر أهل البلاد ، وكانت موارد السلطنة والزعامات الأقليمية المتحالفة مع سنار على أساس تنظيمات «الجمهورية التجارية» التى كان زعماؤها يقومون باحتكار التجارة فى المنتجات المحلية و تصريفها فى الأسواق الخارجية ، واستيراد الحاجيات الأخرى من خارج البلاد ، وبالاضافة إلى ذلك كان زعيم كل أقليم يجمع العشور والضرائب عن يد رجاله ، وفى النظام الاقطاعى فى الشرق ، وكان يدفع جزءاً من ذلك المتحصل إلى زعيم الدار ، وهذا بدوره يدفع نصيبًا لخزانة السلطان ، وكان طبيعيًا أن تتسرب إلى هذا النظام مساوىء تخرج به من حدوده المعقولة إلى إضافة مبالغ للعمال القائمين على الجباية فى صورة أو أخرى منها «حق الضيافة» كماكان على المواطن أن يدفع نصيبًا من زكاته للفقيه المحلى ، وغير ذلك من الالتزامات الاجتماعية مما زاد العبء على كاهل القبائل والعشائر مما صار بمضى الزمن حقًا مكتسبًا بصرف النظر عن مايصيب البلاد من كساد ، وبخاصة بعد أن أشتدت المنافسة بين العثمانيين والفرنجة ، وتحول التجارة إلى طريق رأس الرجاء الصالح ، ونزول الأوروبيين فى غرب أفريقيا ، وإنشائهم مراكز تجارية أخذوا منها فى توسيع نفوذهم إلى داخل القارة الأفريقية ، ولم تقو السلطنة على الاحتفاظ بمركزها لأنه لم يقدر لها أن تتخذ من أساليب الحكم ما يتمشى مع التطور الطبعى للأشياء ، ولم تعمل على أن تجمع بين مختلف المجموعات القبلية لتوحد بينهم فى مصلحة عامة كما أنها تركت التقاليد المحلية ، وبخاصة فيما يتعلق بعلاقة الأرض بالفرد والزعيم فلم تربط بينهم إلا وشائج بالغة فى الضعف ، وما فى هذا النظام من فساد عطل التطور ، وسبب الركود والجمود ، فان اغتصاب الهمق للسلطة ، وجعلهم للسلاطين رمزاً لاقيمة لهم فى إدارة شئون البلاد قد انتكس بنظام «الجمهورية التجارية» ، وأرجع البلاد إلى حكم اقطاعى فى أحط درجاته ، ومما زاد الأمور تعقيدًا وجود الزعامات الدينية المحلية التى كونت سلطة ثانية فى البلاد لها نفوذها ، وكان من المنتظر أن تعمل هذه الزعامات لتكوين قوة لها شأنها فى حفظ التوازن مع سلطة الزعماء والسلطان لأن هذه الزعامات الدينية قد انحرفت فيما بينها ، وانعدمت العلاقات الطيبة بين الفقهاء ، وعمل هؤلاء على اشاعة روح

التعصب والتنافس ، وتحول اهتمام الكثير من هؤلاء إلى كسب المال عن هذا الطريق أو ذاك ، وانقسمت القبائل إلى معسكرات يتطاحن بعضها البعض ، وعمل اليأس والقنوط الذى خيم على الحياة اليومية ، على انهيار المجتمع وتكونت منه مجموعات مسعورة تعمل على السلب والنهب ، فتركت الأراضى الزراعية وهجرها القائمون عليها قانعين بالقليل ، والتجأ الشعب إلى أصحاب السجاجيد وخلفائهم فى قضاء الحاجات من دفع للأذى والضرر وجلب للمنفعة ، والخير والمثوبة من الله تعالى ، ويكفى دليلا ماجاء فى كتاب التطبيقات الذى يعطى لنا صورة واضحة عن الانحلال الذى أصاب البلاد وأثر خوارق العادات التى نسبت إلى الفقهاء .

وكان من نتيجة اشتداد حالة القلق بسبب العدوان بين مختلف المعسكرات وأن حطت الفاقة والذلة على الشعب ، فانحلت بذلك الروح المعنوية ومركز السلطة لأكثر من سبب وفى مقدمة تلك الأسباب :

أولا : نظام ولاية العرش والتنافس بين الزوجات من بنات عين الشمس [٥٣] ، وبين الزوجات اللائى ارتفعن إلى مصاف الزوجية الشرعية لسبب أو آخر .

ثانيا : ضعف سياسة الحكم ، وعجزها عن خلق عناصر جديدة ، ومقومات تهدف إلى قيام وحدة قومية ، وحياة اقتصادية تغنى البلد عن اعتمادها الكلى على التجارة المرورية ، ولم تقم فى البلد صناعات إلخ إلخ .

ثانيًا : فشل الحكومة المتحدة (الجمهورية التجارية) التى مركزها سنار فى إنشاء حكومة مركزية قوية الجانب ، وبالتالى فشلت فى خلق رجال الصف الأول لتحمل المسئوليات .

رابعًا : قيام سلطات دينية متعددة ، وغير مرتبطة مع بعضها فى القيام بعمل مشترك هدفه الاصلاح .

---

(٥٣) من التقاليد المرعية أن يتزوج السلطان أو على الأقل أن تكون زوجته الشرعية الأولى من بيت عرف باسم بيت عين شمس كما جاء فى مخطوطه «فينا» ويبدو أن هذا البيت كان فى الأونساب التى منها السلطان «نول» وهى لا تقل فى مركزها الاجتماعى عن البيت المالك وموطنها أصلا خور «أنسباء بالأريتريا الذى أخذت منه اسمها حيث تأثرت بيئتها بالتقاليد المصرية القديمة التى امتدت وشلمت ذلك الجزء من شمال أثيوبيا ــ وبنت عين شمس ترجع إلى العبادة الفرعوية «للشمس» وقد عرف السلطان نول بسيد قوم الشمس كما جاء فى مخطوطه تاريخ مدينة سنار لكاتب الشونة .

خامسًا : إسراف السلاطين فى حياة الترف والملذات ، وأوضح دليل ما كان من حالة السلطان بادى الأحمر (١٦٩٢/١٧١٦ ميلادية) وابنه السلطان أونسه الذى تولى الحكم فى ١٧١٦/١٧١٩ ميلادية كما سبق بيانه .

سادسًا : استخدام جماعات من الأقليات لتولى تصريف شئون الدولة الأمر الذى ترتب عليه ابعاد أهل الشورى والخبرة ، وخلق التذمر والقلق .

سابعًا : الإبقاء على تقاليد توزيع الأراضى فى الزعامات المحلية المختلفة ، وكان هذا العامل الأساسى فى بدء بذور الفتنة والتطاحن .

ثامنًا : كان حكم وزراء الهمق حكمًا فرديًا تسنده القوة وهذا النوع من ولاية الحكم يغرس معه بذور الانحلال ، وتنتكس معه الظروف القائمة إلى حالة بدائية .



الترتيب الزمنى لولاية الحكم فى السلطنة السنارية

١ ــ هذه محاولة تهدف نحو تحقيق الترتيب الزمنى فى السلطنة السنارية ، وقد اعتمدنا فى ذلك على دراسة مقارنة استعرضنا فيها ، مانقله بروس فى عام ١٧٧٢م عن «سيد القوم» وهذا هو أقدم جدول وصل إلينا ثم ماكتبه ود ضيف الله فى طبقاته قبيل وفاته فى عام ١٨٠٩ ميلادية ، وما كتبه كايو فى رحلته التى نشرت فى عام ١٨٢٦م ، ومخطوطة كاتب الشونة التى أنهاها فى عام ١٨٣٨م ، ومنها نسخة محفوظة فى مكتبة فينا وتنتهى فى ١٨٢١م وكتاب تريمو الذى نشر فى ١٨٦٢م ، وتاريخ شقير طبع ١٩٠٤م [٥٤] ، وقد روجعت المعلومات التى وردت فى هذه المصادر على بعض المستندات [٥٥] الخطية الصادرة من بعض السلاطين وقد حددت هذه

(٥٤) راجع : بروس . رحلة ـ ود ضيف الله ــ الطبقات ، كايو ، رحلة مخططه تاريخ سنار بدار الكتب المصرية بالقاهرة تحت رقم ١٨ م ، ثريمو ــ رحلة ، نعوم شقير ــ تاريخ السودان طبع القاهرة ١٩٠٤م .

(٥٥) المستندات المشار إليها (وقد نشرت فى ملاحق الكتاب) وهى :

١ ــ كتاب السلطان محمد بادى عجيب لأهله فى دنقله . =

المستندات الزمن الذى صدرت فيه ، وهذا يقدم بدوره دليلا على أن السلطان صاحب الوثيقة كان جالسًا على العرش فى ذلك الوقت .

٢ ـ فاذا رجعنا إلى قوائم السلاطين التى وردت فى المصادر التى أشرنا إليهما آنفا نجد أنها قد كتبت بعد انقضاء مدة تقرب من الثلاثة قرون ، فيما يخص بروس ، وأكثر من ثلاثة قرون للمصادر الأخرى ، ولذلك كان طبيعيًا أن تكون هناك اختلافات ، وبخاصة تاريخ سلاطين الصدر الأول للسلطنة ، وقد كان أحمد الحاج أبوعلى المعروف بكاتب الشونة وصاحب المخطوطة المشهورة باسمه هذا أكثر توفيقًا فى التنبيه إلى ذلك حيث يقول : «سنذكر ذلك إن شاء الله تعالى تفصيلا وإجمالا على حسب ماعرض على المسامع من غير ترتيب لأنى لم أره مرتبًا بل حكايات واردة ، ولم تخل من التقديم والتأخير والتبديل والتغيير [٥٦] .

٣ ـ وردت سنوات الحكم فى مصادرها المحلية بالتاريخ القمرى وقد اتخذ كل من بروس وكايو وغيرهما فترات الولاية التى أمضاها كل سلطان أساسًا لتحديد التاريخ الذى اعتبره كل منهم بدء حكم البيت السنارى ، وقد وصلوا إلى ذلك بإنقاص سنوات كل سلطان من العام الهجرى السابق لوجودهم فى سنار ، وأخذوا طريقهم فى ترتيب تنازلى حتى وصلوا إلى تحديد بدء ولاية السلطان عميرة فى أوائل عام ١٥٠٤ ميلادية لبروس وعام ١٤٨٤م لكايو .

فحسبما ذكره بروس قد بلغت ولاية التسعة عشر سلطانًا التى سبقت ولاية اسماعيل بن بادى ٢٦٥ عامًا قمريًا ، وهذه تعادل ٢٥٦ عامًا شمسيًا [٥٧] ، وحسبما جاء فى كايو بلغت ٣٣٥ عامًا قمريًا للسلطنة من قيامها حتى نهايتها ، وهذه تعادل ٣٢٤ عامًا شمسيًا ، وقد أسقط كايو من حسابه مايزيد عن السنتين والنصف التى بقى فيها العرش شاغرًا لسبب أو آخر من المشاكل الداخلية .

= ٢ ـ كتاب من السلطان عدلان بن محمد .

٣ ـ وهنالك وثيقتان نشرهما أركل (ترجمة إنجليزية) فى مجلة السودان فى رسائل الخ مجلد ١٥ ص ٢٤٨/٢٥٠ .

(٥٦) مخطوطة تاريخ سنار ـ دار الكتب المصرية ١٨م .

(٥٧) كان التاريخ الشمسى قبل نهاية عام ١٥٨٢م (المعروف بالتاريخ الجوليانى) يسبق التاريخ الجديد بعشرة أيام لهذا أعاد البابا غريغورى الثالث عشر تنظيم التاريخ وذلك باسقاط عشرة أيام من ٤ إلى ١٥ أكتوبر ١٥٨٢ ، وبذلك بدأ عام ١٥٨٣م عشرة أيام سابقة لتاريخ بدئه وفق التاريخ الجوليانى وكان بدء العام الهجرى ٩٩١ فى ٢٥ يناير سنة ١٥٨٣ بدلا من ١٥ يناير سنة ١٥٨٣ .

٤ ـ أخذ بروس وكايو بهذه التقديرات ، وحدد كل منهما التاريخ الذى قامت فيه السلطنة فى سنار ، وذلك بأن خصم بروس الـ ٢٦٧ عامًا قمريًا من السنة السابقة ، وهى ١٧٦٩م التى انتهى فيها حكم سلف اسماعيل أى ١٧٦٩ ـ ٢٦٥ = ١٥٠٤م ، وقد فات على بروس أن الـ ٢٦٥ عامًا كانت بالحساب القمرى ، وقد ربط بروس هذه السنة (١٥٠٤م) بغزوة الشلك لأرض الجزيرة ، وتأسيسهم للسلطنة السنارية بعد محالفتهم مع العرب (٥٨) .

وهذا القول عن غزو الشلك لأرض الجزيرة لا نصيب له من الصحة للأسباب الآتية :

أولا : لأن السلطان السنارى الأول كان فى عاصمته فى منطقة لملم على الأقل بعد زيارة داود روبينى فى ١٥٢٢/١٥٢٣م .

ثانيًا : أن مملكة علوة كانت قائمة فى صورة ما حتى عام ١٥٠٤م ، وأن نفوذ سلطان عميرة قد امتد إلى هذه المنطقة قبل ذلك التاريخ كما أوضحناه فى موضعه .

٥ ـ وقد سار كايو على نفس ا لطريقة التى اتبعها بروس فى تحديده تاريخ قيام السلطنة فى سنار ، وذلك بأن خصم الـ ٣٣٥ عامًا قمريًا من العام السابق لزيارته لسنار أى ١٨١٩ ـ ٣٢٥ = ١٤٨٤م أما كاتب الشونة فقد كان أكثر توفيقًا منهما حيث ذكر أن السلطان عميرة تولى فى أول القرن العاشر الموافق ١٤٩٤/١٤٩٥ ميلادية ، ويقول فى مخطوطته أول عمارته بسنار أول القرن العاشر بعد التسعمائة ، وملك أربعين سنة فغاية ملكه إلى سنة أربعين بعد التسعمائة ، وهذا يوضح أن عميرة قد أنشأ سنار فى ٩١٠هـ (١٥٠٤م) أى بعد ولايته الحكم بعشرة سنوات ، ومن الواضح أنه لم ينتقل إليها نهائيًا إلا فى حوالى ١٥٢٥م ، وقد سبق انتقاله هذا امتداد نفوذه إلى حوض النيل الأزرق فليس هنالك إذن مجال للشك فى أن عميرة قد أعاد تعمير سنار فى ١٥٠٤م ، وانتقل إليها بعد ذلك بحوالى العشرين عامًا .

٦ ـ ونجد فى أن القائمة أ . المرفقة مع هذا بيانًا عن فترات ولاية الحكم كما جاءت فى مختلف الروايات التى لا تتفق فى بياناتها فى أكثر الحالات كما أننا لانجد فى هذه الروايات تاريخًا محددًا دقيقًا بالنسبة لليوم والشهر والسنة لولاية الحكم واعتزاله لذلك من الصعب الوصول إلى تحديد تاريخى صحيح فالسنوات متداخلة بعضها فى البعض غير أن هذه الصعوبات لاتمنعنا من محاولة ترتيب السلاطين ترتيبًا زمنيًا لأقرب سنة ، وسوف يبقى الحال

(٥٨) أنظر رحلة بروس (بالانجليزية ص ٤٦٤من الجزء الرابع) .

على ماهو عليه الآن حتى يعثر على وثائق جديدة تلقى ضوءاً على فترات حكم السلاطين الذين سقطت أسماءهم من القوائم التى لدينا ، ومن هؤلاء السلطان صابر المشهور بعجيب وابنه السلطان جمره اللذين ورد ذكرهما فى خطاب السلطان محمد بادى عجيب الذى أوضح فيه «ومسنوى فى زمنى الآن عشرة سلاطين على المنابر فى دار الدنيا وأنا العاشر» .

٧ ـ وإذا أخذنا بالقوائم الموجودة وأضفنا إليها اسم السلطان صابر المشهور بعجيب والسلطان جمره ابنه فإن ذلك يجعل بادى سيد القوم فى مكان يختلف عما هو عليه الآن ، ويبدو لنا والحالة هذه بأن بعضًا من السلاطين الذين وردت أسماؤهم فى القوائم ، وكانت لرجال تولوا المشيخة واختلطت أسماؤهم مع السلاطين بسبب مضى زمن طويل قبل جمع هذه المعلومات ، وقد يكون بعض هؤلاء المشائخ (الوزراء) ممن كانت لهم شخصية قوية حجبت السلطان الأصيل ، ومن هؤلاء السلطان عدلان ولد أى صاحب قتال كركوج ، والذى عزل فى الوقت الذى كان فيه موجوداً فى دنقله وكان ذلك فى الفترة التى كانت تعانى فيها السلطنة من الاضطراب الداخلى الذى أخذ مظهره فى تمرد الزعماء ، ومنهم الشيخ عجيب المانجلك ، وحدث بعد ذلك التطاحن الذى انقسمت معه البلد معكسرات فهذا ينادى بسلطان وهذا يعزل القائم بالأمر ، كما حدث فى أمر رباط وأوكل وطبل بادى ورانفى الذين حكموا فى أواخر عهد السلطنة .

٨ ـ ويلاحظ أن الفترة الذهبية للسلطنة قد استمرت ما يقرب من القرنين من الزمن تداول الحكم فيها خمسة عشر سلطانا فيكون معدل السنوات التى قضاها السلطان الواحد حوالى أربعة عشر عامًا . ونجد أن السلطان عميرة قد حكم أربعين عامًا فى رأى وحوالى الثلاثين فى آراء أخرى وحكم كل من رباط وبادى أبودقن وبادى الأحمر وبادى أبو شلوخ مايقرب من ذلك . ولاشك أن هذه المسألة جديرة بالاهتمام ، والبحث عسى أن تظهر بعض المستندات المحلية . من توثيق الأراضى والخطابات الخ الخ .

٩ ـ وتبين فى الجداول المرفقة أسماء السلاطين ، وفترات حكمهم بما لدينا من روايات محلية وغيرها ، بعد تحقيقها كما يتبع ذلك الجدول بجدول يبين الترتيب الزمنى لولاية الحكم فى أقرب حدوده الزمنية .

قائمة (أ) عن سنوات الحكم كما جاءت

فى الروايات المختلفة

اسم السلطان	بروس	كايو	كاتب الشونة	تريمو	شقير
١) عميرة	٣٠	٣٢	٤٠	٣٤	٣٠
٢) عبدالقادر	٨	١٠	١٠	١٠	١٠
٣) نايل	١٧	١٢	١٢	١٢	١٢
٤) عمارة أبوسكيكين	١١	٨	٨	٨	٨
٥) دكين	١٧	١٧	١٥	١٧	١٥
٦) دوره	٣	٨	٨	٨	–
٧) طبل	٣	٥	٤	٥	١٢
٨) أونسه	١٣	١٢	١٢	١٢	١٠
٩) عبدالقادر	٤	٤	٤	٤	٦
١٠) عدلان ولد آى	٥	٥	٣	٥	٧
١١) بادى سيدالقوم	٦	٧	٧	٧	٣
١٢) رباط	٣٠	٢٧	٢٩	٢٧	٢٨
١٣) بادى أبودقن	٣٨	٣٧	٣٦	٣٧	٣٥
١٤) أونسه	١٢	١٢	١٢	١٢	١٢
١٥) بادى الأحمر	٢٥	٢٧	٢٧	٢٧	٢٦
١٦) أونسه	٣	٣	–	٣	٣
١٧) نول	٤	٤	٤,٨	٤	٦
١٨) بادى أبو شلوخ	٣٩	٤٠	٤٠	٣٣	٣٨
١٩) ناصر	٨	٨	٨	٣	٧
٢٠) اسماعيل		٨	٨	٨	٨
٢١) عدلان		١٢	١١	١٢	١١
٢٢) رباط			شهر	١	١
٢٣) اوكل		٢	١,٦	٢	
٢٤) طبل		٢	١	٢	
٢٥) بادى		٢	١	٢	٢
٢٦) حسب ربه		–	١	–	١
٢٧) نوره (نوار)		١	١	١	١
٢٨) بادى السادس		٦	٦	٦	٨
٢٩) رانفى		٥	٥	٥	٥
العرش شاغر		١	١	١	
٣٠) بادى السادس		١٥	١٤	١٥	١٦

جدول (ب)

	من	إلى	مدة الحكم
(١) السلطان عميرة بن عدلان :			
ذكرت المصادر المحلية أنه قد حكم أربعين عاما ويقول كاتب الشونة أن مدة حكمه قد انتهت فى عام ٩١٠ هـ	١٤٩٧	١٥٣٦	٤٠
عبدالقادر بن عميره			
نايل بن عميره عمارة أبوسكيكين دكين دورة (لم يذكر اسمه فى مخطوطة تاريخ سنارو وتاريخ الفونج) طبل أونسه صابر جمره	١٥٣٧	١٦٠٢	٦٦
لايعلم على وجه التحقيق ترتيب هؤلاء الولاة وبالتالى فإن مدة حكمهم ما زالت غير معروفة . وقد ورد ذكر السلطان صابر والسلطان جمرة فى خطاب السلطان محمد بادى عجيب .			
عبد القادر بن أونسه			
خلع عن العشر والتجأ إلى أثيوبيا وطلب من النجاشى حمايته ـ انظر حوليات سيوسنس	١٦٠٣	١٦٠٦	٤
عدلان ولد آى			
ورد ذكره فى المؤلفات المحلية وفى الطبقات وقيل أنه عزل عن العرش بعد سفره إلى دنقله	١٦٠٧	١٦١١	٥

من	إلى	مدة الحكم

١٠ ـ بادى سيد القوم (محمد بادى عجيب)

ورد فى خطاب السلطان محمد بادى عجيب أنه «العاشر على منابر الدنيا» ويشير فى ذلك إلى ولاية البيت السنارى للحكم . وقد يكون هذا الاسم هو الاسم الكامل للسلطان بادى أما «سيد القوم» فلا تعدو عن أنها لقب من ألقاب التكريم ورفعة المكانه . ١٦١٢

رباط بن بادى

فى عهده حدثت حرب أثيوبيا الأولى فى عام ١٦١٩/١٦١٨ وحضر فى مدته الشيخ عبد الرازق أبو قرون (توفى ١٦٥٠م) وغيره من الفقهاء انظر الطبقات ص ١٤٢ .

بادى أبو دقن ابن رباط

تلميذ الشيخ ادريس محمد الأرباب (١٥٠٧ ـ ١٦٥٠م) وقد عاش ١٤٣ سنة ـ أنظر الطبقات ص ١٤ زار السودان فى مدته الرحالة التركى أولياشلبى . ولم يذكر اسمه ، وكانت الزيارة فى نوفمبر ـ ديسمبر سنة ١٦٧٢ ، وقد ذكر بروس نقلا عن القائمة التى أعطيت له فى سنار أن بادى قد توفى فى ٢٨ ديسمبر سنة ١٦٨٠م ويحتمل أن يكون قد تولى الحكم بعد عدلان بن محمد أنظر الطبقات طبعة صديق ص ٥٦/٦٠ عن علاقة هذا السلطان بالشيخ ود الترابى .

عدلان بن محمد

أصدر أمراً لمن يتولى حكم دنقله ليدفع هبات عينيه أوضحها فى أمره لمسجد الشيخ أحمد شنبو وينهى أمره هذا بقوله : «يامن يتولى السلطنة الزرقاء من بعدنا الفنجية قد يجرى لما كان من

	من	إلى	مدة الحكم
مرتب لصاحب هذا المسجد المذكور أنه توصية من السلطان جمرة الأموى سنة ألفًا وأربع وثمانون (١٦٧٣/١٦٧٤م) .			
وكتابة التاريخ بهذه الصورة قد تشير إلى أن السلطان جمرة قد أصدر أمرًا سابقا فى عام ١٠٨٤هـ (١٦٧٣ ــ ١٦٧٤م) وأن هذا السلطان عدلان بن محمد أصدر أمره هذا توكيدًا للأمر السابق ، ويرجع ترجيحنا لحكم عدلان فى هذه الفترة أن السلطنة قد بدأت تفقد نفوذها فى المنطقة الشمالية (الشايقية ودنقلة) فى أواخر القرن السابع عشر الميلادى فلابد أن يكون السلطان جمرة قد حكم فى فترة سابقة من العصر الذهبى «ثانيًا» أن خطاب السلطان محمد بادى عجيب الذى يذكر فيه أنه السلطان العاشر كما أوضحنا سابقا ، وقد جاء فيه مايشير إلى أن السلطان صابر وابنه السلطان جمرة قد سبقا بادى محمد عجيب فى الحكم .			
وتتدخل فترة السلطان عدلان بن محمد فى مدة حكم بادى أبودقن التى انتهت بوفاته كما ذكرنا سابقًا ويحتمل أن يكون السلطان بادى أبو دقن قد اعتزل الحكم فى حوالى ١٦٧١م كما يحتمل أن يكون قد حكم بعد ١٦٧٤م وأمر تحقيق هذه النقاط متروك لما يحصل عليه فى المستقبل من وثائق .	١٨ ديسمبر سنة ١٩٦٠		٦٩
أونسه أن أخ بادى أبودقن (ابن ناصر بن رباط) .			
جاء فى قائمة بروس أنه قد تولى الحكم بعد والده السلطان بادى أبو دقن وبقى فى الحكم حوالى إحدى عشرعامًا وبضعة أشهر .	٢٩ ديسمبر سنة ١٦٨٠	يونية سنة ١٦٩٢	١٢
بادى الاحمر ابن أونسه			
حكم خمسة وعشرين عامًا وعزل كما جاء فى قائمة بروس . خرج عن طاعته أهله الفونج ومعهم الشيخ أمين أرادب وعينوا ملكًا	٦ يونية سنة ١٦٩٢		

	من	إلى	مدة الحكم
اسمه وكل لكنه انتصر عليهم . وصله خطاب من النجاشى تكلا همايوت بتاريخ ٢١ يناير سنة ١٧٠٦ يطلب منه رعاية البعثة الفرنسية التى رأسها راءول (الذى قتل سنار فى ٢٥ نوفمبر سنة ١٧٠٥م (وفى عهد زار سنار بونسيه ١٦٩٩/٨م وكرمب ١٧٠١م والبعثات التبشيرية ١٧٠٢/٢/١م . أنظر أيضًا الطبقات (طبعة صديق) ص ٦٠/٦٥ عن علاقة هذا السلطان بالشيخ ود الترابى .		أبريل ١٧١٦	٢٥
أونسه بن بادى : خلف والده وعزل كما ذكره بروس وبعزله انتقل الحكم إلى خلفه نول الذى يمت إلى البيت السنارى من صلة الحرم . وقد بقى كرسى العرش شاغرًا أكثر من عام	١٣ أبريل سنة ١٧١٦	أبريل سنة ١٧١٩	٣
نول بن بادى : حكم أربعة أعوام	٨ يونية ١٧٢٠	سنة ١٧٢٥	٤
بادى أبو شلوخ ابن نول : ذكر آركل فى مقاله بمجلة السودان فى رسائل ومدونات مجلد ١٥ ص ٢٤٨/ ٢٥٠ أنه قد وجدت وثيقتان نشرهما فى مقاله المذكور عن توثيق هبة أرض منحها الشيخ رحمه إلى الشيخ اليعقوبابى وقد وقع السلطان على هاتين الوثيقتين اللتين كتبتا بتاريخ ٢٨ مايو سنة ١٧٢٤ و ٢ يونيه سنة ١٧٣٤م وقد حدثت حرب أثيوبيا الثانية فى عام ١٧٤٤م فى عهده وذكر روس أنه قد عزل عن العرش فى ٢٧ مارس سنة ١٧٦٢ وأضاف إلى ذلك أن هذا السلطان بعد عزله قد ذهب إلى أثيوبيا وطلب حماية النجاشى وإعادته لعرشه . وقد أقطعه النجاشى ولاية رأس الفيل لكنه قد	١٧٢٥	٢٧ مارس سنة ١٧٦٢	٣٣

	من	إلى	مدة الحكم
استدرج إلى كمين دبره له الشيخ عدلان حاكم حوض العطبرة وقد قبض عليه الشيخ ولد حسونة حاكم تيوى وقتله غيلة . وذكر بروس أنه قد استقى هذه المعلومات من الشيخ عدلان نفسه .		٢٧ مارس ١٧٦٢	٣٦
ناصربن بادى أبو شلوخ :	أبريل سنة ١٧٦٢	١٧٦٩	٨
اسماعيل بن بادى :	١٧٦٩	١٧٧٧	٨
عدلان بن اسماعيل :	١٧٧٧	١٧٨٧	١١
رباط : عينه الشيخ الأمين والشيخ أبو ريده منافسًا لأوكل قتل فى الحلفاية .	١٧٨٧	١٧٨٧	٣٠ يومًا
أوكل : عينه الشيخ ناصر	١٧٨٧	١٧٨٨	١٨ شهرًا
طبل : عينه الشيخ ناصر قتل فى الحلفاية	١٧٨٨	١٧٨٨	١٧ شهرًا
بادى الخامس : عينه الشيخ ناصر قتل فى الحلفاية	١٧٩٠	١٧٩٠	١٢ شهرًا
حسب ربه :	١٧٩١	١٧٩١	١٢ شهرًا
نوره أو نوار :	١٧٩٢	١٧٩٣/٢	١سنة
بادى السادس ابن طبل :	١٧٩٣	١٧٩٩	٦سنوات
رانفى :	١٨٠٠	١٨٠٤	٥
كان العرش شاغرًا	١٨٠٤	١٨٠٥	١
بادى السادس ابن طبل : تنازل عن السلطنة فى وثيقة كتبها فى ٢ يونيو سنة ١٨٢١ وسلمها لقائد الحملة المصرية اسماعيل كامل .	١٨٠٦	يونية سنة ١٨٢١م	شهر سنة ١٤،٥

جدول (ج)

الترتيب التتابعي	الاســـــــــم	ولاية الحكم من	السنة الميلادية إلى	مدة الحكم يوم	شهر	سنة
١	عميرة بن عدلان	١٤٩٧	١٥٣٦			٤٠
٢	عبدالقادر بن عميرة					
٣	نايل بن عميرة					
٤	عمارة أبوسكيكين بن نايل					
٥	دكين					
	دوره	١٥٣٧	١٦٠٢			٦٦
	طبل					
٦	أونسيه					
٧	صابر المشهور بعجيب					
٨	جمرة بن صابر					
٩	عبدالقادر بن أونسه	١٦٠٣	١٦٠٦			٤
	عدلان ولد آى	١٦٠٧	١٦١١			٥
١٠	بادى سيد القوم (محمد					
	بادى عجيب)					
١١	رباط	١٦١٢	١٨ديسمبر			٦٩
١٢	بادى أبو دقن		سنة١٦٨٠			
١٣	عدلان بن محمد					
١٤	أونسه أبن أخ بادى أبودقن	١٩ ديسمبر	يونيه			
	(ابن ناصر بن رباط)	سنة ١٦٨٠	سنة١٦٩١	٨	٥	١٠
١٥	بادى الأحمر بن أونسه	٦ يونيه	ابريل			
		سنة ١٦٩١	سنة١٧١٦	٧	١٠	٢٤
١٦	أونسه بن بادى	٠٠ ابريل	ابريل			
		سنة ١٧١٦	سنة١٧١٩	–	–	٣

تابع جدول (ج)

الترتيب التتابعي	الاســــــم	ولاية الحكم السنة الميلادية من	إلى	مدة الحكم يوم	شهر	سنة
	العرش شاغر	ابريل سنة ١٧١٩	٧ يونيه سنة ١٧٢٠	٧	١	١
١٧	نول بن بادى	٨ يونيه سنة ١٧٢٠	١٧٢٥	–	٨	٤
١٨	بادى أبو شلوخ	١٧٢٥	١٧٦٢	–	–	٣٨
١٩	ناصر بن بادى	١٧٦٢	١٧٦٩	–	٩	٧
٢٠	اسماعيل بن بادى	١٧٦٩	١٧٧٧	–	–	٨
٢١	عدلان بن اسماعيل	١٧٧٧	١٧٨٧	–	–	١٠
٢٢	رباط	١٧٨٧		٣٠	–	–
٢٣	أوكل	١٧٨٧	١٧٨٨	–	٦	١
٢٤	طبل	١٧٨٨	١٧٨٩	–	٥	١
٢٥	بادى الخامس	١٧٩٠	١٧٩٠	–	–	١
٢٦	حسب ربه	١٧٩١	١٧٩١	–	–	١
٢٧	نوره أو نوار	١٧٩٢	١٧٩٢	–	–	١
٢٨	بادى السادس بن طبل	١٧٩٢	١٧٩٩	–	–	٦
٢٩	رانفى	١٨٠٠	١٨٠٤	–	–	٥
	العرش شاغر	١٨٠٤	١٨٠٥	–	–	١
٣٠	بادى السادس ابن طبل (اعيد للكرسى)	١٨٠٦	يونيه ١٨٢١	–	٥	١٤
				٢٢	٢	٣٢٥

التنظيمات الادارية والاجتماعية
وتقاليد الحكم فى الحلف السنارى

١ـ التنظيمات الادارية والاجتماعية:

قامت زعامة السلطان السنارى فى حوض وادى النيل الأوسط كما سبق أن أوضحنا على طراز «الجمهورية التجارية وأشرنا فى استعراضنا لتطور المجتمع فى البيئة والتقاليد والعادات المحلية وماتركته من أثر فى توجيه هذا الطراز الجديد من الزعامة بعد صراع عنيف انتصرت فى نهايته المميزات الموروثة عن أقدم العصور وانطبعت معها تنظيمات الزعامة بالطابع المحلى ، ويبدو هذا واضحًا فى مقومات بناء القرية التى تكون الخلية الأولى فى بنية المجتمع السودانى ثم ينتقل إلى وحدة أعلى ، وهى المدينة الصغيرة ثم إلى ثالثة وهى المدينة الكبرى التى تتجمع فيها التجارة ، وبها سوق القوافل التى تحط رحالها فى هذه المدن الكبرى فى الغدو والأرواح .

فالقرية وهى المعروفة محليًا «بالحلة» قد تكون من أسرة واحدة عديد أفرادها ، أو من مجموعة من «قبيلة» أو بطون قبائل متألفة مع من دخل فى كنفها من السكان المحليين ، ويتولى شئون القرية زعيم يعرف بالشيخ ، وفى بعض الحالات بالأرباب إذا كانت له بالبيت الحاكم ويعاون الزعيم أكابر القرية (الأجاويد) ، وقاضى وهو فقيه الذى تولى أيضًا أمر التعليم ويساعد الزعيم جماعة من أتباعه الذين يعهد إليهم بوظائف الكتابة ، والعشور والمحافظة على الأمن ، ويتأثر هؤلاء فى عددهم ووظائفهم بمركز القرية الاقتصادى الأمر الذى يختلف بين منطقة وأخرى والقرية تكون من مجموعة قليلة من المساكن ، وتنتشر عادة المساكن بعيدًا عن القرية ، وعلى طول الأراضى الزراعية التى كانت ملكًا للقبيلة ، ويقوم الشيخ بتوزيعها على أفراد قبيلة وفق النطاق الذى يراه من ناحية قدرتهم على العمل فى الأرض ، وقد تدخلت فى التوزيع عوامل أخرى ، وقد ذكر كرمب أنه وجد البيوت والأكواخ منتشرة على طول الطريق فى منطقة «دنقلة»[٥٩] وتقوم المساكن عادة على أطراف الأرض الزراعية بعيدة عن مجرى المياه من نهر النيل أو روافده ، ولايختلف الحال كثيرًا من ناحية الأسس التى قامت عليها القرية عن حال

(٥٩) رحلة كرمب فى كتاب مملكة الفونج فى سنار لكروفورد بالانجليزية ص ٢١٥ .

المدينة الصغيرة أو الكبيرة ، فالقرية تسيطر على عدد من الحلال التى تنتشرها هنا وهناك على أطراف الأراضى الزراعية أو مواطن الرعى ، ويتولى شئونها الشيخ وجماعته الصغيرة من قاضى وعمال ، وتسيطر المدينة على مجموعة من القرى ، ويتولى شئونها مانجل أومك ، أما المدينة الكبرى وتكون عادة واقعة على ملتقى طرق القوافل ، وتسيطر على عدد من المدن الصغيرة ، وما يتبعها من قرى وحلال ، ويتولى شئون هذه الوحدة الكبرى زعيم الدار ويحمل لقب مانجل وينادى بالأرباب ، وولاية السلطة للشيخ والملك والمانجل وراثية يتبادلها الزعيم وأقاربه أو من ينتمون إليه .

وتقام فى المدن الصغرى والكبرى الأسواق الأسبوعية (يختار يوم معين لكل منطقة ليتناسب مع المصلحة العامة للسكان لكى يتمكنوا من الانتقال من سوق إلى سوق) ، فى هذه الأسواق يتبادلَ الأهالى مختلف منتجاتهم المحلية ، وكان التبادل غالبًا عن طريق المقايضة فى القرى والمدن الصغرى ، أما فى المدن الكبيرة فكانت تستخدم بعض العملات الأسبانية وغيرها .

ويتحصل المانجل أو الملك على نصيبه من الدخوليات ، ومن المكوس على القوافل التى تختلف قيمتها بين منطقة وأخرى ، ويدفع الزعيم المحلى جزءاً من حصيلته العينية والنقدية إلى خزينة السلطان السنارى ، وكانت هنالك ثلاث مراكز جمركية فى السودان هامة الأول فى دنقله ، والثانى فى قرى ، والثالث فى تشلجه .

وتميزت العلاقات بين الأهالى والزعيم المحلى بالطابع الدينى الذى لايختلف عما كانت عليه حال القرية فى عصور الفراعنة ألتى تركت رواسبها وكيفت نفسها فى القالب الجديد لتتمشى مع الدعوة الإسلامية التى أزالت الفوارق الطبقية ، وهدمت أركان الاقطاع القديم باشراك الفرد ليجنى نصيبًا من تعبه ليستمتع بحياة مناسبة رفعته من أغلال العبودية إلى مستوى إنسانى ، وبدأت البلاد فى الاتجاه نحو بناء جديد فى الاقتصاد والاجتماع .

ونجد الطابع الدينى واضحًا كل الوضوح فى الطقوس التى تتبع فى تقليد ولاية الملك للسلطان بصفة خاصة كما سنتعرض له فيما يلى :

٢ـ تقاليد الحكم:

تصور لنا طقوس ومراسيم ولاية الحكم فى السلطنة السنارية مدى الارتباط الوثيق بين الماضى البعيد والحاضر تصور مدى ما أحرزت التقاليد الموروثة من انتصار فى صراعها مع تقاليد العرب والمسلمين فإذا رجعنا إلى الماضى البعيد نجد أن الحاكم كانت له شخصيته التى استمدت قدسيتها من الدين ، وكان عليه قبل أن يباشر سلطانه أن يتدرج فى طقوس ومراسيم ليتطهر جسده وترتقى به عن مستوى البشر ، وكان له مطلق التصرف فى رعيته واستعبادهم ، وإذا أراد أمراً قالوا له «فلتكن مشيئتك» ، واستمرت هذه التقاليد فى عهد المسيحية فى صورة لم تتأثر بتعاليم الدين الجديد ، وعندما دخل الاسلام فى السودان تفاعل مع هذه التقاليد ونشأت صورة جديدة لها مظاهرها من الأوضاع القديمة والحضارة الجديدة ، واستطاع الإسلام إذن أن يدخل بعض التعديلات التى لم تغير من طبيعة التقاليد ، فانفلقت النواة وتقاسمها الحاكم والفقيه .

فالسلطان لايصل إلى كرسى الحكم إلا بعد أن يخضع لمراسيم ترفع من شخصيته عن مستوى الرعية وتؤهله للقيام بأعبائه التقليدية ، ومنها رمى البذور الأولى فى موسم الزراعة ، وافتتاحه لدورة الحصاد ، ولهذا ارتباطه بالعقيدة الموروثة التى لاتتم أركانها إلا بعد قيام الحاكم بهذه التقاليد لضمان الخير والبركة ، والتى سوف تجعل المحصول وفيراً لايتعرض للآفات الزراعية ، أو أى مؤثر آخر يقلل من غلته كما كان على السلطان أن يتولى تكريس الزعماء المحليين ، وأعطاهم البركة قبل ممارسة مهام مراكزهم أما الفقيه فعليه أن يؤدى الصلوات للاستسقاء وغير ذلك من التوجه إلى الله تعالى لدفع الأذى والضرر والاكثار من الخير والبركات كما كان على الفقيه أن يقوم بتكريس من ينتخب للنيابة عنه ، فى تولى أمر سجادته فى المناطق البعيدة عن مركز سجادته الرئيسى .

وليست هذه التقاليد فى شطريها ما يمارسه السلطان وما يمارسه الفقيه إلا صورة مما كانت عليه فى العهد الفرعونى ، وهذه التقاليد منتشرة فى السودان وفى المناطق المجاورة ونجدها فى صورة واضحة فى مناطق العزلة فى السودان .

ويهمنا قبل أن ننتقل إلى استعراض هذه الطقوس والمراسيم التقليدية أن نحاول التعرف على الأسباب التى عملت على الإبقاء على هذه الحضارة فى صورة أو أخرى ، طوال هذه العصور من دراستنا السابقة عن دخول الإسلام السودان ظهر لنا أن المجتمع كان فى حالة ركود وجمود من أثر الانحلال الذى أصابه فى الفترات التى سبقت دخول الإسلام ، ولم يمكن للوافدين من العرب والمسلمين أن يدخلوا على المجتمع السودانى ما يعرضه لهزات فكرية عنيفة ، أو تغيير ذى شأن فى مقومات حياته الاقتصادية والاجتماعية لأن دخوله كان هادئًا يحمله التجار والدعاة ، وبعض العلماء الذين صهرهم المجتمع ، وحولهم إلى الاهتمام بمصالحهم الدنيوية لذلك أهملوا تكوين أجيال تحمل من بعدهم رسالتهم الدينية فى صورتها الصحيحة ، وتسربت دعوتهم الدينية فى يسر أبقى على كثير من الأوضاع التى كانت تعيش فى ظلها القبائل ، وساعد هذا الحال على إيجاد انطباعات جديدة من صور الماضى .

٣ ـ طقوس وتقاليد انتقال ولاية الحكم

جاء فى مخطوطة تاريخ سنار «فحين يملكون لهم ملكا جديدًا يزوجوه من نسل تلك المرأة» ويسمونها ابنة عين الشمس ، ويحملونها على عنقريب من خشب السرطان[٦٠] إلى حوش الجندى (يحبسونهما) به سبعة أيام ثم يخرجوا به (السلطان المنتخب) إلى محل معروف لهم فيه عوايد تخرج لهم من الأرض يتفاولون (يتفاءلون) بها بخروجها ويتشاومون (يتشاءمون) بعدمها وهى باقية فيهم حتى انتهى ملكهم والله أعلم وهذه أول عبارة صريحة تشير إلى طقوس تقليد السلطات فى صورة عامة ، وفى نفس الوقت تكشف لنا عن بقايا العهود القديمة التى أخذت تنتقل من جيل إلى جيل حتى وصلت إلينا فى صورها الحاضرة ، وقد سجل ديزنى[٦١] ماشاهده من طقوس أتبعت عند تتويج ملك الفونج فى فازوغلى واسمه «حميده رجب بدير»

---

(٦٠) انظر مخطوطه تاريخ ص ٤ كاتب المخطوطة أحمد بن الحاج أبوعلى المشهور بكاتب الشونة كما هو وارد ضمنا فى المتن ، والنسخة التى أعتمدنا عليها هى النسخة المحفوظة فى المكتبة الأهلية فى (فينا) وهذه العبارة الخاصة بالطقوس لم ترد فى مخطوطة تاريخ سنار المحفوظة بدار الكتب المصرية وهى مكتوبة بقلم يختلف عن نسخة فينا .

(٦١) مقال ديزنى فى مجلة السودان فى مذكرات ومدونات ص ٣٧ ـ ٤٢ مجلد ٢٦ تحت عنوان «تتويج ملك الفونج فى فازوغلى» .

وذلك فى فبراير سنة ١٩٤٤ م ـ وذكر فى مقاله أن بعض رجال العمدة قد أقبلوا وأخذوا من الجندى قطعة من القماش الأبيض كان متمنطقا بها ، وظللوا بها الملك لتحجب عنه أشعة الشمس حتى لايتعرض لها قبل اتمام التقاليد المرسومة لولاية ا لحكم ، وبعد ذلك تقدم بعض الرجال متشابكى الأيدى ، لهيئوا مقعداً لحمل الملك إلى حوش الجندى الذى يبقى فيه حتى المساء ، ومن ثم ينقل إلى منزل خاص منعزل يحبس فيه ومعه عذراء(٦٢) تشاركه محبسه الذى تصل مدته إلى سبعة أيام ، وفى نهاية الفترة قد يختارها زوجة له أو غير ذلك ، ويبقى الحبيسان تحت حراسة الجندى لمنع الاتصال الخارجى ، كما لا يسمح لأحد بالبقاء فى المنزل إلا لعجوز تقوم بتدليلك الحبيسين ، وتطييبهما بالعطور المختلفة التراكيب أما الغذاء فإن الجندى ينقله إليهما بعد إعداده فى الخارج ، ويتحتم على الملك أن لا يتعرض خلال فترة الاعتكاف لضوء الشمس حيث أن تعرضه للضوء يعد مخالفة للعوائد(٦٣) تؤدى إلى حرمانه من العرش والانتقام منه .

وعلى ذلك فإن الملك لا يتسلم مقاليد الحكم وقبل اتمام مراحل ثلاث تبدأ بمرحلة الاختيار من بين المرشحين للعرش ، وهم فى غالبية الحالات من ألصق الأقرباء بالحاكم السابق ، الأبناء ، الأخوة ، الأعمام ، أبناء الأخ ، أبناء العم ، أبناء الأخت ، وأخيرًا الأقارب من الرحم ، كما حدث فى اختيار السلطان نول ، ويقوم بعملية الاختيار مجلس من أكابر الدولة من أعضاء البيت السنارى ، ويجتمع هذا المجلس عندما يشرف القائم على العرش على الوفاة ، أويقرر المجلس عزله لسبب أو آخر ، وعندما يتم الاختيار يؤخذ المنتخب إلى محبسه فى حراسة الجندى ، ومعه العذراء كما ذكرنا قبلا ، وبعد نهاية فترة الاعتكاف التى فصلناها فيما سبق يقوم الجندى بمرافقة الحاكم المنتخب من محبسه إلى ساحة التتويج التى يجتمع فيها الأمراء وأكابر الدولة والأهالى ، وفى هذه الساحة يقام الككر(٦٤) تحت شجرة كبيرة الظل ، وعند وصوله إليها يقوم

---

(٦٢) يشترط أن تكون العذراء من نسل بين عين الشمس .

(٦٣) العوائد هى الـ Taboo العادات المحرمة .

(٦٤) الككر (Kakar) وهو كرسى الملك ـ انظر مقال أركل ص ٢٢٧ بمجلة السودان فى مدونات ومذكرات المجلد الخامس عشر .

الجندى ، بخلع قفطان الحاكم ويحلق شعره ثم يتقدم أكبر رجال الدولة من البيت السنارى ، ومعه قفطان جديد وعباءة ليلبسها الحاكم وتوضع على رأسه الطاقية أم قرين (٦٥) . ويسلم إليه السيف ، وبعد إتمام ذلك يجلس على الككر ، ويتقدم الوزير وأكابر الدولة والمشائخ وغيرهم لبيعة الحاكم الجديد وتحيته ، وللتحية تقاليدها الخاصة وذلك أن يتمنطق الزعيم بثوبه (٦٦) عندما يتقدم لتأدية التحية ، ويقبض كل من الحاكم الجديد والزعيم بكلتا يديه على يد الآخر ، وتدق فى أثناء ذلك موسيقى تصدر أنفاسها من النفخ فى القرون بينما يقوم الفقهاء بقراءة الفاتحة وترتيل الأدعية .

وبعد الانتهاء من قبول مراسيم التهانى يذهب الحاكم ومعه الجندى وبعض أكابر الدولة إلى مكان معين ينتظرون فيه خروج عوائد (٦٧) يتفاءلون بخروجها ويتشاءمون باختفائها وينتقل هذا الموكب بعد ذلك إلى مجرى النيل حيث يدخل الحاكم الماء حتى يصل إلى رقبته فيغطس رأسه ، وبهذا تنتهى الطقوس والتقاليد ويستكمل الحاكم مراسيم تسلم سلطته الشرعية .

وذكر بروس وكايو (٦٨) أن من عادة السلطان أن يقوم بافتتاح الموسم الزراعى عند رمى التقاوى ، وعند جمع المحصول ، وذكر بونسيه أن السلطان فى سنار لايظهر أمام العامة سافر الوجه بل يلتثم بغطاء من الحرير الملون (٦٩) ، ويستخدم هذا النوع من الحجاب بصفة عامة بين الملوك

---

(٦٥) الطاقية أم قرين ــ أو أم قرن . هى إحدى شارات الملك وهى عادة قديمة العهد أنظر مقال كرفورد فى مجلة السودان فى مدونات ومذكرات ص ٣٣٤/٣٣٣ المجلد السادس والعشرين .

(٦٦) الثوب قطعة من القماش الأبيض يلتحف بها الرجال فى شكل يختلف عن استعمال النسوة اللاتى يستعملن نوعًا من القماش الملون يعرف بقرن علج ، والعادة أن يربط طرفا الثوب حول الوسط عند الدخول على شخصية محترمة سواء كانت دينية أو مدنية ــ وهذا النوع من اللباس منتشر فى الحبشة والسودان يقلل تدريجيًا كلما بعدت المسافة غربًا (انظر كتاب برتون ص ٣٧) . الثوب عادة يتكون من عرضين من القماش متلاصقين بالحياكة . وكل نصف منهما يعرف بالشقة (Shuqua) .

(٦٧) العوائد كما يبدو كلمة شملت التقاليد المتوارثة فى مختلف صورها ، وهى فى هذا الوضع بالذات يقصد منها انتظار خروج «دابة الأرض» وتحتاج هذه الظاهرة إلى تفسير وإلى تحديد علاقتها مع ماورد فى سورة النمل «وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بأياتنا لايوقنون» (آية ٨٢) .

(٦٨) انظر بروس فى رحلته جزء ٤ ص ٤٦٦ وكايو جزء ٢ ص ٢٧٧ .

(٦٩) يونسيه فى كتاب البحر الأحمر والممالك المجاورة فى نهاية القرن السابع عشر الميلادى ص ١٠٤ .

الزعماء فى المنطقة من الحبشة شرقًا إلى نيجيريا غربًا، وهى المنطقة التى يتحتم فيها على الزعيم المنتخب أن يمضى فترة من الزمن تبلغ الستة أيام يعتزل فيها الحياة العامة، وقد تختلف مراسيم ولاية الحكم بعض الشىء بين منطقة وأخرى، ومرجع ذلك الاختلاف إلى البيئة لكل أقليم .

ففى أثيوبيا نجد أن النجاشى يستكمل تتويجه فى المعبد، ومن ثم يخرج فى طريقه إلى مخيمه فتعترضه عذارى أكسوم اللائى يقفلن الطريق بحبل من الحرير، ولا يسمحن له وصحبه بالمرور إلا بعد أن يؤكد لهم أنه النجاشى لمملكة صهيون، وهذا الاعتراض نجده فى السودان فى طريق العريس عند ذهابه لعروسته، فيمنعه من الوصول إليها بشتى الوسائل حتى يدفع لهن بهداياه وتعرف بـ «الشعقيبة»، وفى العرب نجد أن قبيلة الجكون (٧٠) فى نيجيريا وبطونها المنتشرة فى مختلف المناطق ومنها المبوم تتبع تقاليد وطقوس ولاية الحكم تتفق فى كلياتها و تفصيلاتها مع ماهو متبع عند سلاطين سنار، وأنهم يحرمون على الأمير أن يتخطى الماء كما أنهم لا يسمحون ببقاء أثر قدمى (٧١) الأمير على الأرض لذلك يسير خلفه خادم فى يده قوام لنسر ليعفى بها الأثر أولا بأول وتذكرنا هذه بما كان من أمر السامرى «قال فما خطبك ياسامرى قال بصوت بما لم يبصروا به، فقبضت قبضه من أثر الرسول فنبذتها، وكذلك سولت لى نفسى» (سورة طه أية ٩٤و ٩٥) ويعرف الشخص الذى يتولى تهيئة الزعيم المنتخب فى قبيلة الجكون باسم كندشيخو وهذه أصلها «جندى شيخ»، والتصحيف ظاهر كنتيجة اللهجة المحلية .

وفى دارفور يبقى السلطان الذى تم تعيينه سبعة أيام فى منزله قبل أن يباشر سلطاته، وقد خالف هذه العادة السلطان عبد الرحمن (٧٢) (حكم إلى دفور ١٧٨٧ ـ ١٨٠٢م) .

---

(٧٠) الجكون موضوع كتاب الأستاذ ميك المسمى (بملكة سودانية) وهؤلاء كانوا يسكنون حوض نهر العطبرة وهم إحدى القبائل الكبرى التى هجرت موطنها، فى حوض النيل وفرت إلى غرب أفريقيا (حوض نهر النيجر والكمرون وسيراليون) وقد ورد ذكر هذه القبيلة فى كتاب الخطط للمقريزى باسم ديجون (بورخارد ص ٤٩٨) وذكر فى كاترمير «ديجون» ومنهم بقايا قليلة فى جنوب سنار ويعرفون باسم «جكوب أب جريد» وموضوع هجرة قبائل حوض النيل الأوسط بسبب هجوم النجاشى غير أنه فى منتصف القرن الرابع الميلادى جديرة بالبحث والتحقيق .

(٧١) أنظر كتاب الإدارة الأهلية فى نيجيريا لمؤلفته مرجرى برهام ص ١٤٢ .

(٧٢) أنظر التونسى ٩٦/٦٤ .

أما فى مملكة تقلى فان ولاية الحكم والنزول عنه موكولة إلى امرأة تقلب بـ «الأرتية» (٧٣) (Artiy) وهى عريقة فى حسبها ونسبها ، وهى من صفوة سلالة ملوك تقلى ، ولهذه إلا مرأة مكانتها الروحية ، ومقامها فى تقلى أعظم من «أيا باسى» كبيرة الميارم فى بلاد الفور ، وتقضى تقاليد تقلى أن يكون لها القول الفصل فى ولاية الحكم وعزل القائم عليه ، وهى تحتفظ بأدوات الحكم من تاج ونحاس وسيوف إلخ . . لكنها لا تنفرد باصدار أوامرها إلا بعد أن تجتمع كلمة المشايخ المحليين (المكوك) وكشرط متمم لولاية الحكم بالذهاب إلى مغارة عميقة فى إحدى الجبال تسكنها حية تعرف باسم «حميدة أم كما أبيض» ويسألون عن المستقبل ويسمعون صوتًا يخاطبهم بوضوح تام عن الحوادث المنتظرة ومايتوقع حدوثه فى عهد الحاكم الجديدة من رخاء وغلاء وسلام وحرب ، وقد ذكر أوليا شلبى فى رحلته أنه عند وصوله إلى سفح جبل سنداسى ذبحت سبعة جمال وسبعة خرفان وسبعة ماعز وسبعة ديوك وسبعة ثعابين . . . ، ولوث الجميع أيديهم فى هذا الدم ومسحوها فى الصخرة ، ولما سأل عن سبب ذلك قيل له أن هذا هو الطلسم لفتح باب الغار الذى دخل منه كبار القوم ، وسمعوا صوتًا بالترحيب ، وبعد ذلك أخذ كل منهم فى سؤال الصوت الخفى عن مقصده فكانت تأتيه الإجابة «مسموعة واضحة باللغة التى يعرفها وهى التركية» والذى يهمنا من هذه القصة أن التقاليد المرعية فى تقلى وهى استشارة الحية لها مصدرها الحبشى ، ولا يخفى أن للحية فى تاريخ الحبشة أثر كبير .

مراسيم تقليد المشيخة - للزعيم المحلى

وننتقل إلى المراسيم الخاصة باسناد المشيخة أو المكوكية (٧٤) ، فقد ذكر نعوم شقير (٧٥) ، وكانوا إذا توفى شيخهم اختاروا شيخًا آخر ، وأخذوه إلى ملك سنار فيؤيده ، كما كان مشايخ

---

(٧٣) أرتى (Arti) كلمة نوبية معناها الكاهن صانع المطر ويطلقها البعض على لفظ الجلالة (انظر قاموس مقارن للنوبية والانجليزية لمؤلفه ج . و . مرى G.W Muray وكتاب Alkmvist عن ا اللغة النوبية وتطلق Arti فى اللغة السنكرية على الجزيرة Island .

(٧٤) مكون مفردها مك وهو الشيخ المحلى .

(٧٥) يختص السلطان السنارى باجراء التعيينات المختلفة فى قطاعه أما فى المناطق المتحدة مع سنار فالسلطان يوافق على تعيين الشيخ أو الملك من بين المرشحين الذين كانوا عادة من بيت الزعامة . كما أن السلطان يعين القضاة «الشرعيين»=

العبد اللاب يؤيدون المشايخ والملوك الذين هم دونهم تحت سيادتهم وذلك أنه كان إذا مات لهؤلاء ملك اجتمع أهل قبيلته واختاروا لهم ملكًا يولونه عليهم ، وأتوا به إلى الشيخ فيحلق الشيخ رأسه ويلبسه طاقية ذات قرنين محشوة قطنًا ويجلسه على كرسى يسمى بالككر ثم يخاطبه بلقب مك أى «ملك» ويقول له «مبارك عليك» ، فيقبل الملك يده وتدعو له بخير ، فيأمر الشيخ بضرب النحاس اشهارًا لتأييده ملكًا على أهله ، وعند ذلك يتقدم أهله ، فيسلمون عليه بالاحترام الذى سلمبه على الشيخ ، ويخاطبونه بلقب «أرباب» ثم يقولون جعلك الله مباركًا علينا ، ولتعمر البلاد بك ، وتكثر الخيرات على يدك ، فيقول لهم «الله يعمركم ويخليكم أنا بكم مش بلاكم» .

وذكر كرمب أنه قد حضر أثناء زيارته لبلدة قرى مراسيم تولية شيخ لاحدى القرى التابعة لشيخ قرى ، ويقول أن الشيخ المعين قد أحضر إلى اجتماع فى البلدة ليسمع بعض الأدعية التى يقوم بها الفقهاء ، وبعد ذلك يقدم له الشيخ قميصًا حريريًا وعمامة ويسلمه سيفًا كرمز لولايته سلطاته ، وعند ذلك يتقدم الحاضرون بالتحية للشيخ الجديد ، وذلك بالانحناء أمامه حتى تلمس جباههم الأرض مايقرب من الثلاثين مرة ـ ويرفض الشيخ الجديد شاهرًا السيف الذى قلد به فى يده ويغنى مادحًا شيخ قرى (٧٦) .

وفى بلاد المحس شمال السودان ، والتى كانت تحم حكم الكشاف ، فان تتويج الشيخ يتم بجلوسه على حجر فى مكان معين ، وفى بلاد المحس أيضًا نجد أن رجلا يحمل عصاه أو سيفًا من الخشب يستقبل به الإمام عند باب المسجد عند حضوره لصلاة الجمعة ويسير أمام الإمام حتى باب المنبر فيسلمه العصاة أو السيف وبهذا يستكمل الإمام صلاحيته للإمامة ويصعد على المنبر للخطبة ، ولهذه العادة أثر فى صعيد مصر .

= أنظر الطبقات ترجمة دشين قاضى العدالة ص ٩٠ والقضاة الآخرين عبدالله العركى ص ١١٢ وعبدالرحمن ابن مشيخ النوبرى ص ١١٤ وبقدوش ابن سرور ص ٤٤ ـ يقوم الشيخ الحلى بتعيين من هم دونة مرتبة دون الرجوع إلى السلطان .

(٧٦) أنظر رحلة كرمب فى كتاب مملكة الفنج فى سنار لمؤلفه كروفورد ص ٢٢٢ ومابعدها طبع ١٩٥١ .

مراسيم الاستقبال عند السلاطين

ذكر بونسيه أنه قد ذهب فى اليوم التالى لوصوله إلى مدينة سنار لمقابلة السلطان فى ديوانه الرسمى ، وأوضح المراسيم التى تراعى فى مثل هذه المناسبات ، وذلك بأن يخلع الداخل حذاءه عند باب ديوان متسع اصطفت على جوانبه جنود من حملة الرماح ، ويقف الداخل عند حجر ، بالقرب من باب ديوان اعتاد السلطان أن يجلس فيه لمقابلة البعثات الأجنبية ، وبعد أداء التحية وفق العادة المتبعة ، وهى الركوع وتقبيل الأرض ينقل الوزير الواقف بالقرب من السلطان التحية ويحمل رد السلطان عليها ، ويقول بونسيه أن السلطان كان جالسًا على سرير فاخر ، ويرتدى معطفًا موشًا بالذهب ، ومتمنطقًا بحزام من قماش ، وعلى رأسه عمامة بيضاء ، وحوله عشرون من كبار رجال الدولة .

وبعد أن حمل الوزير تحية السلطان قدم بونسيه الهدايا التى أحضرها معه ، وهى عبارة عن مصنوعات زجاجية أوروبية ، وقد أظهر السلطان إعجابه بها ، وبعد حديث تناول الإجابة على الأسئلة التى وجهها إليه سأله عن سبب رحلته ، واستمرت المقابلة زهاء ساعة من الزمن انتهى بعدها الاستقبال وانسحب الزائر ومن معه إلى الخلف ، وأعادوا الركوع وتقبيل الأرض ثلاثًا ـ وأمر السلطان الحراس برافقتهم إلى منزلتهم ، وأرسل إليهم أقداح السمن والعسل والمأكولات الأخرى وعجلين وخروفين .

مراسيم تقليد الخلافة الدينية

يختار الفقيه صاحب السجادة (الطريقة الدينية) كالقادرية وغيرها ـ ومن يصلح من تلاميذه بعد أن يستكمل مرحلة العلم ليشغل مركز خليفة الفقيه فى المكان الذى يختاره لنشر دعوته وتلقين المريدين وتعاليم الطريق ، ويتم التعيين لمركز «الخليفة» فى حفل يقام أمام بيت الفقيه يجلس الطالب على كرسى وتلف على رأسه عمامته ، ويطوفون حوله عدة مرات قد تكون سبعًا ثم يتلوا الفقيه بعض الأدعية ، وبعدها يباركه ويسلمه ركوة وفروة وعكاز وسبحة تكون فى بعض الحالات مكونة من ألف حبة ، وتذبح الذبائح ، وتقام بعد ذلك الأذكار ، وينشد المداحون وينتهى الحفل عادة بعد صلاة العشاء بالدعاء والفاتحة .

مراسيم الاستقبال عند الزعيم المحلى

روى كرمب (٧٧) أن الأهالى عندما يزورون الزعيم فى «قرى» يتقدمهم رجل يحمل عصا طويلة، ويتبعه القوم فى صف واحد يحيى كل منهم الشيخ بقوله «يا مانجل» أنا فلان . . . .، ويرد عليه الشيخ مكرراً الاسم، وبعد الانتهاء من المستقبلين يقيم الشيخ عرضا لجنوده يقومون بتمثيل موقعة صورية تدق خلالها الطبول، وتستمر الحال حوالى النصف ساعة ينصرف بعدها القوم إلى بيوتهم .

تقاليد الاستقبال عند الفقهاء

جاء فى كتاب الطبقات (٧٨) . . إن الفقيه عبدالصادق ولد حسيب أرسل إلى الشيخ حسن بالقدوم إليه، ولما وصل الشيخ إلى حلة الفقيه، وجده غائبًا فانتظره أيامًا وفى يوم عودته علت التهاليل والزغاريد، وذهب الفقيه إلى الحوش (منزله) ولما زالت الشمس ضربت الطبول، وفرشت دكة الديوان ثم جاء الفقيه لابسًا قميصًا عاليًا كبيراً وجلس على الدكة وقامت العبيد يحملون العكاكيز (مفردها عكاز) للسلام يقول الواحد منهم «أنا فلان» ويكرر الفقيه الاسم فيرد عليه هذا الفلان «سيدى» فلما فرغوا قامت الفقراء فسلمت ثم قام أرباب الحاجات فسلموا وتكلموا وانتهى الاستقبال .

أما فيما يختص بمختلف الوظائف الأخرى، فى السلطنة وفى الأقاليم المتحالفة فإننا لانجد ما يشير إلى ذلك تفصيلا من حيث الرواتب التى تدفع للموظفين من كبار رجال الدولة إلى أدنى الدرجات، وهل هى كانت تدفع وفق مقررات معينة، أو كانت متروكة لأخذ نصيبهم مما يحصلونه من عشور وضرائب إلخ . ويبدو فيمايخص الوظائف الرئيسية أن أصحابها كانوا يحصلون على معيشتهم من أرزاق الاقطاعات التى تمنح لهم كما هو الحال فى دارفور .

---

(٧٧) أنظر كتاب مملكة الفونج فى سنار لمؤلفه كروفورد ص ٢٢٢ .

(٧٨) كتاب الطبقات نشر الشيخ إبراهيم صديق ص ٥٠ .

ونجد تنظيمات فى دارفنج (جنوبى سنار إلى الرصيرص) أخذ بعضها فى الاختفاء فى العهد الحديث ، وقد يكون من المفيد أن نسجلها لصالح البحوث المستقبلة .

وهذه التنظيمات هى كالآتى :

١ - وورAUR:

هذا هو لقب الزعيم المحلى ويقابله «مك» المستعمل بين المجموعات فى السودان الأوسط ، ولهذا الزعيم السلطات المدنية والدينية فى منطقته ، وعليه أن يقوم بدور رئيسى فى إقامة الشعائر الدينية .

ويتخذ الزعيم مسكنه فى كوخ يعرف باسم واتل (We -ei-tel) ومعناها «كوخ الشمس» ويعتبر هذا الكوخ مركز الشعائر الدينية ، ويحتفظ الزعيم فيه بمقعد خشبى ينتقل عند وفاة الزعيم إلى خلفه ، وهذه الوظيفة وراثية يرثها الابن عن الأب ، ولايخرج هذا الزعيم إلى الحرب .

ويفصل هذا الزعيم فى المشاكل التى تعرض عليه . كما أن من واجبه أن يرعى مصلحة منطقته المعيشية ، و يعاونه فى ذلك موظفون كما هو موضح بعد .

٢ - سن أى كنج (بضم الكاف) (Sen-i-Kung):

وصاحب هذا اللقب هو «قائد الحرب» ويقابله فى سنار «سيد القوم» ، وهو منوط برعاية الأحوال اليومية وترفع إليه الشكاوى للفصل فيها أما المشاكل الهامة فيقدمها إلى الور (Aur) الذى يفصل فيها باستشارة الأجاويد وسيد القوم .

والوظيفة وراثية .

٣ - كاى K. i:

ويقوم هذا بممارسة علاج المرضى بالسحر أو غيره .

٤ - سن أى توك Sen-i-tok:

وهو قائد الماشية ، ولكل حلة (قرية) قائد ماشيتها ، ومن اختصاصه أن يقود الحيوانات إلى موطن الرعى عقب انتهاء فصل الأمطار ، وعليه أن يصدر أوامره إلى الرعاة لتغيير موطن الرعى

عندما تتطلب الظروف كما عليه أن يأمر باقامة الزرائب فى المواضع المختارة فى مواطن الرعى ، والزرائب تقام عادة فى شكل دائرة تحيط جوانبها أشجار شوكية .

٥ - سن أى سرم Sen-i-Serm:

وهو نافخ البوق (والبوق - النفير - من قرون الحيوانات) ويتولى «حامل البوق» ولكل قرية عاملها - دعوة السكان للخروج للصيد ، وهو الذى يتصرف فيما يجمعون ، وعليه أن يقوم بدوره السحرى ، فى عملية الصيد .

٦ - سن أى ساك Sen-i-S.k:

وهذا هو زعيم المريسه (الشراب المحلى) ويمارس وظيفته عندما يتقدم إليه شخص بطلب استخدام عدد كبير من العمال ، وفى هذه الحالة يقوم هذا الزعيم باعداد المريسة المطلوبة ، ويطلب من الخدم أن يعين مندوبًا عن عماله لاستلام المريسة وتوزيعها على رجاله .

والمريسه تستخرج من خمير العيش وتستعمل فى بعض المناطق كغذاء رئيسى .

٧ - القطاش G.t.s h:

وهو الذى يعرف مسالك الجبال والطرق ، ويرشد الغرباء إلى الطريق ، وإذا حدث خلاف بين الأهالى فى منطقة الجبال والانقسنه ، فإنهم يذهبون إليه فى ا لجبل الذى يسكنه ومعهم خروف لذبحه وإقامة حفل للصلح .

ونجد فى هذه المراسيم والطقوس مظاهر بارزة تتطلب بحثًا دقيقًا فى دراسة مقارنة لمعرفة مصادرها وتطوراتها ، ومن هذه المظاهر حبس السلطان المنتخب لسبعة أيام ، والتزامه بأن يمتنع كلية خلال تلك المدة من التعرض لضوء الشمس ثم ذهابه إلى المكان المعين انتظارًا لخروج العوائد ، وأخيرًا دخوله ا لماء وغطسه فيه ، ويشرف على هذه الإجراءات الجندى الذى تبدأ مهمته من الساعة التى يتم فيها انتخاب السلطان الجديد ، وهذه المظاهر إن دلت على شىء فأنها تدل على قدسية شخصية السلطان لذلك يتحتم عليه قبل أن يتسلم مقاليد الحكم أن يعتزل المجتمع للمدة المعينة تتبعها مباشرة مراسيم تقليده السلطنة ، وليس اعتزاله المجتمع إلا

لكى يتطهر ويرتقى من مرتبة البشر إلى مصاف أنصاف الآلهة . وأن عملية التدليك التى تقوم بها العجوز فى فترة الاعتكاف ليست إلا مصدراً من مصادر منح السلطان القوة .

وتكشف لنا هذه التقاليد والطقوس عن مدى أثر المدنية المصرية القديمة وعباداتها ، وبخاصة عبادة الشمس التى نجد طقوسها بارزة فى شكل أو آخر فى حفلات التتويج ، ونجد أيضًا أنه من الضرورى أن يتزوج السلطان فى سنار من بنت عين الشمس كما يعرف الزعيم فى بعض قبائل نيجيريا بابن عين الشمس (٧٩) ، وبدراسة هذه التقاليد والطقوس كما يمارسها بقايا الفونج فى فازوغلى (التى ذكره ديزنى فى مقاله آنف الذكر) ، وماهو متبع فى المناطق المجاورة للسودان فى نفس الزمن الذى سجل فيه ديزنى مشاهداته ، ومقارنة ذلك مع ما كانت عليه فى العصور القديمة يتبين لنا ما أدخل عليها من تعديلات وما أصابها من تطورات تتناسب مع البيئة المحلية الخاصة ، ومما يسترعى الالتفات أن هذه التقاليد والطقوس فى مختلف العهود التى مرت عليها لم يحدث تغيير فى الأسس التى قامت عليها أصلا ويرجع ذلك الاستمساك بتلك الأسس إلى طبيعة الحضارة المصرية (٨٠) .

والجندى هذا يقوم بدور رئيسى فى مراسيم التتويج ، ويكون عادة من رجال الدين ، فقد جاء فى الطبقات ما قاله الملك عمارة أبوسكيكين للشيخ «ادريس بن محمد الأرباب» أنت فى السابق كنت جندينا ثم بقيت جنديًا لله ، وحات ا لملك أن كان ماعافيت أمى أردك إلى جنديتك (٨١) ، وهذا المنصب يقابله فى العصرين الفرعونى والمسيحى منصب «الكاهن» الذى يتولى تكريس الزعيم لتسليم مقاليد الحكم .



(٧٩) أنظر كتاب دراسات قبلية فى شمال نيجيريا (بالانجليزية لمؤلفه مك ص ٣٥٠/٣٥٦)

(٨٠) من تلك البقايا التى مازالت باقية :

١ ـ عادة التخطيب بالحناء ورسم علامة القرص الشمسى فى أسفل الكف .

٢ ـ تكرر النسوة فى حلقات الرقص كلمة حك (Haqi) .

(٨١) طبقات ود ضيف الله ـ نشرها الشيخ إبراهيم صديق ص ٨/٧ والمقصود من «حات الملك» أى قسما بحياة الملك .

الطاقيـــة أم قـــرين



الكتاب الثالث

من امتداد الإدارة المصرية إلى السودان إلى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى

معالم تاريخ سودان وادى النيل



السلطنة السنارية
فى سنواتها الأخيرة



تميزت السنوات الستة عشر الأخيرة من القرن الثامن عشر الميلادى باشتداد الصراع بين انجلترا وفرنسا ، وبخاصة بعد أن فشلت الدولة الفرنسية فى بسط نفوذها القوى فى هولندا أمام النشاط البريطانى ، وكان هذا الفشل من أبرز الأسباب التى دفعت فرنسا إلى الانتقال بمسرح الصراع إلى جنوب شرق البحر الأبيض المتوسط حيث نزلت الحملة الفرنسية فى أرض مصر فى عام ١٧٩٨ لأهميتها الاستراتيجية على مركز انجلترا وعلى خطوط التجارة [١] بين الشرق والغرب وداخلية أفريقيا . وقد أحدثت هذه التطورات تغير نظام الحكم فى مصر ، وأهتم قائد الحملة نابليون بمحاولة إعادة فتح طريق التجارة بين مصر وبين الفور وسنار بعد أن أهملها المماليك الذين وجهوا اهتمامهم نحو التجارة عبر البحر الأحمر إلى السويس ، ومنها بطريق البر إلى شاطىء البحر الأبيض ، وتركوا السودان فى عزلة اقتصادية تكاد أن تكون تامة ، ولم يكن لبريطانيا أن تهتم بالتنافس والتطاحن الذى كان قائمًا فيما بين زعماء المماليك بسبب التجارة عبر مصر طالما أن الصراع لا يؤثر على شريان مصالحها فى الشرقين الأدنى والأقصى إلا أن نزول القوات الفرنسية فى مصر قد أيقظ اهتمام الدول الأوروبية وبخاصة إنجلترا التى كانت تحرص الحرص كله على بقاء هذه المنطقة منطقة الشرق الأوسط بعيدة عن السيطرة لدولة أو أخرى لما يخلق لها ذلك من متاعب تتعطل معها مصالحها الاقتصادية ، وعلاقاتها مع الهند وإلى مستعمراتها فيما وراء ذلك .

وبذلت بريطانيا جهودها لإخراج الفرنسيين من مصر الأمر الذى تم لها فى عام ١٨٠١م ، وبعد خروج الفرنسيين أقام الباب العالى ولاة فى مصر لم يكتب لهم التوفيق فى إدارة البلاد ،

(١) كوبان ــ السفراء والبعثات السرية ــ لندن ١٩٥٤ ــ روز . جزء أول ص ١٦١ .

حتى انتزعه الشعب المصرى الذى سلم مقاليد أموره إلى محمد على ، واستخدم هذا الوالى عدداً من المستشارين الفرنسيين لمساعدته فى تنظيماته الجديدة كما أنه نشط فى مطاردة المماليك والخلاص منهم لما كانوا يقيمونه من عراقيل ، ومشاكل لمحمد على ، وقد امتد نشاط المماليك إلى السودان حيث دخلت إليه بعض الجماعات منهم هربًا من محمد على .

وكان لهذه التطورات فى الشمال أصداءها فى الجنوب (السودان) حيث أيقظت الوعى ، وأخذ زعماؤه يتلمسون الطرق والوسائل للحصول على نجدة مصر للخلاص مما حل بهم من تطاحن قبلى وحروب داخلية زادتها تعقيدًا هجرة المماليك (٢) إلى البلاد ، ومحاولتهم السيطرة على دنقلة ، والانتقال منها تدريجيًا نحو الجنوب حتى تتم لهم الزعامة ا لكاملة كما حاول أولئك المماليك الدخول إلى كردفان ، وبلاد الفور حيث ذهب محمد على بك المنفوخ وعبدالرحمن بك ، واقترنت هذه الجهود من جانب المماليك فى مهجرهم بالاتصال بالوهابيين فى الجزيرة العربية عن طريق مندوبهم حسن جوهر الكاشف وكانت خشية مصر أن يتعاون المماليك مع أثيوبيا على قيام دولة مملوكية تسيطر على حوض النيل الأوسط وتنفذ إلى ساحل البحر الأحمر وتنشىء فى هذا الجزء من وادى النيل مشيخات وزعامات تخضع فى صورة أو أخرى للمماليك الذين يرتبطون فى شكل ما مع دولة أوروبية عن طريق محالفات صداقة وامتيازات تجارية . وكان والى مصر يرقب تطور الأحوال فى جنوب الوادى بعين الحيطة والحذر والعمل على مواجهة ماقد ينتج من تطورات بخاصة بعد رحلة هنرى صولت (٣) فى صحبة اللورد فلنشيا فى عام ١٨٠٦/١٧٠٥ ورحلته الثانية فى ١٨١٠/١٨٠٩ (وبين ١٨٠٥ و ١٨١٠م جاءت إلى مصر حملة فريزر التى فشلت) . وقد كان فى رحلته الأولى مع اللورد فلنشيا التى أرسلتها الحكومة البريطانية إلى نجاشى أثيوبيا للحصول على موافقته على منح بريطانيا قاعدة بحرية فى أرض الدناكل يمكن استخدامها لغزو مصر إذا قامت قوات فرنسية قفل البحر

---

(٢) انظر مقال الأمير عمر طوسون «نهاية المماليك» فى مجلة المجمع المصرى مجلد ١٥ ص ٢٠٥/١٨٧ - انظر أيضا كتاب التونسى «تشحيذ الأذهان» .

(٣) شغل هنرى منصب القنصل الإنجليزى فى مصر ١٨٢٧/١٨١٥م وكان مهتمًا بالآثار والرحلات كما كان وكيلا لشركة الهند الشرقية وله علاقات مباشرة مع وكلاء هذه الشركة فى مخا (اليمن) ومالطه .

الأبيض المتوسط لاحتلال مصر مرة أخرى أو إذا وقعت مصر تحت نفوذ دولة قوية تخشى إنجلترا منافستها . وفى الرحلة الثانية التى كانت أيضًا بأمر الحكومة البريطانية لتوثيق الروابط الدينية المسيحية ، وهذه من أولى مراحل التوسع الأوروبى الذى اتخذ باديء ذى بدء الدين كوسيلة لأهدافه .

وقد أهتمت مصر بنشاط هنرى صولت فى حوض البحر الأحمر وأثيوبيا الأمر الذى تبولت عنه مكاتبات (٤) . ولم يتوان محمد على فى اتخاذ خطوات مضادة لعرقلة الحركات المعادية التى تهدف إلى إقامة قوى منافسة تستطيع مناهضة مصر والضغط عليها ، وذلك بارساله وفدًا رسميًا إلى السلطان السنارى فى عام ١٨١٣م مطالبًا العمل على مقاومة النفوذ المملوكى (٥) كما أرسلت بعثة ثانية إلى غندار بأثيوبيا لنفس الغرض مقاومة للنشاط المملوكى وجاءت إلى مصر كنتيجة للتطورات التى حدثت بتغيير نظام الحكم وزوال السيطرة المملوكية وفود من السودان على رأس كل منها زعيم من كبار الشخصيات ومنها أبومدين المطالب بعرش دارفور والملك إدريس ود ناصر من البيت السنارى ومعه زعماء من فازوغلى كماجاء الملك نصر الدين أبوحجل زعيم الميرقاب وفى الوقت الذى جاءت فيه هذه الوفود إلى مصر كان الوالى غارقًا فى مشاكله الخاصة بشمال الوادى (مصر) غير أن تلك المشاكل لم تحجب عن مصر التيارات الخفية التى كانت تعمل فى مهارة لتثبيت أقدامها فى جنوب الوادى كما أشرنا آنفًا . وقد أخذالوالى فى إعداد خطته لتوجيه القوات اللازمة لاعادة الأمن واستتابه فى البلاد وذلك بعد أن تجمعت لديه المعلومات الضرورية وأهمها ماجاءت به البعثتان المصريتان من سنار وغندار وبما نقله زعماء الوفود السودانية . وقد حانت الفرصة لارسال أولى قواته تحت أمرة ابنه إسماعيل كامل بعد الانتهاء من الحرب فى الجزيرة العربية ، وأرسل الوالى قبيل سفره جنوده المهندس محمد خسرو بك والمعروف بالدفتر دار لكشف الطريق بين أسوان وحدود دنقله التى كانت تحت سيطرة الكشاف ، ولجمع المعلومات عن نشاط المماليك فى دار الشايقية وجنوبيها (٦) .

---

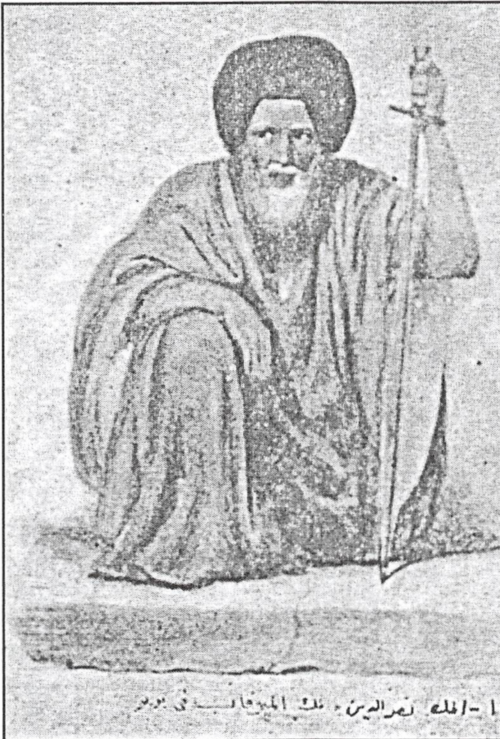
(٤) انظر أدوار دريو فى كتابه بناء أمبراطورية محمد على ص ٣٠٤ .

(٥) قابل الرحالة بورخارد هذه البعثة فى شندى (انظر كتاب ص ٣٠٨) .

(٦) مقال الأمير طوسون أنف الذكر ص ٢٠٥/١٧٨ .



أبومدين المطالب
بعرش الفور
(عن بيروت)



الملك نصر الدين
أبوحجل
(نقلا عن هوسكن)

قامت الحملة بقيادة إسماعيل كامل أصغر أبناء محمد على ، وبصحبته جماعة من كبار علماء الدين منهم القاضى محمد الأسيوطى ، والسيد أحمد الأفندى مفتى السادة المالكية ، والسيد أحمد البقلى مفتى السادة الشافعية ، وكانت مهمة هؤلاء العلماء القيام بارشاد الأهالى ، وتبصيرهم بأهداف الحملة التى ترمى إلى إرساء أسس جديدة لاعادة الطمأنينة والاستقرار للبلاد ، والتخلص من المماليك . وقد روعى فى اختيار هؤلاء العلماء تمثيل المذاهب التى تعتنقها غالبية سكان السودان الشمالى ، فالأكثرية تتبع المذهب المالكى ، وقلة منهم على المذهب الشافعى ، وجماعات أقل على المذهب الحنفى ولم تكن التجريدة فى واقع الأمر أكثر من قوة بوليسية أرسلت لاعادة النظام وتوطيد العلاقات بين شطرى الوادى بعد أن تعطلت هذه الروابط بسبب قيام حكومة متنافرة من المماليك وقليل منهم من أهتم بأمر الجنوب ، وكانت من نتيجة تلك العزلة كساد الحياة الاقتصادية وتطاحن الزعماء المحليين واشتباكهم فى حروب داخلية أكلت الأخضر واليابس . واشتدت حركة العصابات للسلب والنهب وقطع الطرق وكان لزامًا على مصر أن تعمل على إعادة الاستقرار والأمن وإرجاع الحياة اليومية إلى مجاريها بعيدة عن السيطرة الأجنبية التى برزت فى صورة محاولة المماليك فى السيطرة على ذلك الجزء من وادى النيل ، وفى تلك السيطرة مافيها من خطر على مصر نفسها .

ولم تجد التجريدة المصرية مقاومة بعد اشتباكها مع الشايقية الذين رفضوا ترك أعمال التعدى وقطع الطرق ، وقد طلب إليهم إسماعيل أن يركنوا إلى الزراعة وحياة الاستقرار والعمل على إعادة بناء الحياة اليومية ، وحدث فى إحدى المعارك أن وقعت فى الأسر ابنة زعيم الشايقية العذراء «مهيرة [٧]» التى كانت قد مقدمة المحاربين من أهلها كما قضت العادات والتقاليد القبلية ، وقد أحسن القائد المصرى معاملتها وبالغ فى إكرامها باعادتها محملة بالهدايا الأمر الذى دفع والدها أن يتوقف عن محاربة من حافظ على شرف ابنته ، وطلب الصلح معه .

وصارت الحملة من دار الشايقية إلى دار الميرفاب ، وفى بربر حضر الملك نمر (مك شندى) وحاشيته مرحبًا بمقدم الحملة ومعلنًا استسلامه وخضوع إقليمه للإدارة المصرية ، فأحسن قائد

(٧) هذه عادة قديمة ــ أنظر هامش ٣٢ من الكتاب الثانى .

الحملة معاملته وإكرامه من خلال الأيام الثلاث التى قضاها الملك فى معسكر الحملة فى بربر ، وعمل هذا الملك بعد عودته إلى منطقته على تأمين طريق الحملة عبر بلاده كما أحبط محاولة الملك المساعد الذى أراد أن يجمع رجاله ومن ورائه فلول من المماليك لمحاربة الحملة وعرقلة سيرها ، وحاول الملك المساعد أن يستميل إلى جانب الملك شاويش وفرسانه من الشايقية إلى جانبه إلا أنه لم ينجح فى محاولته هذه ، وانضم الملك شاويش ورجاله إلى الحملة ومنح رتبة «السنجق» .

ورافق الملك نمر الحملة المصرية من شندى إلى سنار للاستئناس برأيه ومشورته فى المسائل المحلية التى يتطلب حلها مراعاة التقاليد والعادات المحلية (٨) ، وحدث فى يوم وصول الحملة إلى سنار عاصمة السلطنة السنارية أن وقع السلطان بادى الوثيقة التى اعترف فيها بتبعيته للسلطان العثمانى وبتسليم إدارة بلاده إلى حكم مصر (٩) وقد قابل السلطان بادى الحملة المصرية فى واد مدنى معلناً ترحيبه واستسلامه ومما يجدر ذكره أن وزير السلطنة السنارية لما علم بقيام الحملة المصرية سارع بارسال خطاب إلى الفقيه ابراهيم الفرضى (بفتح الفاء والراء وكسر الضاد) طالبًا منه سؤال الله تعالى ليبطل مجىء الحملة (١٠) وهذه تبين لنا تغلغل المعتقدات فى أصحاب السجاجيد .

الملك نمر والغدر باسماعيل بن محمد على

لايهمنا فى قليل أو كثير أن نتعرض لمراحل القتال الذى انتهى بامتداد الإرادة المصرية حتى شملت أجزاء السلطنة السنارية ، وتطهير البلاد من خطر المماليك واستئصا شأفتهم لكننا لانريد أن نهمل فى ذلك الحادث الذى ذهب ضحيته إسماعيل وصحبه فى شندى . وبينما تتفق مختلف الروايات على أن الموت قد حدث بسبب الاختناق فإن هذه الروايات تختلف فى عناصرها عن العوامل التى دفعت إلى ارتكاب الجريمة . ويبدو أن المعلومات التى تجمعت

---

(٨) كتاب رحلة إلى دنقله وسنار لجورج أنجلش طبع بوستن سنة ١٨٢٢ ص ١٥٨ .

(٩) الصدر آنف الذكر ص ١٦٩ .

(١٠) صورة الخطاب فى الملحق السابع .

حينذاك عن ملابسات القضية قد بنيت على بيانات لم يبذل فى تحقيقها أدنى جهد . وماكان لهذه المسألة أن تعالج على هذا النحو الذى ترك أثره العميق فى المجتمع السودانى ، وسواء أكانت هذه الأخبار قد نشرت فى صورتها الخاطئة عن حسن نية أو عكس ذلك ، فإن الأمر الذى لاشك فيه أنها خلقت جواً من التشكيك فى الإدارة المصرية للسودان كما أيقظت الشائعات



الملك نمر ـ ملك شندى

المغرضة وتعطلت مرحلة البناء . وفى هذا التشكيك وما ينجم عنه من بلبلة للأفكار فى السودان وغير السودان مصلحة للمتربصين من الفرنجة من أصحاب المطامع السياسية التى لم تأخذ فى ذلك الوقت صورتها البارزة الواضحة المعالم . ولم يفت هؤلاء الفرنجة استغلال الحادث فى صورة أو أخرى كما فعل القنصل الفرنسى فى القاهرة ماليت فى قضية مقتل دى رول رئيس البعثة الفرنسية إلى الحبشة الذى قتل وصحبه فى سنار فى ٢٥ نوفمبر سنة ١٧٠٥م كما سبق أن أوضحنا ظروف ذلك الحادث .

مات إسماعيل بن محمد على ورجال حاشيته الصغيرة اختناقًا بدخان القش الذى وضع فى دار الضيافة التى أعدها الملك نمر (زعيم شندى) لنزول ضيفه وحاشيته وذلك خلال فترة وجودهم فى شندى وهم فى طريقهم إلى مصر بسبب مرض إسماعيل وقد حدث هذا الحريق فى ليلة ١٧ صفر سنة ١٢٣٨هـ (أواخر أكتوبر سنة ١٨٢٢) وأتهم الملك نمر والملك المساعد وألقيت عليهما المسئولية عن تدبير المؤامرة والاشتراك فى تنفيذها وقال البعض أن الملك نمر هو المسئول عن الحريق ويقول هؤلاء أن الباشا قد أغلظ فى القول تلمك نمر وطلب منه أن يقدم له ألف من الرقيق خلال يومين (١١) . وجاءت فى رواية لينان دى بلفون (١٢) أن إسماعيل طلب من نمر أن يدفع له ثلاثة آلاف ريال أبو طيرة وستة آلاف من الرقيق . ونقل روبنسون (١٣) أن إسماعيل فرض على نمر أن يقدم من المال والمواشى والخيول والجمال والغلال والرقيق ماتزيد قيمته عن العشرين ألفًا من الجنيهات . وتضيف الرواية التى نقلها روبنسن أن الملك نمر أوضح

(١١) روبل فى كتابه ص ٣٠٠ ومابعدها والمؤلف معروف بكراهيته للمصريين .

(١٢) دوان فى السودان المصرى ص ٣٨٧ ومابعدها .

(١٣) مقال روبنسن فى مجلة السودان فى رسائل ومدونات المجلد الثامن ص ١١٨/١٠٥ وقد ذكر لى الأستاذ محمد عبدالرحيم أن السادة موسى ود تركاب وموسى ود تنير وموسى ود حمزة والشيخ محمد الحاج فضل الله صهر الملك نمر وموسى ود هلال قد أخذوا جثمان اسماعيل إلى بيت أحدهم واحتفلوا بتشييع جنازته فى جمع عظيم ودفنوه عند قبة حاج فراج أمام ثكنات السوارى بشندى ـ وذكر لى أيضا أنه سمع من الأمير إسماعيل أحمد بن الخليفة بن عبدالله التعايشى أنه لما كان فى الأسر فى دمياط حدثت وفاة أخيه الأمير محمود وتقدم خمسة من أعيان البلد وهم عبدالمنعم بك ، واللوزى بك ، وعبد الرازق بك ، الشيخ عبدالسلام العلايلى ، ومصطفى بك الدرسى ، واحتفلوا بدفن الأمير فى موكب كبير سار فيه العلماء والأعيان وكبار البلد وتقبلوا التعزية وأقاموا سرادقًا لاستقبال المعزين كان ذلك كما ذكر لى سيادته فى أبريل سنة ١٩٠٤ .

لإسماعيل أن رجال قبيلته لايملكون شيئًا يساعده على الاستجابة لمطالبه وأنه لذلك عاجز عن تنفيذ ماطلب منه فما كان من الأمير أن ضرب نمر بالشبق وحاول نمر أن يرد الاهانة بالسيف لكن الملك المساعد منعه من ذلك وبعد الاعتذار وعد بتقديم المطلوب فى اليوم التالى ، وهو يضمر الانتقام لما لحقه من إهانة .

ومما لاشك فيه أن هذه التقديرات خيالية لم يراع فيها صاحبها الامكانيات الاقتصادية لمنطقة شندى التى لم تكن كما ذكر بوخارد أكثر من سوق تجارية تتجمع فيها السلع ، وبخاصة الحبوب التى تصل إليها يوميًا على ظهر الإبل من منطقة النيل الأزرق ، وأوضح هذا الرحالة أن منطقة شندى فقيرة إلى حد كبير ، ولم يكن هذا الوضع الاقتصادى لشندى خافيًا على إسماعيل ، وأن عملية حسابية بسيطة تكشف لنا عن أن هذه الروايات قد اختلقت لتخفى وراءها أسرار الحقيقة الدامغة .

وقد كان إسماعيل حريصًا الحرص كله على أن لايحصل مايسبب المتاعب للأهالى من جنوده ، وكان يتودد إليهم بشتى الوسائل ليدخل الطمأنينة إلى قلوبهم ، وذكر انجلش الذى رافق الحملة أن بعض الخدم والجند قد سلكوا مسلكًا مخالفًا لما أصدره من أوامر بشأن معاملة الأهالى ، فأنزل بهم العقاب الصارم (١٤) ، ودفع للأهالى تعويضًا عما أخذه منهم أولئك الأفراد وكان أن أمر إسماعيل بتخفيض الأموال التى قدرها دفع الله الأرباب وديوان أفندى والمعلم حنا الطويل (١٥) .

ويجمل بنا أن نحاول استعراض ظروف الحادث ، وملابساته للكشف عن ما أخفته الروايات عن مسئولية ارتكاب الجريمة .

١) تتفق الروايات فى صورة اجماعية على أن المؤامرة قد نفذت بتكديس القش حول المنزل الذى أعد لنزول الضيوف ومن ثم أشعلت النارالتى أوجدت سحبًا كثيفة من الدخان لفترة مستمرة تكفى لاحداث الموت اختناقًا للنازلين فى دار الضيافة ، وإذا أخذنا بعين الاعتبار إلى

---

(١٤) انجلش فى كتابه حملة دنقلة وسنار ص ١٠٩/١٤٢ .

(١٥) مخطوطه تاريخ سنار ص ٢٨ ــ ألف .

نظام تخطيط المساكن فى شندى كما فى غيرها من بلاد السودان نجد أن المنزل قد أحاط به حوش كبير وهذا يتطلب مقادير هائلة جداً من القش يحتاج نقلها وتكديسها ـ إذا فرضنا جدلا توفرهذه الكميات فى بلد محدود الموارد الزراعية مثل شندى ـ إلى استخدام الآلاف من الجمال والعمال فى مدة تزيد عن الأسابيع ولايفوتنا أن نذكر أن الزمن الذى حدثت فيه الحريق كان فى نهاية شهر أكتوبر ، وهذا يقع فى نهاية الفترة الفاصلة بين نهاية فصل الخريف (الأمطار) وبدء الشتاء وعند ذلك تتحول الرياح من جنوبيه إلى شماليه ، ونرجح أن كمية من أشجار السنط كانت فى داخل الحوش ، وفى بعض الحجرات ، وهذه هى التى أشعلت فيها النهار وأوجدت ستارًا كثيفًا من الدخان تسبب عنه الموت اختناقًا ـ وبما يسترعى الالتفات أن استخدام مثل هذه الخطة للانتقام من إسماعيل ورجاله لم يكن معروفًا فى السودان ـ ومن هذا يتبين أن مدبر الخطة لم يكن من أهالى البلاد وإذا ربطنا هذه الخطة مع هدفها وهو الانتقام من إسماعيل فإن التهمة تتجه نحو صاحب المصلحة فى ذلك ولم يكن فى السودان غير «المماليك» والعلاقة بينهم ومحمد على لاتحتاج إلى بيان ، وقد كان من الأسباب الهامة لدخول الحملة المصرية إلى السودان مطاردة المماليك وإخراجهم من البلاد قبل تثبيت أقدامهم فيها وإنشاء دولة يتولون إدارتها . وذكر أنجلش أن جماعة من المماليك كانت فى شندى وهربت منها إلى منطقة النيل الأبيض بعد أو رفضوا شروط الباشا التى عرضها عليهم فى شندى ديوان أفندى مبعوث إسماعيل للاستسلام . وفى الوقت هرب فيه المماليك إلى منطقة النيل الأبيض أعلن الملك نمر ولاءه وخضوعه الأمر الذى أغضب الملك المساعد وهو ابن عم الملك نمر ويحكم على الجانب الغربى للنيل تجاه شندى ، وكان عدوًا لدودًا لنمر لما بينها ثأر كما سنذكره فيما بعد . وحاول المساعد أن يتعاون مع الملك شاويش (زعيم الشايقية الذين فروا أمام الحملة) على عرقلة سير الحملة بشن الغارات عليها وهى فى طريقها فى منطقة شندى نحو الجزيرة . وقد أفسد هذه الخطة الملك نمر بما اقامه من حراسة على طول الطريق ، واستسلم الملك شاويش ورجاله وأنضم للحملة فى ١٦ شعبان سنة ١٦٣٦هـ (٢٠ مايو ١٨٢١م) وبعد أن دخلت الحملة أرض الجزيرة فى طريقها إلى سنار عاد المماليك من منطقة النيل الأبيض إلى شندى ، وكان الملك نمر فى صحبة إسماعيل للاستئناس برأيه فى المسائل المحلية التى تتطلب خبرة بالعادات والتقاليد المحلية ـ

وكانت فرصة غيبته من شندى قد سهلت على المماليك إحكام الخطة وتدبيرها وفى جانبهم الملك المساعد وعلاقته مع الملك نمرعلاقة «ثأر الدم» يطالبه به نمر .

ب) لم تكن العلاقة فى يوم من الأيام على شىء من التفاهم بين الملك نمر والملك المساعد لما كان بينها من «ثأر» وقد حدثت بينهما قبيل وصول الحملة المصرية بسنوات قتال عرف بحرب «العواليب» وكان الملك نمر قد استنجد بسلطان سنار لرد طغيان المساعد وقبيل وصول النجدة السنارية تحرج مركز نمر إلى الحد الذى جعله يفكر فى الهرب ، والالتجاء إلى المجاذيب فى الدامر وفعلا أخذ فى تنفيذ خطته هذه وعند وصوله إلى «جبيل أم على» اجتمع قادة جيش نمر وتداولوا أمرهم واستقر رأيهم على الاستعانة بالأنقيب (شاعر الملك) ليثير حماس الملك نمر ويثنيه عن عزمه والعودة إلى محاربة الملك المساعد خوفًا من عار الهرب ، ودخل الأنقيب على نمر الذى كان مستلقيًا على سريره وأنشد قائلا :

متمدد تقول سوتريه (١٦)	ورايط لك قلبًا ينط الهربا
الميتة وممات التربة (١٧)	أفضل من نقيع الغربة (١٨)

وقال أيضًا :

ما شفت أبوك يركب على المتويرى	ينتر هنا وحسه فى قوز برى (١٩)
أما اركب كأس وقل للخيل اندى	وأما اقعد فكى وود مرتضاك يقرى (٢٠)

خاطب والأنقيب الأرباب إدريس عم الملك نمر منشدًا :

---

(١٦) سوتريه : جبل أسوتريا الواقع غرب ميناء بورسودان .

(١٧) الميتة ولمات التربة : نموت وتجمعنا القبور .

(١٨) أفضل من نقيع القرية : فذلك أفضل من أن نعيش غرباء .

(١٩) المتويرى : تصغير المتورى ـ وهو الحصان العالى ـ ومعنى هذا أما رأيت فقد كان أبوك يركب الخيل العالية التى يسمع صهيلها من قوز برى (قوز برى حلة بعيدة عن شندى) .

(٢٠) الكاس : الحصان الغالى ـ اندى : اهجمى ويعنى هذا الجزء اركب الخيل الأصيل وقل لها اهجمى وإلا فاقعد كالفقيه ولد مرضى لتعليم الأولاد القراءة والكتابة .

ادريس ياعــريس أضــمــرت بالرق	ادريس مدفع الباشا إلى ذخيرته تبق
أمــرق نحــاسك	شـــمـــس ودق
قـــــدر اللــه يطيــح	حـــتى ان دخل فى حق

وكان إن دقت الطبول للحرب وعاد نمر وجيشه واشتبك مع المساعد وأسفرت المعركة عن انتصار نمر وعودته إلى شندى الأمر الذى زادت معه الضغائن بين نمر والمساعد وصار الأخير يتربص الدوائر للثأر من نمر الذى اشتهر بتقواه وخوفه من الله وبعده عن اللهو والطرب كعادة زعماء القبائل فى ذلك الزمان ، وكان نمر يكره الحرب والغزو كما جرت العادة بين القبائل .

وقد هرب الملك نمر بعد موت إسماعيل وتحمل المسئولية لأن التقاليد والعادات القبلية تجعل من زعيم الدار مسئولاً عما يحدث فى داره من أهله أو من يساكنهم (٢١) .

وهكذا كان لزامًا على نمر أن يتقبل التبعة ويترك موطنه حتى لا يلطخ اسمه بالعار إذا سلم المسئولين عن الحادث وقد اختار أخف الضررين وهو الهجرة من بلدة إلى مكان بعيد عن متناول الحكومة .

مات إسماعيل ورفاقه ، وهرب الملك نمر ورهطه ، وبقى المساعد بعض الوقت يرقب اندلاع الفتنة والثورة الشاملة فى البلاد حتى تأتى أكلها بالقضاء على الإدارة المصرية فيحقق أحلامه بأن يقيم شخصه زعيمًا على دار الجعليين على الأقل . لكن الدفتر دار قد عاجله بزحفه السريع نحو شندى والمتمة موطن الفتنة ، وهنالك أراد أن يعالج الأمر بالحكمة إلا أن أحد المتهوسين رماه بحربة محاولا قتله غير إنها لم تصبه فأختلط الأمر وحدثت اشتباكات ذهب ضحيتها الأبرياء ، وهرب المساعد نحو البطانة قبيل وصول الدفتر دار إلى شندى الذى سار فى مطاردته واشتبك مع الهاربين إلا أنهم تمكنوا من الفرار نحو الحبشة .

---

(٢١) حدث أن على البربر من البطاحين قد قتل الشيخ حامد أبو سن فى عام ١٨١٨م فى بلدة الصفية وهرب إلى شندى حيث احتمى بالملك نمر الذى رفض تسليمه للشكرية الذين زحفوا على شندى ورابطوا بالقرب منها لأخذ القاتل عنوة . فدخل المجاذيب للصلح وفى خلال ذلك هرب على البربر فسقطت عنه حماية النمر . واقتتلت الشكرية والبطاحين .

وكان لهذه الفتنة أثرها فى المناطق الأخرى فى بربر وفى الجزيرة ، وهجر السكان وبخاصة فى الجزيرة بلادهم ، واعتصموا بمناطق بعيدة عن متناول الحكومة ، وتعطلت الزراعة وتوقفت الحياة اليومية ، ولم يكن من الميسور تحصيل الأموال الأميرية ، وبذلك كانت المهمة شاقة جدًا أمام الإدارة الجديدة ، وهى فى أول عهدها للعمل على إعادة الطمأنينية والاستقرار ، وكان علاج الموقف يتطلب بعض الوقت .

وهذه القضية التاريخية الهامة جديدة بالبحث والتحقيق على ضوء ما قد يظهر من وثائق جديدة[٢٢] .

تنظيمات الإدارة الجديدة:

انتقلت السلطة الشرعية لولاية البلاد السودانية إلى الإدارة المصرية فى اليوم الثالث عشر من شهر يونيه عام ١٨٢١م ، وذلك بتنازل السلطان بادى آخر ملوك سنار وقد شمل امتداد الإدارة

---

(٢٢) أنظر روبل .

أنظر مجلة السودان فى مدونات ومذكرات .

انظر الوثائق بالمحفوظات بالقصر الجمهورى (عابدين سابقا) .

١ ـ وثيقة رقم ٢٧١ دفتر ١٤ معية تركى بتاريخ سلخ ربيع الأول سنة ١٢٣٦هـ .

٢ ـ وثيقة تركية رقم ٨٩ محفظة رقم ٨ بتاريخ ٣ ربيع الأول/ ١٢٣٨هـ .

٣ ـ وثيقة رقم ٤٠٤ دفتر ١٠ معية بتاريخ ١٦ ربيع الأول سنة ١٢٣٨هـ .

٤ ـ وثيقة رقم ٥١٢ من الدفتر رقم ١٠ معية بتاريخ ٨ جمادى الآخرة سنة ١٢٣٨هـ .

٥ ـ وثيقة رقم ١٣ صفحة/ ٤٠ دفتر ١٤ معية تركى بتاريخ رجب/ ١٢٣٨هـ .

٦ ـ وثيقة تركية رقم ٢٥ دفتر ١٤ معية تركى بتاريخ ٢٥ رجب رقم ١٢٣٨هـ .

٧ ـ وثيقة رقم ٥ من الدفتر رقم ١٦ معية بتاريخ ١٤ رمضان سنة ١٢٣٨هـ .

٨ ـ مكاتبة رقم ١٠٦ دفتر/ ١٤ معية تركى بتاريخ ٢٠ شوال سنة ١٢٣٨هـ .

٩ ـ مكاتبة تركية رقم ١٨٩ دفتر رقم ١٤ معية تركى بتاريخ ١٣ محرم سنة ١٢٣٩هـ .

١٠ ـ مكاتبة تركى رقم ١٩٠ دفتر/ ١٤ تركى بتاريخ ١٣ محرم سنة ١٢٣٩هـ .

١١ ـ وثيقة رقم ١٩٤ ترجمة دفتر ١٤ معية تركى بتاريخ ١٦ محرم سنة ١٢٣٩هـ .

١٢ ـ مكاتبة ٢٥٥ دفتر ١٤ معية تركى بتاريخ ٢ ربيع الأول سنة ١٢٣٩هـ .

١٣ ـ مكاتبة رقم ١٦٤ سجل رقم ١١ معية تركى بتاريخ ١٩ جمادى الآخرة سنة ١٢٣٩هـ .

١٤ ـ وثيقة تركية رقم ١٢١ سجل رقم ١٦ معية تركى بتاريخ ٨ جمادى الأولى سنة ١٢٣٩هـ . =

المصرية جميع الأجزاء التى كانت فى حلف مع سنار عدا المنطقة التى تكون مثلثًا قاعدته حوض الدندر ـ والرهد ، شرقى سنار ، وضلعيه ، يمتد على خط يتجه شمالاً شرقيًا ليتصل بالحدود الحبشية جنوبى سواكن ، ودخلت فى هذا القطاع عطيش (حوض الدندر والرهد) والقضارف (البطانة) ، ويرجع السبب فى ترك هذا المثلث إلى الاعتقاد بأنه مرتبط بالحبشة فى نوع من العلاقات وقد بقى هذا الاعتقاد الخاطىء حتى أوائل ولاية خورشيد أغا(٢٣) .

وأخذت الإدارة الجديدة فى وضع الأسس اللازمة لسير العمل ، ويبدو أن الحملة المصرية لم تكن قد أعدت لها بادىء ذى بدء خطة مرسومة كاملة التنظيم قائمة على دراسات تفصيلية لمختلف المشاكل لتواجه تطورات الظروف ولم يكن لمصر أن تفعل أكثر مما فعلت فى ذلك الحين لأن امتداد الإدارة المصرية ليشمل شطرى الوادى كان أول تجربة من نوعها وأنها قد أفادت فعلا من أخطائها ـ والدليل على ذلك المرسوم الأول الذى أصدره سعيد باشًا عند زيارته للسودان (١٨٥٦/١٨٥٧م) .

ومما يدل على أن الحملة لم تكن مزودة بخطة واضحة إنها قد تركت الأمر فى المناطق التى تسلمت ولايتها وهى فى طريقها إلى سنار فى يد المشايخ المحليين والكشاف والقواسين (القواسين مفردها قواس) وبعض الجنود من المرتزقة (الباشبوزق) فى المدن الرئيسية ، وفى هذا مافيه من تجزئة للمسئولية الإدارية ، وبخاصة فى بلاد واسعة الأرجاء كالسودان لا تربط بينها مواصلات سريعة ، وكان من أثر هذه التنظيمات إحياء التقاليد القديمة بشأن تحصيل الضرائب مما كان له أسوأ الأثر البعيد المدى كما سنبينه فيما يلى .

= ١٥ ـ وثيقة تركية رقم ١١٧ سجل رقم ١٦ معية تركى بتاريخ ١٧ جمادى الأولى سنة ١٢٣٩هـ .

١٦ ـ مكاتبة تركية رقم ١٨٥ دفتر/١٦ معية تركى بتاريخ ١٩ جمادى الآخرة سنة ١٢٣٩هـ .

١٧ ـ مكاتبة رقم ٢٧٧ دفتر/ ١٦ معية تركى بتاريخ ١٥ رمضان سنة ١٢٣٩هـ .

(٢٣) أنظر ترجمة صورة مجلس المشورة (عقد فى ١٢ أغسطس) فى كتاب الحكم المصرى فى السودان للدكتور محمد فؤاد شكرى ص ٣٣١ .

(أ) التنظيمات الضريبية:

بدأت الحملة بعد تنازل السلطان بادى مباشرة بتكوين لجنة من ديوان أفندى والمعلم حنا الطويل بالاشتراك مع الأرباب دفع الله ولد حمد فى وضع التنظيمات الضريبية ، وقد فتحت هذه اللجنة دفاتر الخراج وأرسلتها إلى القاهرة قبيل عودة قائد الحملة اسماعيل كامل من حملته على المناطق جنوبى سنجه ، وكانت التقديرات التى وصلت إليها هذه اللجنة على حد قول المعلم حنا الطويل أمام مجلس المشورة (١٢ أغسطس سنة ١٨٢٦م) وزعناه (المال) على حسب قدرة كل واحد منهم (أهل القرى وإلخ) وعلى حسب الموجود ، وبيان هذه التقديرات كالآتى :

	كيسه
سنار	١١١٠٠
حلفا	٢٩٤
العرب بجهة النيل الأبيض	٣١٤
الجملة	١١٧٠٨ أو ٥٨٥٤٠ جنيهًا (الكيسة ٥ جنيهات) (٢٤) .

وبعد ذلك بعام تقريبًا فتحت دفاتر «الفردة» (ديسمبر سنة ١٨٢٢) وعهد أمر تحصيل هذه الضرائب إلى الجهاز الإدارى المحلى لكل منطقة والذى تكون كما سبق أن أوضحنا من الشيخ والكاشف والقواس والجنود ولم يزود هؤلاء بالعدد الكافى من الكتاب للقيام بعمليات القيد بل ترك الأمر فى يد أولئك المحصلين وفى ظل هذا النظام أخذت فيه التقاليد والعادات مكانها حيث كان على دافع الضرائب أن يدفع مبالغ إضافية تشمل حق الضيافة وواجب الشيخ والكاشف وهكذا إلى الحاكم الأعلى مما أرتفع بالمتحصل إلى أضعاف مضاعفة للنظام الذى اتبع بشأن تحصيل المال من البدو وغيرهم من الضاربين فى المناطق الصحراوية فإن مبالغ معينة قد فرضت على زعيم كل قبيلة أو شعبة وروعى فى ذلك التقديرحالتها الاقتصادية بما تملكه من

(٢٤) أنظر ترجمة صورة مجلس المشورة فى كتاب الحكم المصرى فى السودان للدكتور فؤاد شكرى ص ٣٢٨ .

ماشية إلخ أو ما تقوم من نشاط فى تجارة القوافل . وترك للزعيم أن يجمع المال من أفراد قبيلته على طريقته الخاصة فيأخذ من زيد مثلا مائة قرش ومن عمرو عشرة قروش ، ويأخذ الزعيم فى تقديره الفردة أن تكون حصيلته أكثر مما هو مقدر عليه فعلا لدفعه لخزينة الحكومة . وهذا الفرق بين المتحصل فعلا وبين المقدر أصلا كجباية على قبيلته ويشمل حق الضيافة وحق الكاشف وغيره من رجال الحكومة . وقد ذكر موسى الكاشف أمام مجلس المشورة «أن فى مقدمة الأكالين هناك هو السر عسكر ثم الكشاف ويأتى القائمون فى الصف الثانى والمشايخ فى الصف الثالث وكل من يليهم يأكلون [٢٥]» سواء كانت هذه الأموال الاضافية تصل إلى أولئك أو لم تصل فأنها كانت تجمع فعلا .

وتطورت التنظيمات الضريبية مع الزمن فشملت نواحى النشاط الاقتصادى المختلفة ومن ذلك العشور على السواقى ، النخيل ، الزراعة ، وعوائد الأملاك إلخ إلخ والويركو على أصحاب الحرف والصناعة والجمارك والتجارة والعقبة على المراكب كما أدخل نظام الالتزام [٢٦] وهكذا نجد أن النظام الضريبى قد قام على طريقتين الأولى التى استحدثتها الإدارة المصرية والثانى ما أخذته من المتوارث القديم وهذا المزيج من الأسس كان مصدراً لخلق بيئة صالحة لانتشار جرثومة الافساد التى كان لها أبعد الأثر فيما حدث فى السودان من تطورات وبخاصة أن أمر التحصيل للمال قد ترك فى أيدى الزعامات المحلية يعاونها الكشاف وبعض القواسين والجنود من الباشبوزق .

وكانت فى حالات بعض القبائل التى يكثر فيها التعدى على غيرها بالسلب والنهب أن يعين لها بعض الخيالة والجنود المشاة لحفظ الأمن ، وكان على القبيلة أن تدفع تكاليفهم إما كاملاً أو مناصفة .

---

(٢٥) نفس المصدر ص ٣٢٥ وكان موسى الكاشف هذا أحد معاونى خورشيد باشا وقد توفى فى جبال الصعيد (أعالى النيل الأزرق) فى سنة ١٨٢٧م .

(٢٦) أنظر مكاتبة محمد على إلى سر عسكر إسماعيل باشا التى يأمره فيها بأن يعطى كردفان لأحد المكوك المحليين نظير جعل معين يدفع سنويًا غير أن الدفتر دار قد عارض هذه الفكرة انظر وثيقة رقم ٤٠٤ رقم ١٠ معينة بتاريخ ١٦ ربيع الأول سنة ١٢٢٨هـ ديسمبر سنة ١٨٥٢ ميلادية) ودفتر ١٤ معينة تركى وثيقة ١٣ صفحة ٤ بتاريخ رجب ١٢٢٨ ونفس الدفتر مكاتبة بتاريخ ١٥ شوال ١٢٢٨هـ .

ونبين فيما يلى مقارنة بين التقديرات الضريبية فى مختلف أنواعها كما بدأت فى عام ١٨٢٢/١٨٢١م وما وصلت إليه من عام ١٨٦٩م حتى عام ١٨٧٩م ونوضح البيانات عن فترتين منفصلتين أولاهما من ١٨٦٩م إلى ١٨٧٤م والثانية من ١٨٧٥م إلى ١٨٧٩م وهذه الفترة الأخيرة التى كان فيها غوردون باشا حكمداراً للسودان وأقاليمه . ومما يجدر توجيه النظر إليه أن الميزانية كانت تبدأ سنتها المالية من سبتمبر فى سنة إلى سبتمبر من العام التالى ، وقد استمر هذا النظام معمولا به حتى سبتمبر ١٨٧٥م وتعدلت ميزانية ١٨٧٦/١٨٧٥م وشملت المدة من سبتمبر سنة ١٨٧٥ حتى ديسمبر ١٨٧٦م أى أن تلك السنة كانت خمسة عشر شهراً . وصارت السنة المالية بعد ذلك تبدأ من يناير إلى ديسمبر من كل عام .

	تقديرات	المتحصل فعلا
	جنيه	جنيه
من سبتمبر سنة ١٨٦٩ إلى سبتمبر سنة ١٨٧٠	٣٧٨٥٨٤	٣١٥٤٩١
من سبتمبر سنة ١٨٧٠ إلى سبتمبر سنة ١٨٧١	٣٥٩٦٦١	٢٥٧٣٧٣
من سبتمبر سنة ١٨٧١ إلى سبتمبر سنة ١٨٧٢	٣٥٦٩٩٤	٢٤٠٣٣٩
من سبتمبر سنة ١٨٧٢ إلى سبتمبر سنة ١٨٧٣	٣٦٣٠٠٣	٣٠١٢٢٧
من سبتمبر سنة ١٨٧٣ إلى سبتمبر سنة ١٨٧٤	٣٦٩٣٣٦	٣١٩٢٩٢
الجملة	١٨٢٧٥٧٨	١٤٣٣٧٢٢
العجز		٠٣٩٣٨٥٦

	تقديرات	المتحصل فعلا
	جنيه	جنيه
سبتمبر سنة ١٨٧٤ إلى سبتمبر سنة ١٨٧٥	٣٧٠٨٦٥	٣٢١٧٦٧
سبتمبر سنة ١٨٧٥ إلى سبتمبر سنة ١٨٧٦	٤٨٢٩٨٥	٣٦٣٨١٨
يناير ـ ديسمبر سنة ١٨٧٧	٣٦٢٧٤٤	٢٧١٨٧٣
يناير ـ ديسمبر سنة ١٨٧٨	٢٩٢٤٩٨	٢٨٣٨٢٢
يناير ـ ديسمبر سنة ١٨٧٩	٤٠٢٥٩٥	٢٨٧٧٠٥
الجملة	٢٠١٢٥٩٧	١٥٢٨٩٨٥
العجز		٤٨٣٦١٢

وكان العجز فى الفترة الأولى	٣٩٣٨٥٦	أى بمعدل ٧٩٠٠٠ سنويًا
وفى الفترة الثانية	٤٨٣٦١٢	أى بمعدل ٩٧٠٠٠ سنويًا

ويلاحظ من الأرقام الخاصة بالفترة الأولى (من سبتمبر ١٨٦٩ إلى سبتمبر سنة ١٨٧٤م) أن العجز فى السنين من ١٨٧٠ إلى ١٨٧٢ قد بلغ حوالى ٢١٩٠٠٠ ج ويرجع ذلك إلى التعديلات التى أدخلت بتخفيض الضرائب لتشجيع الزراعة ، وقد بلغ العجز فى ١٨٨٢م ١٠٣٠٠٠ج تقريبًا ولايشمل هذا الرقم المال المخصص فى الميزانية للمعاشات) ولذا لا نستطيع تحليل الأرقام ومقارنتها ونترك هذه المسألة لدراسة خاصة تتجمع عناصرها من الوثائق وتحقيق الظروف المحلية عن حالة الفيضان والأمطار وإلى ماغير ذلك من العوامل التى كان لها أثرها فى الاقتصاد القومى .

ولما كانت البلاد تعتمد اعتمادًا كليًاعلى محصولها الزراعى ورعى الماشية والقائمين عليها من الرقيق فإن الميزانية العامة كانت دائمًا مصدر متاعب للخزانة المركزية لتغطية العجز .

وبالاضافة إلى عبء الضرائب الذى قد يرتفع فى بعض الحالات إلى أضعاف مضاعفة كما أوضحنا من قبل فقد كان على المواطن العادى أن يدفع جانبًا من دخله الخاص إلى الفقيه المحلى الذى يرتبط معه برباط روحى وقد خلقت هذه شعور قلق وبخاصة عندما تقل غلة الأرض ، أو تنفق الماشية لسبب أو آخر (قلة المطر الموسمية هبوط الفيضان عن مستواه فى بعض السنوات والآفات الزراعية وأمراض الماشية) .

(ب) الإعفاءات الضريبية:

وقد أغدقت العطايا والامتيازات على رجال الدين والفقهاء والأعيان وشملت امتيازات الفقهاء القائمين عليها بالتعليم الدينى الاعفاء من الضرائب التى تجبى عن الأرض التى يزرعونها [٢٧] غير أن تلك الطمأنينة وذلك العمل على تعمير البلاد وقيام حكومة مركزية تتعامل مع الأفراد فى مختلف البيئات الأقليمية لم يكن الأمر الذى يتقبله المجتمع فى مرحلته التى كان عليها امتداد الإدارة المصرية ، فالبلاد كما سبق أن أوضحنا قد وصلت إلى أدنى مراتب التدهور والانحلال وتفرق أهلها إلى مجموعات قبلية يناصب بعضها البعض العداء والبغض وقد فقدوا شعورهم بالحاجة إلى حياة استقرارية تهدف إلى توحيد الصفوف وتكتيلها

(٢٧) الدكتور عبدالعزيز عبدالمجيد . كتاب التربية فى السودان جنوثان ص ١٧ .

لتمكين البلاد من السير فى ركوب الحضارة والتقدم كما كانت تبغى السياسة التى جاء بها امتداد الحكم المصرى . فالمواطن العادى كان يزرع الأرض ليستنبت منها حاجته من الغلال ولم تكن عليه التزامات محددة نحو زعيمه القبلى فى الصورة التى فرضتها الإدارة الجديدة . وقد أوجد هذا شعورًا خفيًا نحو نظام الحكم المستحدث وبخاصة عندما يرى المواطن العادى أن الأعيان وغيرهم قد منحوا اعفاءات وعطايا الأمر الذى ألقى بعبء دفع الضرائب وغيرها على الفرد . وقد كان لهذه الحالة أثرها فى المجتمع مما جعل الافادة من التنظيمات الجديدة بعيدًا عن المساهمة فى تثبيت أركان الحياة المستقرة وإرساء قواعدها لتقف أمام العواصف وما كان لها أن تنعم بذلك النوع من الحيـاة الذى ينشـده الحكم والتـوسع الأوروبى يرقب تطور الأحـوال ، وبالاضافة إلى هذه الاعفاءات التى منحت لفريق من أهل المدن فإن هذه الامتيازات قد شملت خلال حكمدارية غوردون بعض القبائل والعشائر مما أزكى روح الحسد والتباغض بين القبائل .

وتوضح فيما يلى الجبايات التى كانت مقررة على المشائخ الضاربين فى البادية وذلك قبل عام ١٨٨١م ولو أخذنا بعين الاعتبار عند تقدير مال الحكومة عدد أفراد القبيلة وقدرتهم المالية فيما يملكون من حيوانات وموارد أخرى لوجدنا تفاوتًا كبيرًا فى تلك التقديرات .

		أعلى مبلغ جنيه		أقل مبلغ جنيه
مديرية الخرطوم	قبيلة الشكرية	١٦٣٢٧	البطاحين العشما	٤١٠
مديرية بربر	الكميلاب	٦٨١	القاسماب	١٢
مديرية دنقلة	القراريش	١٨٩	الهواوير	٦٥
مديرية التاكة	الضباينة	١١٠٢٣	المليكاب	١٩
مديرية سنار وفاز وغلى	رفاعة الهوى	٩٠٢٣	الكواهلة	١٣١٦
مديرية سواكن	هباب	٢٠٠٠	أولاد على	٣٩
مديرية مصوع	عرب رحل شياخة		عرب رحل شياخة	
	على عامر	٣٣٦	حسنين وحسين	٦
مديرية كردفان	الكبابيش	٨٤٧٢	زيادية	٥٥
مديرية دارا	الرزيقات	٣٩٢٠	ترغم	٢٥
مديرية كبكبيه	الفلاتة	٦٠٠	غير معروف	٠٠
مديرية دارفور	الزيادية	٢٥٠٠	بشير	١٠٨

(ج) التنظيمات الإدارية:

وعندما اندلعت نيران الفتنة بعد الغدر بإسماعيل وصحبه فى شندى وما تلى ذلك من فرار الأهالى إلى دار عطيش والقضارف وغيرها من المناطق البعيدة عن متناول الحكومة صار تحصيل المال مستحيلاً. ولهذا فإن مهمة خلفه عثمان بك جركس كانت فى غاية من الصعوبة وبقى الحال على هذا المنوال حتى أوائل عهد خورشيد أغا (تولى منصب الحكمدارية من يونيو ١٨٢٦ حتى نهاية عام ١٨٣٨م) .

وإذا رجعنا إلى إجابة موسى الكاشف أمام مجلس المشورة[٢٨] حيث يقول «أما الحكام الذين كانوا هناك منذ مدة عثمان بك لغاية الآن فلم يبحثوا عن شىء ما ولم يقوموا بأى عمل ـ فلم تعمر البلاد وظلت آخذة فى الخراب . أعنى ذلك أنه عند انفصال أى حاكم وتعيين آخر بدلاً منه لم تكن تجرى محاسبة بينهما ، ولا كان الحاكم المنفصل يسلم البلاد إلى خلفه ـ فإذا كان المأمور الذى يأتى يسأل ويفحص أولاً طبق أصول الديوان ثم يدخل الأمور تحت ضابط ويربطها بقاعدة فيرجى للبلاد أن تعمره فإننا نجد فى هذا ما يشير فى صورة أو أخرى أن الأمور كانت متروكة كلية فى يد المشايخ ومعاونيهم .

وأضاف موسى الكاشف «ولذلك قد طلب استخدام كتاب فإذا تم هذا التفتيش كما يريده مولانا فإن الكتاب المرسلين إلى تلك الديار سيوزعون على الأعمال التى تحتاج إليهم لاحتياج البلاد إلى أمثالهم لأن الإقليم ملك فسيح وقد كان علم الكتابة مهملاً فى العهد القديم ـ وقد طلبنا الآن كتابًا للحاجة الماسة بهم ولضبط أمور الديوان [٢٩] .

وقد عمل خورشيد أغا على بث روح الطمأنينة والاستقرار لانعاش البلاد بعودة الفارين الذين أمنهم وإزالة مخاوفهم ، وأخذت البلاد تمارس تدريجيًا حياتها اليومية فى ظل أحوال مستقرة وأمن مستتب ، وأدخلت زراعات وصناعات جديدة وأصلحت مساحات واسعة من الأراضى التى كانت مهجورة بسبب فرار أهلها بسبب الفتن ، والتى حدثت عند مقتل اسماعيل

---

(٢٨) دكتور شكرى ص ٣٢٤ .

(٢٩) نفس المصدر السابق ص ٣٢٤ .

فى شندى ، وانتظمت الحياة الاقتصادية ، وبدأ التحسن فى مستوى المعيشة ، واكتسب المجتمع حياة ملؤها بالنشاط ، وكان تطور الأحوال المضطرد مثار إعجاب وتقدير الرحالة الذين زاروا السودان فى تلك الفترة من الزمن .

واستمرت السياسة الاصلاحية التى بدأها خورشيد أغا طوال عهد خلفه أحمد باشا جركس الذى أشتهر فى السودان باسم «أحمد باشا أبا أدان» (أبوودان) لضخامة أذنيه كما أطلق عليه أحمد باشا الجزار ، وتميزت شخصية أبوودان بتوطيد العلاقات الودية مع زعماء البلاد كما كان يتبادل معهم قرض الدوبيت ومن ذلك ماقاله مادحا الشيخ إدريس (٣٠) .

ادريس وداعة السيدة الزيعلية   الأسد المشيته الضولعيه
قمر سيفين مالوش تحية   يريد يوم الكتال والتمبكية(٣١)

وأهتم أحمد باشا بالتوسع الزراعى وإنشاء مصانع فى الخندق والمتمة والكاملين وغيرها واستخدم فيها عدداً من العمال لسبب لم يعلم بعد تمرد هؤلاء وأضربوا عن العمل فى يوم واحد شمل جميع المصانع . وهرب الكثير منهم إلى ديارهم فى الجبال جنوبى كردفان يعتقد أن هؤلاء كانوا من الرقيق الذى أدخل الجندية . ويرجع هربهم إلى ما كان يلاقيه إخوانهم من زعماء القبائل الذى ألحقوا بخدمتهم لتحصيل المال غير أن هؤلاء قد استخدموهم فى الخدمة البيتية وأغلظوا فى الاساءة إليهم .

وزار السودان فى مدة حكمه محمد على و تفقد أحواله ونظر فى شئونه لتدعيم حياته الاقتصادية وتحسين موارده .

وتوفى أحمد باشا فى سبتمبر عام ١٨٤٣م وأختلفت الروايات المحلية فى أمر موته فمنهم من يقول إنه قد جنح إلى الاستقلال بالسودان عن مصر على أن يكون تابعًا للباب العالى مباشرة ويقول البعض أن أحد زعماء السودان عرض على أحمد باشا أمراً أصدره السلطان سليم فى

---

(٣٠) الشيخ إدريس ود ناصر خالد الشيخ عبدالرحمن البدوى الأزهرى آل عيسى .

(٣١) ومعنى هذا «إدريس الذى أودعته السيدة الزيعية كرامتها . كالأسد فى مشيته القوية ـ وكأنه قمر سيفين ليست له تحية ـ يريد اليوم للقتال والتدخين (التمباك) النارجيلة فقلت عن الشيخ شمس الدين الحنفى فى وادى مدنى عام ١٩٤٣ .

حوالى ١٥٢٠م بأن يكون السودان ولاية تابعة للسلطان العثمانى مباشرة ـ وأن أحمد باشا أرسل كتابًا إلى الصدر الأعظم فى هذا الشأن ـ وقد أغضب ذلك محمد على الذى أرسل قوة من مصر بقياة السنجق «داموس أغا» للقبض عليه . وما بلغ ذلك أحمد باشا تناول السم وكانت وفاته بالخرطوم ودفن فى القبة الشرقية .

ويبدو أن هذه الإشاعات كان لها أثرها من حيث إدخال تعديلات على التقسيمات الإدارية فى السودان وعلاقاتها المباشرة مع القاهرة وسببت هذه التغيرات والتعديلات اضطرابًا فى الإدارة وانعدمت المسئولية لقيام سلطتين أحدهما الحكمدار أو مدير عموم قبلى السودان . وثانيتها رجوع حكام الأقاليم فى الكثيرمن شئونهم المالية وغيرها إلى النظارات فى القاهرة ـ وزادت المشاكل تعقيدًا بالأزمات السياسية التى قامت بين الباب العالى من جهة وبين عباس الأول من جهة أخرى .

وجاء من بعد أحمد باشا أبوودان «أحمد باشا المنكلى» ولم يبق فى السودان إلا فترة قصيرة وتلاه خمسة عشر حاكمًا للسودان فى وظيفة الحكمدار أو مدير عموم قبلى السودان إلخ وذلك حتى فبراير ١٨٧٧م وعندما تقلد الحكمدارية الجنرال غوردون باشا ، وهذا يعنى أن الخمسة عشرحاكمًا قد أمضوا فى الحكم مايقرب من الواحد والثلاثين عامًا أى بمعدل سنتين وشهر تقريبًا لكل منهم وأطول فترة وهى خمسة سنوات تقريبًا أمضاها جعفر باشا وستة منهم أمضى كل منهم سنة واحدة تقريبا ، وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على أن هذه الفترات لم تسمح بالوقت الكافى لدراسة الأحوال والعمل على علاجها ، وهذا أيضًا مما جعل الحكام فى السودان يعلمون دون سابق خبرة وتجربة كما تتطلبه الإدارة الجديدة من دراية خاصة لتصريف المعاملات اليومية مع الجماعات المتباينة فى نطاق سياسة عامة بعيدة المدى تهدف إلى الربط بين مختلف المجموعات القبلية الأمر الذى لم يكن فى موضوع إدارة جهاز حكومى عادى بل هو بالعكس أعمق من ذلك غورًا فهو فترة لانتقال شعوب قضت القرون العديدة فى حالة متأخرة عن ركب الحضارة ، وكان من الضرورى العمل على تنسيق الجهود بما يتمشى مع الظروف الواقعية محليًا للأخذ بيدها تدريجيًا نحو مستوى رفيع .

لاشك فى أن امتداد الإدارة المصرية إلى السودان قد حملت فى ركابها أكثر من فكرة ورأى جديد واستخدمت وسائل منظمة للنقل ، وفتحت دور التعليم وأرسل عدد من أهالى البلاد إلى شمال الوادى (مصر) لتلقى المعرفة والتدريب على الزراعة وكثر المال المتداول فى الأيدى وأخذت الطريق القديمة طريقة التعامل بالمقايضة فى الاختفاء ، ودبت الحياة فى المدن والقرى التى بدأت تحتل مكانتها فى اقتصاديات البلد لأول مرة بعد أن كانت فى عهد السلطنة السنارية تدار على صورة الجمهورية التجارية لمصلحة فئة قليلة ، واكتسب الفرد شخصيته وحريته فى التعامل فيما ينتج وشملت سياسة التعمير والإنشاء مختلف مرافق الحياة بمساعدة الفنيين الذين أرسلوا من مصر إلى السودان للمساهمة فى تقدم البناء والزراعة واستغلال الموارد الطبيعية كما أرسلت مصر إلى السودان الإعانات المالية والحبوب لتفريج الضائقات التى أصابت البلاد سنة بعد أخرى لسبب قلة الأمطار الموسمية وتكاد أن تكون السنوات المجدبة فى حلقات دورية فى حدود السبع سنوات .

وكانت لزيارتى محمد على وسعيد للسودان أطيب الأثر فى رفع معنوية الأهالى وبخاصة بعد أن أصدر سعيد فى عام ١٨٥٧م الأربعة مراسيم ، ويعتبر المرسوم الأول الذى وجه إلى المديرين كلائحة تأسيسية لارساء جهاز الإدارة فى السودان على أسس سليمة يشترك أهالى البلاد فى إدارة شئونهم وتقدير الضرائب وغير ذلك عن طريق المجالس المحلية وجمعيات ذات صلاحيات واسعة .

وقد حاول سعيد باشا أن يصلح الأخطاء الإدارية باقامة تنظيمات محددة الخطوط يشترك فيها الزعماء والسكان من أهل السودان فى صورة مجالس محلية لها دورها البارز فى إدارة البلاد[٣٢] إلا أن المشاكل الكثيرة ذات الأهمية البالغة قد عطلت جزئيًا وكليا تلك المشروعات الاصلاحية ساعدت على تفاقم الحال واضطرابه فيما بعد والسبب استغلالها فى إسناد مراكز المسئولية بطبقة خاصة .

وأخذ الولاة الذين حكموا البلاد فى الاهتمام بالمسائل السودانية وإرساء قواعد حياة لمجتمع مستقر وبذلت الجهود لترغيب المجموعات الضاربة فى البادية لسكنى مواطن الزراعة والافادة من

---

(٣٢) كتاب الحكم المصرى فى السودان للدكتور فؤاد شكرى ص ٢٤٥/٢٥٤ .

مياه الروافد . ولقد بذل الحكمداريون جهوداً صادقة فى سبيل تحقيق ذلك رغم الصعاب التى نجمت عن التغييرات المتتابعة فى الحكمداريين والتى كان من شأنها إضعاف مقدرة الحكمدار على العمل وتصريف الشئون وفق خبرته المحلية . كما أن هذه التغيرات الكثيرة عرضت الحكمدارين إلى الشائعات المغرضة التى ترتبت عليها الإساءة إلى الإدارة المصرية فى السودان ونذكر من هؤلاء أحمد ممتاز باشا (٣٣) الذى نعتقد أن التاريخ لم ينصفه الانصاف الكامل بما يتفق مع سيرته الحسنة فى السودان بل بالعكس لقد لقى ممتاز أقسى ما يلقاه إنسان من ظلم أخيه الإنسان ـ عمل ممتاز خلال خدمته فى السودان على التوسع الزراعى وخاصة القطن وزراعته على نطاق واسع فى دلتا خور بركة وفى حوض القماش ونهر العطبرة كما عمل على اصلاح أراضى دنقلة وشق القنوات فى تلك المنطقة لتوسيع رقعة الأرض الصالحة للزراعة وإنشاء بعض الصناعات بما يتناسب والحال فى كل أقليم . وفكر فى إنشاء الخطوط الحديدية لربط البلاد ومخارجها فى الشمال والشرق وتعبيد الطرق وتنظيم المواصلات البرية والمائية والبريد والمواصلات السلكية (٣٤) .

وقد كانت الفرصة مواتية للافادة من زراعة القطن فى تلك الحقبة من الزمن بسبب الحرب الأمريكية وذهب ممتاز ضحية الدس والكيد من إسماعيل المفتش الذى كان يخشى من تقرب ممتاز من الخديوى الذى بدأ فى الأخذ بمقترحاته وقد عاون معنى بك الشامى إسماعيل المفتش بتقديم الشكاوى ضد ممتاز (٣٥) وتحريض الأهالى على مثل ذلك .

وقد تأثر مجرى الأمور فى السودان بالأحداث التى ألمت بمصر خاصة بعد افتتاح قناة السويس فى عام ١٨٦٩م مما هيأ للسياسة البريطانية فرصة الانقلاب من موقف الانتظار ومراقبة تطور الظروف إلى العمل الجدى . ولعبت السياسة الدولية دورها الأمر الذى أفادت منه بريطانيا

---

(٣٣) تولى أحمد ممتاز باشا إدارة مديرية عموم قبلى السودان من سنة ١٨٧١ إلى ١٨٧٢م ودبرت له الشكاوى التى رفعت إلى الخديوى وبتحقيقها ظهر فسادها بعد حبسه فى القلعة بالقاهرة زهاء مايقرب من الشهر وقد مات مغموماً بعد عودته إلى الخرطوم حيث دفن . وأشاع أعداؤه فى السودان ومصر من أهل الفساد ما أساء إلى سمعته ـ أنظر الملحق الثامن حيث نتعرض لترجمة حياة أحمد ممتاز باشا .

(٣٤) أنظر كتاب المواصلات فى سودان وادى النيل للشاطر بصيلى عبدالجليل .

(٣٥) إسماعيل سرهنك باشا . حقائق الأخبار عن دول البحار بولاق مصر سنة ١٢ ـ ١٣ هـ ص ٢٧٤ جزء ٢ .

التى عمل الخديوى على إرضائها والاستجابة لمطالبها ، وبخاصة عن الرقيق ، وقد تعين صمويل بيكر لإدارة خط الاستواء للقضاء على النخاسة وقد حارب التجار ونكل بهم وامتدت قسوته إلى الأهلين فزاد بعمله هذا كراهية الأهالى للحكومة وفقدوا ثقتهم وترتب على ذلك أن فقدت الحكومة نفوذها وصارت القبائل تتربص برجال الإدارة للفتك بهم ، وهكذا نجح صمويل بيكر فى نشر روح التذمر بين الأهلين الذين صاوا يترقبون الفرص للخلاص من نيرها ، واحتمى الكثيرون منهم بتجار الرقيق الذين أنشأوا محطاتهم كما أسلفنا بعيداً عن سلطان الحكومة ، عاد صمويل بيكر إلى بلاده وعين غوردن مكانه ليصلح من أخطاء سلفة فى أعالى النيل وطلب إليه الخديوى أن يحرص على الحصول على رضاء الأهالى ومحبتهم والابتعاد عما يسبب عداءهم للحكومة ، وقد حدد الخديوى الغرض من تعيين غوردن فى ثلاث نقاط أولها استتباب الأمن والسلام وثانيهما القضاء على تجارة الرقيق وثالثها فتح البلاد الشاسعة للتجارة . ولكن غوردن ولو أنه نجح فى بعض الشىء إلا أنه لم يكن موفقاً فى الإجراء الذى اتخذه لوقف نشاط تجار الرقيق ومحاربة هذه التجارة ، ونعنى بذلك اعلانه احتكار تجارة العاج لحساب الحكومة (مارس سنة ١٨٧٤) [٣٦] ، حيث نجم عن ذلك إغلاق النيل الأبيض للملاحة وتعطيل التجارة ، فازداد بذلك تذمر التجار من الحكومة التى سلطت عليهم رجالها وغالبيتهم من الأوروبيين المغامرين وخولت لهم سلطات واسعة لتنفيذ السياسة فى نطاق ماحدده الخديوى عن مهمة غوردون التى أشرنا إليها سابقاً .

وتتابعت المشاكل وتشابكت أطرافها فنوبار يذهب إلى إنجلترا ناصحًا بفرض الحماية البريطانية على مصر لمواجهة التقدم الروسى فى البلقان وفى آسيا الصغيرى [٣٧] . وألمانيا تقترح على بريطانيا على لسان مستشارها بسمرك مثل ذلك تحقيقاً لأهدافها السياسة نحو روسيا وفرنسا وكان لهذه الجهود أثر فى خلق الارتباكات المالية فى مصر وتعطيل حركة الانشاء

---

(٣٦) أنظر كتاب الحكم المصرى فى السودان للدكتور محمد فؤاد شكرى ص ١٨٩/١٧٧ .

(٣٧) أنظر أدوارد ديسى فى كتابيه انجلترا ومصر ص ١٩ ـ ٢٠ لندن ١٨٨١ وقصة الخديوية ص ١٦٦ أيضًا محادثات نوبار والسفير الألمانى كما أشار إليه لانقر ص ٢٥٩ .

والتعمير التى رسمتها مصر للسودان ، وسادت حالة الركود وجاءت معدات الرقيق فى ١٨٧٧ وتعتبر الصرامة التى اتبعت فى تنفيذها فى السودان العامل المباشر فى تكتيل حركات التذمر ضد الحكومة ثم استحكمت الأزمة المالية واستنفذ إسماعيل جهوده لإنقاذ الموقف ، ونصحته الدول بالنزول عن الحكم فلما رفض سعت الدول لدى الباب العالى لعزله وتم لها ما أرادت ، وبدأت من ثم التطورات التى انتهت فى عهد خلفه بالاحتلال البريطانى ، وقد سبقته المذكرة المعروفة بمذكرة غمبتا (المذكرة المشتركة) للاحتفاظ بتوفيق فى الحكم «كضمان لتقوم مصر برفاهيتها» وقد اشتركت فى هذه المذكرة فرنسا وإنجلترا عندما أحستا بأن الوطنيين المصريين سوف ينادون بخلع توفيق الذى كان مرتميًا فى أحضانهما .



وقد أفاد امتداد الحكم المصرى إلى خط الأستواء تقدم الكشف الجغرافى وعلوم الأجناس والنبات والحيوان كما تمكنت الإدارة المصرية من وضع يدها على مصادر تجارة الرقيق بعد أن سيطرت على منافذها على البحر الأحمر ، ومواطنها فى الداخل فقد تنازل الباب العالى لمصر عن مصوع وسواكن (عام ١٨٦٥) واستولت مصر على موانىء شاطىء البحر الأحمر الأفريقى ، بربرة وزيلع وتاجورة واستولت فى الداخل على هرر (١٨٧٢ ـ ١٨٧٥) وفى الغرب تسلمت دارفور (١٨٧٤م) فأحكمت بذلك الحصار فى مخارج تجارة الرقيق ، وبقى منفذ جنوبى فى منطقة نهر الجوبا غير أن الحكومة البريطانية عارضت فى امتلاك مصر لتلك الجهة بدعوى أن هذه المنطقة واقعة تحت سيادة سيد برغش سلطان زنجبار (٣٨) ، جرى كل هذا على أطراف البلاد السودانية أما فى داخلية البلاد فإن الأحوال أخذت فى شق طريقها الطبيعى نحو الاستقرار كما أخذ المجتمع فى تكييف مقوماته وتوجيهها نحو شعور عام يجمع بين مختلف القبائل ويوحد كلمتها لنشأة أمة سوادنية الأمر الذى عملت الإدارة المصرية منذ امتدادها إلى السودان على تحقيقه .

(٣٨) أرسل الخديوى إسماعيل حملة من السويس فى ١٩ سبتمبر سنة ١٨٧٥م إلى مصب نهر الجوبا وذلك لفتح الطريق مع خط الأستواء لمكافحة تجارة الرقيق تنفيذًا لتوصية غوردون .

٤ ـ أداة الحكم ومشكلاتها

حاولت الإدارة المصرية فى النيف والثلاثين عامًا الأولى من امتداد الحكم المصرى إلى السودان أن تقيم جهازًا للحكم استمد خطوطه العامة من التنظيمات التى كانت متبعة فى شمال الوادى (مصر) مع الأخذ ببعض التقاليد المحلية المتوارثة ، وقد أشركت الزعماء المحليين من مشائخ وغيرهم فى تحصيل الجبايات المختلفة فى نطاق التنظيمات الجديدة ، وقد نقلت فى نفس الوقت السلطات التنفيذية الفعلية التى كان يمارسها هؤلاء الزعماء إلى أيدى الكشاف والمأمورين والقواسين وغيرهم يعاونهم بعض الجنود ، وكان الأخذ بهذا النظام مصدر الخطرعلى الاستقرار الذى كانت تهدف إليه السياسة المصرية التى امتدت إلى السودان لتطهيره من عناصر الفوضى والاضطراب فهى فى تطبيقها ذلك النظام إنما قد أغفلت أن تراعى بعين الاعتبار حالة القلق التى كان عليها المجتمع الأمرالذى يتطلب العمل التدريجى للأخذ بيد المجتمع حتى يصل إلى مرحلة يتجاوب فيها ويتعاون مع التنظيمات الجديدة .

فالمرحلة كانت مرحلة انتقال حضارى تحل فيها حضارة جديدة محل حضارة بائدة لا تتمشى مع روح العصر ، وبخاصة أن السودان قد أمضى أكثر من ثلاثة قرون فى نطاق السلطنة السنارية والمشيخات المتحالفة معها ، والتى كانت نظمها كما سبق أن أشرنا تستمد أسسها من الجمهورية التجارية لذلك نجد فى واقع الأمر أن الاصلاحات التى شملت ترقية الزراعة والتوسع فى إعداد المساحات من الأرض الصالحة للزراعة وتحسين وسائل الرى والإكثار من الغلات وتنوعها وإنشاء صناعات جديدة ، ونشر التعليم فى مناهجه التى تختلف إختلافًا كليًا عما كانت عليه الخلاوى (مفردها خلوة ـ الكتاب) التى قصرت جهودها نحو التعليم الدينى المنقول ، كما أدخلت الإدارة الجديدة تحسينات شملت مختلف نواحى النشاط من استتباب الأمن وتسهيل المواصلات وتعبيد الطرق ، وقد دفع ذلك بالبلاد كثيرًا نحو التقدم فإن تلك الجهود الإنشائية كانت بالنسبة لحالة المجتمع حالة انتقال مفاجئ لم يمهد له باتاحة الفرصة الكافية من الزمن للتدرج حتى يصل المجتمع إلى المستوى الذى تتكيف معه حالة البلاد وتأخذ الأمور مجراها الطبيعى ، وكانت الأحوال تتعثر بهذه الفتنة أو ذلك القلق الذى يصورحالة

المجتمع النفسية ، ولم يكن رجال الإدارة فى السودان من ذوى الخبرة فالعهد بهم قريب منذ قيام حكم فى مصر له طابعه الجديد بعد أن طويت صفحة الإدارة المملوكية ـ وبعد دراسة المشاكل التى اعترضت سير الحكم خلال فترة زادت عن خمسة وثلاثين عامًا أصدر سعيد باشا مراسيمه خلال زيارته للسودان فى عام ١٨٥٧ ، وكان فى تلك المراسيم العلاج السريع للقضاء على عناصر التخلف ، وبالرغم من أن هذه الاصلاحات قد جاءت فى وقت أخذت فيه المشاكل السياسية بالنسبة لمصر فى الازدياد فأنها أثمرت لحد ما فى إرساء أسس جديدة لاشراك الزعماء والمواطنين إشراكًا فعليا مباشراً فى إدارة أمورهم وتصريفها وفى تحمل المسئولية ، ولو قدر لتلك الاصلاحات أن تأخذ طريقها نحو التنفيذ فى نطاق سياسة تقليدية يرعاها الخلف عن السلف ، ولم تتعرض للتيارات الأجنبية الخفية لكانت نتائجها بلا شك أعمق رسوخًا فى المجتمع ، وفى إرساء قواعد على أسس سليمة تتمشى مع طبائع الأشياء ، وبالرغم من تلك التيارات الخفية فان الاصلاحات قد أوقدت جذوة الوعى القومى الذى سار فى اتجاهات متراخية تحركت من الزمن فى اتجاهات مختلفة .

(أ) مشكلة الرقيق:

وبينما كان المجتمع يعالج مشاكله ليتخلص منها وتستقر أسسه إذا به يفاجئ بمشكلة أخرى أشد تنكيلا وأبعد أثراً ألا وهى مسألة إبطال «الرقيق» وهى عماد الاقتصاد القومى وحجر الزاوية فى بنائه منذ آلاف السنين فقد أخذت بريطانيا فى الضغط بطريقة أو بأخرى لمنع «النخاسة» وتذرعت فى خطتها هذه بأن هذه مسألة إنسانية وصورت الرقيق فى الصورة التى اعتاد الأوروبى أو الأمريكى أن يراها وتجول فى خاطره من استخدام أولئك المساكين المثقلين بالأغلال والأصفاد المسوقين بضرب السياط التى تلهب ظهورهم ولايكاد غذاؤهم يكفى لسد رمقهم ، ويعيشون فى أمكنة مظلمة ، وتناست أن الرقيق فى الشرق يختلف إختلافًا كليًا فى معاملته عن أولئك المساكين الذين وقعوا فى قبضة الأوروبيين والأمريكيين ، وبهذه الطريقة استطاعت إنجلترا أن تستثير مشاعر الغربيين حتى حصلت على توصية الدول فى مؤتمر فينا فى عام ١٨١٥م بالأخذ بمنع النخاسة وتحرير الرقيق .

وكان أن أصدر محمد على أمره إلى خورشيد أغا حكمدار السودان (١٨٢٦ ـ ١٨٣٧م) لمنع هذه التجارة ووقف غزوات النهاضة الموسمية . وجاء فى أحد أوامره «أننى لا أريد تجارة لاتشرفنى وإنى لعلى استعداد لبذل كل تضحية إذا تطلب إلغاء هذه التجارة أية تضحيات من جانبى [٣٩] . ويهدف محمد على أن لا يلحق العار بشخصه فى نظر جميع الشعوب المتمدينة وبخاصة فى نظر الحكومة الإنجليزية التى تقوم بينه وبينها علاقات ود وصداقة ، وقد أخذت مسألة الرقيق فى مضاعفاتها حتى صارت مصدراً شديد الخطر تمخضت عنه الأحداث والفتن فى السودان فكانت كالمارد الذى خرج فى غفلة من قمقمه .

ويجمل بنا أن نتوقف قليلا لنعرض تطورات مسألة الرقيق النخاسة ، وأثرها افى المجال الدولى والمقارنة بين ذلك الوضع مع ما كان عليه فى دار الإسلام .

(ب) أصول تجارة النخاسة فى العصر الحديث:

بدأت تجارة الرقيق فى صورتها الواسعة على يد الأوروبيين الذين اتخذوا من هذه السلعة عنصرًا اقتصاديًا يشبع أطماعهم ، وقد أنشأوا البيوتات التجارية الكبيرة برءوس أموال أوروبية ودخلت معها أموال أمريكية فى نهاية القرن الثامن عشر لمزاولة تجارة الرقيق ، وكانت السفن البريطانية تنقل أكثر من خمسين فى المائة من شحنات النخاسة من السواحل الأفريقية إلى المستعمرات ، وكان الرقيق ينقل فى شحنات تتكدس فيها الأجساد البشرية فى العنابر دون أدنى اعتبار لانسانيتهم ناهيك عن الأمراض التى كانت تفتك بهم خلال الرحلات الطويلة الشاقة والتى تستغرق مايقرب من الستة أسابيع يموت خلالها مايقرب من الربع من العدد المنقول على السفن ، ولم يستيقظ الضمير الإنسانى وهو فى سباته العميق بسبب الأرباح الوفيرة التى كانت تدرها هذه التجارة التى تتنافى مع القيم الإنسانية ، ويبدو أن هذه القيم قد صقلها حب المال وسخرها فى ركابه واستطاعت بريطانيا وهى صاحبة المصلحة المادية الكبيرة من هذه التجارة أن تتزعم حركة المطالبة بإبطالها ، ولاشك فى أن هذا التحول فى اتجاه إنجلترا وما ترتب عليه من تضحيات مادية لم يكن بالأمر اليسير .

---

(٣٩) أنظر كتاب الحكم المصرى فى السودان للدكتور محمد فؤاد شكرى ص ١٦٣ .

فإذا رجعنا إلى تطورات العلاقات الدولية فى السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر نجد أن ثلاثة عشر ولاية أمريكية قد أعلنت انفصالها عن التاج البريطانى فى ٤ يولية سنة ١٧٧٦م وأخذت فى استرداد حريتها فى دخول السفن الأمريكية فى مياه المحيطات بعد أن كانت التجارة البحرية تحتكرها السفن البريطانية فى بعض المحيطات واستطاعت بريطانيا أن تتولى زعامة الحركة المطالبة بتحرير الرقيق وتحريمه بعد أن أخذت بوادر كراهية هذه التجارة المخالفة للإنسانية فى بعض الممالك الأوروبية وفى إنجلترا بالذات حيث أقترنت هذه الكراهية بالقلق والخوف بسبب تفشى عادة استخدام الرقيق فى الأعمال البيتية وقد بلغ عددهم حوالى العشرة آلاف وجاء بهم أصحاب المزارع من الإنجليز من المستعمرات وكان الخوف من ازدياد استخدام الرقيق فى صورة تصبح فيها عادة متوطنة لها خطرها على الإنجليزى وبخاصة عندما كثر بين الطبقات الكادحة ، والاختلاط فى مختلف صوره مع الرقيق يخشى منه أن يفقد الدم الإنجليزى نقاءه الأمر الذى يؤدى فى نظرهم إلى انحطاط الحضارة البريطانية ، وتزعم حركة المطالبة بتحرير وتحريم استخدام الرقيق «جر انفيل شارب» الذى استطاع أن يصبغ حركته بالدعوة الإنسانية ، وقدمت شكاوى للمحاكم ، وصدر أول أحكامها عن رئيس القضاة «مانسفيلد» الذى قرر أن وجود الرقيق فى أراضى إنجلترا عمل غير شرعى ، وتلت ذلك أحكام أخرى من محاكم المناطق المختلفة فى الجزيرة البريطانية إلا أن هذه الأحكام لم يشمل الرقيق الذى كان يستخدم فى الزراعة فى المستعمرات البريطانية فيما وراء البحار فقد أبقى على هؤلاء حتى يتسنى استغلال الأرض بتكاليف رخيصة فيمكن أن تنافس المنتجات الزراعية من قصب وشاى وتبغ إلخ إلخ المنتجات الأجنبية فى الأسواق الأوروبية وغيرها ، وكانت الأمراض فى المناطق الاستوائية لاتسمح للأوروبى بالعمل الشاق فى تلك المزارع .

(ج) تطور مسالة الرقيق:

وأخذت مسألة الرقيق تتطور فى صورة أو أخرى حتى صارت أداة من أدوات الاستعمار فى صراعه الخفى بين الدول وبخاصة بين بريطانيا وفرنسا وألمانيا فى أفريقية وبين بريطانيا وروسيا فى آسيا . وقد أخذ هذا الصراع مظهره فى مطالبة بريطانيا بإلغاء الرقيق الذى صورته فى صورة

ما كان يلاقيه هؤلاء التعساء على أيدى أصحاب المزارع فى المستعمرات وبذلك استطاعت بريطانيا أن تكسب الرأى العام إلى جانبها بعد أن أصدرت تشريعات اعتبرت النخاسة عملا من أعمال القرصنة وذلك فى عام ١٨٠٧م واستطاعت إنجلترا أن تحصل على توصيات مؤتمر فينا فى عام ١٨١٥م بتحريمه كما ذكرنا من قبل .

ونشطت بريطانيا فى مراقبة الشاطىء الغربى لأفريقيا لمنع نقل الرقيق إلى أمريكا الشمالية (الولايات المتحدة) التى ثارت على إنجلترا واستطاعت أن تفوز باستقلالها عن الإمبراطورية البريطانية ، ومن ذلك الحين صارت هذه الولايات عنصرًا جديدًا له خطره فى مجال المنافسة التجارية الدولية ، ومن هذا يتبين لنا أن التحول الذى طرأ فى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى على مسلك بريطانيا تجاه الرقيق وجعلها تدخل تعديلات جوهرية على علاقاتها الخارجية كما أملته سياستها الأساسية وهى الاحتفاظ بالسيادة البحرية الأمر الذى قد دفعها فى بعض الأحوال إلى وسائل عنيفة لأضعاف منافسيها .

ودفعت بريطانيا تعويضًا ماليًا بلغ حوالى العشرين مليونًا من الجنيهات لرعاياها من الإنجليز الذين يستخدمون الرقيق فى مزارعهم فيما وراء البحار مقابل تحرير الرقيق (٤٠) عملت بريطانيا كل ذلك فى عام ١٨٢٩م لتحرير المستعبدين فهل كانت لتلك الجهود نتائج عملية بحيث اكتسب الرقيق حقوقه الإنسانية ، وتركت له الحرية فى التنقل طلبًا للرزق وفق مشيئته وبالأجور التى يتقبلها الواقع أن مسألة تحرير الرقيق لم تكن إلا إجراء صوريًا فقد ألغى الرقيق فى المعنى وليس فى الروح فقد كانت فى مزارع الإنجليز فى المستعمرات أكثر من ثمانمائة ألف من الرقيق يعملون فى الزراعة فى نهاية القرن الثامن عشر وكانت فى المزارع الأمريكية أعداد وفيرة من الرقيق . وعلى الرغم من أن مجلس الكونجرس الأمريكى قد أصدر تشريعًا بمنع توريد الرقيق إلى الولايات المتحدة الأمريكية فى ١٨٠٧م على أن يسرى مفعول هذا التشريع ابتداء من أول يناير سنة ١٨٠٨م فإن بريطانيا كانت تهدف إلى تحرير الموجود منه فعلا فى المزارع الأمريكية تحت ستار العاطفة الإنسانية لخلق متاعب للأمريكان بزيادة تكاليف الانتاج فى بلادهم حتى عجزوا عن منافسة التجارة البريطانية .

(٤٠) مذكرة السيد هنرى غوردون (شقيق غوردون باشا) بتاريخ ٢٧ فبراير سنة ١٨٨٤م نقلا عن كتاب المهدية والسودان المصرى «لمؤلفه ونجت ص ٥٥٤/٥٥٥» .

(د) النخاسة في الصراع الدولي:

وأخذت بريطانيا فى مراقبة الشاطىء الغربى لأفريقيا بدعوى منع الرقيق إلى أمريكا ومضايقة السفن الأمريكية لمنعها من الدنو من ذلك الشاطىء ولكن هذا الإجراء فى غرب أفريقيا قد أوجد مجالاً للسفن الأمريكية فى شرق أفريقيا والخليج الفارسى وتحول إلى هذه المنطقة النشاط التجارى كما قامت السفن الفرنسية والأسبانية والبرتغالية فى نقل الرقيق ، ورفضت هذه الدول الاذعان للرقابة البريطانية . وأخذ النفوذ الأمريكى فى العمل على انتشار تجارته فى هذه المنطقة من المحيط الهندى ، وأحست بريطانيا بخطر هذا النفوذ على مصالحها الاستراتيجية فى هذه الرقعة ، وبخاصة بعد أن عقدت الولايات المتحدة معاهدة مع السيد سعيد فى ٢١ سبتمبر سنة ١٨٣٣ ، والتى حصلت بموجبها الولايات المتحدة على امتيازات اقتصادية وتسهيلات للمبشرين الأمريكيين وأستطاعت بريطانيا بطرقها الخاصة أن تقبض على ناصية الأمر ، وبعد صراع طويل استطاعت بريطانيا من بسط حمايتها على السيد سعيد ومن بعده ابنه وذلك تحت ستار منع الرقيق (٤١) وتمكنت بذلك إنجلترا من إنزال ضربة قوية على التجارة الأمريكية كما يصوره لنا الجدول الآتى (٤٢) .

(أ) قبل الحرب الأمريكية الأهلية

اسم الدولة	سنة ١٨٥٥		سنة ١٨٥٦		سنة ١٨٥٧		سنة ١٨٥٨		سنة ١٨٥٩	
	عدد	طن	عدد	طن	عدد	طن	عدد	طن	عدد	طن
الولايات المتحدة	٢٨	٩١٤٢	٢٤	٧٢١٥	٣٥	١١٤٨١	٣٢	٩٩٦٢	٣٥	١٠٨٩٠
بريطانيا	٢	٤٠٩	٢	١١٦٧	٣	٧٧٠	٤	١١٦٩	١	٤٩٣
ألمانيا	١٥	٣٩٨٩	٢٠	٦٠٣٨	٢٣	٥٩٠٧	٢٦	٧٢٧٠	١٧	٤٤٢٨
فرنسا	١٣	٥٥٢٣	٢٢	١٠٠٧٩	٢٤	٨٣١٩	١٨	٦١٨٦	١٢	٣٠٦٦
الجملة	٥٨	١٨٧٦٣	٦٨	٢٤٤٩٩	٨٥	٢٦٤٧٧	٨٠	٢٤٥٨٤	٦٥	١٨٨٧٧

(٤١) أنظر «الاستعمار والتجارة» بالانجليزية لمؤلفه لينا ردولف ص ٣٢٠ ومابعدها .

(٤٢) أنظر مقال شرق أفريقيا وأمريكا بقلم السيرجون جراى فى مجلة تنجانيقا فى رسائل = ومدونات (بالإنجليزية) عدد ديسمبر ١٩٤٦ ص٥٥/٨٦ .

(ب) بعد الحرب الأمريكية الأهلية

اسم الدولة	سنة ١٨٦٦		سنة ١٨٧١		سنة ١٨٧٧		سنة ١٨٧٩	
	عدد	طـن	عدد	طـن	عدد	طـن	عدد	طـن
الولايات المتحدة	٥	٢٥١٥	٧	٤٢٥٠	١٠	٥٣٥٢	١٠	٥٢٨٣
بريطانيا	١٩	٦٥٦٨	١٧	١٠٤٥٩	٤٨	٤٢٤٨٧	٦٩	١٦٢٦٥
ألمانيا	١٦	٥٢٨٢	١٧	٧٤٦٧	١٥	٤٦٥٣	١٣	٥٩٤٠
فرنسا	١٦	٣٧٧٢	١١	٥٤٥٠	٥	٣٢٥٩	٤	١٩٧٥
الجملة	٥٦	١٨١٦٧	٥٣	٢٧٦٢٦	٧٧	٥٥٧٥١	٩٦	٨٩٤٦٣

	الفترة ١٨٥٥/١٨٥٩		الفترة ١٨٦٦/١٨٧٩	
	عـدد	طـن	عـدد	طـن
الجملةالعامة	٣٥٨	١١٣٢٠٠	٢٨٢	١٩١٠٠٧
نصيب بريطانيا	١٢	٤٠٠٥	١٥٣	٧٥٨٠٩
النسبة المئوية	٥٪	٣٪	٥١٪	٣٩٪

(هـ) الرقيق فى دارالإسلام:

أما فى دار الاسلام وبخاصة فى مصر والسودان فقد كان الرقيق فى حال أحسن كثيرًا مما كانت عليه حالته فى الغرب ومرجع ذلك إلى تعاليم الدين الإسلامى التى أوصت بالمعاملة الطيبة كما شجعت على تحرير الرقيق لمافى ذلك من ثواب ، وقد ذكر أمير على أن الرقيق كان شائعًا فى الجاهلية وقد تسامح الإسلام بالابقاء المؤقت على هذه العادة ، والقرآن فى نفس الوقت والواقع قد عمل على إلغائها (٤٣) تدريجيًا وأبطل الاحتفاظ برقيق جديد الأمر الذى يتمشى مع رسالة الدين التى قامت أساسًا على المساواة والحرية .

(٤٣) أمير على ٢ ص٢٦٢ .

وقد ذكرنا من قبل أن المجتمع السودانى كما فى مناطق أخرى من دار الإسلام قد احتفظ بالكثير من العادات والتقاليد القديمة ، وهكذا بقى الرقيق وتغلغل فى كيان السودان الاقتصادى صار دعامة النشاط فى حياته اليومية ، ومع ذلك فقد استغلت بريطانيا الناحية الانسانية التى استندت فى أساسها على مسألة الرقيق حتى تضغط على محمد على لمنع الاتجار فى الرقيق ، ولتحرير الموجود منه فى خدمة الأهالى ، وارتكبت بريطانيا من الإجراءات العنيفة الصارمة فى تنفيذ هذا المنع للنخاسة وتحرير الموجود فى خدمة الأهالى فى السودان الأمر الذى كان له عمق الأثر فى تطورات الأحوال فى وادى النيل .

وأخذت مسألة الرقيق فى مصر والسودات فى التطور السريع ، وبخاصة أن إنجلترا كانت ترقب بعين الاهتمام مايجرى فى حوض النيل بعد أن تغلغلت الإدارة المصرية فى السودان ، وبدأت فى بسط نفوذها على المناطق فى أقصى الجنوب ، وكانت بريطانيا تخشى قيام قوة من شأنها أن تخلق خطراً يتعارض مع المصلحة البريطانية فى هذه المنطقة فقد حذرت الدول الأوروبية محمد على من غزو الحبشة حتى لاتمتد السيطرة المصرية إلى القرن الأفريقى (المنطقة جنوب الهضبة الحبشية إلى نهر الجوبا) وتطل منه على المحيط الهندى (٤٤) وتنقل فى ركابها آراء جديدة يتطور معها الوعى القومى فى المناطق الواقعة على المحيط الهندى الذى يكون منطقة استراتيجية بالنسبة لإنجلترا ، وقد ازداد قلق الدول الأوروبية من التقدم الذى وصلت إليه مصر بعد ظهور الجيش المصرى وبحريته فى حرب المورة لمساعدة الباب العالى على إخماد ثورة اليونان (١٨٢٤ ـ ١٨٢٧) ، وبدأ بعد ذلك التاريخ صراع الدول الأوروبية للتوسع فى حوض البحر الأبيض المتوسط فى شاطئه الأفريقى فأنزلت فرنسا جنودها فى الجزائر عام ١٨٣٠م لتعبيد الطريق لبسط سيطرتها على أفريقيا الصغرى (تونس مراكش والمغرب الأقصى) وتكون لها فى هذه المنطقة قاعدة تخرج منها صوب الجنوب نحو قلب أفريقيا الأستوائية .

(٤٤) كتاب السياسة الخارجية فى عهد بالمرستون جزء أول ص٢٧٦ وقد حدث أن أرسل الخديو إسماعيل حملة إلى مصب نهر جوبا وذلك لفتح الطريق التجارى بين خط الاستواء والمحيط الهندى ولمكافحة الرقيق عبر هذا الطريق . فعارضت بريطانيا فى إرسال هذه الحملة باسم السيد برغش سلطان زنجبار . وكانت بريطانيا تخفى تحت ستار اسم السيد برغش اهتمامها بوقف التوسع المصرى على الساحل الأفريقى للمحيط الهندى والسيطرة على الموانىء الاستراتيجية .

(و) الرقيق وسيلة للضغط السياسى:

وبالغت الدولتان الإنجليزية والفرنسية فى التودد إلى مصر ، وذلك بالدور الذى لعبتاه فى المشاكل التى قامت بين الباب العالى ومحمد على فى أزمة عام ١٨٣٢ (حرب الشام الأولى) من ناحية وأشتد الضغط على مصر من ناحية أخرى بشأن الرقيق ، وكان من العسير حقًا أن تقوم مصر بمحاولة تحرير الرقيق فى السودان دفعة واحدة بأوامر تفرض على الشعب دون أن تعطى الفرصة الكافية للمجتمع ليكيف نفسه مع الزمن لهذا الإجراء ، وأن تترك المشكلة لتحل نفسها بنفسها بما يدخل على المجتمع من تغيير فى سلوكه اليومى نتيجة لما دخل البلاد من تطورات اقتصادية وإجتماعية فى ركاب الإدارة المصرية ، وقد ذكر محمد على إلى ريتشارد مادن «يعظم سرورى إذا ألغيت الرق إلغاء تاما ، ولكن من الواجب على الإنسان أن يهىء للشعب قبل ذلك وسائل التربية والتعليم لأن مسألة الرق فى هذه البلاد من أشق المسائل وأشدها صعوبة على خلاف الحال فى بلادكم ، ذلك أن الناس اعتادوا أن يستخدموا الأرقاء لدرجة أنه إذا امتنع وجود الرقيق بالأسواق بادروا بالشكوى على نحو مافعلوا سابقًا عندما منعت جنودى من تسيير الغزوات لصيد الرقيق فى سنار (٤٥)» .

وكان للتيارات الخفية التى تحركها الدول الاستعمارية أثرها فى عرقلة جهود مصر لوقف تجارة الرقيق التى زادت تعقيدًا بدخول عناصر أجنبية ، وذلك بدخول الليفانتينيين والأوروبيين إلى السودان ، وممارستهم لصيد الفيلة وجمع العاج ثم صيد الرقيق ، وأنشأوا الزرائب والمحطات التى اتخذوا منها قواعد لحملاتهم المسلحة لصيد الرقيق ، وقد احتمى هؤلاء الأجانب بالامتيازات الأجنبية التى تستمتع بها دولهم فى مصر فصارت أعلامهم ترفع على مراكبهم ومحطاتهم حتى لاتتدخل السلطات الحكومية فى أعمالهم والحد من نشاطهم ، وقد واجهت مصر هذه التطورات بأن طالبت قناصل الدول ذات الشأن بأن يرفعوا عن رعاياهم حماية التجار المشتغلين بصيد الرقيق وتجارته ، وأن يكون للحكومة المصرية الرقابة القوية على تصدير الأسلحة والذخيرة ، وبهذا تستطيع الحكومة القضاء على هذه التجارة فى مواطنها فى السودان واضطر التجار الأجانب أمام مطالبة مصرللقناصل بالتدخل إلى بيع مؤسساتهم للحكومة التى قامت بالاستيلاء على

---

(٤٥) كتاب الحكم المصرى فى السودان للدكتور محمد فؤاد شكرى ص١٦٤ .

الزرائب وتعويض أصحابها ، وتبع ذلك امتداد الإدارة المصرية نحو الجنوب ، وكان أن رحل بعض التجار من المشتغلين بالرقيق إلى مناطق بعيدة عن سلطان الحكومة حيث وحدوا نشاطهم بتكوين قومبانية (أى شركة) وأنشأوا محطاتهم فى مملكة انيورو . كما سيطر الزبير رحمت على بحر الغزال ومملكة كيرة ، وأتخذوا بلدة «باية» ديم الزبير (٤٦) مركزًا لنشاطه ، وتحالف مع الرزيقات ثم اشتبك معهم ومع سلطانه الفور فى حروب انتهت بضم دارفور إلى إدارة السودان المركزية ، وترجع أسباب حرب الزبير مع الفور إلى عوامل اقتصادية بحتة ، وذلك أن الفور كانوا يعتمدون على حوض بحر الغزال كمجال حيوى لهم لصيد الرقيق وجمع العاج ، ووجدوا أن سيطرة الزبير على هذا الجزء الذى يعتبرونه تابعًا لهم سوف تحرمهم من مصادر تجارتهم الرئيسية فكان لامناص من الاشتباك بينهم .

وكانت سيطرة الزبير على تلك المناطق قد أوجدت «مجالا حيويًا» خارجًا عن سلطان الحكومة فى الجانب الجنوبى الغربى للسودان ، ولم تلبث أن فتحت أبوابها لهجرة المغامرين والتجار من الأقاليم التى تسيطر عليها إدارة السودان حيث أشتدت موجة التنكيل بالأهالى على يد الموظفين من الأجانب وعملائهم تنفيذًا لمعاهدة الرقيق تنفيذًا صارمًا دون أن تراعى فى ذلك مصلحة الأهالى الذين يعتمدون اعتمادًا كليًا بحكم العادات الموروثة على خدمة الرقيق ، وكانت هذه الجيوب التى سيطرعليها الزبير مجالا وجد فيه المهاجرون متنفسًا لكربتهم ، ولو ترك الأمر للزبير أن يعمل وفق طريقته الخاصة ، ولم تقم فى وجهه العراقيل ، ولم تغدر حكومة غوردون بابنه لاستطاع الزبير منع تجارة الرقيق فى فترة قصيرة فى الوقت الذى يعمل فيه على تغيير الاتجاهات المحلية ، والتوسع الاقتصادى إلى المستوى الذى ينتقل فيه الرقيق إلى مركز يسترد فيه حريته فى العمل كمايشاء ، وبالأجر الذى يرتضيه مادام المال متوفرًا لمواجهة ذلك التطور .

(ز) الرقيق ـ فى الدعاية المغرضة:

وفى هذا العرض ما يبين لنا مدى محاولة مصر للأخذ بيد السودان نحو التقدم والسير فى ركب الحضارة وأنها لم تحاول أن تحد من حرية أهله من ممارسة حقوقهم الطبيعية واشراكهم

(٤٦) نسبة إلى الزبير النفيعابى وهو غير الزبير رحمت .

اشراكًا فعليًا فى إدارة شئون بلادهم ، ومرجع ذلك إلى أن مصر لم تكن لها «معتقدات أو رغبات» على الصورة التى تمارسها الدول الاستعمارية . ويتبين لنا مما سبق ذكره أن مصر لم تذهب إلى السودان لاستعباد أهله وتسخيرهم لمصلحتها كما جاء فى أقوال الفرنجة عن أهداف امتداد الإدارة المصرية إلى السودان ، وأننا لا ننكر أنه كانت هناك بعض الأخطاء التى بولغ كثيرًا فى تصويرها للتأثير على الرأى العام الأوروبى . ولا ننكر أيضًا أن امتداد إدارة مصر إلى السودان كان أول تجاربها بعد أن ذهبت لوضع حد لحالة الفوضى والحروب الأهلية التى أشتد أوارها بين الزعامات القبلية ، ولكى تمنع من تثبيت أقدام فلول المماليك التى دخلت البلاد للسيطرة عليها ، وكان وراءهم التوسع الأوروبى الذى حاول جاهدًا مساعدتهم على أقامة حكومة فى السودان فى صورة ما تتحقق معها مطامعهم .

ومما جاء فى أقوال الفرنجة أن مصر ذهبت إلى السودان للحصول على الرقيق وأن الواقع يدحض هذا القول . فإن الرقيق وهو كما أوضحنا عميق الأثر فى الاقتصاديات البلاد كان يدفع ضمن الجبايات المطلوبة للإدارة إلا أن تلك الإدارة لم تستخدمهم فى مزارعها أو أنها حددت لهم مناطق للإقامة والعمل فى داخلها ومنعهم من الانتقال من هذا السيد أوذاك فهى قد جندتهم فى الجيش للخدمة فى بلدهم وكانت تعاملهم على قدم المساواة وفق القوانين التى كانت تسرى على غيرهم من رجال الجندية . وبعد انتهاد خدمته كان له الخيار فى الذهاب أين شاء وأن يعمل فى حرية مطلقة بما يتمشى مع رغباته الخاصة ، وفى هذا المسلك الطريق الأمثل نحو إنهاء هذه التجارة تدريجيًا فى نطاق تطور المجتمع ، وإنجلترا التى اتخذت الرقيق أداة من أدوات الاستعمار لتعطيل التقدم فى السودان لم تحاول فى مفاوضاتها مع وكلاء الإمام المهدى التعرض لهذه المسألة ، ومسألة ابطال الرقيق ــ على نفس الطريق التى انتهجتها للضغط على مصر كما أن تجارة الرقيق والسبى كانت قائمة فى فترة الحركة المهدية ، وطلب كتشنر فى مذكرته التى أصدرها بعد إقامة الإدارة الجديدة فى ١٨٩٨م بأن لايتدخل الحكام فى أمر الرقيق الذى فى خدمة أهله مالم يطلب منهم الرقيق ذلك .

أما القول بأن مصر ذهبت إلى السودان للحصول على الذهب ــ فلم يكن من المعقول أن تقوم إدارة جديدة دون أن تبحث فى موارد البلاد الطبيعية لاستغلالها ولايفوتنا أن نذكر

أن مصر كانت تدفع من خزانتها الأموال اللازمة لسد العجز فى إيرادات السودان ولو قدر للإدارة المصرية أن تسير على الخطى التى رسمتها بعد تجاربها ولم يتدخل الاستعمار لكان السودان غيره اليوم حيث كانت قد توفرت له إمكانياته الاقتصادية واستغلالها منذ قرابة المائة عام .

وقد أرادت مصر باستخدامها الأجانب فى مراكز ذات مسئولية فى السودان لتظهرحسن نيتها واستعدادها لإلغاء الرقيق - ولا يفوتنا أن نذكر أن مصر كانت فى حاجة إلى إدخال الطمأنينة فى قلوب الأجانب لما كانت واقعة فيه من مشاكل مالية . إلا أن أولئك الأجانب أساءوا إلى مصر بتصرفاتهم ومسلكهم الشاذ وهذا مانفر الأهالى وجعلهم ينظرون إلى مصر بعين الشك والريبة ، وصار مصيرهم معلقًا فى كف القدر . فبينما كانت مأمورية صمويل بيكر فى خط الأستواء إدخال الوسائل المشروعة للتجارة ونشر الحضارة والاستقرار فى المناطق النائية فإنه قد اعتبر مهمته عسكرية لحرب الأهالى والتنكيل بهم؟ وسلك خلفه غوردون فى الجنوب مسلكًا قد يكون مختلفًا فى وسائله عما كان عليه مسلك بيكر إلا أن النتيجة كانت واحدة من حيث تنفير الأهالى من الحكومة فى الخرطوم والقاهرة التى اعتبروها مسئولة عن كل الكوارث التى حلت بهم وبسبب مكافحة الرقيق .

(ح) دخول مسألة الرقيق فى المعاهدات:

وكانت الحكومة الإنجليزية قد أخذت فى التفاهم مع الباب العالى بشأن الرقيق وقد أصدر السلطان العثمانى تنظيماته بمنع الرقيق الأبيض فى أكتوبر عام ١٨٥٤م والرقيق الأسود فى فبراير سنة ١٨٥٧م وكانت هذه التنظيمات تشمل ضمنا مصر بوصفها أيالة عثمانية ، وأخذت بريطانيا فى محاولاتها مع مصر منذ عام ١٨٧٣م لإبرام معاهدة بشأن إلغاء تجارة الرقيق فى مصر والسودان والمناطق التابعة لمصر وبينما كانت المفاوضات دائرة حول هذه المسألة أصدر الباب العالى دستوره ١٨٧٦م الذى منح جميع الرعايا الحقوق والحريات المتساوية وبعد ذلك بعام أى فى سنة ١٨٧٧م تم الاتفاق على الصياغة النهائية للاتفاق ووقعت عليه الدولتان المصرية والانجليزية فى الاسكندرية فى ٤ أغسطس سنة ١٨٧٧م .

وهنالك مسألتان لهما أثرهما فى هذا الموقف أولهما التنظيمات السلطانية التى صدرت فى عام ١٨٥٨م بشأن الرقيق الأسود وهو يشمل جميع الأمبراطورية العثمانية ومنها مصر و السودان والمناطق التابعة لمصر ، ويبدو أن هذا كان سنداً لمسلك بيكر فى إدارته لخط الأستواء فى السنوات ١٨٦٩/١٨٧٣ وغوردون من ١٨٧٤/١٨٧٦م بالاضافة إلى الأوامر التى أصدرها ولاة مصر حتى ذلك الحين والتى كانت تهدف إلى تنظيم الإلغاء ، والثانية أن الأزمة المالية المصرية قد برزت وجاء ستيفن كيف من رجال الخزانة البريطانية لبحث الحالة المصرية وتقديم تقرير عنها لحكومته . وفى هذه الفترة بالذات ، وبالرغم من الأزمة المالية التى صورت فى صورة بعثت على القلق ، كانت مصر قد شقت طريقها نحو النمو الاقتصادى كما تتضح هذه الحقيقة من ملاحظة الإطراد فى زيادة عدد السكان من عام ١٨٦٣ إلى ١٨٧٥م وزيادة النشاط التجارى فى حركتى الوارد والصادر .

	سنة ١٨٦٣	سنة ١٨٧٥	الزيادة
عدد السكان	٤٨٣٣٠٠٠	٥٥١٨٠٠٠	٦٨٥٠٠٠ نفسًا
الواردات	١٩٩١٠٠٠	٥٤١٠٠٠٠	٣٤١٩٠٠٠ جنيهًا
الصادرات	٤٤٥٤٠٠٠	١٣٨١٠٠٠٠	٩٣٥٦٠٠٠ جنيهًا

وإذا رجعنا إلى معاهدة الرقيق التى أبرمت فى الاسكندرية فى ٤ أغسطس سنة ١٨٧٧ ، وإلى الدكريتو الخديوى الصادر فى نفس التاريخ فإننا نجد أن الأتفاق قد قام على أسس ليس من شأنها أن تؤدى إلى نتيجة إيجابية عملية لإلغاء الرقيق إلغاء تدريجيًا فى خلال الفترة المعينة لالغائه ، وهى سبعة سنوات لمصر وأثنى عشر سنة فى السودان حتى تتاح الفرصة للمجتمع فى البلدين أن يكيف وضعه بما يتمشى والاتفاق الجديد فى الفترة التى تحددت لكل من مصر والسودان على التوالى .

وقد صيغت هذه المعاهدة على الشكل التالى :

الديباجة : تعبر من أقصى أمانى الدولتين ــ بريطانيا ومصر ــ للتعاون فى إبطال الرقيق بالكلية .

البنـد الأول : تتعـهـد الحكومـة المصرية بأن تمنع منعًا كليًا من الآن فصاعدًا إدخال الأرقاء وتفرض أشد العقوبات على المخالفين .

البند الثـانى : تعتبر المتعـاملين بالنخاسـة أو المشتركين فى عملياتها بمنزلة السارقين القاتلين ويحاكم هؤلاء أمام المجالس العسكرية أو المجالس المختصة .

البند الثالـث : عن معاملة الرقيق المنزوعين من المتجرين به .

البند الـرابع : تمنع مصر بقدر ماتحت يدها من سيطرة ونفوذ وغزوات النهاضة وتعامل من يمارس هذه التجارة من القبائل معاملة القاتلين .

البند الخامس : تصدر الحكـومة المصـرية أمرًا يرفـق مع المعاهدة يحدد بمقتضاه منع الرقيق كلية فى أرض مصر و السودان من ابتداء تاريخ يعين فى الأمر ، وتوضح العقوبة على من يخالف ذلك .

البند السـادس : تسـمح مصـر للسفن البريطانية باجراء التـفتيش فى مياه البحر الأحـمر على المراكب للبحث عن الرقيق ويبين هذا البند طريقة التصرف فى هذه الحالات .

البند السابع : تشير إلى أن العمل بمقتضى هذه المعاهدة يبدأ بعد مضى ثلاثة شهور من توقيعها .

وللمعـاهدة ذيل عن إنشـاء قلم مـخصـوص فى كل من مـحـافظتى القـاهرة والاسكندرية للتصرف فى حالات الرقيق المختلفة .

معاهدات الرقيق لكسب حقوق

ووقعت الحكومتان المصرية والبريطانية معاهدة ثانية فى السابع من سبتمبر سنة ١٨٧٧ بشأن سواحل الصومال . وأهتمت بريطانيا بأن تحصل فى هذه المعاهدة على تعهد مصر بأن لاتعطى أى احتكار ، أو التزام أو ترخيص باعطاء قطعة أرض فى الحاضر والمستقبل لأية دولة أجنبية ، وأن لا تأخذ مصر عوائد جمركية تزيد عن الخمسة فى المائة ، وأن تتمتع بريطانيا وتجارتها بالمعاملة كدولة ممتازة فى جميع البلاد التى تمتد إليها سلطة مصر . وأن يكون الحق لانجلترا فى

تعيين مأمورى قنصليات فى جميع الموانئ والجهات ، وأن يتمتع هؤلاء بجميع الامتيازات والمعافاة وسائر المزايا المعطاة التى تعطى إلى سائر مأمورى القنصليات التابعين لأى دولة ممتازة ، واشترطت إنجلترا أن لايعين فى وظيفة مأمورى القنصليات من أهالى تلك البلاد أو البلاد المجاورة لها ، والتزمت مصر فى البند الرابع بمنع تصدير الرقيق ومنع تجارته وقبلت مصر أن يكون للسفن الإنجليزية حق مراقبة تجارة الرقيق ، ومنعها وأن تضبط وترسل إلى المجالس المختصة السفن التى تتعاطى أو يشتبه فى أنها تتعاطى الرقيق وتحقيقًا لصلاحية هذه المعاهدة من الوجهة القانونية ، وتنفيذها قضت على وجوب أن يعطى السلطان العثمانى الذى تتبع له مصر تعهدًا رسميًا بأن لايعطى فى أية صورة إلى أية حكومة أجنبية قطعة من سواحل الصومال ومن سائر البلاد التى دخلت أوتدخل فى حوزة مصر .

فوضى تنفيذ معاهدة الرقيق

وقد قام غوردون خلال حكمداريته من ١٨٧٧ إلى ١٨٧٩م بارتكاب أقسى أنواع التنكيل والتعذيب بالأهالى ـ قتل وتشريد ومصادرة الممتلكات ـ بدعوى اقتلاع جذور النخاسة وذلك لتبرير مسلكه التعسفى ، ولذا رجعنا إلى ما ذكره غوردون بقوله أن بيضة الثورة الحالية (يقصد الحركة المهدية) قد وضعت خلال الأعوام الثلاث التى أتيح لى فيها ان أحكم السودان على مبادئ غير المبادىء التركية[٤٧] (يقصد بالتركية الإدارة المصرية ونسبتها إلى الأتراك لم يكن إلا مغالطة وافتراء على واقع الأمر وحقيقته) وبهذا القول قد كشف غوردون عن حقيقة أهدافه التى حققها عن طريق ذلك المسلك الارهابى[٤٨] الذى أحدث أثره العميق فى المجتمع المحلى[٤٩] ودفع به إلى الثورة فى وجه إدارة البلاد . وفى الحقيقة وواقع الأمر أن الفترة من الزمن من ١٨٦٩ إلى ١٨٧٩م التى تولى فيها بيكر مديرية خط الاستواء من ١٨٦٩/١٨٧٤م وخلفه غوردون من ١٨٧٤/ ١٨٧٧م وولاية الأخير لحكمدارية السودان لم تكن إلا فترة متتابعة نفذت فيها سياسة موحدة الأهداف وإن كانت الأساليب قد اختلفت بعض الشىء . وقد ذكر صمويل بيكر «أن

(٤٧) صبرى ص٨٩ هامش ١ .

(٤٨) التن ص٣٥٤ إلى ص ١٤٠ .

(٤٩) استراشى ص ٢٤٣ .

اهتمامى الأول كان لخدمة مصر ، وفى نفس الوقت كان على أن أساعد على نشر نفوذ إنجلترا وقد تحمس غوردون لنفس الغرض وضحى بحياته أملا فى وصول إنكلترا إلى الخرطوم[٥٠] . وقد يبدو أن هذا المسلك من بيكر وغوردون كان غريبًا بالنسبة لمصر لأنه يتنافى مع أبسط قواعد الواجب الذى يحتم ولاءهما لمصر التى أسندت إليها مركزيهما للعمل على تقدم البلاد ورفاهية الأهالى . إلا إننا إذا رجعنا إلى روح العصر الذى عاشا فيه وما تركه من انطباعات فى عقليهما نجد تفسيراً لمسلكهما . ويذكر أن زميلهما استانلى الذى التحق بخدمة الملك ليوبولد فى الكونغو الحرة كان يعتقد أن تلك المنطقة سوف تنتقل إلى الأملاك البريطانية .

ومعاهدة الرقيق التى ذكرناها آنفًا ، والتى كانت مصدر القلق والتذمر فى البلاد لم تكن واضحة المعالم مما جعل تفسيرها متناقضًا التناقض كله فبينما غوردون قد أخذ فى تنفيذها بشدة وصرامة فى فترة ولايته حكمدارية السودان ١٨٧٧-١٨٧٩م واستعان بالأوروبيين الذين عينهم فى المراكز الرئيسية بدلاً من المصريين والسودانيين ـ وقد عين أربعة عشر موظفًا أوروبيًا فى شهر يولية سنة ١٨٧٨م وأدخل لجهاز الحكم عناصر قد انتقلت به من أداة صالحة للأخذ بيد البلاد نحو التقدم إلى أداة استعمارية كما أنه قد غير رأيه فى مسألة الرقيق فى حكمداريته ١٨٨٤/١٨٨٥م كما سنوضحه فى موضعه فيما بعد .

وهكذا نجد أن التنكيل بالأهالى فى السودان على يد الموظفين الأجانب وعملائهم تنفيذاً للمعاهدة لم يكن مبعثه الشعور الإنسانى نحو الرقيق .

وكان مستحيلاً على الأهلين الذين أرهقهم هؤلاء العملاء والوكلاء من الأوروبيين والليفانتينيين فى إدارة غوردون أثناء حكمداريته (١٨٧٧-١٨٧٩م) أن يدركوا أو يصدقوا . ان هذا العسف والقسوة بأنهم يريدون حقًا إلغاء الرقيق وأبطال النخاسة . الأمر الذى تعطلت معه الحياة اليومية وساد الذعر والإرهاب ، وجاء فيما كتبه غوردون فى يولية ١٨٧٨م «قبضنا على اثنى عشر قافلة رقيق فى مدة شهرين» وقال أيضًا «انى أوجه ضربة قاصمة لتجارة الرقيق وقد أقمت ما يشبه الحكومة الارهابية فى معاملة هذه التجارة[٥١] » كما كان يصدر أحكامه بالإعدام

---

(٥٠) دوجلاس مرى وسلفا هويت من ٣٥٣- نقلاً عن مكى عباس ص ٤٢ .

(٥١) ألن ـ فى كتابه غوردون والسودان ص ١٤٠ .

رميًا بالرصاص على من يشتبه فيهم هو وأعوانه بممارسة هذه النخاسة» ، ويذكر صاحب «غرائب الزمان فى فتح السودان» قصة تدل على سوء الظن ، وهذا أضعف التعبيرات التى يمكن أن يوصف بها ما كان يدور فى ذهن أهل السودان تجاه نشاط الحكومة العنيف الذى أوجد بلبلة زاد معها سوء الظن بنوايا الحكومة وأغراضها وقد وصف مؤلف كتاب «غرائب الزمان فى فتح السودان[٥٢] » الذى أشرنا إليه زيارته لإحدى الشون التى أعدت فى الخرطوم لجمع الرقيق الصادر من النخاسين قبل أن تبت الحكومة فى مصيرهم ، فقال «فدخلنا وإذا بها (الشون) من صنف الخدم (الرق) ، شىء لا يعد فلما نظرت ذلك اندهشت لكثرتهم» ، قلت للتاجر ما هذا؟ قال ألم تنظر قلت نعم أنظر (رقا) ، ولكن هذا شىء كثير ، وصدرت الأوامر بأبطال الإتجار فيه ، قال نعم لكن هؤلاء قد صار ضبطهم من التجار ، وسجنوا فى المحل خلاف إثنى عشر ألفًا (مردًا) (لفظة أمرد تطلق على من سنه ١٧ إلى ١٦) وأرسلهم الحكمدار (يشير إلى غوردون) إلى الهند عن طريق مصوع ، ولا أدرى إذا كان يتجر فيهم أو أرسلهم هدية لدولته ، فتتخذهم عساكر بمستعمراتها الواسعة . ولكن الخبر الثانى هو الغريب عن العقل ، وكان ذلك قبل مغادرة غوردون للسودان فى عام ١٨٧٩م بعد أن حكم من ١٨٧٤/١٨٧٦م فى خط الاستواء ، ومن ١٨٧٧/١٨٧٩م حكمداراً للسودان يعاونه أوربيون من مختلف الجنسيات فى مراكز هامة عملت على آثاره الحفائظ وكراهية الحكم المصرى» .

***

غادر غوردون السودان فى عام ١٨٧٩م بعد أن حكم البلاد كما سبق أن أوضحنا على أسس تختلف اختلافًا كليًا عما كانت عليه فتعطلت التجارة والزراعة ، وشاع الفساد الذى امتد إلى القيم الأخلاقية ، وانحط بها بما يتنافى مع عادات البلاد وتقاليدها ، وسلم أداة الحكم إلى مساعديه من الأوروبيين والمتخلفين الذين أسرف فى تعيينهم ، وكثر عدد المتعطلين من الأيادى العاملة على الأرض والرعى بدعوى المدنية والإنسانية لتحرير الرقيق ، وقد هيأ إرساء قواعد الحكم على هذه الصورة التربة الصالحة للتذمر والفتنة ، ودفعها دفعًا قويًا إلى الاستجابة إلى

---

(٥٢) محمود طلعت فى كتابه غرائب الزمان فى فتح السودان ص ١٢٧ وما بعدها طبع مطبعة الإسلام بمصر عام ١٣٠٤هـ (١٨٩٦م) ومحمود طلعت هذا كان موظفًا فى غرب السودان من ١٨٧٥-١٨٨٠م) .

الدعوة التى نادى بها الإمام المهدى للخروج بالبلاد لما وصلت إليه تحت حكم الأوروبين ، ومن عاونهم من المختلفين .

مقاليد الإدارة فى يد الأوروبيين

وكانت سلطات الحكم ، وقد تسلم زمامها الأوروبيون والانتهازيون تتخبط فى فوضى وجهل وفق حاجاتها اليومية ، وقد ساعدت هذه الحالة الارتباك والقلق وتوقف النشاط على سرعة انتشار الفتنة باجتذاب الأنصار من الجماعات المتذمرة ، وكان الغدر بسليمان الزبير ورجاله على يد جسى بأمر من غوردون خاتمة المطاف فتكون بذلك شعور عام اكتسح الجميع وأشد ساعد حركة العصيان الذى كان موجها أولاً وقبل كل شىء إلى الخلاص من الإدارة التى اصطبغت بالطابع الأوروبى الذى انحرف بها عن تقاليدها التى عرفتها أهل البلاد قبل سنوات العشرة الثامنة عن القرن التاسع عشر الميلادى عندما كانت الإدارة وطنية خالصة (مصرية سودانية) وقبل أن يتسرب إلى السودان الأجانب وتقليدهم مراكز رئيسية فى إداراته ، وكان لسيطرة النفوذ الأجنبى فى مصر أثره فى تقوية سلطان هؤلاء الحكام فى السودان ، وفى اتخاذهم ما يرونه من إجراءات فى حرية مطلقة تعطل معها سلطان الحكمداريون الذين خلفوا غوردون ، وذهب ضحيتها الألوف من الأهالى ومن جنود الحكومة الذين وضعتهم الظروف السياسية فى مصر فى حالة نفسية متدهورة ، وأسلمت قيادتهم لمن يجهلون التنظيمات العسكرية ، وفنون القتال ، والتدريب على خوض المعارك ، وكان عتاد هؤلاء ومعداتهم وذخيرتهم غنيمة باردة ساعدت على تطور الحركة وانتقالها من مرحلة إلى مرحلة ، ونذكر على سبيل المثال من طراز أولئك القادة الذين تولو إدارة معارك دون سابق خبرة محمد بك أبو السعود تاجر الرقيق الذين عينه غوردون فى منصب وكالة المديرية فى «غندكرو» فى سنة ١٨٧٤م ثم طرده من الخدمة وإعادته ثانية فى سنة ١٨٧٧م مديراً للحسابات فى الخزانة العامة فى الخرطوم ، وكان أبو السعود فى المركز الثانى بعد الحكمدار . وكان فشله ذريعًا وهزيمته منكرة عندما أرسله رؤوف باشا إلى الجزيرة «أبا» .

وعندما وصل رؤوف باشا لتولى منصب الحكمدار بعد مضى ستة شهور من سفر غوردون سلك مسلك غوردون فى تنفيذ منع الرقيق . ولم تكن لهذا الحكمدار القدرة واتساع الأفق

لمعالجة المشاكل كما كانت تتطلبه الحالة القائمة بل عمد إلى تنفيذ أوامر القاهرة التى كانت تهتم لظروفها الخاصة بتنفيذ هذه المعاهدة فى أية صورة من الصور أملاً فى اكتساب رضاء الأجانب والإنجليز ليخف عنها الضغط ، ولم تعلم أنها بعملها هذا إنما قد زادت النار وقودًا وكان فى عهد رؤوف باشا هذا أن أخذت الدعوة المهدية مظهرها السافر فى صورة دعوة إلى الهجرة إلى المكان الذى اتخذه الإمام المهدى مستقرًا له لنشر دعوته ، وأرسل رؤوف باشا أبو السعود بك إلى جزيرة «أبا» ومعه يوسف باشا الشلالى للقبض على صاحب الدعوة وأتباعه ، ولم تكن قيادتهما موحدة بل ترك لكل منها أن يتصرف كما يشاء دون إعتبار لموقف زميله ، ويبدو أن رؤوف باشا لم يكن يقدر الموقف حق قدره فكان نصيب هذه الحملة الفشل بسبب جهل أبو السعود والشلالى بالفنون العسكرية ، ولم تكن هنالك خطة مرسومة للحملة بل ترك أمرها للظوف ، ولجهود الأفراد من ضباطها ، وذكر إبراهيم باشا فوزى فى كتابه أن رؤوف باشا أرسل فى أول الأمر الطيب بك مدير فاشوده إلى الجزيرة «ابا» إلا أنه على حد قول إبراهيم باشا قد قبل رشوة من أنصار الإمام المهدى ، ولم يفعل شيئًا(٥٣) . وليس هناك من دليل على صحة هذه الرواية . ويحتمل أن يكون إبراهيم باشا قد نقلها عن الشائعات والمعروف أن إبراهيم باشا قد عاد إلى مصر فى ذلك الوقت تقريبًا ، وبقى فيها حتى سفره مع غوردون فى سنة ١٨٨٤م وبقى أسيرًا حتى نهاية حكم الخليفة عبدالله التعايشى فى سبتمبر سنة ١٨٩٨م .

استدعى رءوف إلى مصر ، وترك السودان فى فبراير من عام ١٨٨٢م بعد أن سلم مقاليد الحكمدارية إلى «جيجلر باشا» (١٨٧٧/١٨٧٩م) بعد أن كان مفتشًا بالتلغرافات ، ولم يكن من اليسير على جيجلر أن يدرك أو يقدر مدى خطورة الحركة المهدية «وهو من بيئة تختلف اختلافًا كليًا عن البيئة المحلية السودانية ، وذلك فى الدين واللغة والتقاليد ، وبالإضافة إلى ذلك فإنه قد عمل زمنًا فى تنفيذ معاهدة الرقيق على الصورة القاسية التى رسمها غوردون . ومما يجدر ذكره أن جيجلر قد بقى نائبًا للحكمدار طوال حكم عبد القادر باشا الذى كان متغيبًا عن الخرطوم لإعادة الأمن فى أرض الجزيرة . ونجد فيما ذكره أحمد حمدى بك رسول الخديو الخاص أن

---

(٥٣) إبراهيم باشا فوزى فى تاريخ السودان بين يدى غوردون وكتشنرى جزء أول ص٧٧ القاهرة صفر ١٣١٩ وقد ذكر الشيخ محمود القبانى فى كتابه السودان المصرى والإنجليزى ص١٥٤ «ان مدير فشوده قد قبض على الإمام المهدى وحلول أنصاره رشونة مائة أردب من القمح فأطلق سراحه» .

جيجلر قد عمل جاهداً على إضعاف مراكز الحاميات المصرية على النيل الأبيض مما عرضها للأخطار[٥٤] .

جاء عبد القادر باشا إلى السودان فى مايو سنة ١٨٨٢ ، وقد تعين حكمداراً بالإضافة إلى منصبه كوزير لوزارة السودان (نظارة السودان) وكانت له شخصيته القوية وخبرته فى معالجة الشئون الإدارية والعسكرية وقد استطاع القضاء على عناصر الفتنة والاضطراب فى منطقة جزيرة النيل الأزرق والمنطقة الواقعة شرقى النيل الأبيض إلا أن الصفات التى استطاعت بما لديها من إمكانيات ضئيلة أن تقبض على ناصية الأمن لم تجد فى مصر من يقدرها فيستمع إلى نصح صاحبها بسبب ما كانت تعانيه مصر من أحداث داخلية وخارجية عند قيام الحركة العرابية الوطنية ، وقد وجدت فيها بريطانيا الفرصة المواتية لاحتلال مصر متذرعة بأكثر من سبب تغطية لسياستها وخططها بالنسبة لوادى النيل ، وكان لنزول الجيوش الإنجليزية فى مصر ، وهو المرحلة الأولى التى مهدت لخطوات أوسع انطباعاتها فى السودان بصفة عامة ، وعلى مركز عبد القادر باشا حلمى بصفة خاصة وكان وجوده فى السودان يدير عملياته لاعادة النظام والاستقرار أمراً تضيع معه الفرصة المرتجاه ، وكان عبد القادر باشا يعالج الموقف بما يتمشى مع طبيعة الدعوة المهدية ، وقد مكنته صفاته وكفايته من السيطرة على الموقف ، وهذا لا يتفق بل يعطل الأهداف الاستعمارية فى حوض وادى النيل ، وكان من مصلحة تلك السياسة أن تستشرى نيران الفتنة فى جنوب الوادى (السودان) لتخلق الوضع الذى يهىء الفرصة لكسب جديد .

عمدت هذه السياسة بوسائلها المختلفة إلى نشر الشائعات المغرضة التى من شأنها إضعاف مركز مصر فى السودان كما أنها عملت على إثارة مخاوف الخديوى توفيق من نشاط عبد القادر باشا حكمدار السودان متهمة إياه القيام بتدبير يرمى إلى فصل السودان عن مصر ، وتبعيته المباشرة للباب العالى ، فاستدعاه الخديو فى صورة توضح لها مدى خوف توفيق الذى كانت ولايته على مصر عرضة للخلع لولا مناصرة الإنجليز له تحقيقاً لأهدافهم من بقائه فى مركز من الضعف ، فبينما كان عبد القادر باشا يعمل وجنوده فى جنوب جزيرة النيل الأزرق للحد من

(٥٤) يوميات رسول الخديوى تاريخ ٢٣ و٢٤ مارس سنة ١٨٨٣م .

نشاط بعض ذوى المطامع الشخصية من الوطنيين الذين انتهزوا فرصة الدعوى المهدية لتحقيق بعض مطامعهم فالتفت حولهم بعض الجماعات وقاموا بحركة عصيان فإذا حسين باشا واصف يصل إلى معسكر عبد القادر باشا ليتسلم منه قيادة قواته ، فتعطلت بذلك خططه لتأديب الخارجين ، وفى نفس الوقت يصل إلى الخرطوم علاء الدين باشا صديق ، والجنرال هكس باشا ، ومعهما رسول الخديوى الخاص الذى أحيطت مهمته حينذاك بالكتمان الشديد . وقد كشفت الوثائق عن هذه المهمة وحدودها ، فقد كلف الخديوى هذا الرسول ضمن ما كلفه به إعلان حكمدارية علاء الدين باشا بدلا من عبدالقادر باشا حلمى كذا تعيين الفريق هكس باشا رئيسًا لهيئة أركان الحرب للقوات المصرية فى السودان ، وإسناد قومندانية القوات إلى سليمان باشا نيازى ، وإبلاغ عبد القادر باشا قرار إلغاء نظارة السودان التى كان يرأسها ، وبإنفصاله عن الحكمدارية ، وغادر عبدالقادر باشا الخرطوم فى ٢٦ أبريل سنة ١٨٨٣م فى طريقه إلى القاهرة .

وفى اليوم الذى أعلنت فيه حكمدارية علاء الدين وقومندانية القوات إلى سليمان باشا نيازى صرح هكس باشا لرسول الخديوى أن هذه الإجراءات قد تمت بناء على طلبه(٥٥) .

وقد حاول رسول الخديوى عبثًا إقناع الخديوى بأن ما أشيع عن عبد القادر باشا لا نصيب له من الصحة بل بالعكس طالب بالابقاء عليه لاتمام ما قد بدأه من أعمال(٥٦) . لأن الخديوى كان واقعًا تحت نفوذ المستعمر لخوفه من الشعب .

وهكذا أقصى عبد القادر باشا عن الميدان ، وانتقلت قيادة القوات إلى سليمان باشا نيازى ، بعد أن كانت هذه المسئوليات من صميم اختصاص الحكمدار منذ امتداد الإدارة المصرية إلى السودان حتى نهاية حكمدارية عبد القادر باشا ، وعلى هذا تجزأت المسئوليات ، وصار فى السودان حاكم إدارى وآخر عسكرى ، فازدادت الثغرات التى أطلت منها رأس المنازعات والمشاحنات حول الاختصاص . وتمكن هكس من التدخل فى كل صغيرة وكبيرة فى تحركات

---

(٥٥) يوميات الأميرالاى أحمد حمدى رسول الخديوى الخاص بتاريخ ٢٥ مارس سنة ١٨٨٣ .

(٥٦) المصدر أنف الذكر بتاريخ ٥ أبريل سنة ١٨٨٣ دكتور صبرى ــ ص ٩٥ .

القوات[٥٧] . وبدأت بسيطرة هكس مرحلة خطيرة فى تاريخ الإدارة المصرية للسودان لأن هكس ومن معه من الضباط البريطانيين الذين جاؤا معه لمعاونته قد كونوا شبكة خاصة ، وعمل هكس وزملاؤه بشتى الوسائل على إبعاد المصريين عن العمل فى دائرتهم حتى لا تنكشف خطتهم ـ واستعان هكس بمترجم من هيئة المخابرات البريطانية فى الشرق الأوسط[٥٨] .

النشاط البريطانى ـ حملة هكس

ويهمنا فى هذا الموقف أن نتعرض للنشاط الذى قام به الإنجليز وعملاؤهم بعد أن هيأ له غوردون التربة الصالحة خلال حكمداريته ١٨٧٧/١٨٧٩م ، فقد حدث بعد احتلال إنجلترا لمصر فى سبتمبر سنة ١٨٨٢م أن أرسل الكولونيل استيوارت فى ديسمبر من ذلك العام إلى السودان لدراسة شئون البلد فى مختلف نواحيها ، وقد دون نتائج مهمته فى تقريره المعروف[٥٩] ، والذى ضمنه توصياته بما يرى اتخاذه نحو إدارة السودان ، ومما يجدر ذكره أن هذا الضابط كان ضمن قوات الحملة البريطانية التى نزلت مصر ، وقد قام استيوارت باتصالات واسعة فى الخرطوم وفى غيرها من المدن تحت ستار جميع المعلومات لتقريره لاستفزاز الأهالى وتحريضهم على الانشقاق والعصيان فى وجه مصر الحكومة الشرعية فى البلاد . وبالرغم من أن الخديوى توفيق كان يتوقع من استيوارت وهكس وزملائهم من البريطانيين القيام بنشاط لا يتمشى مع مصلحة مصر والسودان ، فإنه لم يكن قادراً على اتخاذ إجراءات مضادة للحد من ذلك النشاط نظرًا لمركزه الدقيق فيما يختص بعرشه وولايته ، وبالاضافة إلى هذا فإن السيطرة البريطانية كانت قابضة على مرافق البلاد توجهها على النحو الذى تراه وقد اكتفى توفيق بأن طلب من الحكمدار الجديد ـ ولا حول له ولا قوة بعد انتزاع اختصاصاته العسكرية ـ أن يراقب حركة استيوارت

---

(٥٧) تلغراف ماليت فى ٢٨ مايو سنة ١٨٨٥م إلى هكس ـ شبيكه ص (٨٦) .

(٥٨) المترجم المشار إليه هو إدوارد بلدوين إيفانس «ولد فى عام ١٨٤٣ ومات فى سنة ١٨٨٣م وموطنه شمال مقاطعة ويلز (بانجلترا) وذكر عنه ريتشارد هل فى قاموس التراجم ص ١٢١ أنه قد اشتغل بالنجارة فى مصر وجده لبضعة سنوات قبيل التحاقه بالمخابرات البريطانية خلال الحملة الإنجليزية على مصر فى عام ١٨٨١م وأنه قد خدم مع هكس كرئيس لمخابراته ومترجمه لاجادته اللغة العربية وقد ألحق هذا المترجم فى الجيش المصرى برتبة اليوزباشى . وكان الضابط الوحيد بين ضباط هكس من الإنجليز الذى يستطيع التفاهم باللغة العربية فى لهجتها المحلية .

(٥٩) تقرير الكولونيل استيوارت ـ وثيقة برلمانية بريطانية مصر رقم ١١ سنة ١٨٨٣م .

وهكس ومن يتعاون معهم ، وأن يحيط الخديوى علمًا بتلك الحركات أولاً بأول[٦٠] . وقد عاون هؤلاء رجال رسميون أمثال جيجلر وغيره من الأوروبيين ومن تعاون معهم من أصحاب المنفعة من الموظفين ، ومن غير الرسميين يبرز اسم الرحالة شوبر[٦١] الذى جاء إلى السودان فى عام ١٨٨١م ، بعد أن أمضى فترة من الزمن فى إنجلترا ، وبقى فى السودان حتى عام ١٨٨٢م ، وقد طاف فى منطقة النيل الأزرق ودار فنج وبحر الغزال ، ومنطقة أم درمان والنيل الأبيض ، وهى المناطق الأقرب إلى البدائية الصالحة لغرس بذور الأفكار الجديدة التى من شأنها إثارة الفتن والتمرد على الحكومة القائمة ، ورسم شوير خرائطه عديدة للأقاليم التى زارها . وذكر الشيخ محمود القبانى فى مقال له « . . . أصبحنا يوما وإذا الشوارع مملوءة بأوراق كأوراق (الدعوة إلى) الأعراس مكتوب عليها باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية ما يأتى «يا أهل السودان عموما وأهل الخرطوم خصوصًا ـ قد استولت حكومتنا البريطانية على حكومتكم المصرية فاطلبوا الحرية» .

الإمضاء

«رجال بريطانيا العظمى»

فارتاعت الحكومة لهذا الحادث وبثت العيون والجواسيس فأمسك خادم بربرى وهوجم منزله فوجد فيه نحو خمسة صناديق مشحونة من هذه الأوراق وعليها كلها ختم بواسطة لندرا ومصر والخرطوم وظهر بعد ذلك أنها وردت بطريق البريد وعليها عنوان سائح إنجليزى اسمه مستر شوبر كان نازلا فى بستان خارج المدينة لأحد الوطنيين وكان منزل الخادم المشار إليه بجوار منزلنا .

ولدى استنطاقه أجاب بأن ٥٠ صندوقًا كتلك الصناديق وردت فى البريد باسم سيدة فأرسل منها أربعين صندوقًا إلى جميع جهات السودان وسمى هذه الجهات والأشخاص الذين أرسلت

---

(٦٠) يوميات رسول الخديوى .

(٦١) كتاب قاموس التراجم للسودان الإنجليزى المصرى . لمؤلفه ريتشارد هل (بالإنجليزية) ص٣٣٤ ويذكر هلى أن هذا الرحالة هولندى الجنسية أيضا كتاب السودان المصرى والإنجليز لكاتب مجهول وهو مجموعة مقالات نشرت فى جريدة الأهرام وطبع منها الجزء الأول فى هذا الكتاب ـ وكاتب المقالات هو المرحوم الشيخ محمود القبانى (المتوفى فى أم درمان فى أول عام ١٩٥١م) ص ١٨٤ .

معهم وإليهم . فاستدعت الحكومة السائح لاستجوابه فمانعها قنصل الإنجليز فسكتت واستكانت[٦٢] .

ويضيف الشيخ محمود أن جماعة من السياح والبريطانيين كانوا يتصلون بالأهالى وبخاصة فى الخرطوم ويتحدثون إليهم عن عطف بريطانيا على السودانيين وأن جلالة الملكة (فكتوريا) حزينة لما أصاب البلاد من البلاء ولذا سعت جلالتها فى فصل بلادكم عن حكومة الجناب الخديوى[٦٣] . . . . . وهذا القول هو ما ذكره غوردون عند وصوله الخرطوم فى ١٨٨٤م . وأقام هؤلاء الدعاة شبكة واسعة فى أطراف البلاد يعضدهم كثير من المأجورين وأخذوا يطوفون فى أنحاء البلاد ، ويوزعون منشورات جاء فى واحد منها «أن حكومة جلالة السلطان عبد الحميد لم تعد قادرة على القيام بنفقات حربها مع الروسية ، وقد باعت قسما من أملاكها التابعة لمصر وهو السودان المصرى لحكومة جلالة الملكة فكتوريا ، وتقاضت عن ذلك ٢٥٠ مليونًا من الجنيهات وشروط البيع أن السودانيين ليسوا من أحرار المسلمين بل هم زنوج أرقاء تأخذهم الحكومة الإنجليزية وتبيعهم فى أوروبا والهند وغيرهما من بلاد البيض حتى إذا أمسكتهم حكومة إنجلترا جميعًا وأنفذت فيهم ما تشاء وخلت بقاعهم من بنى جلدتهم أرجعت الأرض إلى حكومة جلالة السلطان أما حكومة جلالة الملكة فتعترض على أن السودانيين ليسوا بأحرار ولا مسلمين ولذا أرسلت مبعوثين من قبلها ليشاهدوا بأعينهم هل القوم حقيقة كما تقول حكومة الأستانة التى يعدونها قدوتهم دينيًا وسياسيًا أم الحقيقة أن ذاك ناشىء عن حيف الأتراك وبغضهم للجنس العربى الذى منه السودانيون والأمل وطيد أن لا يكون هذا القول صحيحًا ، وهو رأى حكومة إنجلترا ، والواضح فى هذا المنشور وما فيه من مغالطات يصور لنا أساليب الدعاية التى تعمل على بذر بذور الفرقة والفتنة واثارة الخواطر وإظهار الدولة العثمانية «سلطانها خليفة المسلمين» فى صورة تحط من مركزها بين أهل السودان .

أخذ هكس فى إعداد حملته استعداداً للزحف على كردفان ، واستطاع الخلاص من سليمان باشا نيازى الذى كان يعارضه فى خططه . وصار علاء الدين باشا القائد العام اسمًا ،

(٦٢) بنصه من المصدر نفسه ص١٨٢/١٨٤ (السودان المصرى والإنجليز) .

(٦٣) المصدر السابق ص ٢٨١ .

وانتهى الحل والعقد إلى يد هكس ، وبدأ فى إرسال قواته إلى الدويم بعد اليوم الثانى من سبتمبر سنة ١٨٨٣م الذى انتهى فيه الاستعراض الكبير فى أم درمان وسار الجيش من الدويم فى جو من التفكك وعدم الانسجام[٦٤] . وتضارب الآراء وانقسام القواد فكانت النكبة فى شيكان فى الخامس من نوفمبر سنة ١٨٨٣ ، وقصة هذه الحملة مازالت فى حاجة إلى التحقيق من حيث أسباب الهزيمة المنكرة التى ذهبت ضحيتها الحملة بأكملها ، ومن ضمن رجالها عدد كبير من الضباط المصريين والأجانب ومن بينهم علاء الدين وحسين مظهر . وقد أمدت هذه الكارثة الحركة المهدية بعتاد كبير وسلاح وفير الأمر الذى دخلت معه الحركة المهدية فى مرحلة جديدة ، ومما يجدر ذكره أنه بينما كانت قوات المهدية تتجمع حول منطقة الأبيض كانت هنالك قوتان على الأقل على درجة ما من القوة إحداها فى دارفور التى على رأسها سلاتين والثانية فى بحر الغزال يتولى إدارتها لبتون بك ، وكان فى ظهير لبتون بك أمين باشا (جورج شنتزر الألمانى) مدير خط الاستواء ، وقد يكون لهذه القوات شأنها فى تحسين الموقف وتخفيف حدته لو أن تنسيقًا قد تم فى صورة من الصور تتضافر فيه تلك القوات بزحفها من الغرب والجنوب نحو الأبيض لتعاونه على تخفيف الضغط الذى تلقته الحملة التى قامت من الدويم . وقد كانت وسائل الاتصال مع دارفور ممكنة عن طريق الصحراء من دنقله كما كان فى الإمكان الاتصال ببحر الغزال عن النيل . وكانت الحالة فى هاتين المديريتين ــ حسبما ورد فى تقارير ــ رسول الخديوى ، على ما يرام ، ولا يعلم السر فى بقاء مديريهما فى موقف المتفرج . وجدير بالعناية أن تحقق هذه القضية لأنها لا تعنى إلا أحد أمرين إما تفكك القيادة العامة وعدم التناسق فى الخطط ــ وهذا أمر مسلم به ، أو تم ذلك عن عمد لحاجة فى نفس يعقوب ــ وقد ذكر رسول الخديوى أن أسرار الحملة وتحركاتها كانت تتسرب إلى رجل الشارع ، واتهم الرسول ماركو بولو بك بذلك[٦٥] ، وذكر الرسول أيضًا أن وكيل قنصلاتو إنجلترا فى الخرطوم ــ جورجى اسطنبولية كان فى الأبيض يعمل فى معسكر الإمام المهدى .

---

(٦٤) مذكرات عباس بك . نشرها القائمقام عبد الرحمن زكى فى مجلة الجمعية التاريخية بمصر .

(٦٥) يوميات أحمد حمدى بك بتاريخ ٢٩ أبريل سنة ١٨٨٣م .

وقد سلم سلاتين مديريته للمهدية فى ديسمبر سنة ١٨٨٣م أى بعد شهر تقريبًا من هزيمة شيكان ، وسلم لبتون بحر الغزال فى ٢٨ إبريل سنة ١٨٨٤م وبقى أمين فى خط الاستواء يصارع الفتن والقلاقل حتى خر صريعًا فى شباك الاستعمار .

وقد زادت هذه الأحداث أهل السودان إيمانًا بأنهم قد صاروا أمام حرب شنها عليهم الفرنجة الذين احتلوا مصر .

وبعد هذه النهاية المحزنة لحملة هكس ، وما ترتب عليها من أخطار تنبه الضمير البريطانى كما هى عادته بعد أن يطمئن إلى مغنم كسبه فى محاولة تبرئة ذمته من مسئوليات هذه المغامرة ، وأرادوا إلقاء تبعتها على عاتق مصر وحدها ، وهى التى كانت مقيدة بتنفيذ توصيات السياسة البريطانية ، ولم تكن مصر فى مركز يسمح لها باختيار ما هو فى مصلحتها هى ، والحكومة البريطانية التى تقول بأنها لم تكن مسئولة عن تعيين هكس فى خدمة مصر هى أيضًا التى طلبت منه أن يحيطها علمًا أولاً بأول عن تطورات الموقف فى السودان ، وتكرر هذا الطلب من ما ليت عن طريق الكولونيل استيوارت الذى كان يعمل كضابط اتصال مع هكس ، وهكذا حافظت إنجلترا على القول بعدم مسئوليتها وبأنها لا تهتم بشئون السودان الذى يخص أمره مصر وحدها فقط جريًا على سياستها التقليدية فى إخفاء أهدافها .

التمهيد لسياسة الإخلاء

أوضحنا فيما سبق ما تميزت به الفترة التى جاءت بعد الاحتلال البريطانى لمصر فى عام ١٨٨٢م ، من أحداث متتابعة عجلت بمصير السودان ، فبينما كان هكس فى طريقه من الدويم إلى الأبيض كان القنصل البريطانى العام الجديد فى مصر ـ السير أفلن بارنج قد بدأ محادثاته مع شريف باشا عن مسألة السودان ، واشتملت خطته ترك دار فور واقامة حكومة محلية ثانيًا تعيين لجنه مكونة من ثلاثة أشخاص أحدهم أوروبى لادخال تعديلات على الإدارة ثالثًا بناء خط حديدى ـ وفى نفس الوقت بدأت مناورة المفاوضات بشأن تخفيض عدد القوات البريطانية فى مصر ، ولم تكن كل هذه المناورات أكثر من أسباب لكسب الوقت وتحويل التفكير إلى طريق آخر ، والدليل على ذلك أن كل هذه المناورات صارت أثرًا بعد عين بعد السابع عشر من نوفمبر

سنة ١٨٨٣م الوقت الذى بدأ فيه بارنج يشعر باحتمال هزيمة هكس الذى لم يسمع عنه شيئًا بعد ٢٧ سبتمبر سنة ١٨٨٣م .

وبعد أن تحققت هزيمة هكس كان لزامًا التوصية بإخلاء السودان حرصًا على أمن مصر وطمأنينتها ـ على حد التعبير البريطانى ـ وكانت مصر حينذاك فى حالة مالية لا تسمح لها بارسال حملة أخرى للسودان ولم يكن من المستطاع الحصول على قوة هندية أو إنجليزية كما أنه لم يكن من مصلحة مصر فى نظر الإنجليز أن تطلب مساعدة عسكرية من الباب العالى إذن فلتتوقف المباحثات الخاصة بتخفيض الجنود البريطانيين المحتلين لمصر ، وعلى مصر أيضًا أن تقبل النصيحة بترك السودان إلى حدود معينة . حقًا أن السياسة المرتبة لها منطقها الغريب .

وتحولت الاتجاهات إلى بناء سكة حديد من البحر الأحمر إلى بربر ، وأرسلت قوة من الجندرمة المصرية إلى سواكن لفتح الطريق إلى بربر .

وتقدم شريف باشا فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٨٨٣م بمذكرة إلى بارنج يعارض فيها ترك السودان بحجة أن الخديوى لا يملك بمقتضى فرمان ٧ أغسطس سنة ١٨٧٩ حق التنازل عن أى جزء من أراضيه ، وذكر أنه حتى ولو أن مصر كانت مطلقة اليد للتصرف فى أمر السودان فإن تركه سوف تكون له اسوأ العواقب ، وأوضح أن مصر فى ذلك الوقت كانت مسيطرة على الموقف فى جميع أنحاء السودان فيما عدا كردفان ، ولم يكن خبر استسلام سلاتين قد وصل بعد ، وأشاد شريف بما قامت به مصر من امتداد للمدنية إلى السودان حتى منطقة البحيرات . وقال أنه مازال أمام مصر من الواجبات نحو السودان وتعميره وفتحه للتجارة والكشف العلمى ، وأضاف أنه لا ينكر أن مجهوداً قد قامت به مصر للحد من نشاط النخاسة ـ ولم تغن كل هذه الحقائق الدامغة لتتخلى بريطانيا عن موقفها بصدد تنفيذ نصيحتها بالترك أو الأخلاء بالمعنى المقصود من كلمتين استعملتا وهما (Abandonment) و(Evacuation) ولكل من هاتين الكلمتين تفسيرها الخاص . وهو مطاط يمكن تأويله إلى الغرض المقصود ولم يكن اختيار هذين اللفظين إلا لتفادى الكثير من المشاكل التى قد تثار وتواجه بريطانيا مسئولية ما وبخاصة أن وضع بريطانيا فى مصر كان شائكًا للعداء الذى كان قائمًا بينها وفرنسا وروسيا ، وكان من نتيجة إصرار بريطانيا استقالة شريف باشا فى وثيقة سجل فيها موقفه ، وجاء بعده نوبار باشا الذى قبل

تنفيذ النصيحة ، وقد عرض ايفاد عبد القادر باشا حلمى إلى السودان ليشرف على سحب الحاميات المصرية ، وقال نوبار فى هذا الصدد أن القيادة العليا لن يسلم زمامها إلى يد أفضل من يد عبد القادر باشا حلمى الذى يعرف عن السودان ما لا يعرفه غيره ، فضلاً عن أنه ضابط شجاع وكفء ، واستطاعت الحكومة البريطانية أن تتخلص مرة أخرى من عبد القادر باشا بأن طلبت من الحكومة المصرية كشرط أساسى أن تصدر أولا بيانًا تعلن فيه عزمها على الترك[٦٦] . ومما لا شك فيه أن اصدار مثل ذلك البيان سوف يقيم الصعاب فى تنفيذ هذه الخطة كما أنه يعرض القوات المنسحبة إلى أخطار جسيمة ، ويتعرض المدنيون إلى النهب والسلب والفوضى . ولهذا رفض عبد القادر باشا هذه المهمة .

وقد حدث فى الوقت الذى كانت تتبادل فيه المذكرات مع مصر أن طلبت الوزارة البريطانية من غوردون العودة من بروكسل للقيام ببعض المحادثات ، وكان غوردون قد ارتبط مع الملك ليوبولد الثانى للعمل فى الكونغو الحرة التى يتولى سيادتها ذلك الملك .

تنفيذ سياسة الإخلاء

وكتب غوردون بعد مقابلته للوزراء خطابا إلى بارنس (Barnes) جاء فيه «تقابلت مع ولسلى ، الذى دخل على الوزراء وتحادث معهم ثم عاد إلى وقال «أن حكومة جلالة الملكة تريد أن يكون واضحًا لك أنها تحتم اخلاء السودان لأنها لا تضمن قيام حكومة المستقبل فهل لك أن تذهب للقيام بهذه المهمة؟ فأجبت . نعم . فقال لى أدخل معى لمقابلة الوزراء الذين سألونى «هل أوضح لك ولسلى رأينا فقلت نعم أنه قال لى أنكم سوف لا تضمنون حكومة المستقبل ، وانكم تطلبون السفر لإجراء عملية الإخلاء ، فأمنوا على هذا القول وانتهى الحديث[٦٧] وكانت الملكة فكتوريا مهتمة كل الاهتمام بمسألة السودان وقد ذكرت فى خطاب لها إلى السير أفلن وود أن ارسال غوردون كان يجب ارساله قبل الآن بكثير .

---

(٦٦) التن ، ص٣٣٦ .

(٦٧) نفس المصدر ، ص٣٤٥ .

وقد سبق للورد ولسلى أن أوضح لغوردون أن الحكومة البريطانية لا تمانع فى خدمته فى الكونغو الحرة حسب اتفاقه مع الملك ليوبولد الثانى إلا أن لأمته عليه حقًا أن يؤديه أولاً قبل الذهاب إلى الكونغو ـ وهو السفر إلى السودان ، وبعد انتهاء مأموريته عليه أن يذهب إلى الكونغو الحرة(٦٨) .

وحاول غوردون الاستعانة بالزبير باشا إلا أن هذا الطلب قد رفضته الحكومة البريطانية لأكثر من سبب منها خشيتها أن ينتقم الزبير من غوردون لدم ابنه سليمان وبخاصة بعد أن صرح الزبير فى مقابلة له مع غوردون فى القاهرة بحضور السير بارنج أنه يعتبر غوردون مسئولا عن دم ابنه وأن ثأر الدم مازال قائمًا بينهما وسوف يكون انتقام الزبير من غوردون مضيعة للخطة البريطانية . ويؤيد هذا ما جاء فى مذكرات الماجور جنرال الأونورايل منتيج ستورت ورتلى أن الزبير باشا قابل غوردون فى القاهرة فى يناير سنة ١٨٨٤ فى منزل القنصل البريطانى العام بحضور السير بارنج والسير افلن وود وجيرالد بورتال وصاحب المذكرات ، وقال لغوردون أن ابنى قد قتل رميًا بالرصاص بأمر محكمة عسكرية مستندة فى حكمها إلى خطاب كتب منى (الزبير باشا) للحض على الثورة ، وطالب غوردون بأن يقدم هذه الوثيقة . وفعلاً أرسل كاتب المذكرات إلى وزارة الحربية المصرية لاحضار اجراءات المحكمة العسكرية وعند عرضها وجدت بأختامها منذ ١٨٧٩م ـ أى أنها لم تفض أختامها لحوالى خمسة سنوات وبالبحث لم يعثر على الوثيقة التى أشار إليها ، وقال غوردون أن الأمر كان مأساة وأن العدل انحرف عن مجراه . «وانى سوف أعمل ما يمكن للترضية» ويبدو أن إلحاح غوردون لذهاب الزبير إلى السودان كان لهذا الغرض ـ (المذكرات المشار إليها قد نشرت فى مجلة السودان فى رسائل ومدونات الجزء الرابع والثلاثين .

جاء غوردون إلى مصر فى يناير سنة ١٨٨٤م بعد أن كانت نيته السفر مباشرة إلى سواكن عن طريق البحر الأحمر ، وسافر إلى السودان فى نفس الشهر ، ولا ننسى أنه كان قد ارتبط بخدمة ليوبولد فى الكونغو الحرة ، وندبته دولته لتنفيذ سياسة الترك فى سرعة ، والتى قدر لها غوردون شهرين تقريبًا يذهب بعدها إلى الكونغو الحرة كما ذكر فى خطابه لأخته ، وكانت

(٦٨) التى ص٣٤٤ .

خطط غوردون لتنفيذ السياسة التى رسمتها له حكومته متضاربة فى كيفية القيام بهذه المهمة مهمة الترك ، وتكوين مشيخات وسلطنات صغيرة يربط بينها حلفًا فى صورة ما(٦٩) . ـ ولا نعتقد أن مثل هذه المشيخات والسلطنات يترك أمرها لها فيما بينها دون أن تدخل فى تحالف معه باسم الحكومة البريطانية تدخل فيه هذه المجموعات فى حماية تلك الدولة ويسيطر عليها غوردون بعد انتقاله إلى بحر الغزال إلا أن موته فى الخرطوم قد قلب خطته رأسًا على عقب وعطلها بعض الوقت .

استهتر غوردون بالقوة التى وصل إليها الإمام المهدى أو تجاهلها ، وقد كتب ، وهو فى طريقه ، فى كرسكو بتاريخ ٣١ يناير سنة ١٨٨٤م ، «أن الأشياء قد زادتها المبالغة ، وإننى لا أخاف من تقدم المهدى ، فإننى بعون الله سوف أصل معه إلى حل ، فالمهدى هو ابن أخت الخبير الذى خدم معى سابقًا» .

وأعلن غوردون فى بربر دًا على الأسئلة التى وجهت إليه من أعيان المدينة بشأن معاهدة الرقيق لسنة ١٨٧٧م ، ومدى سريان نصوصها على السودان فى وضعه الجديد ، قال أنها لا تسرى على السودان بسبب أن السودان قد صار منفصلا عن مصر ، وأصدر بيانا رسميًا فى هذا الشأن ، وطلب غوردون من الإمام المهدى أن يكون سلطانا على كردفان كما كان راغبًا فى إقامة سلاطين آخرين هنا وهنالك فى مناطق السودان القبلية ، وينسحب بعدها إلى حوض بحر الغزال ، وتتحول تجارة السودان إلى أوغندا ومنها إلى ساحل المحيط الهندى وتنقطع عروبته .

وكانت التعليمات التى أعطيت مكتوبة إلى غوردون قبل مبارحته لندن كالآتى :

«ترغب حكومة جلالة الملكة أن تذهبوا حالا إلى سواكن(٧٠) لكتابة تقرير للحكومة البريطانية عن الحالة العسكرية فى السودان ، وعن الوسائل التى يستحسن اتخاذها لسلامة الحاميات المصرية التى تحتل مراكزها فى تلك البلاد كذا لسلامة الرعايا الأوروبيين الموجودين فى الخرطوم .

---

(٦٩) ألن ، ص٣٧ .

(٧٠) تعدلت لفظة سواكن لتقرأ مصر وذلك فى الكتاب الأزرق ـ ورثام ص٢٧٨ .

«وعليك أيضًا أن تبحث وتقدم تقريرًا عن الطريقة الممكنة للإخلاء من داخلية البلاد وأيضًا عن الوسائل التى يمكن اتباعها لسلامة موانىء البحر الأحمر ، وإدارتها بواسطة مصر إدارة حسنة .

«وفى صدد هذا الموضوع عليك أن تهتم اهتمامًا خاصًا عن أنجح الوسائل لمنع التحريض الذى يخشى منه من جانب تجار النخاسة بسبب حركة التمرد (المهدية) وسحب السلطنة المصرية من البلاد .

«وسوف تكون خاضعًا لتعليمات معتمد جلالة الملكة وقنصلها العام فى مصر الذى عن طريقه ترسل تقاريرك لحكومة جلالة الملكة مختومة بالشمع الأحمر .

«وعليك أن تعلم أنه قد خول لك ـ وتكلف بالقيام بأية مأموريات أخرى ، كما ترى الحكومة المصرية ، والتى يجب أن ترسل إليك عن طريق السير أفلن بارنج ، وسوف يسافر فى رفقتك الكولونيل استيوارت الذى سوف يساعدك على انجاز المهام التى توكل إليك .

«وبعد وصولك إلى مصر عليك أن تتصل بالسير افلن بارنج الذى سوف يحدد موعدًا لمقابلتك ليبحث معك مسألة سفرك إلى سواكن مباشرة ، أو أنك تذهب بنفسك أو يذهب معك الكولونيل استيوارت إلى الخرطوم عن طريق النيل .

ومما لا شك فيه أن هذه التعليمات التى كتبها أصلا اللورد جرانفيل[٧١] قد صيغت فى حذق ومهارة ، وذلك لابعاد المسئولية فيما يختص بالإخلاء أو الترك عن عاتق الحكومة البريطانية ، وقد قال غلادستون رئيس الوزراء أنه أى الحكومة البريطانية لا تلتزم بأية مسئولية ، وكان أن أعدت الحكومة المصرية الفرمان الخاص بمأمورية غوردون كطلب المعتمد البريطانى الذى كان صاحب الأمر والنهى الفعلى فى مصر ، وأن رفض تنفيذ ما يشير به من نصيحة ـ كما تواضع فى تسميتها ـ معناه ترك كرسى الحكم .

وفى الوقت الذى كان فيه غوردون يقطع صحراء العطمور بين كرسكو وأبو حمد فى طريقه إلى الخرطوم التى وصلها فى صبيحة يوم ١٨ فبراير سنة ١٨٨٤م كانت قوات فالنتين بيكر

(٧١) ذكر التن ، ص٣٤٠ ـ أن اللورد مورلى قد ذكر خطأ فى كتابه عن ترجمة حياة غلادستون أن هذه التعليمات قد وضع صيغتها غوردون . والأصل مازال محفوظًا بخط جرانفيل .

باشا ، وقوامها من الجندرمة المصرية قد أصيبت بهزيمة منكرة فى موقعة التيب فى شرق السودان . ومما لا شك فيه أن هذه الهزيمة قد كان لها أثرها المباشر على مركز غوردون ومأموريته إلى السودان . كما أنها أذكت الشعور المحلى العام ، ولا يخفى أن الشعور العام فى البلد قد تزايدت كراهيته لحكامه من الأجانب بسبب ما أصابهم على يد هؤلاء من عسف وظلم منذ ولايتهم للمناصب الرئيسية فى حكمدارية غوردون ١٨٧٧/١٨٧٩ . وقد وجد الأهالى فى الهزائم المتتابعة التى منيت بها قوات الحكومة فرصة ذهبية للخلاص من نيرها بعد أن ضاعت هيبتها وقوتها وصارت من الضعف بمكان ، وكان طبيعيًا والحالة هذه أن يتعاون السكان مع الإمام المهدى فى حركته التى كانت قد وصلت إلى مرحلة المقاومة بالسلاح ، وذلك بعد سقوط الأبيض .

ونجد فيما ذكره جراهام (Graham) الذى رافق غوردون فى رحلته الأخيرة حتى كرسكو أن غوردون كان يتصرف تصرفات متناقضة الأمر الذى جعل جراهام يتخيل أنه فى صحبة رجل قد حكم عليه بالموت فهو تارة يتحدث عن الأماكن المقدسة ، وأخرى عن جوز الهند ثم ينتقل إلى مشروعاته المستقبلة فى السودان ، وبخاصة عن خططه لتسليم مديريتى خط الاستواء وبحر الغزال إلى الملك ليوبولد الثانى ، وعن ذهابه إلى تلك المنطقة لإدارتها باسم ملك الكونغو الحرة ليوبولد[٧٢] .

ولم يكن مستغربًا وحالته هذه التى وصفها جراهام أن يتحدث إلى أعيان مدينة بربر عن مأموريته ، وانفصال السودان عن مصر ، ورأيه فى الرقيق ، وتعطيل الاتفاقية التى أبرمت فى عام ١٨٧٧م بالنسبة للسودان ، فهو بهذا التصرف الذى تنقصه الكياسة قد شجع عناصر الفوضى ، وزاد العراقيل فى طريقه على عكس ما كان ينتظر من مؤازرة الأهالى له وتبين لنا هذه التصرفات مدى الخطأ الذى ارتكبه غوردون ودفع ثمنه غاليًا غوردون كان يؤمن من قرارة نفسه بضرورة انتهاء زعامة مصر للسودان كما ذكر لضيفه لورنس اليفانت (Lawarnce Oliphant)[٧٣] الذى زاره فى منزله فى سفح جبل الكرمل .

---

(٧٢) التن ، ص٣٦٣ .

(٧٣) بيتى ، ص٢٣٠ ــ ألن ، ص٣٧ .

أمر غوردون بعد وصوله إلى الخرطوم بهدم الحصون التى عززها عبد القادر باشا حلمى حول الخرطوم كما أمر بحرق السجلات الحكومية ، وحمل غوردون معه إلى الخرطوم من الريالات القشلى ما بلغت قيمته المائتى ألف جنيه ، وقد ضربت هذه الريالات خصيصًا فى تريستا (إيطاليا)(٧٤) وهى تحمل صورة (ماريا تريزا) وهى من العملات المتداولة فى السودان وأثيوبيا منذ زمن بعيد . ويبدو أن هذه العملة كان مقدراً لها أن تحل محل العملة المصرية المتداولة قانونًا فى السودان .

وقد أثارت تصرفات غوردون بشأن الرقيق موجة من الدهشة فى الصحف البريطانية التى أرسلت عدداً من البرقيات إلى غوردون تستفسر منه عن حقيقة موقفه وقد أجاب غوردون فى برقيته بتاريخ ٢١ فبراير سنة ١٨٨٤م أنه سوف لا يقوم بتنفيذ المعاهدة فى عام ١٨٨٩م وأنه إذا نظر إلى ما قررته حكومة جلالة الملكة بشأن مصير السودان (الاخلاء والفصل عن مصر) فإن المعاهدة لا تحتاج إلى إيضاح وأضاف بقوله «ان المسألة هى أحد أمرين الرقيق الموجود فى حيازة أصحابه أو اصطياده من مواطنه وفى رأيى أن معاهدة ١٨٧٧م سوف لا تنفذ فى القاهرة فيما يختص بالرقيق الموجود تحت يد أصحابه «وعلق السير هنرى غوردون على ذلك فى ٢٣ فبراير سنة ١٨٨٤ كالآتى» أن المعاهدة تشير إلى الاحتفاظ بالرقيق الموجود ولا تشمل إضافة رقيق جديد ، وقد اعتبر الرقيق فى بريطانيا فى عام ١٨٠٧م كعمل من أعمال القرصنة إلا أن الرقيق لم يسترد حريته إلا فى عام ١٨٣٩م بعد أن دفعت الحكومة البريطانية تعويضًا لأصحابه بلغ حوالى العشرين مليونًا من الجنيهات اعتبرت مصر فى ١٨٧٧م إدخال الرقيق جريمة عقابها الموت وان بيع الرقيق جريمة عقابها الموت وان بيع الرقيق من شخص إلى آخر ينتهى فى مصر فى ١٢ أغسطس من سنة ١٨٨٤ وفى السودان فى عام ١٨٨٩م ومن هذا يتبين أن الرقيق سوف يبقى على هذا الحال على أن لا يباع بل يجب أن يستمر فى خدمة أصحابه . فالرقيق «مال» وإذا حرر الرقيق دون أن يدفع عنه تعويض لأصحابه ، وقد دفعت انجلترا تعويضًا لرعاياها فأن ذلك يكون نوعًا من النهب والسلب . لهذا فإنه طبقًا للقوانين القائمة يحق لأصحاب الرقيق فى

---

(٧٤) مذكرات الماجور جنرال منتيج ستوارت ورتلى ـ فى مجلة السودان رسائل ومدونات مجلد ٣٤ ص٤١ .

السودان أن يتعاملوا فيما يملكون منه حتى عام ١٨٨٩ وهذا ما قاله غوردون لأهل السودان عندما أعلن أنه لم يأت إلى السودان لنقض القانون ومصادرة أملاكهم(٧٥) .

فشل سياسة الإخلاء

وحاول أن يعالج الموقف ليخرج من ورطته ، ولم يمض عليه فى الخرطوم إلا أيام قليلة ، وذلك بأن طلب من بارنج السماح للزبير بالسفر إلى السودان ليخلفه فى منصبه ، ويذهب هو إلى الكونغو ، وأرسل بارنج إلى جرانفيل بتاريخ ٢٨ فبراير سنة ١٨٨٤م للموافقة على عودة الزبير على أن يمنح نيشان القديسين ميخائيل وجورج الذى يخول حامله لقب سير وعضو فى الإمبراطورية البريطانية من درجة فارس ، وأن يعطى له مبلغ من المال ليستعين به فى تدبير شئون ولايته الجديدة المستقلة عن مصر كما يمنح إعانة سنوية مقدارها خمسون ألفًا من الجنيهات ، وأن يستمر دفع هذه الإعانة لمدة خمسة سنوات على أن يتوقف صرف هذه الإعانة السنوية على مدى سلوكه فى إدارته الجديدة ولم توافق الحكومة البريطانية على هذا الطلب لا لأن الزبير كان تاجرًا للرقيق الأمر الذى سوف تثيره المعارضة البرلمانية الإنجليزية وجماعات منع الرقيق ، ولكن لخشيتها من صلابة عوده وعدم انقياده لتنفيذ السياسة البريطانية التى كانت تهدف من ولايته إقامة سرواك أخرى فى السودان تنتقل تدريجيًا إلى أملاك التاج البريطانى فالزبير قد لاقى منذ حضوره إلى مصر مختلف وسائل الاضطهاد والنفى ، وما كان ذلك إلا لصهره فى قالب جديد لخدمتها غير أنه لم يتأثر بكل ذلك ، واحتفظ باستمساكه بمبادئه وتقاليده فحق لوادى النيل أن يفخر ببطولته .

وكان طبيعيًا والأمور تسير على هذا النحو أن يشتد الحصار على الخرطوم . الذى بدأ فى الثالث عشر من مارس سنة ١٨٨٤م ، وأن تتعطل المواصلات وتسقط المدن الواحدة تلو الأخرى ، وأن يبدأ الإمام المهدى فى الزحف صوب الخرطوم بعد أن بسط سيطرته على كردفان ودارفور وبحر الغزال فأمن بذلك ظهره وجناحه الأيسر ، وفى الأسبوع الأخير من يونيه أرسل الدراويش جيوسى كوتسى الايطالى الذى وقع فى الأسر بعد سقوط بربر يحمل رسالة إلى غوردون

---

(٧٥) كتاب المهدية فى السودان لمؤلفه رجينالد ونجت باشا ص٥٥٤/٥٥٥ بالإنجليزية .

للتسليم التى رفضها ، وكان غوردون ينتظر وصول الحملة البريطانية لانقاذ الخرطوم ، وبعد أن ساءت الأحوال وطال الانتظار بارحت الحملة مصر فى طريقها إلى الخرطوم ، وفى خلال تلك الفترة أرسل الدراويش جيوسى كوتسى مرة أخرى إلى غوردون للتسليم فرفض الطلب كما طلب الإمام المهدى من سلاتين[٧٦] الذى كان أسيرًا أيضًا فى معسكر الدراويش ليكتب إلى غوردون للتسليم حقنًا للدماء وحفظًا على حياته ، غير أنه لم يرد على هذه الرسالة واكتفى بأن أوضح فى يومياته بتاريخ ١٥ أكتوبر سنة ١٨٨٤م «ليس لدى ما أكتبه من ملاحظات على رسالة سلاتين ، ولا أعلم ما هى الدوافع وراء هذه الخطوة منه بالكتابة إلى ، وعلى أى حال إذا كان (سلاتين) سيخرج من أسره ، فإننى سوف آخذه معى إلى الكونغو ، لكنه يحتاج إلى بعض التطهير[٧٧]» والتطهير المشار إليه فى رأينا من ناحية اعتناق سلاتين للإسلام . وقد أبدى غوردون فى أكثر من موضع اعتبار من ترك مسيحيته وصار مسلمًا كمنبوذ لا يجوز التعامل معه وغوردون كما هو معروف ، يمثل طبقة مسيحية ارسطقراطية التى تميز بها عصر الملكة فكتوريا .

اخفاق حملة انقاذ غوردون

وقد أرسل قائد الحملة اللورد ولسلى كتابا إلى غوردون تاريخه ١٧ نوفمبر سنة ١٨٨٤م جاء فيه « . . . . وأفضل أن تنتهى المسألة سلميًا ، وذلك بمسامحة محمد أحمد فيما مضى وجعله سلطانًا مستقلاً على كردفان ، ويكون الملك له ولأولاده من بعده ، وبتأسيس حكومة وطنية فى الخرطوم يكون الحاكم فيها مستقلاً عن مصر ، وحكمه وراثى ، فيملك دنقله وبربر والخرطوم وتعود أنت إلى إنجلترا[٧٨] . . .» وقد أسقط ولسلى دارفور وسنار وبحر الغزال ، وخط الاستواء وشرق السودان . وقد يكون الاهمال مغتفرًا لولا أن اللورد ولسلى كان مطلعًا على دخائل السياسة العليا البريطانية وخططها نحو السودان إن لم يكن أحد صانعيها ، وقد قام بدور هام عندما طلب إلى غوردون السفر إلى السودان كما أوضحنا من قبل .

---

(٧٦) سلاتين ص٣١٩ وما بعدها ـ كان جيوسى كوتسى المشار إليه وكيل غوردون الشخصى فى بربر كما كان قنصل إنجلترا فى تلك المدينة وقد تسمى بعد إسلامه محمد يوسف وهو إيطالى ولد ١٨٤٣ وتوفى ١٩٢٣ ـ راجع ترجمته فى هل ص١٠٧ .

(٧٧) ورثام ص٣١١ .

(٧٨) نعوم شقير جزء ٣ ، ص٢٧٤ .

قامت الحملة من كورتى فى الثلاثين من ديسمبر سنة ١٨٨٤م فى فرقتين إحداهما بقيادة السير هربرت استيوارت عبر صحراء البيوصة ، والثانية بقيادة الجنرال أرل عن طريق النيل إلى أبو حمد وبربر ، والغرض من الحملة الثانية حماية جناح الحملة الأولى واسترداد بربر لتأمين المواصلات .

وبعد أن وصلت الحملة الأولى إلى آبار الجكدول فى الثانى من يناير سنة ١٨٨٥م ترك قوة صغيرة مكونة من ٤٢٢ صف وعساكر ، وعاد إلى كورتى فى نفس اليوم ووصلها فى ظهر اليوم الخامس من يناير ، وبارحها ثانية فى اليوم الثامن من يناير ووصل الجكدول بكامل قوته فى صباح اليوم الثانى عشر وفى اليوم السابع عشر اشتبك مع الدراويش فى معركة أبو طليح «شمالى المتمة وبالرغم من أن هذه الحملة قد حازت نصرًا على الدراويش فإن القوة البريطانية قد لاقت مصاعب كثيرة كادت أن تودى بجميع الحملة ، وذلك أن بعض الأسلحة والمدافع قد أصابها العطل أثناء القتال إلى الحد الذى تمكنت معه قوات الدراويش الكثيرة العدد من الوصول إلى قلب الحملة ، ولو لم تتدارك الموقف سرية نزلت إلى الميدان فى الوقت المناسب لكانت النتيجة فناء الحملة تمامًا كما حدث فى شرق السودان . ولا يخفى أن هذه الحملة البريطانية كانت أول تجربة فى حرب صحراوية بعيدة عن البحر بأكثر من ألف ميل وفى ظروف قاسية . ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه الحملة قد أضاعت حوالى العشرة أيام بين الذهاب والإياب .

ولأسباب لم تعرف بعد على وجه التحديد ، ويعتقد أنها بسبب مقاومة فرنسا لإنجلترا فى الميدان الدولى أن أرسل الخديوى توفيق تلغرافًا إلى غوردون فى نوفمبر سنة ١٨٨٤ جاء فيه « . . . . نحيطك علمًا بأنه قد حدثت تطورات كبيرة منذ أن أوصت الحكومة البريطانية باخلاء السودان وانقطاع المواصلات معكم . . . . وأيضًا صار من الضرورى إدخال تعديلات على الفرمان الذى أصدر إليكم ، ولهذا تبقى سلطاتكم كمدير للسودان الذى يشتمل على الخرطوم وسنار وبربر فى حدودها الحالية[٧٩] .

---

(٧٩) ونجت مقال حصار الخرطوم وسقوطها مجلة السودان فى رسائل ومدونات مجلد ١٣ ص٦٤ .

وذكر نصحى باشا فى «جرنال الحوادث» الذى سجل فيه يومياته خلال الفترة التى أمضاها فى منطقة شندى لمقابلة القوات البريطانية ، وذلك عن حوادث يوم الأحد ٢٤ ربيع أول (١١ يناير سنة ١٨٨٥م) ما يأتى :

وفيوم (فى يوم) الأحد الموافق ٢٤ منه فى الساعة ستة و١٥ دقيقة ورد لنا جواب من الفقيه مصطفى أمير شنبات الغرب المجاورة للخرطوم المحضر يومين تاريخه بالبر الغربى مقابلا لجزيرة نسرى الموجودين نحن بها مع ادمية (امرأة من الرقيق) وهذه صورته .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الولى الكبير والصلاة على سيدنا محمد وعلى آله مع التسليم وبعد فمن عبد ربه أحمد المصطفى ابن الفقيه الأمين إلى سعادة لوا قومندان وابورات السفرية محمد نصحى باشا أما بعد لايخفاكم إبلاغ السلام منا وإلينا ولكن نعلمكم أنه لكل أجل كتاب ولكل مملكة حد وزوال ودولة التورك (الترك) هذه كانوا أخذوها من ناس غيرهم ومثبوت أن ملكهم يزولوا (يزيله) المهدى عليه السلام فمن حاربه هلك ومن تبعه سلم ومن الجملة أن الإنجليز أخذوا الملك من الخديوى وسيروه جسم بلا روح واستلموا مصر ونحن وأنتم اخوان فى الدين ولا يجوز لكم أن تعصبوا الكفر على المسلمين ولا طاقة لكم بذلك إلا أن تهلكوا أنفسكم على غير دين الله فطالع جواب ختم الموس بيك تجد حقيقة ما هو كائن فى الخرطوم فاقنع .

ولا سبيل إلى وصول الإنجليز إليكم فإن سلمتم فلكم مالنا وعليكم ما علينا ورحاكم (أرحامكم) وجناكم (أولادكم) ومالكم محرمة علينا فإن سلمت فأنت وأولادك ومالك فى ذمتى أن ضاعت لكم ابرة تدفع لكم من بيت المال وعليك وعلى كافة الضباط الذين معك أمان الله ورسوله ومهديه وإن تعدى عليكم أحدًا (أحد) فيصير ما يصير عليه كالمناشير الصادرة من الامام وأن صممتم فسوف ترون ما يحل بكم فشأنكم ولكن كررت لكم يا أيها الباشا أنت ومن معك وأموالك وأولادك فى ذمتى فإن كنت لم تعرفنى فسأل اخوانك الذين معك يفهموك وفاء معهم

وانى رجل أشفق على العبد الغريب كالقريب والناس كلهم اخوانى فى الدين ولا عدم (عدو) لى إلا الكافر فاحضر مسلمًا مرحبًا بمن معك ولا بأس عليك ولا ضرر إلا هذا الحرب والسلام(٨٠) .

حاشية

ثم ويا حضرة الباشا أن هذا الجواب ورد علينا امبارح فى اثنى (أثناء) العشا من البقعة الشريفة والإخوان عرفونا ان الغوردون يوم الخميس الماضى أول أمس(٨٠) أرسل جواب إلى سيد الجميع الإمام عليه السلام يقول له يا سيدى أعطيك عشرين ألف جنيه ودعنى أتوجه بلدى ، واترك لك الخرطوم فحرر له الإمام عليه السلام على ذات الجواب يقول «احضر بمالك واحقن دماء المسلمين ، ولا حاجة لنا بجنيهاتك(٨١) . وقد جاء هذا القول الخاص برغبة غوردون ترك الخرطوم وتسليمها للإمام المهدى نظير عشرين ألف من الجنيهات يفدى بها نفسه ليخرج من البلد قد جاء من جانب واحد ، وليس لدينا ما يؤيده أو ينفيه ، والمعروف أن حصار الخرطوم كان قد دخل فى مرحلتيه النهائية بالعزلة التامة وقلة المواد الغذائية .

وأننا لا نعلم الدوافع التى جعلت الإمام المهدى يرفض استلام الخرطوم دون حرب عندما عرض عليه غوردون ذلك فى خطابه المشار إليه آنفًا فى الوقت الذى وصلت إليه أخبار الحملة الإنجليزية من دنقله واشتباكها مع الدراويش فى موقعة «أبو طليح» . وكان لانتصار هذه القوة على جموع الدراويش الكثيرة العدد أثرها فى معسكر الإمام المهدى الذى عقد مجلسًا من الأمراء ليتخذ قراره فى البقاء على حصار الخرطوم أو الهجرة إلى كردفان . وقد طلب أحد الأمراء ضرورة الإسراع فى احتلال الخرطوم حتى تضيع الفرصة على حملة الانقاذ ، وكان الهجوم على المدينة وسقوطها ومقتل غوردون وعشرات الآلاف من أهلها ، وذلك فى صبيحة اليوم السادس والعشرين من يناير سنة ١٨٨٥م . وضاعت الفرصة على حملة الانقاذ التى عادت أدراجها وبقيت بعض الوقت فى دنقلة حيث اتخذتها مركزًا لها .

---

(٨٠) يوم الخميس المشار إليه يوافق الثامن من يناير سنة ١٨٨٥م .

(٨١) جورنال الحوادث الذى كتبه نصحى باشا . صورة شمسية مودعة بمكتبه معهد الدراسات السودانية ـ كلية الآداب جامعة القاهرة . جاء فى مقال ونجت عن حصار وسقوط الخرطوم مجلة السودان فى رسائل ومدونات جزء ١٣ ص٨٠ ما يفيد أن الباخرة إسماعيلية كانت معدة على تمام الاستعداد منذ الفجر (من يوم ٢٦ يناير سنة ١٨٨٥م) لركوب غوردون وهربه .

وقد تأثر موقف الحملة بالأحداث السياسية الدولية بسبب نشاط فرنسا وروسيا المعادى لسياسة انجلترا، وقد كان مقدراً أن تقام حكومة فى تلك المنطقة يتولى إدارتها ضباط من الإنجليز كما أن اللورد ولسلى قائد الحملة قد أرسل تلغرافًا إلى الوزارة البريطانية بتاريخ ١١ مارس سنة ١٨٨٥ جاء فيه « . . . أحيطوا اللورد جرانفيل علمًا بأننى لا أستطيع الانتظار وقتًا أطول، وأرى من واجبى أن أصدر اعلانًا بوصفى حاكم السودان العام، وفى حالة عدم وصول الرد على هذا الإخطار حتى اليوم الرابع عشر من مارس سوف أصدر هذا الإعلان فى حدود سلطاتى[٨٢]. ومن الطبيعى أن يكون اعلانه بتنصيب نفسه مقاليد الحاكم العام للسودان باسم حكومته «إنجلترا» لا باسم مصر، وذلك لأن إنجلترا وهى الدولة التى تحتل مصر حينذاك وتهيمن على شئونها قد عطلت سفر الأمير حسن[٨٣] أخ توفيق إلى دنقله ليتفقد الحالة ولتدعيم سلطة الإدارة المصرية. ويبدو من صيغة تلغراف ولسلى أنه مزوداً بالتعليمات اللازمة لمواجهة مختلف التطورات السياسية، وهى فى مجموعها تهدف نحو فصل السودان وعزله عن شمال الوادى وربطه بطريقة أو أخرى مع المناطق الواقعة تحت النفوذ البريطانى فى خط الاستواء غير أن المشاكل الدولية واشتداد الصراع بين المعسكرين المتنافسين انجلترا وفرنسا قد حال دون تنفيذ تلك السياسة وجعل بريطانيا تتلمس طرق ووسائل أخرى فى هذا السبيل. فنجدها فى عام ١٨٨٥م تثير مسألة الجلاء عن مصر بعد الانتهاء من مؤتمر برلين ١٨٨٤-١٨٨٥م ويذهب درمند ولف للمفاوضة مع الباب العالى، ويسافر المندوب البريطانى بصحبة المندوب العثمانى مختار باشا إلى مصر، وكل هذا كسبًا للوقت ومراقبة التطورات الدولية وبخاصة بعد سقوط الخرطوم وانسحاب القوات إلى وادى حلفا، وقد ترك إنسحاب القوات من دنقلة إلى وادى حلفا المنطقة بين الشلال الثالث ووادى حلفا التى كانت جزءاً من النوبة منذ قرون عديدة قبل قيام الكشاف العثمانيين بحكمها فى أعقاب فتح السلطان سليم لمصر.

وفى الوقت الذى كان فيه درمند ولف يتأهب للسفر من إنجلترا إلى الآستانة طلب من ولفرد سكاون بلنت أن يجمعه مع السيد جمال الدين الأفغانى، وكان اهتمام ولف فى حديثه مع

(٨٢) جوين جزء ثانى، ص١١٤.

(٨٣) مذكرات الماجور جنرال منتيج استوارت ورتلى ـ مجلة السودان فى رسائل ومدونات بند ٣٤، ص١٧٢.

السيد مركزاً فى استطلاع رأيه فيما إذا كان من المستطاع الحصول على اعتراف الدراويش بخلافة السلطان العثمانى كما أنه أوضح للسيد اهتمام بريطانيا بمسألة احلال السلام مع السودانيين وقيام حكومة مستقلة فى دنقلة تدخل فى اتفاق مع الباب العالى[٨٤] ، وربما كان هذا المنصب منصب سلطان دنقلة هو الذى أرادت الوزارة البريطانية اسناده إلى السيد جمال الدين الأفغانى الذى رفض العرض بسبب أن بريطانيا لا تملك حق التصرف فى أرض ليست من أملاكها .

وفى أغسطس من تلك السنة كانت بريطانيا تتفاوض عن طريق وكلائها غير الرسميين ومنهم ولفرد سكاون بلنت للوصول مع الدراويش فى مفاوضات على أساس نقاط ثمان ، وكان طبيعياً أن تنتهى المفاوضات بالاعتراف بالدولة الجديدة بعد قيامها على الصورة الشكلية التى أرادتها بريطانيا . وكانت هذه النقاط الثمان هى :

١ ــ اخلاء سبيل الأسرى .

٢ ــ تأمين القبائل التى اشتركت فى القتال ضد الحركة المهدية .

٣ ــ انسحاب القوات المصرية والإنجليزية إلى وادى حلفا وسواكن .

٤ ــ إخلاء سواكن ومصوع وتسليمها للباب العالى .

٥ ــ الاعتراف للإمام المهدى بالسيادة داخل حدوده .

٦ ــ إنشاء علاقات سياسية مع إنجلترا .

٧ ــ حرية التجارة .

٨ ــ الوصول إلى اتفاق لتحديد تجارة الرقيق إذا كان ذلك ممكنا[٨٥] .

وقد صيغت هذه الأسس لتجعل من السودان محمية بريطانية ، فالبند الثالث يقترح انسحاب القوات إلى وادى حلفا وسواكى والبند الرابع يسلم سواكن ومصوع للباب العالى ولم

---

(٨٤) بلنت ــ ص٤٧٤/٤٧٦ .

(٨٥) نفس المصدر ، ص٥٩٦/ ٥٩٧ ملخص خطاب سرى من بلنت إلى غلادستون .

يذكر شيئًا عن وجود القوات الإنجليزية فى سواكن بعد انتقالها للباب العالى . والبند الخامس يعترف بالسيادة للدراويش داخل الحدود ــ أى أن العلاقات الخارجية سوف تكون بيد الغير ، وذلك الغير هو إنجلترا كما جاء فى البند السادس .

وعطلت بريطانيا الأمر العالى الذى أصدرته مصر فى ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٨٥ إلى بيكر باشا فى شأن حفظ خط المواصلات بين بربر وسواكن وجاء فى هذا الأمر ما يأتى « . . . وسينضم إليكم أورط سودانيون تحت قومندانية الزبير باشا الذى لكم الرياسة عليه مباشرة فلا شك فى أنه يسهل عليكم اجتناء ثمرات ما للباشا الموصى إليه على القبائل من النفوذ المشهور[٨٦] .

تفاوض درمند ولف بعد وصوله الاستانة مع الباب العالى لعقد معاهدة لتنظيم المسألة المصرية والوصول إلى حل بشأن الجلاء البريطانى عن مصر ، ولم يكن هذا الاتجاه من بريطانيا نحو مشكلات حوض وادى النيل إلا امتداداً للسياسة التى كان على بريطانيا الأخذ بها بعد الصلاحيات التى تمت فى مؤتمر برلين ١٨٨٤/١٨٨٥م ، وقد تم الوصول إلى اتفاق تمهيدى ثم التوقيع عليه فى اليوم الرابع والعشرين من أكتوبر سنة ١٨٨٥م من كل من محمد سعيد باشا وزير الخارجية العثمانية عن الباب العالى ، والسر هنرى درمند ولف عن بريطانيا وصارت هذه الاتفاقية نافذة المفعول بعد ذلك مباشرة ، وقد جاءت هذه الاتفاقية فى سبع مواد بعد الديباجة ، وتحققت معها المرحلة الأولى للسياسة الإنجليزية وذلك بحصولها على اعتراف الباب العالى ــ وهو صاحب السيادة على مصر والأقاليم التابعة لها ــ حينذاك ــ بشرعية احتلال بريطانيا لمصر وأشارت فى الوقت ذاته بطرف خفى إلى مسألة السودان .

وتعين بموجب هذه الاتفاقية مندوبين ساميين للسفر إلى مصر للتعاون مع الخديوى بشأن اعادة تنظيم الجيش المصرى ، ولمصالحة حالة السودان ، واجراء مباحثات لتسوية المسائل المصرية بعامة ، وقد جاء المندوبان الساميان إلى مصر وقدم كل من مختار باشا المندوب السامى العثمانى والسر درمند ولف المندوب السامى البريطانى تقريره إلى حكومته[٨٧] . وبدأت بعد ذلك مفاوضات بين تركيا وبريطانيا لوضع صيغة الاتفاق النهائى الذى تم فى سبع مواد بعد

---

(٨٦) قاموس الإدارة والقضاء ــ فليب جلاد المجلد الثانى ، ص٣٠٦ .

(٨٧) الوثائق الفرنسية المصرية عام ١٨٨٤/١٨٩٣ ـ ص٧١/٤٣ .

الديباجة ومعه بروتوكولين وملحق تم التوقيع عليها فى الأستانة فى الثانى والعشرين من مايو سنة ١٨٨٧م من محمد كامل باشا الصدر الأعظم ومحمد سعيد باشا وزير الخارجية عن تركيا والسر درمند ولف عن بريطانيا .

وقد فقدت هذه الاتفاقية النهائية صلاحياتها بسبب توقف الباب العال عن التصديق عليها ، وفقًا لما جاء فى المادة السابعة تحت ضغط فرنسا وروسيا اللتان هددتا باحتلال فرنسا للشام وروسيا لأرمينيا . وفى الحقيقة وواقع الأمر أن بريطانيا لم تخسر شيئًا بسبب التوقف عن التصديق على هذه الاتفاقية ، وقد ذكر كرومر فى كتابه مصر الحديثة فى هذا الصدد ما يأتى : «أنه بالرغم من فشل هذه الاتفاقية فى تحقيق أهدافها فإن الحكومة البريطانية قد صارت فى مركز دبلوماسى عند نهاية هذه المفاوضات أحسن مما كانت عليه عند بدئها» فقد تحقق لها الحصول على اعتراف الباب العثمانى بشرعية احتلال مصر كما أنه قد برزت معها مسألة السودان فى كيان خاص يحتاج إلى مصالحة .

وقد أشارت المادة الرابعة من الاتفاقية النهائية إلى الوضع فى السودان وما فيه من ثورة تهدد أمن مصر الداخلى ، وأن هذا الوضع يتطلب اجراءات استثنائية للمحافظة على الحدود الجنوبية ـ عند وادى حلفا ـ خوفًا من تسرب الدراويش إلى شمالى تلك المنطقة ، وأخذت بريطانيا على عاتقها مسئولية القيام بهذه الإجراءات للمحافظة على الحدود إلى أن يحين الوقت الذى يتكون فيه الجيش المصرى الجديد ويتم جلاء القوات البريطانية عن مصر .

وإذا قارنا ما جاء فى الاتفاقيتين التمهيدية فى عام ١٨٨٥ والنهائية فى عام ١٨٨٧م مع ما جاء فى العرض البريطانى الذى قدمته لمندوب المهدية والذى أشرنا إليه قبل ليكون أساسًا للمفاوضات بينهما نجد أن بريطانيا كانت تهدف أولاً إلى تثبيت شرعية وجودها فى مصر ، ثانيًا الدخول فى مفاوضات مع الدراويش بشأن تسوية الموقف على أساس النقاط الثمان التى سبق ايضاحها . ولو كان قد قدر لهذه الاتفاقية النهائية النفاذ لاستطاعت بريطانيا أن تواجه فرنسا وروسيا فى مركز أقوى ، وأن هذا الفشل الجزئى جعل بريطانيا تعمل على تهدئة الحالة الدولية وأخذت فى معالجة الموقف بعقد المؤتمرات الدولية ، واشتد الصراع بين فرنسا وإنجلترا فى السنوات العشر الأخيرة من القرن التاسع عشر الميلادى كما سنبينه فى القسم التالى .

وقد يكون أول ما نعنى به بعد أن أوضحنا فيما سبق الدور الذى لعبته تلك الحركة من تطور فى مركز البلاد أن نتوفر على دراسة هذه الدعوة بالقدر الذى يتطلبه موضوع البحث الذى يتلخص فى تقصى الأسباب والعوامل الأساسية التى دفعت إلى ما وصل إليه المجتمع فى الثلاثين عامًا الأخيرة من القرن التاسع عشر الميلادى ، ولم تكن تلك الأسباب والعوامل مجتمعة إلا ظاهرة اجتماعية تشابكت أطرافها وقد استجمعت عناصرها من الحياة اليومية وتقاليدها الموروثة عن أقدم العصور . ولم تكن حالة المجتمع المحلى فى الثمانين عامًا التى تلت نهاية السلطنة السنارية إلا امتداداً لحياة المجتمع فى ماضيه القريب والبعيد متأثرًا بما دخل البلاد من نظم وأراء مستحدثة فى القرن التاسع عشر الميلادى .

ويشمل موضوع البحث الظروف التى مهدت لقيام الحركة ثم ماهية الحركة وما دخل على طبيعتها من تطورات انتقلت بها من مرحلة إلى مرحلة مع ترجمة لحياة زعيمها وخليفته وينتهى البحث بدراسة عن مركز البلاد فى الصراع الدولى الذى اشتد فى الأعوام العشر الأخيرة من القرن التاسع عشر الميلادى وامتد لأربع سنوات من أول القرن العشرين حيث استطاعت الدول من تصفية مشاكلها .

١ . الدعوة المهدية وظروفها

لقد أوضحنا أن السودان قد أخذ فى الاستقرار نوعًا ما فى نهاية الخمسين عامًا الأولى من امتداد الإدارة المصرية إلى البلاد كما أوضحنا الظروف الدولية التى أخذت فى التدخل فى شئون حوض النيل متذرعة بهذا السبب أو ذاك ، ومنذ ذلك الحين بدأت نقطة التحول فى تاريخ السودان . فقد جاء إلى خط الاستواء صمويل بيكر باشا فى ١٨٦٩م وتولى إدارته باسم الإدارة المصرية ، وخلفه غوردون باشا من ١٨٧٤ إلى ١٨٧٧م ثم تسلم غوردون حكمدارية السودان وأقاليمه من ١٨٧٧ إلى ١٨٧٩م . وكانت السياسة التى اتبعها بيكر وغوردون أثرها عميق فى الانتقال باداة الحكم من طريقها الذى كان يتمشى مع حياة البلاد والأخذ بيدها إلى التدرج فى مضمار التقدم إلى ما كان على العكس من ذلك . فانتكست حالة البلد ورجعت القهقرى

وبرزت مقومات المجتمع وتقاليده التى قد كانت فى طريقها إلى الاختفاء أمام ما أقامته الإدارة المصرية فى السنوات الخمسين الأولى من أعمالها فى السودان . فالسياسة التى أتبعها غوردون وبخاصة بعد أن أسرف فى تعيين الأجانب من مختلف الجنسيات فى المراكز الرئيسية . وقد عمل هؤلاء وهم يجهلون أو يتجاهلون الأوضاع المحلية وما تتطلبه من صفات خاصة لمعالجة مشاكلها على التنكيل بالسكان وتجاوزوا الحدود فى تنفيذ القوانين الصارمة الخاصة بالرقيق بالرغم عما جاء فى اتفاقية الرقيق بشأن تصفية هذه المشكلة كما تدخل هؤلاء بالعبث بالتقاليد والقيم الأخلاقية بدعوى نشر الحرية كما عملوا أيضًا على تقويض الأسس الاقتصادية الأمر الذى تعطلت معه الحياة اليومية ، وأحدث فجوة عميقة الغور فى المجتمع الذى تميز بطابعه الدينى الصارم ، ولم يكن من الهين الانتقال به فجأة من حال إلى حال وفى سرعة لا تتمشى مع طبيعة الأشياء ، وقد كان من اليسير على الأهلين أن يتقبلوا اسناد مقاليدهم إلى جماعات من غير المسلمين لو أخلص هؤلاء فى رعاية مرافق الشعب والمحافظة على تقاليده متسامحين لا يتدخلون فى المشاعر الدينية والحياة اليومية . فقد سبق أن تولى مديرية الخرطوم أراكيل بك وتذمر بعض الزعماء من ولاية نصرانى فقال لهم إذا كان تعيينى لا يرضيكم فأنا أترك البلاد فأعجب الزعماء بشجاعته واطمأنوا لاتجاهاته وبقى فى مركزه مرموقًا بالمحبة والاحترام غير أن الحال يختلف بتعيين غوردون الذى تميز بطابعه المسيحى المتزمت شأنه فى ذلك شأن معاصريه فى العصر الفكتورى الذى تأثر برواسب ماضى بلاده ، وكان غوردون ومعاونوه من الأجانب لهم نظرتهم الخاصة فى معاملة الأهالى الذين كانوا يرون أنهم فى مستوى دون مستوى الأوروبى ، وأن للأوروبى رسالة يتحتم على السكان قبولها فاندفعوا فى تشديدهم وصرامتهم اندفاعًا كانت من نتيجته خلق روح التذمر ، وتوالت الأحداث فى مختلف صورها وألوانها مما زاد من حالة القلق التى جعلت السكان يتطلعون إلى من يخلصهم من محنتهم التى امتدت إلى الدين كما تعطلت معها الحياة اليومية ، ولم تكن الحرية التى أرادها غوردون وأعوانه نشروها إلا تمهيدًا لخروج المجتمع عن قيمه الدينية ليتقبل التبشير بالمسيحية عندما تتمكن المدينة الأوروبية من تثبيت أقدامها والسيطرة على مصير البلد . ويقدم لنا الحديث الذى دار بين غوردون والمطران دكتور تمبل على اتجاه غوردون نحو التبشير ، فقد تكلم غوردون مع المطران عند مقابلتهما فى

اكستر عن مسألة التبشير والصعوبات التى تواجهها بسبب عدم السماح بتعدد الزوجات وسأل المطران عما إذا كانت الديانة المسيحية تصرح للمسلمين الذين يتركون دينهم ويعتنقوا النصرانية بالاحتفاظ بعدد من الزوجات يبلغ ثلاث بدلاً من أربع يجيزها الإسلام ، وكان رد المطران بأن قوانين الكنسية لا تسمح بهذا التجاوز[٨٨] .

وقد بلغت حالة القلق مرحلة حاسمة عندما أنهى غوردون حكمداريته فى ١٨٧٩م بمقتل سليمان الزبير ورجاله بعد أن قبلوا عرض غوردون لتسليم واستسلموا فعلاً إلى جسى باشا الذى أعدمهم رميًا بالرصاص فى دم بارد تنفيذاً لأمر غوردون الذى بنى حكمه على سند لم يستطع أن يقدمه إلى الزبير باشا عند مقابلتهما فى مصر كما أوضحنا من قبل ، ولكن غوردون قد استطاع التخلص من سليمان حتى لا تتعطل السياسة التى رسمها ، وهكذا تجمعت الزوبعة من عناصرها المحلية ، وزادت عليها نهاية الحركة الوطنية فى مصر وتشريد زعمائها عرابى ورفاقه .

وكان لزامًا أن يخرج الزعيم من بين صفوف الشعب لقيادة الحركة كما كان لزامًا أن يكون لذاك الزعيم مقامه الدينى الذى يعد بثواب الجنة . ومقام الشهداء الأبرار الذين جاهدوا فى سبيل نصرة الدين ، وقد وجد الشعب ذلك الزعيم فى شخص فقيه أخذ قسطًا من العلوم الدينية تجاوبت مشاعره مع إحساس الأهلين ، وكان ذلك الزعيم هو الإمام محمد أحمد الذى تغلبت عليه حياة الزهد والتصوف والاعتكاف وكان مقصد أصحاب الشكاوى والمظلومين ليشفى جراحهم فذاع صيته بين الشعب القلق المتذمر بسبب الخلاف الذى قام بينه وبين شيخه الشيخ محمد شريف نور الدايم ومما يجدر ذكره أن الإمام المهدى قد صرح لشيخه المذكور فى عام ١٨٧٨م بأنه المهدى المنتظر فجاء إليه تاجر اتهم بتجارة الرقيق أو فى تجارة مشروعة وألهب جسده بالسياط وصودرت أمواله ، ومواطن عادى ألقيت على كاهله أعباء أموال الحكومة التى وزعت توزيعًا غير عادل بسبب الاعفاءات التى منحها غوردون لبعض الجماعات على حساب المجموعة من السكان . وأوصدت أبواب العدالة فى وجه أصحاب الشكاوى ، ووجد الأهلون فى هذا الفقيه متنفسًا لكربتهم ولتحقيق الانتقام والأخذ بالثأر لما أصابهم على يد غوردون ومن ظاهره فى إدارته ، وقد اعتبر كل من تعاون مع غوردون خارجًا عن الدين وجبت

---

(٨٨) ورثام ، ص٢٧٦ .

محاربته ، وهذه الحالة تصور لنا مدى الأثر الذى تركه الظلم فى النفوس وهكذا أخرج الشعب الإمام المهدى إلى العمل بعد أن تهيأت الظروف المواتية لذلك . وبطبيعة الحال لم يسبق الإمام المهدى الأحداث ويوجهها تحقيقًا لرسالته ، والحقيقة وواقع الأمر أن الأحداث هى التى وجهته وخلقت منه زعامته .

وكانت الدعوة التى ظهرت فى الثوب الدينى التقليدى الذى يتمشى مع طبيعة البيئة المحلية قد تسلمها الزعيم المرتقب ، وليس لنا فى هذا الموضع أن نناقش الفكرة ـ فكرة المهدى من ناحيتها الدينية الباطنية ، فهذه الفكرة قديمة ترجع إلى أقدم العصور ، وقد دخلت هذه الظاهرة فى المجتمع الإسلامى ، وأخذت فى الظهور بين الفينة والفينة متكيفة بالظروف المحيطة بها ، وكانت ركنًا أساسيًا فى الشيعة قامت عليها فكرة الإمام المختفى «أو المكتوم» وقد عرف هذا الإمام «بالمهدى» ليتمشى فى ذلك مع التكليف الذى حض عليه الإسلام بالدعوة إلى اتباع الدين التى تقوم على بناء مجتمع سليم راسخ القواعد يؤدى رسالته فى الحياة على الوجه الذى حددته الرسالة الإسلامية . وقد حض الدين قادة الرأى من العلماء وغيرهم بأن فرض عليهم القيام بهذا الواجب حيث جاء فى الكتاب الكريم «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وأؤلئك هم المفلحون» (آل عمران) .

ومن هذا يتضح لنا أن دعوة الإمام المهدى فى السودان لم تكن إلا استجابة لمشاعر الأهلين التى انطبعت بما تركه حكم الأوروبيين من أثر سيء ، وكان لتلك المشاعر انعكاساتها التى تمثلت فى شخصية الإمام المهدى وطبيعته الدينية . فالتفوا حوله وناصروه وبخاصة فى المناطق الواقعة فى دار غرب والنيل الأزرق وهى المناطق التى كانت تعتمد اعتمادًا كليًا فى اقتصادياتها على الرقيق فى القيام على الأرض والرعى والخدمة البيتية ألخ ألخ . ولم يكن من السهل معالجة الرقيق دون أن تعطى للمجتمع الفرصة الكافية لتعديل نظمه . وقد طاف الإمام المهدى البلاد من أقصاها إلى أقصاها ولمس ما اختلج فى قلوب الأهلين من روح التذمر واليأس على يد أولئك الفرنجة ، ومن عاونهم من الوصوليين ، ومن هؤلاء من وصل إلى رتب عسكرية عالية بحكم الوظائف الإدارية التى أوكلت إليهم ، وكان لهذا الخليط العجيب أثره فى إضعاف الجهاز الإدارى وتسرب الفساد إلى صميمه مما جعله عاجزًا عن القيام بواجباته من المحافظة على أمن

البلاد ورفاهيتها ، فتهيأت بذلك الفرصة المناسبة ليعلن الإمام المهدى رسالته لمحاربة الإدارة الأوروبية ، وما كان للحركة المهدية أن تسلك طريق العنف لولا الظروف السيئة التى جعلت مقاليد الحكم فى يد الفرنج مما جعلها تنحرف عن طريقها الدينى إلى العنف والقتال . ولو كانت فى البلاد إدارة تقدر الظروف المحلية وتهدف فى أعمالها إلى خدمة الشعب لكان لها أن تستنفذ أهدافها فى طريق سلمى ، والدليل على ذلك قائم فيما سبق أن ذكرناه عن الفترتين اللتين كانت فيها تقاليد الحكم فى يد السلطة السنارية وفى الخمسين عامًا الأولى من امتداد الإدارة المصرية إلى السودان .

وقصة الحركة المهدية فى السودان التى نادى بها الإمام محمد أحمد فى حاجة قوية لدراستها دراسة عميقة لما لها من صلة بالمجتمع الإسلامى بصفة عامة وبالسودان بصفة خاصة . فهذه الحركة لها طابعها الخاص ولها ظروفها المحلية التى يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار عند معالجتها . ومازالت تنقصنا الوثائق المحلية الأصلية لتحقيقها تحقيقًا علميًا سليمًا وتنقيتها من الشوائب التى قد لحقت بها من أقلام الكتاب من الأوروبيين الذين عملوا على تصوير تلك الحركة بما كان يدور فى أفكارهم التى لم تكن فى حالة من الأحوال تعبر صادقة عن الحال . وقد أضفى هؤلاء الكتاب على هذه الحركة من خيالهم الأمر الذى ترك أثره فى أذهان الكثيرين بأنها كانت قطيعة بين شطرى الوادى ، وهذا لم يكن له وجود فى تفكير الإمام المهدى بل بالعكس كان يهدف نحو تحرير دار الإسلام من النفوذ الأوروبى(٨٩) والتعاون بين المسلمين . وهنالك وثائق كثيرة مبعثرة هنا وهناك(٩٠) . ونعتقد أن الوقت قد حان لجمعها لتكون فى متناول

---

(٨٩) جاء فى جورنال الحوادث الذى كتبه اللواء محمد نصحى باشا عندما كان فى شندى فى انتظار حملة أنقذ غوردون ، ما يأتى فى حوادث الخميس ١١ محرم سنة ١٣٠٢هـ « . . . فلا يليق بأيمانكم أن تجعلوا أمامكم الغردون الكافر الذى لا شبهة فى كفره وأنتم مغرونين به ، ومنتظرون المدد من الإنجليز ، وهم أعداء الله ورسوله وأعداء المؤمنين مع علمكم ببعدهم عنكم . . . ويا حضرة الباشا ومعشر الضباط والعساكر إن كنتم الجميع من بر مصر فتذكروا عدوان الإنجليز إليكم وما جرا لعرابى معهم وتملكهم على بلادكم وأراضيكم وخراجانكم . . .» هذه قد وردت ضمن الكتاب الذى وجهه امراء المهدية الذين كانوا فى منطقة شندى إلى اللواء محمد نصحى باشا .

(٩٠) دائرة المعارف الإسلامية طبعة سنة ١٩٥٣ ـ الكراسة الأولى ـ ترجمة الخليفة عبد الله التعايشى بقلم هللسون الذى أوضح أن توجد حوالى الخمسمائة والألفين من الوثائق الخاصة بالمهدية والتى وضعت عليها إدارة السودان يدها بعد موقعة أم درمان .

الباحثين ليتمكنوا من كتابة تاريخ صحيح له ما له وعليه ما عليه ، وللافادة من ذلك فى معالجة مشاكلنا الكثيرة ، فالمنشورات التى أصدرها الإمام المهدى لم تجمع بعد فى صورة كاملة مرتبة ترتيبًا زمنيًا وتعمل لها قوائم موضوعية توضح لنا مراحل تطور طبيعة الرسالة والظروف التى أحاطت بكل حالة ، وهذه سوف تترجم لنا فى صورة واضحة الأحداث والملابسات .

والإمام المهدى كما هو معروف لم يعمر طويلاً بعد وصوله إلى الخرطوم واتخاذه أم درمان مركزاً لإدارة أعماله فلم تتح له الفرصة الكاملة لإرساء قواعد جديدة لرسالته ، وانتقلت ولاية الدعوة من بعده إلى يد الخليفة عبد الله التعايشى الذى واجه أكثر من مشكلة اقتنصت كل جهوده ونشاطه لمعالجتها ، ولا يفوتنا أن نذكر أن الحركة المهدية قد أثارت حفائظ الكثيرين من رجال القبائل وغيرهم ، وقد لعب بعض هؤلاء دورًا هامًا فى إذكاء الفتنة والدسائس كما عملوا على توسيع شقة الخلاف بين الخليفة عبد الله وأقارب المهدى . وفى الواقع أن هذه الدسائس لم تكن إلا مظهراً من مظاهر الصراع الخفى بين المهدية والكارهين لتنظيماتها التى حرمتهم الكثير مما كانوا يزاولونه من نشاط .

وهنالك مسألة العلاقات الخارجية ، فقد كانت بريطانيا كما ذكر بلنت فى كتابه «غوردون فى الخرطوم[٩١]» كانت مهتمة بهذه القضية على طريقتها التقليدية لاكتساب الوقت ومراقبة الحال وتطوراته عن كثب بما تستجمعه من معلومات من مبعوثى المهدية ، وقد بدأت المفاوضات فعلاً عن طريق السيد جمال الدين الأفغانى وأن شروطًا قد عرضت لتكون أساسًا للمفاوضات للوصول إلى اتفاق على النحو الذى سبق أن أشرنا إليه ، وكانت هنالك علاقات بين النجاشى منليك ـ أمبراطور أثيوبيا والخليفة عبد الله وكانت وراء أثيوبيا فرنسا كما سنتعرض له فى القسم الثانى . كما أن ملك الأنيورو قد أرسل بعثة إلى السودان[٩٢] عندما وصلت إليه أخبار انتصارات زعيم البلاد على الرجل الأبيض (الإنجليز) وكان هدف هذه البعثة الحصول على مساعدة ذلك الزعيم لطرد الإنجليز من أوغندا ، وقد حجز هذه البعثة عامل الخليفة عربى دفع الله فى الرجاف وكانت الحال فى السودان قد قاربت نهايتها .

---

(٩١) بلغت ، ص٥٩٦ .

(٩٢) تقرير المخابرات السودانية رقم ٩٦ ـ نقلا عن مجلة أوغندا ، مجلد ١٩ مارس سنة ١٩٥٥/ ٩٤ .

اختلفت الرواية فى تاريخ مولده[٩٢] ، فنعوم شقير يقول أنه قد ولد بجزيرة «لبب» (فى دنقلة) فى عام ١٨٤٢م وذكر إبراهيم فوزى ولد المهدى فى عام ١٨٤٢م بجزيرة الخناق ، وفى قول يؤيده السيد عبد الرحمن المهدى أن الإمام المهدى قد ولد فى الأسبوع الثانى من شهر أغسطس سنة ١٨٤٤م وينتمى إلى بيت الولى نجم الدين (المدفون فى القاهرة) وقد خرج من هذه الأسرة أكثر من فقيه اشتهروا بالعلم والولاية أضرحتهم مازالت قائمة وبخاصة فى أسوان وبلاد النوبة السفلى وتعرف الشعبة التى ينتمى إليها بالعون اللاب نسبة إلى «عون الله» وهو الابن المباشر لنجم الدين ـ ويسكن هؤلاء فى شمال النوبة السفلى وفى أسوان ولا يعلم على وجه التحديد الظروف التى دفعت هؤلاء إلى الانتشار جنوبًا ، وفى أى الفترات ، وكان والد الإمام المهدى يشتغل بالنجارة فى صناعة المراكب والسواقى ، وقد أنجب خمسة أبناء منهم أنثى واحدة وأربعة ذكور اشتغل ثلاثة منهم فى صناعة المراكب أما رابعهم فهو «محمد أحمد» فقد ذهب إلى الكتاب وحفظ القرآن ودرس الفقه والتوحيد والتصوف فى خلوة (كتاب) الفقيه الهاشمى بالقرب من كررى (شمال أم درمان) ثم انتقل إلى خلوة الشيخ محمد الشنقيطى ثم إلى خلوة الشيخ الأمين الصويلح بمسيد (مسجد) ود عيسى ثم إلى خلوة الشيخ الأمير ، وذهب بعد ذلك إلى الفقيه الشيخ محمد الضكير (استبدله المهدى بالخير) فى الغبش (فى بربر) نخرط فيما بعد فى سلك تلاميذ الشيخ محمد شريف نور الدايم فى عام ١٢٧٧هـ (١٨٦٠/ ١٨٦١) ، وبقى حوارًا (تلميذًا) لهذا الشيخ ما يقرب من العشرين عامًا .

فقد جاء فى قصيدة نظمها الشيخ محمد شريف نور الدايم ما يلى :

لقـد جـاء فى عـام زع[٩٣] لموضع ... على جبل السلطان[٩٤] فى شاطئ البحر

---

(٩٢) قال الإمام المهدى فى نسبه الآتى :

محمد المهدى بن عبد الله بن عبد الله بن فحل بن عبد الولى بن عبد الله بن محمد بن حاج شريف ابن على بن أحمد بن على بن حسب النبى بن صبير بن النصر بن عبد الكريم بن حسين بن عون الله ابن نجم الدين (المدفون فى القاهرة) بن عثمان بن موسى بن أبى العباس بن يونس بن عثمان بن يعقوب ابن عبد القادر بن الحسن العسكرى بن علوان بن عبد الباقى بن صخرة بن يعقوب بن الحسن السبط ابن الإمام على بن أبى طالب .

(٩٣) عام زع بحساب الأبجدية ٧٧ (١٢)هـ (١٨٦٠/١٨٦١)م .

(٩٤) جبل السلطان شمالى كررى ـ أم درمان .

يروم الصـراط المسـتقـيم على يدى فـبـايعـتـه عـهـدًا على النهى والأمـر
فـقـام على نهج الهـداية مـخلصًـا وقـد لازم الأذكـار فى السـر والجـهـر

إلى أن يقول :

وكـان لدينا عـيـشـة صـدقـاتنا وخـادمنا عـشـرين عـامًـا من العـمـر
إلى الخمس والتسعين[95] أدركه القضاء على مـاضـى فى سـابق العلم بالشـر
بصـحـبـة شـيطان من الجن ايس وشـيـطان انس وافـقـاه على الضـر

وقال :

فـقـال أنا المهـدى فـقلت له استـقم فـهـذا مـقـام فى الطريق لمن يدرى
وخـادعنى بالقـول كـالمهـد ابنكم ومـحـسـوبكم فى الحب فى عـالم الذر
فـقم بى لنصـر الدين نقـتل من عـصـا فـأنت لك الكرسى ولى دول الغـيـر[96]



وقد أكد الشيخ محمد شريف مقرر الدايم لنعوم شقير فى عام ١٨٩٨م (بعد فتح أم درمان) أن سبب العداء بينه ومحمد أحمد مرجعه إلى أن قد نهاه عن دعوته بالمهدية وقد أنكر أنصار المهدى هذا القول كما ذكر شقير[97] ويقولون أن أصل العداء هو انصراف الناس عن محمد شريف وميلهم إلى محمد أحمد بالعقيدة والاتباع ويبدو أن القول بأن سبب الخلاف بينهما بسبب الأفراح التى أقامها الشيخ محمد شريف بمناسبة ختام الأولاد والرقص والموسيقى يحتاج إلى دليل . وسواء كان هذا أو ذاك فإن الشيخ القرشى من مشايخ السمانية[98] المناوئين للشيخ محمد شريف قد أجتذب محمد أحمد إليه وأكرم وفادته ، وأشاع أن محمد أحمد قد انفصل عن شيخه الذى خالف الشريعة والسنة لما بين الشيخين من جفاء .

ومما تقدم ذكره نجد أن فكرة الدعوى المهدية قد راودت محمد أحمد فى عام ١٢٩٥هـ (١٨٧٨م) وتميزت هذه السنة بالذات بمكاشفة صاحب الدعوة لشيخه محمد شريف نور الدايم

---

(٩٥) عاش ١٢٩٥هـ = ١٨٧٨م .
(٩٦) أنظر القصيدة بأكملها فى نعوم شقير جزء ثالث ص ١١٧/١١٦ .
(٩٧) أنظر المصدر السابق ، ص١١٨ .
(٩٨) مؤسسها الشيخ الطيب ود البصير وكانت بينه وبين الشيخ محمد شريف مودة مفقودة .

بأنه المهدى ، وقد نهاه شيخه عن ذلك كما تميزت بقيام الفقيه إدريس ومعه جماعة من أنصاره باعلان العصيان على الحكومة التى أرسلت باخرة حربية فتكت به وشتت رجاله وقتل الفقيه فى القراصة (على النيل الأبيض جنوبى الخرطوم) ثم أرسل غوردون لأخته بما يفيد أن السودان قد بدأ يتهيأ للخلاص من الحكومة واسترداد حريته ـ وغوردون كما معلوم كان حكمدارًا للسودان من ١٨٧٧ إلى ١٨٧٩م . وأن الخطة التى سار عليها فى حكومته فى تلك الفترة قد هيأت التربة الصالحة لظهور الدعوة الإصلاحية وقد ذكر الشيخ محمد شريف فى قصيدته أنفة الذكر أن الأمام المهدى طلب من شيخه المعونة لنصر الدين وعرض على شيخه أن يكون له الكرسى الرئاسة ويقوم هو بالعمل ـ ومن هنا بدأ جانب من الصراع الذى أشرنا إليه من قبل .

وإذا رجعنا إلى الكتاب الأول كما أجمعت الروايات المحلية ، والذى وزعه الإمام سرًا بين أصحابه والأخصاء من رجال القبائل والفقهاء نجد أنه قد صرح يدعواه بالمهدية وطلب إليهم الهجرة والانضمام إليه فى حركته الإصلاحية الدينية ، ومبايعته على الجهاد فى سبيل ذلك وكان ذلك الكتاب فى التاسع والعشرين من يونيو من عام ١٨٨١م أى بعد ثلاثة أعوام تقريبًا من أول حديث له مع شيخه عن مهديته أما هذه الدعوة فقد أخذت مظهرها العلنى بعد لقائه بالسيد عبد الله التعايشى الذى قال له يا سيدى أنا عبد بن محمد تورشين من قبيلة التعايشة البقارة ، وقد سمعت بصلاحك فى دار الغرب فجئت لأخذ الطريقة عنك ، وكان لى أب صالح من أهل الكشف وقد قال قبل وفاته أنك ستقابل المهدى وتكون وزيره ، وقد أخبرنى بعلامات المهدى وصفاته ، فلما وقع نظرى عليك رأيت فيك العلامات التى أخبرنى بها والدى بعينها ، فابتهج قلبى لرؤية مهدى الله وخليفة رسوله[(٩٩)] ، فالحركة المهدية بدأت فى أولى مراحلها كظاهرة اجتماعية تحكم فيها الطابع المحلى للمجتمع إلا أن هذه الحركة قد تأثرت بالأحوال السياسية العامة وبمجريات الأحداث فى السودان وما أصاب الأهالى من تنكيل وصرامة فى تنفيذ القوانين والطلبة (تسخير الأهالى للقيام بأعمال لسداد مال المالى وإلى ما غير ذلك) .

رأى الإمام المهدى من نفسه القيام بدعوته الإصلاحية واشتبك مع شيخه فى نزاع فى هذا الصدد وانفصل عنه فى ذلك العام . وذهب إلى الشيخ القرشى ود الزين وهو من المشايخ لطريقة

(٩٩) نعوم شقير تاريخ السودان جـ ٣٠ ، ص١٣٠ وما بعدها .

السمانية أيضًا . وقد توفى هذا الشيخ بعد زمن وجيز من زيارة الإمام المهدى له . وخرج الإمام فى طوافه فى البلاد السودانية ، وكان لما رآه من تدهور بالغ الأثر فى نفسه ما اهتزت معه مشاعره ولما عاد لبناء قبة شيخه الشيخ للقرشى تقابل مع السيد عبد الله التعايشى كما أشرنا من قبل ، واختار الإمام الجزيرة «أبا» التى اتخذ فيه غارًا للعبادة مركزًا لدعوته الجديدة ويرجع اختياره لهذه الجزيرة إلى موقعها بالنسبة لغرب السودان (كردفان) وفيها الموطن الصالح لنشر دعوته لأن هذه كانت بيئة بدائية وأصاب المجتمع فيها الكثير من المحن بسبب النخاسة وما إقترن بها من تنكيل واضطهاد وإرهاب الأهلين .

وقد بدأ الإمام المهدى رسالته بوصفه «مهدى رسول الله» ثم صار «المهدى المنتظر» ثم انتهى إلى «إمام الزمان» وجاء بعد وفاته آدم محمد البرقاوى فى عام ١٨٨٧ وادعى أنه «نبى الله عيسى» وظهر من بعده «النبى عيسى» فى دار تامة فى عام ١٨٩٥م وتأتى مرتبة نبى الله عيسى بعد ظهور المهدى المنتظر .

وكانت أولى هزائم الحكومة فى جزيرة «أبا» نقطة تحول فى الحركة المهدية فقد ترك الجزيرة إلى مهجره فى جبل قدير (جنوبى شرقى كردفان) واتخذ من هذه المنطقة مركزًا لإدارة حركته . وهى الملجأ الطبيعى لبسط نفوذه ونشر دعوته وهنالك التف حوله المناؤون للحكومة .

وبقى الإمام المهدى فى منطقة جبل قدير فترة من الزمن يرتب فيها شئون رسالته ، ويرسل الدعاة إلى مختلف المناطق والأقاليم كما كان يرقب نشاط الحكومة المركزية التى كان فى غاية من الضعف والخور بسبب تطور الأحداث فى مصر والتى انتهت بالحركة العرابية ونزول الإنجليز فى البلاد وصار ضغطها على رجال الحكومة فى مصر أمرًا واجب التنفيذ وكانت الإدارة فى السودان لا تقدر الموقف وخطورته وصارت تعالجه فى صورة إن دلت على شىء فإنها تدل على جهل فاضح فكانت ترسل التجريدات دون أن تعنى بدراسة تفصيلية لما قد تواجهه تلك الحملات من صعوبات ووضع الخطط الكفيلة بمواجهة تلك الصعوبات فكان طبيعيًا أن ينتهى أمر تلك الحملات إلى الفناء .

وعمل الإمام المهدى بعد توطيد سيطرته فى تلك المنطقة على تنظيف الجيوب المعادية لحركته فى داخل نطاق هذه المنطقة وهى جبل الجرادة الذى رفض أهله قبول الدعوة فى أول

الأمر ثم باره والطيارة وغيرها من المراكز التى كانت فيها حاميات مصرية ، والدلنج التى كانت فيها محطة تبشيرية مسيحية واتجه بعد ذلك صوب الأبيض التى استولى عليها بعد قتال مرير فى ١٧ يناير سنة ١٨٨٣م . كما أنه راسل السيد محمد المهدى السنوسى ليقبل دعوته وليشغل كرسى عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وطلب منه الحضور إلى السودان أو القيام فى جهته والغارة على مصر . وقد أرسل السنوسى رسولاً من قبله ليستطلع جلية الأمر وعاد الرسول بعد مقابلة الإمام المهدى فى الأبيض . ولم نسمع شيئًا بعد ذلك عن علاقته مع السنوسى . كما أن الإمام قد أرسل إلى السلطان رابح فضل الله[١٠٠] طالبًا منه العودة من بلاد الغرب إلى السودان . وحدثت مشاكل داخلية بين كبار رجال المعسكر المهدى ومنها ما حصل مع ود المنة وغيره من الزعماء المحليين ومقتلهم . وقد اختلفت الرواية فى أسباب مقتل ود المنة فإبراهيم فوزى يقول أن الإمام والخليفة عبد الله قد خشيا من مطامعه فتخلصا منه بتدبير قتله[١٠١] وفى قول مندوب الخديوى توفيق الأميرالاى أحمد بك حمدى أن ود المنة قد أغار على القافلة التى كانت محملة بغنائم الأبيض والتى كانت فى طريقها إلى جبل قدير[١٠٢] لأنه وجد أن الإمام المهدى لم يعطه نصيبًا منها .

وأخذ الإمام المهدى فى إعداد جيوشه إستعداداً لمواجهة ماقد ترسله الحكومة من قوات لقتال ، واشتبك مع هكس فى موقعة شيكان التى هزمت فيها الحملة وفنيت عن آخرها ، وبعدها استسلم سلاتين مدير دارفور وفى أوائل عام ١٨٨٤م استسلم لبتن مدير بحر الغزال ، وأرسل قوة لمناوشة أمين باشا فى خط الاستواء ، وبعد أن استتب له الأمر فى كردفان ودارفور وبحر الغزال ، وبعد ما اطمأن من ناحية خط الاستواء أعد حملته إلى الخرطوم . وقد انتقلت الحركة المهدية بعد سقوط الخرطوم إلى نهاية المرحلة الأولى وبداية مرحلة جديدة ، وهى مرحلة تأسيس جهاز للإدارة . وكما سبق أن أشرنا أن التنظيمات التى فرضها الإمام المهدى لارساء قواعد رسالته قد أثارت حفائظ بعض زعماء القبائل وغيرهم ، ودخل بذلك فى صراع خفى لم

(١٠٠) جاء السلطان رابح فعلاً غير أنه رجع بعد وصوله إلى حدود دارفور عندما سمع بوفاة الإمام المهدى .

(١٠١) فوزى جزء ثانى ، ص١٦٥ .

(١٠٢) يوميات الأميرالاى أحمد بك حمدى .

تشتد وطأته إلا بعد انتقال الامام المهدى إلى الرفيق الأعلى ، وتسلم الخليفة التعايشى أمر الرسالة ، فبدأت الغيرة والحسد كمظهر من مظاهر الصراع الخفى تثير الفتن والشكوك ، وانقسمت الصفوف وأشتد الكرب والجماعات وتفشت الأمراض وصار الخليفة يواجه كل يوم مشاكل جديدة ، واختفى معها الهدوء والاستقرار ، فاستعان الخليفة بأهله من البقارة وقد زاد هذا الاجراء الأمور تعقيداً وكثرت القلاقل ، وبدأت خيوط الاستعمار فى العمل ، وانجلترا كانت تخشى إنهيارًا مفاجئًا لسيطرة الخليفة قبل أن تستعد مصر ـ على حد قول السياسة البريطانية لاعادة الأمن والنظام فى السودان ، وكانت هناك أيضًا أثيوبيا تحاول التحالف مع الخليفة ومن ورائها فرنسا ، وهدف هذا التحالف مقاومة تقدم الانجليز نحو حوض ا لنيل الأعلى وأرسلت فرنسا حملاتها المتتابعة إلى حوض بحر الغزال لاحتلاله والاتصال بالخليفة وحكومته فى تحالف يربطه بفرنسا . وكانت انجلترا ترقب هذا النشاط الفرنسى الأثيوبى الذى زادت خطورته على مصلحتها بعد هزيمة الطليان فى عدوة . وقد حطمت هذه الهزيمة الجناح الذى أقامته إنجلترا من الطليان فى شرق السودان وشمال أثيوبيا ، فصار الطريق معبداً أمام فرنسا وحلفائها للتوغل فى حوض النيل الأعلى وفى أثيوبيا ولتحقيق هدفها فى إقامة حائط يشق أفريقيا الوسطى من المحيط الأطلسى إلى البحر الأحمر يعترض الخطة البريطانية التى كانت تريد امتداد سيطرتها من الجنوب إلى حوض وادى النيل ـ فأسرعت بارسال الحملة المصرية إلى السودان وادى النيل باسم مصر ، وانتهى القرن التاسع عشر الميلادى بانهيار سيطرة الخليفة ومقتله وقيام حكومة إدارية من نوع آخر ، وقد شهدت السنوات العشر الأخيرة من القرن التاسع عشر نهاية صراع طويل مرير بين فرنسا وانجلترا كما سنبينه فى القسم التالى .



مركز السودان
والصراع الدولى فى
حوض وادى النيل

مَعالم تاريخ سُودان وَادى النيل



تمهيد

أوضحنا فى أكثر من موضع فيما سبق مركز حوض النيل فى الاستراتيجية الدولية وصراع الدول الاستعمارية لتنفرد إحداها بالسيطرة على هذا الجزء من القارة الأفريقية الذى كان وثيق الصلات بين الشرق والغرب بعامة وبين أقاليم البحر الأبيض المتوسط بخاصة ، وترجع تلك العلاقات إلى أقدم العصور التاريخية . ويهمنا فى دراستنا هذه أن نتعرف على مراحل التطور فى الصراع بين الدول واتجاهها نحو القارة الأفريقية ، فقد بدأ الصراع مرحلته الأولى فى القرون الست التى سبقت القرن التاسع عشر الميلادى مستمداً جذوره من الحروب الصليبية والتطور الزراعى وماتبع ذلك من نمو الدول الأوروبية وتقدم الصناعات . وقد تميز التوسع الأوروبى بالطابع الذى أخفى بين جنباته العوامل الاقتصادية لانتزاع الاحتكار التجارى من يد المماليك فى مصر وشرق البحر الأبيض المتوسط ، وهما حلقة الاتصال بين الشرق والغرب .

اتجه الأوروبيون من الفرنسسكان والدومنيكان خلال القرن الثالث عشر الميلادى صوب أفريقيا الصغرى «تونس والجزائر ومراكش» حيث تسامح المسلمون القائمون على الأمر وأذنوا لهم بتأسيس مراكز للتبشير . وكان ذلك والحروب الصليبية تدور رحاها فى شرق البحر الأبيض المتوسط . ويبدو أن هذه الجماعات التبشيرية قد جاءت إلى هذه الديار وتخفى وراءها أغراضاً سياسية أكثر منها تبشيرية . والغالب على الظن أنهم كانوا يعنون فى الابقاء على القطيعة والفرقة بين مسلمى هذه المنطقة وبين مسلمى شرق البحر الأحمر المتوسط حتى لاتتكتل القوى لمقاومة السيطرة الأوروبية التى حمل لواءها الباباوات .

وجاءت فى أعقاب المبشرين جماعات من التجار الأوروبيين من المسيحيين واليهود واشتغلوا فى تجارة الذهب والعاج وغيرها من السلع التى تنقلها القوافل عبر الصحراء إلى موانىء البحر

الأبيض المتوسط فى أفريقيا الصغرى . ويصور لنا تسامح المسلمين لونًا من الفرقة المذهبية والاجتماعية التى جعلت المجموعات الإسلامية فى الجانب ا لغربى من أفريقيا فى عزلة عن مجريات الأحداث فى شرق البحر الأبيض ا لمتوسط ، وهذه الأوضاع العميقة الجذور فى المجتمع الإسلامى جديرة بالبحث والتحقيق .

فالدين الإسلامى لم فى يكن فى حال من الأحوال مسئولاً عن هذه الأوضاع لكنها هى الطبيعة البشرية فى مقوماتها القبلية التى لم تتأثر بالروح الإسلامية التى تدعو إلى الوحدة المتماسكة .

وتوالت بعد دخول المبشرين والتجار البعثات المتلاحقة للكشف عن ساحل أفريقيا الغربى لغرض تحويل التجارة بعيداً عن الشرق الأوسط (شرق البحر الأبيض المتوسط) وللوصول إلى أثيوبيا الدولة المسيحية التى ترامت أخبارها إلى أوروبا . وكانت المسيحية الأوروبية تهدف من وراء وصولها إلى أثيوبيا إلى توطيد العلاقات لعقد محالفات دينية مسيحية لمحاربة المماليك المسلمين فى مصر والدولة العثمانية فيما بعد [(١)] .

وقد أصاب النشاط الكشفى فى أفريقيا جمود نسبى القرن الثامن عشر الميلادى بسبب منافسات الأوروبيين فى السباق للسيطرة على الأراضى الأمريكية لاستغلالها فى الزراعة . واشتد الطلب على الأيادى العاملة للقيام بالزراعة فى الممتلكات الجديدة عبر المحيط الأطلسى ، وقامت على الشاطئ الغربى لأفريقيا سلسلة من المحطات لصيد الرقيق وتصديره وقد بلغت هذه التجارة الشائنة ذروتها فى ذلك القرن وبدأت بعض الدول الأوروبية تشعر بوخز الضمير ، ومن ورائه العوامل السياسية كما أوضحناه من قبل .

وشهد القرن التاسع عشر الميلادى تطوراً فى الاتجاهات نحو التوسع تحت ضغط التقدم الصناعى والاقتصادى ، وتدفق الأموال الأوروبية وبرزت عناصر جديدة فى الحقلين الاقتصادى والسياسى ، فالسلطة كانت وقفا على طبقة الاشراف والنبلاء ودخلت مع تقدم الصناعة طبقة من العامة ارتفعت بثرائها كنتيجة لنشاطها الصناعى إلى مستوى اضطرت معها حكوماتها لكى تفسح المجال أمام المجدين من الطبقة الجديدة للدخول فى سلك الوظائف العامة الكبرى التى

---

(١) راجع ص١٢ وما بعدها من الكتاب الأول من هذه الدراسة .

كانوا محرومين منها فى الماضى كما أنها سهلت لهم الوصول إلى مراتب النبلاء والأشراف . ونجد هذا الاتجاه بارزًا فى بريطانيا .

وقد تأثر التوسع الأوروبى إلى حد كبير فى طبيعته وفى سيكولوجيته بما ورثته كل من الدول الأوروبية عن ماضيها القريب والبعيد ، وبما اكتسبته فى تطاحنها مع منافسيها خلال القرون التى سبقت القرن الثامن عشر ونجد أثر الكنيسة واضحًا فى المراحل الأولى من التوسع الذى قام بالتمهيد له نفر من رجال الدين والمغامرين الذين اتخذوا من الدين ستارًا لهم ، وقد تبلورت الأفكار فيما بعد واصطبغت بالحاجة الاقتصادية التى اكتسبتها من التوسع الصناعى ، وظهور طبقة جديدة من أصحاب الثراء متأثرة فى ذلك بعوامل ثلاث هامة ظهرت بين الدول الأوروبية وهى «أولا» التطور الصناعى واستخدام البخار والكهرباء ، ثانيًا ظهور القوميات والملكيات ، ثالثًا إشراك الشعوب فى الحكم ـ الديمقراطية . وقد تطورت هذه العناصر بالأوضاع القديمة ، فأخرجت الأمم من تعريفها الضيق الذى كانت تراعى فيه مصلحة النبلاء والأشراف وغيرهم من أصحاب الاقطاع إلى المجال الدولى ، واستخدمت الوسائل العلمية فى استثمار الأرض وغلاتها وأخذت التقاليد القديمة فى الزراعة فى الاختفاء ، وأخذ النشاط الصناعى فى الازدياد .

وقد كانت بداءة مراحل الصراع الحديث بنشاط بريطانيا لمقاومة الروح الثورية التى نشرتها فرنسا فى القارتين الأوروبية والأمريكية الأمر الذى سبب متاعب لتلك الدولة ، فكان أن عملت على تبديد أحلام فرنسا فى بسط نفوذها فى الأراضى الواطئة[٢] فاتجهت فرنسا إلى الشرق الأوسط لتضرب إنجلترا ضربة قوية بتهديد مواصلاتها التجارية مع الشرق وكانت الخطة التى جاءت الحملة الفرنسية لتنفيذها تتلخص فى احتلال مصر شُق قناة بين البحرين الأحمر والأبيض المتوسط لبسط سيطرة فرنسا على حوض البحر الأحمر وجعله خالصًا للملاحة الفرنسية ، واستطاعت إنجلترا بقوة أسطولها البحرى ووسائلها الديبلوماسية إخراج الفرنسيين من مصر بعد احتلالها بما يقرب من الثلاث سنوات ، وهكذا استطاعت إنجلترا أن تبدد أحلام فرنسا مرة أخرى .

---

(٢) كوبان ـ السفراء والبعثات السرية يقدم لنا دراسة عن الوسائل والأساليب التى اتبعتها إنجلترا فى صراعها الخفى لوقف النفوذ الفرنسى .

ومن الجدير بالملاحظة أن فرنسا قد نزلت فى أرض مصر فى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى وخرجت منها فى السنة الأولى من القرن التاسع عشر ، وظهرت فرنسا فى مثل التاريخ من نهاية القرن التاسع عشر فى حوض النيل الأعلى وخرجت منه أيضًا بعد ذلك بثلاث سنوات تقريبًا وذلك عندما خرجت حملة مارشان فى نهاية القرن التاسع عشر وحملة تونكود خرجت من شامبى فى السنة الأولى من القرن العشرين . وقد طويت صفحة هذا الصراع بين إنجلترا وفرنسا فى حوض النيل والذى استمر أكثر من قرن من الزمان بالوفاق الودى الذى تم توقيعه فى عام ١٩٠٤ وقد أعلنت إنجلترا فى هذا الوفاق أنها لا تنوى إدخال أى تعديل على الوضع السياسى لمصر ، وأعلنت فرنسا من جانبها «أن تتوقف عن نشاطها بمطالبة إنجلترا لتحديد فترة احتلالها لمصر» .

وكان الصراع فى خلال القرن التاسع عشر بين إنجلترا وفرنسا حلقة متشابكة الأطراف والنزعات مرتبطة بعضها البعض بالرغم من اختلاف المظاهر بعض الشيء متأثرة فى ذلك بالظروف الخاصة وانقسمت الدول الأوروبية معسكرات يناهش بعضها البعض ، وقد تزعمت انجلترا كتلة من هذه الدول لمحاربة فرنسا التى قادت معسكرًا ثانيًا ، وانتقلت بين هذين العسكرين هذه الدولة أو تلك حسبما أملته سياستها الخاصة لتحقيق أمانيها مستغلة فى ذلك العداء المستحكم بين الدولتين الكبيرتين ، وكانت فرنسا تحاول جاهدة إضعاف إنجلترا والتفوق عليها فى جميع الميادين السياسية والاقتصادية . وكانت إنجلترا بدورها تعمل على الحد من انتشار الأفكار الثورية الجديدة التى نادت بها فرنسا والتى سببت لها متاعب كثيرة وبخاصة فى أمريكا كما سبق أن أشرنا .

وقد أثار احتلال فرنسا لمصر مخاوف بريطانيا بالنسبة إلى حوض البحر الأبيض المتوسط الذى يجرى فيه شريان مواصلاتها مع الشرق القريب والبعيد وكانت إنجلترا فى خشية من عودة الفرنسيين إلى مصر ثانية كما كانت فى خوف من أن تعمد فرنسا إلى قفل البحر الأبيض المتوسط فى وجه الأسطول الإنجليزى بحكم موقعها عليه وبسلطانها على إيطاليا لذلك نجد أن بريطانيا قد أخذت فى فتح طريق لها إلى وادى النيل من ساحل البحر الأحمر بعيدًا عن متناول الأسطول الفرنسى ، فجاءت عن هذا الطريق بثلاث أورط هندية تحت قيادة السير دافيد

بيرد الذى نزل فى القصير ومنها إلى النيل وسافرت بالمراكب إلى رشيد التى وصلتها فى نهاية أغسطس سنة ١٨٠١م ، ويتبين لنا مدى خوف إنجلترا من عودة فرنسا إلى مصر أنها قد بقيت فى أرض مصر لأكثر من عام بعد خروج الفرنسيين وتوقيع معاهدة أميان فى ٢٧ مارس سنة ١٨٠٢م التى لم تكن إلا هدنة مؤقتة بين الدولتين ، فالحرب قد نشبت فعلاً بينهما فى ١٦ مايو سنة ١٨٠٣م وبالرغم من المشاكل التى كانت تواجهها إنجلترا فى أوروبا بسبب تكتل الدول ضدها بزعامة نابليون الذى أصدر قرار برلين بتحريم التجارة بين دول أوروبا الخاضعة لنفوذ فرنسا وبين إنجلترا سواء كان ذلك بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، فإن إنجلترا لم تغفل الوضع فى حوض النيل وكانت تستعد لمواجهة ما قد يحدث فيه من تطورات بتدخل الفرنسيين ومن ذلك أنها أرسلت بعثة إلى أثيوبيا برآسة اللورد فلتشيا ومعه هنرى صولت القنصل الإنجليزى فى مصر للاتفاق مع النجاشى على منح قواعد حربية فى أرض الدناكل لاستخدامها لنزول الجنود البريطانية الهندية إذا دعت الظروف إلى ذلك فى حالة عودة الفرنسيين إلى مصر ، وجاءت هذه الفترة حملة فريزر لمساعدة المماليك ضد سلطة الباب العالى وكان عملها هذا مناقضًا لما جاء فى معاهدة أميان بشأن إعادة مصر لسلطة الباب العالى . وقد باءت هذه الحملة بالفشل .

وبعد حوالى الستين عامًا من خروج فرنسا من مصر عرض نابليون الثالث على إنجلترا مقترحه بشأن تقسيم شمال أفريقيا على أن تكون مصر من نصيب إنجلترا غير أن اللورد بالمرستون رئيس وزراء بريطانيا حينذاك رفض هذا العرض ومرجع هذا الرفض أنه قد وجد أن بقاء مصر تابعة للدولة العثمانية هو خير ضمان لمصلحتهم ثانيًا أنها (أى إنجلترا) لم ترد داعيًا فى ذلك الحين لتتحمل أعباء مالية بسبب بسط حكمها على مصر ، وهنالك نقطة هامة أخرى كان لها أثرها وهى أن الفكرة الاستعمارية فى ذلك الحين لم تكن قد تبلورت بعد وكانت بريطانيا فى موقف المترقب الحذر حتى تنجلى مطامع غيرها من الدول لكنها لم تكن لتغمض عينها عن نشاط فرنسا وغيرها فى هذه المنطقة ، واتخذت من الاحتياطات ما تواجه به التطورات الدولية بعد افتتاح قناة السويس فى سنة ١٨٦٩م الأمر الذى ازدادت معه أهمية مصر فى الاستراتيجية البريطانية لذلك نجد أن حملة نابيير على أثيوبيا فى ١٨٦٧/ ١٨٦٨م لم تكن فى واقع الأمر إلا

تجربة قامت بها قوات عسكرية للإفادة من نتائجها فى حالة العودة لاستخدام هذا الشاطئ لغزو مصر إذ جاء إليها الفرنسيون .

وجاءت الحرب السبعينية بين ألمانيا وفرنسا بعد أن اتخذت إنجلترا موقفًا سلبيًا من تطورات الأحداث التى انتهت بإعلان فرنسا الحرب على ألمانيا ، وكان من مصلحة إنجلترا أن تدخل فرنسا فى عراك يبعدها عن الميدان الدولى لفترة من الزمن قد تطول أو تقصر ، وقد تركت هذه الحرب تقدمًا فى الفنون العسكرية وللصناعية فزاد القلق بين دول أوروبا التى اهتمت بتأمين سلامتها بالدخول فى المخالفات التى تنتهى عادة بالحرب بين المعسكرين المتنافرين ، وقد أبعدت الهزيمة التى حلت بفرنسا هذه الدولة من ميدان الصراع مع إنجلترا لفترة بلغت ما يقرب من العشرين عامًا أخذت فى خلالها المنتجات الصناعية فى الازدياد كما أخذت رؤوس الأموال الأوروبية فى التدفق خارج مواطنها للاستثمار بطريقة أو أخرى وللحصول على المواد الخام الضرورية للصناعات ، وعملت الدول الأوروبية على حماية منتجاتها . الأمر الذى كانت من نتائجه عزل الجزائر البريطانية وحرمانها من أسواق القارة الأوروبية . واتجهت أنظار الدول صوب التوسع فى أفريقيا لفتح أسواق جديدة لتصريف المنتجات وللحصول على المواد الأولية اللازمة للمصانع ، وكانت فرنسا قد أخذت فى استعادة قوتها بعد هزيمتها فى الحرب السبعينية ، واتجهت بدورها نحو أفريقيا لإنشاء فرنسا الجديدة «كما حاولت ألمانيا أن تؤسس فى هذه القارة «ألمانيا الجديدة» أما روسيا فقد كان اهتمامها موجهًا إلى آسيا ، وأن كل ما قامت به من نشاط فى أثيوبيا كان مساندة منها لفرنسا فى صراعها لإضعاف مركز بريطانيا . وإذا نظرنا إلى خريطة أفريقيا نجد صورة واضحة للتسابق بين بريطانيا وفرنسا بصفة خاصة فشاطئ أفريقيا الغربى يكاد أن يكون سلسلة من المستعمرات التى تسيطر عليها بريطانيا وفرنسا ، فهذه فرنسية وجارتها بريطانية ثم فرنسية وبريطانية وهكذا وتقوم فى خلف هذا الشاطىء الصحراء الكبرى وتسيطر عليها فرنسا .

تطور الصرا بين الدول:

شهدت النيف والستون عامًا الأولى من القرن التاسع عشر الميلادى تطورات خطيرة فى اتجاهات الأوروبية بعامة وفرنسا وإنجلترا بخاصة ، وقد سارت هذه الاتجاهات قدمًا مع التقدم

الزراعى والصناعى الذى كان له أثره فى نظم الحكم كما كان لهذا التقدم انطباعاته التى شكلت أهداف الدول ، وقد خضعت تلك الأهداف بادى ذى بدء لتحقيق مطالب أصحاب السلطان ورجال المال وكان هؤلاء قلة تتحكم فى موارد الدول وتدخل فى محالفات انقسمت معها أوروبا معسكرات جمع كل منها أصحاب المصلحة المتقاربة ، وبالرغم من أن الدوافع التى حركت هؤلاء لبسط سيطرتهم كانت عاطفية غايتها تحقيق النفع لتلك الطبقة ولاظهار قوة هيبتها وتفوقها على منافسيها فى الميدان الدولى ، فإن أولئك النفر من أصحاب السلطان ورجال المال كانوا يهدفون نحو تأمين طرق الملاحة البحرية وسلامة محطات تموينها وكان طبيعيًا والحالة هذه أن يحدث الاصطدام بين الدول بسبب التسابق للسيطرة على الأماكن الاستراتيجية التى تتحكم فى طرق الملاحة وموارد الخامات . ولم تشترك الشعوب مع طبقة السلطان والمال فى أهدافها لأن حالة الشعوب فى ذلك الحين لم تكن قد بلغت الدرجة التى شعرت معها بالحاجة إلى أسواق جديدة لتصريف المنتجات المتزايدة ، وللحصول على المواد الخام بأسعار تمكنها من المحافظة على أسواقها ومستوى صناعاتها أمام منافسة غيرها من الدول . ولهذا بقى التنافس فى الفترة الأولى من القرن التاسع عشر قائمًا بين أصحاب السلطان والمال فى مختلف الدول وقد كمنت وراء هذا التنافس العاطفة الشخصية ومطامعها المشوبة بالحسد والغيرة وحب الظهور بالقوة والنفوذ ، وقد بدأ التنافس بين الدولتين اللتين تصدرتا التنازع وهما إنجلترا وفرنسا فى حوض البحر الأبيض المتوسط وشواطىء غرب أفريقيا فى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى ، ولم يتطور هذا التنافس إلى المرحلة التى أضفت عليه المظهر الاقتصادى إلا فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر الميلادى عندما أخذت الشعوب فى المساهمة فى هذه الاتجاهات عن طريق أموالها التى دفعت بها إلى خارج بلادها لاستثمارها والهجرة وإلى ما غير ذلك .

وقد أخفى المظهر الاقتصادى بين طياته أكثر من عنصر انتقلت من جيل إلى جيل مع رواسب الماضى ، وكانت الدعوة إلى التبشير من أبرز العناصر التى تخلفت عن العصور الماضية ، والتى استمد منها التوسع الإقليمى قوته ، وسار التبشير جنبًا إلى جنب مع العنصر الاقتصادى وصار كل منهما متممًا للآخر فى تحقيق مطامع الدول التى أخذت فى الازدياد إلى درجة أصيبت معها الدول بحالات من الصرع أفقدتها قيمها الإنسانية .

وقد تميز مسلك كل من فرنسا وإنجلترا بطابع المجتمع فى كل من البلدين ، فالإنجليزى يؤمن بطبيعته عن وعى وعن غريزة بمصلحته فى البحار وغايته فى أن يحتفظ بقوة بحرية تتفوق على غيرها مهما كان الثمن على حساب الغير ، ولم يكن للإنجليزى أصدقاء أبدًا أو أعداء أبدًا بل كانت الأبدية لمصلحته أولاً وقبل كل شىء فهو يقاوم غيره بكافة الوسائل الدبلوماسية أو بالحرب إذا اضطره الأمر للاحتفاظ بتوازن القوة البحرية ، وقد اكتسب الإنجليزى من عراكه الطويل فى البحار بالكثير من الصفات ما عاونته فى المشاكل الاقتصادية وكان لجموده وبرود طبيعته الأثر الأول فى مغالبة الشدائد .

أما الفرنسى فقد تأثر بالحروب الطويلة التى خاض غمارها ضد النبلاء والاقطاع والكنيسة وقد جعله كل ذلك سريع العاطفة تصدر قراراته دون تمحيص ودون أن يدخل فى حسابه المكسب أو الخسارة كما يفعل الإنجليزى شأنه فى ذلك شأن شعوب البحر الأبيض المتوسط لذلك قد أفادت بريطانيا من أخطائه وصبرت عليه حتى يستنفذ طاقته فتتغلب عليه ، والبريطانى بطبيعته تطورى والفرنسى ثورى .

وكان لمصر نصيبها الذى أسهمت به فى الصراع بين الدولتين ، فقد كانت قاعدة المحور الذى دار حوله التطاحن لأكثر من قرن من الزمان ، وحاولت بريطانيا أن تستقطع من مصر أجزاءها الجنوبية باتهامها إياها بأنها ترغب فى التوسع واستغلال الغير ، والحقيقة وواقع الأمر ينفيان هذا الاتهام نفيًا قاطعًا . فمصر فى تاريخها القديم والحديث لم تحاول استعمارًا كما عمل الأوروبى على تحقيقه لأن الشعب المصرى بطبيعته لا يميل إلى ذلك ولم يشترك الشعب فى عهوده المختلفة إلا قليلا فى الحروب التى شنها حكامه الذين استخدموا المرتزقة من الجند الأجانب ، وحتى فى اشتراكه فى بعض الحروب التى دفعت إليها ظروف قاهرة فإنه قد أعطى البلد الذى وصل إليه كامل حقوقه وعمل جاهدًا لرفع مستواه فى مختلف أوجه نشاط الحياة .



انتقل التسابق بين الدولتين بعد خروج فرنسا من مصر إلى شمال وغرب أفريقيا وصارت تنتقل المناورات والمداورات من نقطة إلى نقطة وكلها تهدف إلى منع إنجلترا من تثبيت أقدامها أو

بسط نفوذها فى صورة أو أخرى على حوض وادى النيل ، وكانت إنجلترا تعمل بدورها على تحطيم الخطط الفرنسية ويتبين لنا من الجدول المرفق مع هذا نشاط الدولتين فى هذا المضمار ونرجو أن نستميح القارئ عذراً فى تكرار ما سبق أن تعرضنا له بالقدر الذى يتطلبه البحث استكمالا لعناصر الموضوع .

وبينما نجد أن بريطانيا كانت تحاول تصفية مشاكلها مع فرنسا بعد خروجها من مصر بعقد معاهدة اميان التى تعهدت فيها بريطانيا فيما تعهدت به من إعادة الممتلكات للدول وبعدم أحداث تغيير فى وضع مصر وعلاقاتها بالباب العالى فإنها ـ أى بريطانيا ـ كانت تخشى قيام فرنسا بغزو لمصر مرة ثانية ـ لذا أرسلت حملة فريزر فى سنة ١٨٠٧م لمناصرة المماليك وإعادة سلطانها على مصر والارتباط معهم بمعاهدة ، وقد فشلت هذه الحملة ـ وبعد ذلك أرسلت إنجلترا بعثة إلى الحبشة من اللورد فلنشيا وهنرى صولت للحصول على قواعد فى أرض الدناكل لنزول قواتها للزحف على مصر إذا قامت فرنسا منفردة أو مع بعض الدول المناصرة لها على قفل البحر الأبيض المتوسط فى وجه بريطانيا ، وعقدت بريطانيا معاهدة ٣٠ مايو سنة ١٨١٤م مع فرنسا اعادت بموجبها لفرنسا ممتلكاتها ومؤسساتها ومصانعها فى غرب أفريقيا ، ولم يمض طويل وقت حتى نزلت فرنسا فى الجزائر فى عام ١٨٣٠م . وتنتقل من حوض البحر الأبيض المتوسط إلى أثيوبيا لعقد معاهدة صداقة وتجارة فى سنة ١٨٤٣م مع يوحنا نجاشى شوا فى أعقاب معاهدة ١٦ نوفمبر سنة ١٨٤١ التى عقدتها بريطانيا مع النجاشى وقد جددت بريطانيا هذه المعاهدة فى ٢ نوفمبر سنة ١٨٤٩ ارتبط فيها النجاشى وخلفاؤه من بعده بصداقة بريطانيا .

واتجهت بعد ذلك قوى التسابق بين إنجلترا وفرنسا إلى شرق أفريقيا وجزيرة مدغشقر فبريطانيا كانت تهدف نحو منع فرنسا من تلك المنطقة وأصدرت فى عام ١٨٦١م قراراً بتحكيمها فى الخلاف بين ابنى السلطان سعيد الذى كان يحكم زنزبار من مسقط (فى جنوب شرق الجزيرة العربية) وذلك بتقسيم المملكة قسمين ، وكان الجزء الإفريقى ويشمل زنزبار من نصيب السلطان مجيد وتولى الابن الثانى للسلطان سعيد الجانب الآسيوى فى مسقط ، وفى ١٠ مارس سنة ١٨٦٢ أعلنت فرنسا وإنجلترا اتفاقهما على المحافظة على استقلال كل من مسقط وزنزبار وتركت بريطانيا مدغشقر لفرنسا وتبع ذلك ظهور النشاط الفرنسى عند مدخل البحر

الأحمر حيث عقدت هذه الدولة معاهدة مع زعماء الدناكل فى ١١ مارس سنة ١٨٦٢م تخلى بموجبها هؤلاء الزعماء عن منطقة «أوبوك» وبهذا حصلت فرنسا على نقطة أمامية لها خطرها على مدخل البحر الأحمر يبدأ منها الحزام الأفريقى الذى يمتد من شاطئ البحر الأحمر ويشمل منطقة حوض بحر الغزال وينتهى عند المحيط الأطلسى وكانت فرنسا تهدف من اقامة هذا الحزام ليكون حاجزاً أمام التوسع البريطانى شمالاً إلى حوض النيل وهكذا كانت لفرنسا نقطتان استراتيجيتان أحدهما فى البحر الأبيض المتوسط بعد احتلالها للجزائر والثانية عند مدخل البحر الأحمر فى «أوبوك» .

وبعد ذلك بسنوات قليلة حدث أن احتجز النجاشى تيودور بعض الرعايا البريطانيين فى محبسه فأرسلت الحكومة البريطانية حملة الجنرال روبرت نابيير فى ١٨٦٧م لانقاذ هؤلاء الرعايا ، ومما يسترعى الالتفات أن هذه الحملة قد غادرت البلاد الأثيوبية بعد انتصارها على النجاشى الذى انتحر أثر هزيمته ، ولم تحاول أن تحصل على مغنم كما أنها لم تفرض عقوبات بل تركت الزعماء المحليين يتطاحنون حول العرش الأمر الذى استمر حتى ١٨٧٢ عندما استطاع يوحنا حاكم النيجرى أن يعلن نفسه نجاشيًا ، وفى الواقع أن بريطانيا قد اكتسبت هدفين من خروجها على هذه الصورة من أثيوبيا أولاً أنها تركت البلاد فى حالة من الفوضى فصارت فخًا لصيد المغامرين ، وثانيًا أنها كانت تخشى أن تفرض عقوبات أو التزمات على دولة مسيحية ، وتركت الأمر للزمن ، ولا ننسى أن بريطانيا قد اكتسبت خبرة حربية قد تفيدها إذا ما جاء الفرنسيون إلى مصر مرة أخرى . وجاءت إيطاليا إلى حوض البحر الأحمر ولم تكن لها حينذاك فى ذلك مصلحة فحصلت على منطقة عصب ، وذلك فى ١٥ نوفمبر سنة ١٨٦٩م أى قبيل افتتاح قناة السويس بأيام قليلة ، وقد كان لافتتاح هذه القناة أثرها البالغ فى انعكاساته على الصراع الدولى ، وأخذت بعد ذلك إيطاليا فى تثبيت أقدامها فى منطقة عصب ، وعادت بريطانيا إلى سياستها التقليدية التى اكتسبتها من خبرتها الطويلة فهى بينما تظهر عدم الاهتمام بمنطقة ما وتسعى جاهدة لمنح هذه المنطقة استقلالا تعترف به هى ومنافستها فرنسا أو غيرها ، وتدخل فى اتفاقات دولية بشأن الحدود ، وإنها بنشاطها هذا إنما ترمى إلى الاحتفاظ بهذه المنطقة فى حمى القانون الدولى ، وتترك

المسألة بعض الزمن فتبتلعها لقمة سائغة كما حدث فى قضيتى زنزبار ومصر ، فقد أوضحنا من قبل مسألة التحكيم فى تقسيم سلطنة السيد سعيد ومعاهدة إنجلترا وفرنسا فى ١٨٦٢م أما فى مصر فقد عقدت اتفاقًا فى ٧ سبتمبر سنة ١٨٧٧ بشأن ساحل الصومال ، وأصدر الباب العالى فرمانًا فى ٢ أغسطس سنة ١٨٧٩ بعدم السماح لمصر بالتنازل عن أى جزء من الأراضى التابعة لها ولم يكن كل ذلك إلا توطئة للسيطرة على تلك الأجزاء بعد أن أجبرت مصر على الإنسجاب من منطقة ساحل البحر الأحمر فى١٨٨٤م .

وفى الفترة التى سبقت إنسحاب مصر من البحر الأحمر ازداد النشاط الإيطالى الذى بدأ فى عام ١٨٦٩م فاستولت شركة روباتينو الإيطالية على رهيطه والجزائر الساحلية . ولم يكن دخول إيطاليا إلى هذه المنطقة إلا إيذانًا بدخول قوى تستطيع بريطانيا استغلالها لمصلحتها فى المحافظة على ذلك الجناح الخطير الأهمية بالنسبة لحوض النيل الأوسط والأعلى .

وأخذ الصراع يسير فى خطى سريعة من عام ١٨٨٠م الذى أصدرت فرنسا فى نهايته إعلانًا (بتاريخ ٢٥ ديسمبر سنة ١٨٨٠م) أوضحت فيه حدود منطقة أوبوك ، وتبع ذلك احتلال فرنسا لتونس فى سنة ١٨٨١م بموجب معاهدة «قصر سعيد» وكانت هذه المعاهدة من الناحية الواقعية اقتراب الخطر الفرنسى على مصر عن طريق الساحل الأفريقى فلم تكن تفصل بينهما ــ مصر وتونس ــ إلا مسافة قصيرة نسبيًا كما كان لفرنسا أن تتحكم على الطريق البحرى ، وقد شعرت بريطانيا بالخطر الذى يهدد مصالحها التى كانت تدعيها لنفسها فى حوض وادى النيل ، والتى كانت تسعى جاهدة نحو تحقيقها . وتبع ذلك احتلال مصر فى ١٨٨٢م ، وعملت إنجلترا بطرقها الخاصة التى سنتعرض لها فيما بعد لتثبيت أقدامها فى منطقة وادى النيل ، واشتد لذلك الصراع بين الدولتين واستطاعت فرنسا كسب الجولات الأولى فى الصراع وكان ذلك نتيجة لدخول ألمانيا فى الميدان وما حدث بينها وبين إنجلترا من جفوة ، فتكونت كتلة لتحد من المطامع البريطانية فى هذا الجانب من أفريقيا .

وبدأت رقعة النضال تضيق شيئًا فشيئًا حتى انكمشت حول منطقة حوض وادى النيل والمنطقتين شمال وجنوب أثيوبيا وساحل البحر الأحمر الأفريقى ومنطقة أوغندا ، وهذه جميعها

تكون وحدة وادى النيل التى امتدت إليها الإدارة المصرية وفتحت أبوابها للمدنية وللتجارة . واتخذت القوات التى اشتركت فى الصراع قواعد لها فى الأراضى المجاورة عملت منها كل من الدولتين المتنافرتين للوصول قبل الأخرى إلى حوض النيل الأعلى ووضع يدها عليه . وتنقسم المناطق التى اتخذ الصراع فيها مراكز زحفه ثلاث قواعد أساسية وهى :

١ ــ المنطقة الشمالية : حوض وادى النيل الأدنى والأوسط .

٢ ــ المنطقة الشرقية : أثيوبيا والقرن الأفريقى وأوغندا وكينيا من الشرق والجنوب الشرقى .

٣ ــ المنطقة الغربية : الأملاك الفرنسية والكونغو من الغرب والجنوب الغربى وظاهرت إيطاليا وشركات شرق أفريقيا البريطانية والكونغو الحرة السياسية البريطانية بينما علمت فى جانب فرنسا كل من أثيوبيا وروسيا وترددت ألمانيا وبلجيكا بين المعسكرين .

ولم يكن هناك من مفر بعد أن أشتد النشاط أن تلتقى الدولتان المتنافرتان وجهًا لوجه لتصفية موقفهما الذى بلغ ذروة أزمته فى السنوات العشر الأخيرة من القرن التاسع عشر الميلادى التى سبقتها نشاط كل الدولتين لتدعيم قواعدها فى المراكز الخلفية المتنازع عليها كما عملت كل منهما على تأمين موقفها من الناحية الدبلوماسية .

المنطقة الشمالية:

لعل أوضح ماتميزت به هذه الرقعة إنها كانت الهدف الأول الذى أختارته فرنسا لاحتلاله فى سنة ١٧٩٨م لتتخذ منها مركزاً تبسط منه سيطرتها على الطرق الملاحية فى البحرين الأحمر والأبيض المتوسط ، ولتفرض سلطانها على الطرق البرية كما اتخذت من هذه المنطقة لنشاط شحناتها السرية للعمل فى الشرق الأدنى والأقصى على إثارة الفتن والقلاقل وكان مقصدها من كل ذلك ازعاج منافستها انجلترا فى طرق مواصلاتها ونفوذها ، ويرجع اختيار الفرنسيين للسيطرة على مصر إلى وضعها الأقليمى من ناحية المناخ وسهولة مواصلاتها الداخلية ومواردها الزراعية ، وسيطرتها على ساحل البحر الأحمر والأبيض المتوسط الشرقى .

وقد نبت فى هذه المنطقة الغرس الأول الذى انفلقت منه المسألة الشرقية مصر ــ وحوض هذه المنطقة اشتد الصراع بين الدولتين الأمر الذى استمر أكثر من مائة عام وامتد ميدانه واتسع

حتى شمل جميع أفريقيا شمال خط الأستواء وشمل فى نهايته رقعة واسعة جنوبى ذلك الخط مباشرة .

ولم يكن لبريطانيا أن تتقبل هذه الضربة القاصمة لما كانت تدعيه لنفسها من مصالح فى هذا الجزء من شمال شرق أفريقيا دون أن تنتقم من غريمتها ، فالأسطول الإنجليزى قد تعقب السفن الفرنسية التى لم تكن وجهتها معروفة فى بادئ الأمر ، وجاءت القطع الإنجليزية بقيادة نلسن وهاجمت ا لمراكب الفرنسية بعد أن ألقت مراسيها فى خليج أبوقير وأنزل بها خسارة فادحة وكان ذلك بعد أسبوع تقريبًا من نزول الحملة الفرنسية فى مصر بقيادة نابليون بونابرت ، وأخذت بعد ذلك البحرية الانجليزية فى فرض حصارها على الشاطئ المصرى لمنع وصول الامدادات من فرنسا ونشطت فى نفس الوقت لدى الباب العالى لعقد حلف تتعاون بموجبه الدولتان على إخراج الفرنسيين من مصر ، وكانت روسيا تسعى لدى الباب العالى لنفس الغرض ، وتم فعلا الوصول إلى اتفاق بين روسيا وتركيا فى ديسمبر سنة ١٧٩٨م وتلاه ترقيع الحلف التركى والبريطانى فى يناير سنة ١٧٩٩م .

ومما يسترعى الالتفات أن الحلف العثمانى البريطانى قد ألزم تركيا بتقديم جيش مائة ألف من الجنود تشترك معه جميع القطع الحربية البحرية والعثمانية فى حرب الفرنسيين ، وتعهدت بريطانيا بالاحتفاظ بعدد مناسب من قطع أسطولها فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، وأن لا تضع أنجلترا سلاحها إلا بعد تأمين أجزاء الامبراطورية العثمانية ، وهكذا استطاعت بريطانيا أن تقذف بالجيش العثمانى وببحريته فى الصف الأول للقتال فيتلقى بذلك الضربة الأولى ، وتبقى فى الصفوف الخلفية إلى أن يضعف الطرفان فرنسا وتركيا ، ويتبين لنا هدف بريطانيا من هذا الاتجاه بما أصاب الحملة التركية التى نزلت فى أبوقير فى يوليه سنة ١٧٩٩م من هزيمة منكرة ، وقد كان مع هذه القوة السير سيدنى سمث فى سفينته تيجره (الدجلة) واضطرت الحملة التركية إلى مغادرة المياه المصرية ، ومما تجدر الاشارة إليه أنه بينما كانت أهداف روسيا وإنجلترا هى طرد الفرنسيين من مصر فإنهما لم يوقعا حلفا ثلاثيًا ـ روسيا ـ انجلترا ـ وتركيا بل عقدت كل من الدولتين حلفا منفصلا مع الدولة العثمانية ، ويبدو أن السبب فى ذلك يرجع إلى تفادى اصطدام مصالح الدولتين وإلى أن ارتباط انجلترا فى حلف تشترك فى دولة أوروبية من

شأنه أن يحد من أغراضها ، وقد أوضحها وزير الحربية البريطانية حينذاك فى قوله «إن امتلاك أية قوة مستقلة لمصر سوف يكون ظرفًا سيئًا بالنسبة لمصالح انجلترا» (٣) .

وأخذت القوات العثمانية تشق طريقها إلى مصر حتى وصلت العريش وفى خلال ذلك كانت المفاوضات جارية لجلاء الفرنسيين عن مصر وتم الوصول إلى الاتفاق الذى عرف باتفاق «العريش» . لكن إنجلترا قد تباطأت فى إعلان موافقتها على هذا الاتفاق لخوفها من عودة الجيش الفرنسى بعد الجلاء عن مصر إلى فرنسا فيزيد من قوة فرنسا . وجاءت قوة بريطانيا وأخرى من الهند عن طريق القصير إلى قنا ومنها عن طريق النيل إلى رشيد وبقيت القوات التركية والإنجليزية فى أرض مصر بعد خروج الفرنسيين فى سنة ١٨٠١ ولجأت إنجلترا إلى وسائلها للبقاء فى مصر غير أن الدول الأوروبية ومنها مندوب روسيا فى مؤتمر اميان أصرت على انسحاب انجلترا فى مصر وإعادتها لسلطان الباب العالى ووجدت إنجلترا نفسها مضطرة إلى ترك البلاد لتطور الأحوال فى القارة الأوروبية . كما أنها وجدت أن المماليك وهم عملاءها قد اتصلوا بالفرنسيين ، وبالرغم من مشاكل انجلترا فى حربها مع فرنسا فى أوروبا فإنها كانت تخشى ظهور الفرنسيين على أرض مصر ثانية لذلك أصلحت ما بينها وبين زعماء المماليك لتتذرع بهم كوسيلة للتدخل فى شئون مصر وغزوها ، وفعلا أرسلت حملة فريزر فى سنة ١٨٠٧ لمساعدة المماليك ولتفويض سلطة الباب العالى غير أن هذه الخطة فشلت وانسحبت الحملة ، وأرسلت اللورد فلنشيا وهنرى صولت إلى النجاشى للحصول على موافقته على منح بريطانيا قاعدة عسكرية فى أرض الدتاكل تستخدمها الجنود البريطانية الهندية لغزو وادى النيل إذا دعت الضرورة لذلك .

وأتجهت بعد ذلك بريطانيا إلى سياستها التقليدية بالتدخل تدريجيًا فى شئون مصر حتى تكتسب مع مضى الزمن حقوقًا تنتقل بها من مرحلة إلى مرحلة حتى تصل مرتبة استخدام تلك الحقوق كوسيلة للضغط السياسى الذى يتبعه استخدام القوة العسكرية وكانت مسألة الرقيق من أولى الأدوات التى استخدمتها للضغط على مصر وبخاصة بعد أن حصلت على فرمانات الباب العالى ، وموافقة مؤتمر فينا على التوصية بإلغاء النخاسة ، وأخذت الظروف تتطور

---

(٣) مارلو ، ص١٥ .

من صورة إلى أخرى حتى انتهت كما سبق أن أوضحناها بنزول القوات البريطانية فى مصر فى سنة ١٨٨٢م .

وقد بدأت مع هذا الاحتلال مرحلة جديدة فى العلاقات البريطانية المصرية بعامة وبالسودان بخاصة ، فاستغلت الأزمة المالية بالاضافة إلى قواتها المحتلة للسيطرة على جهاز إدارة البلاد وملحقاتها وصارت كلمتها هى العليا الواجبة التنفيذ . وكان الموقف المالى حجة تذرعت بها لمنع مصر من عملياتها فى السودان لاعادة الأحوال إلى مجاريها الطبيعية كما أن ذلك الموقف بعد أن هيأت له ظروفه فى السودان بعد هزيمة هكس جعلها تنفذ الخطوة التالية وهى إخلاء السودان على يد غوردون ، وانسحاب حملة الانقاذ بعد سقوط الخرطوم (٤) أعلنت أنها غير مسئولة عن إنقاذ القوات المصرية الموجودة حينذاك فى دارفور وبحر الغزال وخط الأستواء وشرق السودان(٥) ، وقد ذكر لوجارد «إن الاطلاع على كتاب عشرة أعوام مع المهدى ، والمقال الذى كتب فى المجلة الأهلية فى فبراير سنة ١٨٩٣ يجعل القارئ يشعر بالعار بسبب الدور الخطير الذى لعبناه فى تاريخ أفريقيا باخلاء السودان وماترتب على ذلك من إراقة الدماء (٦) .

وأخذت الأحوال تزداد سوءاً بالنسبة لمصر فى عام ١٨٨٤م عندما بدأت بريطانيا فى تنفيذ سياستها الرامية إلى اقتطاع أجزاء وادى النيل ، ففى يونية من عام ١٨٨٤م عقدت معاهدة مع أثيوبيا باسم بريطانيا ومصر ، وقد وقعها النجاشى ، والسير أدميرال والسير وليم هيوت قائد الوحدات البريطانية فى الهند الشرقية نيابة عن حكومة جلالة الملكة ، وميسون بك حاكم مصوع نيابة عن مصر . وتسلمت أثيوبيا بموجب هذه المعاهدة منطقة البوغوص وجميع مابها من المبانى والمهمات والأسلحة التى تترك بعد انسحاب القوات المصرية من كسلا وأماديب وسنهيت ، وجاء فى المادة الرابعة من هذه المعاهدة اعطاء الحق للنجاشى فى تعيين مطران الكنيسة الأثيوبية وهى فى ذلك قد سلبت حق البطريك تمهيداً لفصل الكنيسة الأثيوبية على أمها الكرازة المرقسية ، وجاء فى المادة السادسة أن جلالة النجاشى قد وافق على أن يقدم

---

(٤) وافقت الملكة فكتوريا بتاريخ ١٨ أبريل سنة ١٨٨٥م على انسحاب القوات البريطانية من السودان مع الاحتفاظ بحق حرية العمل فى المستقبل . جوين ص١١٨ .

(٥) التن ، ص٣٥٧ .

(٦) لوجارد جزء ٢ ، ص٥٧٢ .

شكاواه عن مايحدث من خلاف مع خديوى مصر ذلك بعد توقيع المعاهدة إلى الحكومة البريطانية لتسويتها . وهذه صورة من محاولات انجلترا لتنفيذ خططها وتعزيز مركزها فى حوض وادى النيل الأمر الذى كانت تعارضه وتقاومه روسيا وفرنسا بكل قوة فى الميدان الدولى . وقد أضعف هذا النشاط موقف بريطانيا وخشيت معه أن تتطور المسألة فى غير مصلحتها وبخاصة فى السودان حيث أخذ مركز غوردون فى التدهور وتحقق فشله فى مهمته وازداد خوفها أن ينتقل الزمام إلى يد أجنبية ـ فرنسا ـ لذلك عمدت بريطانيا إلى وسائلها الدبلوماسية لتقوية موقفها فى مصر والسودان ، وكان أن عقد مؤتمر برلين سنة ١٨٨٤/ ١٨٨٥م للنظر فى الشئون الأفريقية ، ووصلت الدول إلى اتفاق على الأسس التى يقوم عليها بسط السلطان على المناطق الأفريقية وماتجب مراعاته فى مختلف الشئون وشملت قرارات هذا المؤتمر ضمن ما اشتملت عليه عن التجارة والملاحة إلخ إلخ النواة التى قامت عليها النظرية التى تفسر «الاحتلال الفعلى» فقد جاء فى التصريح الخاص بالشروط الأساسية الواجب مراعاتها لتحقيق شرعية احتلال أية دولة لمنطقة ما على الساحل الأفريقى حيث جاء فى المادة الرابعة والثلاثين أن «أية دولة تستولى من الآن فصاعداً على أرض من ساحل القارة الأفريقية من غير ممتلكاتها عند توقيع المعاهدة ، والتى لايملكها أحد ، فإنه يتحتم على تلك الدولة ، أو الدولة التى تبسط حمايتها أن يتبع احتلالها أو بسط حمايتها إعلان الدولة الموقعة على قرارات المؤتمر تعلنها فيه بما وضعت يدها عليه ـ امتلاكاً أو حماية ـ وبذلك يتسنى بموجب هذا الاخطار للدولة ذات الشأن والمصلحة أن تطالب بحقوقها إذا كانت لها حقوق . ولما كان هذا النصر قد ترك مسألة مصر دون تسوية فان بريطانيا لجأت بعد انتهاء المؤتمر بفترة وجيزة إلى مفاوضة الباب العالى على أسس ماكر ظاهره بحث مسألة الجلاء عن مصر ، وباطنه الحصول على اعتراف من الباب العالى بشرعية الاحتلال وقد عقد فعلا الاتفاق الأولى فى عام ١٨٨٥م كما خرجت بموجب هذا الاتفاق مسألة السودان بجعلها مادة تبحث مصالحاتها ، وجاءت بعد هذه الاتفاقية المعاهدة النهائية بعد قيام المندوبين الساميين العثمانى والبريطانى لبحث المسألة وذلك فى عام ١٨٨٧م ولم تنفذ ذلك المعاهدة كما سبق أن أوضحنا لتدخل فرنسا وروسيا . ولم تكن هذه المعاهدة فى الواقع إلا امتداداً للاتفاق الأولى الذى تم فى سنة ١٨٨٥م .

وعلى هذه الأسس نسجت السياسة البريطانية خيوطها حول وادى النيل لفصل شماله عن جنوبه ، وحاولت أن تجعل منه «أرضا مباحًا» وتعطلت بسبب هذا الأجراء التجارة وصار السودان فى شبه عزلة تامة عن العالم الخارجى . الأمر الذى جعل رجال الأعمال من البريطانيين يطالبون بفتح التعامل التجارى مع السودان ورفع الحصار الذى فرضته وزارة الحربية المصرية التى صار السودان تابعًا لها وفق الأمر الخديوى العالى بتاريخ ١٥ يناير ١٨٨٤م وظلت شئونه من اختصاص هذه الوزارة حتى السنوات الأولى من القرن العشرين . وحاول رجال المال من الإنجليز تأسيس شركة بريطانية لاحتكار تجارة السودان ومركزها سواكن على غرار شركة شرق أفريقيا وغيرها من الشركات البريطانية التى تقوم بالتمهيد لضم البلد الذى تحتكر تجارته إلى أملاك الدولة غير أن الباب العالى ومصر قد عارضتا فى هذا الاحتكار ، ولم تكن الظروف الدولية بالنسبة لمركز السودان لتسمح بهذا الامتياز .

ولما كانت بريطانيا تواجه المشاكل التى تثيرها فرنسا وروسيا وغيرها منفردة فقد جاءت بريطانيا وسهلت لها احتلال مصوع التى اتخذت منها قاعدة للتوسع فى داخلية المنطقة وهدفها من ذلك أن تقوم ايطاليا بحماية القطاع الممتد على ساحل البحر الأحمر الأفريقى الذى يتكون منه جناح حركاتها فى حوض النيل . وعملت فرنسا جاهدة لتوطيد قواعدها فى مدخل البحر الأحمر بخاصة بعد أن نقلت انجلترا ميناء عدن ومنعت السفن الحربية الفرنسية من أخذ حاجتها من الفحم فى عام ١٨٨٣م عندما كانت مشتبكة فى حربها مع الصين فسببت لها المتاعب وفى عام ١٨٨٧ أنشأت ميناء جيبوتى وأعدته إعدادًا كاملاً ليستقبل البواخر وحاولت بريطانيا الحد من التوسع الفرنسى فى هذه المنطقة فعقدت معها معاهدة ١٨٨٨م التى تشير بوجه خاص إلى هرر والتى سنتعرض لها فيما بعد .

ازداد نشاط الطليان فى القطاع الشرقى بعد توقيع معاهدة أوتشيالى فى سنة ١٨٨٩م والذى يهمنا من نشاطها أنها كانت تهدف إلى احتلال كسلا الأمر الذى تضايقت معه انجلترا وعارضته معارضة شديدة لخوفها أن يقوم الطليان بإقامة خزانات على روافد المياه ــ القاش والعطبرة الذى يتصل بالنيل وبعد مفاوضات دامت ما يقرب من العامين توصلت بريطانيا وإيطاليا من الوصول إلى اتفاق اعترفت فيه ايطاليا بحق مصر فى أعالى النيل بما فيه كسلا ،

وبعد أن تم التوقيع على المعاهدة فى ١٥ أبريل سنة ١٨٩١م ، وافقت بريطانيا ـ لامصر ـ على احتلال ايطاليا لهذه المنطقة إذا دعت الضرورات العسكرية مع الاحتفاظ بحق مصر . ولم يكن استخدامها لحق مصر فى هذه المعاهدة أو غيرها للمحافظة على حقوق مصر لمصر فعلا بل بالعكس لم يكن ذلك إلا وسيلة لإبعاد المنافسين فى عقود دولية وتستولى هى على تلك الحقوق عندما تحين الفرصة المناسبة وكل مايهم بريطانيا الحصول على توثيق منعًا للمشاكل الدولية .

واشتد النشاط الفرنسى وشعرت بريطانيا بخطورة الموقف وماينتظر من تطورات لذا أمرت سردار الجيش المصرى كتشنر باشا دون سابق علم الحكومة المصرية بالاستعداد لقيام الحملة إلى السودان لاعادة الحياة إلى طبيعتها ، وسارعت بفتح الاعتمادات اللازمة للحملة بعد أن رفض المندوبان الفرنسى والروسى فى صندوق الدين الموافقة على المصروفات . وكانت هذه الاعتمادات سلفة لحساب مصر ، وقد زودت إنجلترا كتشنر باشا بتعليماتها السرية التى لم يسمح لها بفض أختامها إلا بعد وصوله الخرطوم والاستيلاء على أم درمان . وكانت هذه التعليمات تتضمن ما يتبع بعد سقوط أم درمان من تسليم القيادة والسفر إلى أعالى النيل لتحقيق وجود الحملة الفرنسية التى قادها مارشان وإخطاره بمغادرة البلاد باسم مصر . وذكر لوجارد بصدد حقوق مصر .

«لقد تركت مصر السودان بناء على أمر بريطانيا ، وكان من المعتقد أنها قد تنازلت عن جميع حقوقها على هذه الرقعة من الأرض . غير أن تصريحًا حديثًا من تيجران باشا جاء فيه «أن مصر تحتفظ بكامل حقوقها على جميع المناطق التى كونت جزءاً من مديرية خط الأستواء المصرية واستمر لوجارد يقول «إن هذا القول الذى ألقى كالقنبلة لايمكن قبوله إذا نظرنا إلى ماقاله المستر هاردنج بالنيابة عن الحكومة المصرية «إن مصر لاتتحمل أية مسئولية بشأن الأهالى فى تلك المديريات التى تركتها مصر أى من وادى حلفا وجنوبها ، وأنها تقبل فقط المسئولية من الأشخاص الذين ولدوا شمال تلك المحطة (حلفا) ويضيف لوجارد «وبتطبيق نظرية الاحتلال الفعلى» فإن مصر ليست لها حقوق على السودان الجنوبى بسبب أن أقرب نقطة تسيطر عليها (تقيم فيها الأمن ، تباشر فيها رعاية الأهالى ، وتحافظ على ممتلكات الأجانب تبعد بحوالى الألفين ميل وقد بقيت على ذلك خلال السنوات التسع الماضية [٧]» .

---

(٧) لوجارو جزء ٢ ٥٧٢/٥٧١ .

=

وأرسلت بريطانيا بعثة تحت رئاسة رنل رود لعقد معاهدة مع النجاشى . وقد فشلت هذه البعثة فى مسعاها لتحويل النجاشى عن صداقته للفرنسيين ، وصار أمرًا لامفر منه أنه تلتقى فرنسا وإنجلترا وجها لوجه فى أعالى النيل ، ولما كانت فرنسا لم تعترف بمركز إنجلترا فى حوض النيل وظلت تقاومه مايقرب من المائة عام ، وأن زحفها على منطقة بحر الغزال واحتلال مارشان لفاشودة وتونكود لشامبى كان يهدف إلى ابطال حجة إنجلترا فى ادعاءاتها باحتلال مصر لتحقق أحلامها فى ربط مصر مع الكاب وشرق أفريقيا من جهة ومع غرب أفريقيا وشركة النيجر البريطانية من جهة أخرى على حد قول الجنرال مانجان (٨) لذلك أسرعت بريطانيا بارسال الحملة المصرية بقيادة كتشنر باشا سردارها ، ولم تشترك القوات البريطانية فى المرحلة الأولى من أعمال الحملة .

وننتقل الآن إلى النشاط فى القاعدتين الشرقية والغربية والتى برز منها الصراع فى صورته السافرة على أرض فاشودة .

المنطقة الشرقية:

تنقسم هذه المنطقة بالنسبة لموضوع البحث ثلاث أقسام أولهما أثيوبيا ـ الهضبة الحبشية الخالصة ، ثانيهما القرن الأفريقى وهو الجزء الذى يطل على خليج عدن وشاطئ المحيط الهندى ـ بحر الزنج ـ الواقع جنوبى خليج عدن حتى مصب نهر الجوبا وثالثها شرق أفريقيا وكينيا وأوغنده وقد كانت مصر تسيطر على الجانب الأكبر من هذه المنطقة فيما عد أثيوبيا التى تحتل مركزًا ممتازاً بين جاراتها إلتقت فيها الهجرات من جنوبى غربى آسيا والمجموعات الأفريقية من مختلف الدانية والقاصية كما امتدت إليها المدينة المصرية منذ فجر التاريخ ، وتأثرت بتطور الحياة فى شمال الوادى ـ مصر ـ فى مختلف العصور ، وقد ازدادت أهمية أثيوبيا فى استراتيجية حوض وادى النيل بعد افتتاح قناة السويس الأمر الذى أدخل هذه القلعة الأفريقية فى نطاق السياسة الدولية جعلها عنصراً له خطورته فى اعتبارات الجغرافية السياسية (الجيوبولوتكس) لهذا الجزء

= تصريح تيحران باشا فى مطبوعات البرلمان البريطانى ٧٣٠ بتاريخ ٢٧ أغسطس ١٨٩٢ ، وتصريح هاردنج بتاريخ ٧ أغسطس سنة ١٨٩٢م .

(٨) لانقر ، ص٥٣٨ .

من شمال شرقى أفريقيا ، وبينما تمتاز هذه المنطقة فى مجموعها بوجود منابع النيل وروافده فى أراضيها فإن أثيوبيا الهضبة الحبشية تسيطر على الجانب الأكبر من موارد المياه التى تمد نهر النيل بالماء والطمى فمنها يخرج السوباط والنيل الأزرق برافديه الدندر والرهد ، والعطبرة وتلتقى هذه بمجرى النيل الرئيسى كما يخرج منها القاش وخور بركه وهما لايتصلان بالنيل إلا أن لهما أهمية فى اقتصاديات شرق السودان ـ فى زراعته ومياهه الجوفية بخاصة البطانة وبالاضافة إلى ذلك فإن أثيوبيا تطل ، وهى فى وضعها الأقليمى الطبيعى على الجانب الجنوبى الغربى لحوض البحر الأحمر ، وتمتد سيطرتها على الساحل الأفريقى لخليج عدن وبحر الزنج ـ من المحيط الهندى ـ إلى نقطة عند مصب نهر الجوبا فهى بذلك تتحكم على جزء كبير من الطريق الملاحى عبر البحر الأحمر وعلى مدخله الجنوبى ـ بوغاز باب المندب وخليج عدن ـ ويشكل هذا الوضع الأقليمى على منافذ التجارة العنصر الحساس فى السياسة الدولية بعد أن صار حوض البحر الأحمر ممرًا تجاريًا بحريًا بعد افتتاح قناة السويس ، وقد أكسبت هذه المميزات الأقليمية الساحلية نشاطًا بحريًا اشتغل به الأثيوبيون فى الأزمنة الماضية كان لهذه السيطرة ولهذا النشاط أثرهما فى توجيه السياسة الأوروبية ، فبالرغم من أنها دولة مسيحية كانت الدول المسيحية فى الغرب تسعى إليها فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر لتوثيق عرى الروابط وللتعاون على حرب المسلمين كم سبق أن أشرنا فى الكتاب الأول ، فإن السياسة الدولية الحديثة التى تؤمن بمصلحتها الاقتصادية وبرسالتها لنشر المدنية بين الشعوب الأخرى غير الأوروبية قد تعاملت مع أثيوبيا على أساس أنها دولة شرقية متخلفة يجب أن تخضع كغيرها لرسالة الأوروبى فتتقبل ما يسمح لها به من مدنيته فى نطاق مصلحة الأوروبى وأقامت هذه الدول مناطق على طول ساحلها خضعت لسيطرتها فعزلت بذلك أثيوبيا عن حوض البحر الأحمر وخليج عدن والمحيط الهندى وقد تقاسمت هذه المناطق إيطاليا وفرنسا وبريطانيا ـ الأرتيريا ـ الصومال الفرنسى ـ الصومال البريطانى والصومال الإيطالى ، وصارت تجارتها الخارجية لاتمر إلا عبر هذا الحاجز وبخاصة المنطقة الفرنسية التى يخرج منها خط السكة الحديد جيبوتى ـ أديس أبابا ، ويبدو أن هذا الحاجز قد أقيم أساسًا ليخدم مصلحة هذه الدول فى مسألة الرقيق ومنع استيراد الأسلحة والذخائر التى قد تتسرب فى كميات كبيرة إلى المناطق

الأفريقية الأخرى فتخلق قلقًا للمستثمرين ، وبالاضافة إلى ذلك فإن الدول تهدف إلى حرمان أثيوبيا من السيطرة على ساحلها حتى لاتتجدد لها أمجادها البحرية ولكى تحافظ على اقتصاديات فى مستوى بدائى هزيل ، ولحرمانها من استغلال مواردها المعدنية الغنية .

ارتباط أثيوبيا بحوض النيل:

وقد اتصلت أثيوبيا فى مختلف أوضاعها الأقليمية بتطورات الحوادث فى حوض النيل ويهمنا فى بحثنا هذا التعرض لهذه التطورات التى حدثت فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادى ، وقد أشرنا فى الكتاب الأول إلى العلاقات فى الفترة من الزمن التى سبقت القرن الثامن عشر ، فقد اتجهت إليها السياسة البريطانية لتتخذ منها قاعدة تتحرك منها قواتها العسكرية لغزو مصر إذا عادت فرنسا لاحتلالها بعد خروجها منها فى سنة ١٨٠١م وجاءت إليها حملة نابيبر قبيل افتتاح قناة السويس وخرجت منها بعد إخلاء سبيل البريطانيين الذين احتجزهم النجاشى تيودوروس فى سجنه كما سبق أن أوضحنا هذا من ناحية بريطانيا فى خططها لمقاومة النفوذ الفرنسى ومن ناحية أخرى بدأت الدول بما فيها بريطانيا فى محاولات فى تثبيت أقدامها فى حمى الصراع وذلك بالحصول على معاهدات ووثائق من الزعماء المحليين يكسبون بموجبها ملكية لبعض هذه الأقاليم التى أخذت رقعتها فى الاتساع شيئًا فشيئًا ، ولم تكن هذه المعاهدات والوثائق لقاء ثمن معقول بل بالعكس كانت تارة عن طريق التخويف وطورًا نظير هدايا زهيدة القيمة من قماش وخمر ، وقد فرضت هذه المعاهدات فرضًا على الزعماء المحليين سواء رضى هؤلاء أو لم يقبلوا وكان مافى يد ا لأوروبيين من وثائق هو الحجة التى يلتزم بها الزعماء لفرض الحماية ودخول بلادهم ضمن مناطق النفوذ ، والامتيازات وقبول النصحية . وكل هذه تهدف إلى تحطيم النظم السياسية والاجتماعية فى تلك المنطقة كما فى غيرها من المناطق الأفريقية لتخضعها لخدمة الاستعمار ، ومع الأسف فإن هذا المسلك لايعدو عن كونه سرقة منظمات استعلمت فى الحصول عليها وسائل قانونية زائفة فى أحط درجات التدليس والتزوير .

وقد اتخذت منها كل من فرنسا وبريطانيا قواعد لنشاطهما نحو وادى النيل كما كان لأثيوبيا نفسها دور هام فى الصراع بين الدولتين المتنافستين وقد حاولت أن توطد علاقاتها مع زعماء

المهدية وبخاصة فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر الميلادى عندما اشتد الصراع ودخل فى مرحلته الفاصلة . ويهمنا أن نتعرف على الوضع فى هذه المنطقة فى الفترة التى سبقت الحركة المهدية وعلى تطور العلاقات والأحداث التى تسببت فى انسحاب مصر من شاطئ البحر الأحمر والمناطق التى كانت تسيطر عليها الإدارة المصرية .

تقسيم المناطق المصرية فى حوض البحر الأحمر:

النشاط البريطانى:

امتدت إدارة مصر على ساحل البحر الأحمر حتى رأس غورد فواى وذلك فى السنوات ١٨٧٤/١٨٧٣م وأحتلت هرر فى سنة ١٨٧٥ ، وأرسلت حملة الجوبا فى سنة ١٨٧٥م ، ودخلت مصر فى حرب مع أثيوبيا فى عامى ١٨٧٥ و١٨٧٦م انتهت بهزيمة ساحقة للقوات المصرية التى دخلت البلاد من أكثر من جهة تحت قيادة ضابط من الفرنج فقد كان الخديوى وتؤيده إنجلترا يتعقب منافذ تجارة الرقيق إرضاء للدول الأوروبية ، وقد دفعه إلى هذا المسلك رغبته فى الحصول على معاونة تلك الدول فى أزمته المالية ، ومما يؤسف له أنه تقبل نصيحة مستشاريه من الفرنج وأسقط مصلحة بلده من حسابه ، وفاته أن المطامع الاستعمارية كانت تخفى وراء تأييدها له فى توسعه خطى ترمى إلى استنزاف آخر قطرة من دم مصر لتصبح عاجزة يثقل كاهلها الدين فيسهل على الدول وبخاصة انجلترا أن تستولى على المناطق التى تديرها مصر ، وقد أتخذت هذه الدولة من الخديوى مشعلاً أنار لها الطريق ومهده لدخولها واحترق بعد أن أستنفذ طاقته واحترق فكان خلعه عن عرش مصر . وجاء الاحتلال البريطانى لمصر فى سنة ١٨٨٢ وكانت من نتائجه أن أجبرت مصر على الانسحاب من شاطئ البحر الأحمر الأفريقى وأستولت بريطانيا على النقاط الاستراتيجية وأعلنت حمايتها على ساحل الصومال وميناء زيلع ، ومما يجدر ذكره أن بريطانيا قد مهدت لهذا باتفاقية ٧ سبتمبر سنة ١٨٧٧ بين مصر وبريطانيا ، وبالرغم من أن هذه الاتفاقية قد فقدت صلاحيتها لأن الباب العالى لم يصدق عليها طبقًا للمادة الخامسة فإن بريطانيا اتخذت منها حجرًا فى بناء سياستها .

واشتد النشاط الفرنسى فى منطقة أوبوك التى أخذت فى الاتساع حتى تكونت منها مستعمرة الصومال الفرنسى ، وخشيت بريطانيا من أن يكون هدف فرنسا بسط سيطرتها فى صورة ما على هرر ، وبخاصة بعد أن أنشأت فرنسا ميناء جيبوتى التى افتتحت فى عام ١٨٨٧م وتقع هذا الميناء فى خليج تاجورة الذى تخرج منه القوافل إلى هرر ، وبعد مفاوضات توصلت الدولتان إلى أن ألتزمت كل منهما بعدم القيام بمحاولة ضم هرر أو بسط الحماية عليها كما أوضحت الدولتان فى إعلانيهما أنهما لايتنازلان عن حقهما فى معارضة أية محاولة من جانب حكومة أخرى لامتلاك هرر أو المطالبة بأى حق عليها ، وكان ذلك فى الخطابين الذين تبادلهما السفير الفرنسى فى لندن المسيو وادنجتون واللورد سالسبرى بوصفه وزير الخارجية البريطانية فى ٢و٩ فبراير سنة ١٨٨٨ على التوالى كما أن الوزير البريطانى قد أخطر السفير الفرنسى بكتابه بتاريخ ٩ فبراير سنة ١٨٨٨ أنه قد أكد للسفير العثمانى بأن الحكومة البريطانية لاتتدخل لافى الماضى ولا فى المستقبل فى حقوق السلطان المشروعة ، ويأمل ا لوزير البريطانى أن تكون الجمهورية الفرنسية فى نفس الوضع [٩] وقد فهمت فرنسا هذا البند على صورة تختلف عما كان يجول فى ذهن رجال السياسة البريطانيين الذين أغفلوا نشر الوثيقتين حتى عام ١٨٩٤م حتى لاتعرقل مساعى إيطاليا فى بسط نفوذها على أثيوبيا وكانت إيطاليا التى احتلت مصوع فى ٣ فبراير سنة ١٨٨٥ بمساندة من بريطانيا قد أخذت فى التوسع فى الداخل . وعقدت معاهدة أوتشيالى فى ٢ مايو سنة ١٨٨٩م وحاولت أن تفسر البند السابع عشر بما يفيد أن النجاشى قد وافق على أن تتولى إيطاليا المسائل الأثيوبية الخارجية ، وكان معنى ذلك أن أثيوبيا قد صارت محمية إيطالية ، ونظراً لأهمية هذه النقطة لما نتج عنها من تطور فى الأوضاع نذكر فيما يلى الاختلاف فى تفسير هذا البند كما جاء فى النصين الأمهرى والإيطالى :

النص الأمهرى : البند ١٧ ــ سوف يكون لجلالة الملك ملوك أثيوبيا الحرية فى أن يستعين بالحكومة الإيطالية فى أية مفاوضات مع الحكومات الأخرى .

النص الإيطالى : البند ١٧ ــ سوف يكون جلالة ملك ملوك أثيوبيا ملزمًا بأن يستعين بالحكومة الإيطالية .

---

(٩) هرتسلت جزء ٢ ص٧٢٦/٧٢٨ ، ولف ص١٦٧ وما بعدها .

أوه «أن جلالة ملك ملوك أثيوبيايوافق على أن يستعين . . .»

وقد أخطرت إيطاليا الدول الأوروبية بصورة من هذه المعاهدة فى نصها الإيطالى لاثبات حقوقها على أثيوبيا طبقا لقرارات مؤتمر برلين سنة ١٨٨٥/١٨٨٤م وحاولت فرنسا استغلال الموقف لتسوية مشاكلها مع إيطاليا فى تونس بتنازل ايطاليا عن تلك المطالب نظير اعتراف فرنسا بمعاهدة ١٨٨٩ غير أن المفاوضة لم تنجح فبادرت فرنسا بعد نشر إيطاليا للكتاب الأخضر الذى احتوى على معاهدة ١٨٨٩م وذلك فى عام ١٨٩٠م بتحذير النجاشى بمضمون البند ١٧ كما جاء فى النص الإيطالى فبادر النجاشى بإخطار الدول بعدم اعترافه بالتفسير الإيطالى الخاطئ والذى لايتفق مع النص الأمهرى ـ وهو الذى يرجع إليه فى حالات الاختلاف ، وكان هذا الاخطار فى فبراير ١٨٩١م وأخذت العلاقات بين البلدين فى التدهور الذى انتهى إلى إعداد إيطاليا حملة لغزو الحبشة لإخضاعها بالقوة لقبول التفسير الإيطالى ، وقد منيت القوات البريطانية بهزيمة منكرة فى موقعة عدوة فى مارس ١٨٩٦ الأمر الذى أزعج بريطانيا لأن انهيار إيطاليا فى هذا الجانب من حوض النيل معناه ترك الباب مفتوحًا أمام فرنسا ، وعقدت إيطاليا معاهدة مع أثيوبيا فى ٢٦ أكتوبر سنة ١٨٩٦ اعترفت فيها باستقلال أثيوبيا . وكانت إيطاليا بعد هذه الهزيمة تفكر فى إخلاء الأرتيريا وأنتهز هذه الفرصة الملك ليوبولد الثانى ملك البلجيك وصاحب الكونغو الحرة وأرسل وكلاءه إلى روما لمفاوضة الحكومة الإيطالية للوصول إلى عقد اتفاق تبقى بموجبه مصرع فى يد الطليان وتنتقل الأرتيريا ومناطق النفوذ الإيطالية الموضحة فى معاهدة ١٨٩١ التى عقدت بين إيطاليا وإنجلترا إلى شركة الكونغو للاستعمار والاستثمار على أن يكون دخل هذه المنطقة مناصفة بين الدولتين إيطاليا والكونغو الحرة . وقد رفضت إيطاليا هذا المشروع .

وكانت إيطاليا قد عقدت معاهدة ثانية مع النجاشى بتاريخ أول أكتوبر سنة ١٨٨٩م منحت إيطاليا بموجبها قرضا قدره أربعة ملايين ليرة للنجاشى بضمان إيراد جمارك هرر وقد سقط هذا الدين وفق البند ا لثانى من معاهدة ٢٦ أكتوبر سنة ١٨٩٦م والذى أشار بإلغاء معاهدة ٢ مايو ١٨٨٩م التى كانت معاهدة أول أكتوبر سنة ١٨٨٩م تكملة لها كما نص البند الثالث من معاهدة أ كتوبر .

ويبدو أن ايطاليا بعد توقيعها معاهدة أوتشيالى فى سنة ١٨٨٩م كانت تهتم بالحصول على تأييد بريطانيا التى كانت بدورها تخشى من امتداد الحماية الإيطالية على أثيوبيا إلى السودان وبخاصة منطقة كسلا التى كانت إيطاليا تطمع فى امتلاكها ، وكانت بريطانيا تخشى أيضًا أن يطالب النجاشى بضم القسم المتاخم لحدوده من السودان إلى بلاده لذلك دخلت إنجلترا فى مفاوضة مع إيطاليا لتحديد موقفها بالنسبة لحوض النيل وقد توصلت الدولتان إلى عقد بروتوكولين بتاريخ ٢٤ مارس و١٥ أبريل على التوالى توضحت فيهما منطقة نفوذ إيطاليا وهى تبدأ من مصب نهر الجوبا وتمتد إلى الجزء الأعلى من حوض النيل الأزرق ويمتد الخط شمالا شرقيًا وينحرف من جنوبى كسلا إل رأس كسار على البحر الأحمر ولم تدخل فى المنطقة النفوذ هذه كسلا والجزء من نهر العطبرة ومسحت بريطانيا لايطاليا باحتلال كسلا إذا مادعت الضرورة العسكرية إلى ذلك على أن لاتقوم إيطاليا بأى عمل على روافد المياه من شأنه أن يتدخل فى مياه النيل لمصر وأوضحت بريطانيا حق مصر فى استرداد هذه المنطقة (منطقة كسلا إذا ما أحتلتها إيطاليا) عندما تحين الفرصة لمصر .

العلاقات بين أثيوبيا وإيطاليا والمهدية:

كانت لمصر فى أوائل عام ١٨٨٥م قوات عسكرية على الحدود الأثيوبية السودانية فى محطتى القلابات والجيرة وقد أتفقت ا لحكومة البريطانية مع النجاشى يوحنا على انسحاب هذه القوات وعودتها إلى مصر عن طريق أثيوبيا بسبب أن طريق النيل كان فى قبضة الدراويش ، وقد أخلت هذه القوات مراكزها فى الأيام الأخيرة من شهر فبراير سنة ١٨٨٥م بعد أن تركت أسلحتها وذخائرها ومهماتها كما نص الاتفاق الذى تم بين النجاشى والأميرال هيوت وماسون بك ، ولم تمض إلا بضعة أيام من انسحابها حتى دخلت القلابات الحملة التى أرسلها الإمام المهدى لاحتلال القلابات تحت أمرة عامله محمد ود الأرباب . ومما تجدر الإشارة إليه أن الإيطاليين قد أحتلوا مصوع فى اليوم الثالث من فبراير سنة ١٨٨٥م وأخذوا بعد ذلك فى التوسع فى داخلية المنطقة ، ولم يكن مجىء الإيطاليين إلى مصوع التى كانت تديرها مصر إلا بتحريض من إنجلترا التى أرادت أن تتخذ من الطليان درعًا لها لمقاومة المهدية من ناحية والنشاط الفرنسى فى أثيوبيا من ناحية أخرى مستغلة فى ذلك ما بين الفرنسيين والطليان ومن منافسة

فى تونس ، واستطاعت بريطانيا بمسلكها هذا أن تصيب عصفورين إيطاليا وفرنسا بحجر واحد فهى تعلم بمطامع الطليان فى المنطقة الساحلية إلى كسلا وتعلم أن فرنسا تحاول بسط نفوذها على أثيوبيا ، فإيطاليا ستقاوم تقدم الفرنسيين كما ستكون شركة فى جنب المهدية ، وتعمل فى الجانب الأثيوبى على جعل هذه البلاد منطقة نفوذ لها ، وبدخول الدولتين فى صراع فى هذه المنطقة من أفريقيا يتهيأ لبريطانيا بعض الوقت لتواجه مشاكلها الأخرى ، وتستكمل عدتها .

وقد ترك نزول الطليان فى مصوع أثره السيء فى نفس النجاشى يوحنا الذى أخذت مخاوفه وشكوكه فى الازدياد ، فقد كان النجاشى يأمل فى ضم مصوع إلى سلطانه ، وجد فى تسليم إنجلترا لإيطاليا باحتلال مصوع مخالفة للاتفاق الذى عقده مع الأميرال هيوت كما وجد أن الطليان قد أخذوا فى معاونة منافسه منليك حاكم شوا وتزويده بالأسلحة ، وبينما كان النجاشى قلقًا بسبب التعاون بين منليك والطليان كانت هناك قلاقل فى حدوده الغربية عند القلابات . فقد حدث أن طلبت أثيوبيا من عامل المهدية تسليم قاطع طريق يدعى الحاج على الذى التجأ إلى القلابات فلم يجبه العامل فأعد جيشًا بقيادة الراس عدار الذى هجم على القلابات فأحرقها وقتل عاملها محمد ود الأرباب ، وعين الخليفة عبدالله يونس الدكيم عاملا جديدًا وزوده بجيش كبير كما أرسل إلى النجاشى كتابًا يدعوه فيه إلى الاستجابة للدعوة المهدية ، ولما لم يجبه شرع يونس فى إرسال الغزوات إلى دخل البلاد الأثيوبية [(١٠)] فأحدثت الأضرار والخسارة فى المال والأرواح وفى أماكن العبادة مما دفع النجاشى إلى إعداد جيش لغزو القلابات ، وأخذ الرأس عدار فى تجهيز القوات وأرسل الخليفة حمدان أبوعنجه فى جيش كبير إلى القلايات استعدادًا لمواجهة تطورات الموقف ، وحمل أبوعنجه كتابًا ثانيًا من الخليفة إلى النجاشى يدعوه فيه إلى الطاعة ولما لم يجبه دخل أبوعنجه الأراضى الأثيوبية ، وأرسل النجاشى خطابًا إلى أبوعنجه يدعوه فيه إلى الصلح وذلك فى ديسمبر سنة ١٨٨٨ وكان رد أبو عنجه قاسى الألفاظ أغضب النجاشى إلى الحد الذى دفعه إلى أخذ العدة لحرب الدراويش بالرغم من مشغوليته بسبب نشاط الطليان فى الشمال ، ووصلت الجيوش الأثيوبية إلى القلابات

---

(١٠) أرشيف السكرتير الإدارى بالسودان ــ المهدية ــ ملف ١٢ ــ من الخليفة عبد الله إلى منليك ردًا على رسالة شفوية لتلاحق مجلة السودان فى وسائل ومدونات مجلد ٣٥ عدد ١ ، ص٦٥ .

فى ٩ مارس سنة ١٨٨٩م واشتبك الفريقان فى موقعة انتصر فيها الأثيوبيون فى أول الأمر إلا أن الانتصار قد انقلب هزيمة كبرى عندما أصيب النجاشى يوحنا بجراح مميتة ، وانتهز الطليان موت يوحنا وساعدوا منليك لتولى العرش وعقدوا معه معاهدة أوتشيالى التى سبق الحديث عنها ، وانتقل النشاط السياسى إلى داخل أثيوبيا وعقدت بريطانيا وإيطاليا اتفاقات ٢٤ مارس و١٥ إبريل سنة ١٨٩١و ٥ مايو سنة ١٨٩٤ الخاصة بمناطق النفوذ التى وضعت أثيوبيا بما فيها هرر فى دائرة النفوذ الإيطالى .



وكان الخلاف بين أثيوبيا وإيطاليا بشأن تفسير المادة السابعة عشر من معاهدة أوتشيالى وماتبعها من استعداد الفريقين ، وحاول النجاشى منليك تحت ضغط الزحف الإيطالى الاتصال بالخليفة عبدالله التعايشى للوصول إلى اتفاق على عمل مشترك لمقاومة النفوذ الأوروبى ، وقد كان رد الخليفة مقتضيًا وفى حذر [١١] . وقد بقيت المسألة معلقة إلى نهاية معركة عدوه وانتصار النجاشى الذى كتب للخليفة مبديا رغبته فى التفاهم ، وقد رد عليه الخليفة طالبًا منه كعربون للصداقة التى يريدها أن يطرد جميع الأوروبيين من السياح والتجار الموجودين فى أثيوبيا وبالرغم من أن النجاشى لم يقبل هذا العرض فإن العلاقات بينهما قد تحسنت وفى منتصف عام ١٨٩٧ أبدى الخليفة استعداده للتعاون فى حدود معينة ، وعمل للنجاشى على إحاطة الخليفة عبدالله علمًا بتحركات القوات الأثيوبية فى المنطقة المتاخمة للحدود بينهما لمنع ماقد يحصل من حوادث بسبب أو آخر ولا يعلم ما تم بصدد مطالب النجاشى الأقليمية فى السودان التى أوضحها فى كتابه إلى الدول الأوروبية فى أبريل سنة ١٨٩١م والذى جاء فيه بأن الحدود الفعلية لبلاده من ناحية الغرب تبدأ من كركوج (على النيل الأزرق جنوبى سنار) وتنتهى عند نقطة إلتقاء نهر السوباط مع النيل الرئيسى ، ويسير خط الحدود محاذيًا لمجرى السوباط حتى يصل إلى بحيرة سامبورا (رودلف) وجاء فى هذا الإعلان ما يفيد بعزم النجاشى على إعادة حدود أثيوبيا إلى أوضاعها القديمة وهى فى ذلك تمتد حتى الخرطوم ، وقد وعدت الحكومة

---

(١١) المصدر أنف الذكر جواب منلبك إلى الخليفة بتاريخ ١٥ أبريل سنة ١٨٩٦ ورد الخليفة بتاريخ ١١ يونية سنة ١٨٩٦ مجلة السودان فى رسائل ومدوقات ، مجلد ٣٥ ، عدد ١ ، ص٩٥ .

الفرنسية بتعضيد النجاشى فى مطالبه الأقليمية لإعادة حدوده إلى الوضع الذى زعمه ، وأن إرسال النجاشى لهذا الإعلان يتمشى مع الصلاحيات التى قررها مؤتمر برلين سنة ١٨٨٥/١٨٨٤ بشأن إثبات «حق التملك الفعلى» وقد أرسل النجاشى حملتين إلى النيل الأبيض للعمل مع مارشان كما سنوضحه فيما بعد كما أرسل حملة أخرى صوب النيل الأزرق .

العلاقات بين أثيوبيا وفرنسا:

أوضحنا من قبل الدور الذى لعبته فرنسا فى تحذير النجاشى بما جاء فى تفسير إيطاليا للنبد السابع عشر من معاهدة أوتشيالى ، واستعدادها لتأييد النجاشى فى مطالبه الأقليمية ، ويرجع نشاطها هذا إلى رغبتها فى انشاء علاقات صداقة تربط بينها والخليفة عبدالله الأمر الذى كانت تهدف إليه لنجاح حملة مارشان ، وقد حاول النجاشى فى عام ١٨٩٥م فتح باب المفاوضة مع فرنسا لاقامة علاقات سياسية وتجارية على دعائم أقوى مما كانت عليه فى معاهدة سنة ١٨٤٣م التى عقدت بين لويس فيليب وملك شوا إلا أن فرنسا قد أبدت تحفظًا بسبب حالة التوتر التى كانت قائمة بين منليك والطليان قبيل موقعة عدوة ، وبعد أن انجلى الموقف بانتصار أثيوبيا واستردادها لحقوقها أبدى الرئيس الفرنسى فيلكس فور استعداده للدخول فى المفاوضة لعقد المعاهدة المشار إليها ، وتكونت فعلا بعثة دبلوماسية فرنسية للسفر إلى أديس أبابا وتعين لاجارد رئيساً لها ، وقد وصلت هذه البعثة إلى أوبوك فى ديسمبر سنة ١٨٩٦ ، وأرسل وزير المستعمرات الفرنسى أندر ليبون بعثة أخرى تولى أمرها بونفالي ـ بونشان لاعداد حملة من أديس أبابا إلى النيل الأبيض لتقوم بمعاونة حملة مارشان ولعدادها ، وقد طلب ليبون من لاجارد أن يتعاون مع هذه الحملة لضمان نجاح مارشان غير أن لاجارد كانت له شخصية من طراز خاص ، فقد تجاهل وجود هذه البعثة وحاول أن يعد بنفسه حملة أخرى لتسبق الحملة التى أرسلها وزير المستعمرات ، وكان لمسلك لاجارد أثره فى فشل هذه الحملة فى بلوغ الغرض الذى كونت من أجله ، وحاول لاجارد من ناحية أخرى تحريض النجاشى للقيام باحتلال فعلى لمناطق النيل الأبيض التى أوضحها فى إعلانه للدولة فى ١٨٩١م وقد لاقى النجاشى الأمرين من السياسة

الغربية وخداعها لذا أراد أن يتفادى ماقد يقوم فى المستقبل من عقبات لو أرسلت حملة فرنسية خالصة فأعد حملة أثيوبية صحبها بونشان الفرنسى ورجال بعثته عدا بولفالى الذى عاد إلى بلاده ومعهم المغامر الروسى أرتامنوف وقد وصلت الحملة إلى السوباط فى ديسمبر سنة ١٨٩٧م عند نقطة تبعد حوالى مائة ميل جنوبى فاشودة ، ولم تستطع الانتظار بسبب قلة الأغذية والمتاعب الأخرى وعادت أدراجها إلى أديس أبابا ، وأرسلت حملة ثانية وصلت إلى النيل الأبيض فى ٢٣ يونيه سنة ١٨٩٨م وعادت أدراجها قبل وصول حملة مارشان إلى فاشودة بأسابيع قليلة .

ويبدو أن النجاشى كان يشعر بالتزامه بمعاونة فرنسا فى تحقيق أهدافها السياسية فى حوض النيل الأعلى ففى ٢٠ مارس سنة ١٨٩٧ وقع النجاشى اتفاقية سرية مع لاجارد ممثل فرنسا بخصوص السيطرة على حوض النيل الأبيض التى صدق رئيس الجمهورية الفرنسية على هذه الاتفاقية فى ٢٤ مايو سنة ١٨٩٧ ومما يجدر ذكره أن هذه الاتفاقية قد تم توقيعها فى نفس اليوم الذى تم التوقيع فيه على الاتفاقية الفرنسية الأثيوبية بشأن مسألة الحدود بين المنطقة الساحلية الفرنسية وبين أثيوبيا ويخيل لى أن هذه الاتفاقية لم تكن إلا ستارًا لإخفاء الاتفاقية السرية .

وقد جاء فى البند الأول من الاتفاقية السرية تعهد فرنسا بتأييد النجاشى بقدر المستطاع ليتمكن من المحافظة على سيطرته على ضفة النيل ، وجاء فى هذا البند أيضًا «أنه بينما يتمكن النجاشى من تثبيت سيطرته على الضفة اليمنى للنيل الأبيض فى المنطقة جنوبى خط عرض شمالى ١٤ فأنه يعاون بقدر الطاقة معتمدى الحكومة الفرنسية ـ الموجودين فى المنطقة الواقفة على الضفة اليسرى للنيل الأبيض بين خطى عرضى شمال ١٤و٥,٣٠ وجاء فى البند الثانى الاتفاق على رفع العلم الفرنسى على الشاطئ الأيسر كما يرفع النجاشى علمه على الشاطئ الأيمن ، وجاء فى البند الثالث ما يمنع الفرنسيين من احتلال أى منطقة من شرق النيل الأبيض ، وأنه لا يحق لهم أن يدخلوا تلك المنطقة إلا إذا دعت الضرورة فقط (١٢) .

---

(١٢) نص الإتفاقية السرية فى كتاب الوثائق الدبلوماسية الفرنسية جزء ١٣ ، ص٩/٢٧٨ ، كما ذكره ساندرس فى مقاله عن الأمير سليمان ابن الجر عبد الله .

وقد ذكر السيد محمد عثمان خالد فى أقواله أمام ضابط المخابرات للقوات المصرية الإنجليزية وذلك بتاريخ ١٥ سبتمبر سنة ١٨٩٨ . أن مندوبين قد وصلا إلى الخليفة يحملان خطابات من النجاشى ، وكان أحد الرسولين يدعى السيد محمد الطيب وهو من مسلمى الجبرته ويعمل فى خدمة النجاشى . وثانيهما رسول الخليفة الخاص ويدعى السيد محمد البشرى ، وأوضح السيد محمد عثمان أن السيد محمد الطيب قد أحضر إلى الخليفة علمًا صغيرًا مكونًا من ثلاثة ألوان وذكر أن هذا العلم قد تسلم إليه فى أديس أبابا بحضور القنصل الفرنسى لاجارد وطلب منه منليك أن يبلغ الخليفة أنه فى حالة تقدم الانجليز لمحاربته فعليه أن يرفع هذا العلم لوقف تقدمهم كما طلب إليه أن يرفع العلم إذا جاءت قوة فرنسية إلى بلاده فإنها سوف لاتسبب له ضررًا ، وقد رفض الخليفة بشدة أن يتقبل حماية دولة أوروبية (١٣) . ومن هذا يتضح أن المعاهدة التى قيل أنها قد عقدت بين النجاشى والخليفة لاتقوم على أساس (١٤) .

ومما لاشك فيه أن النفوذ الفرنسى كان قويًا فى أديس أبابا فى السنوات القليلة من نهاية القرن التاسع عشر الميلادى . وقد استطاعت أن تعرقل مساعى بعثة رنل رود ــ ونجت باشا التى ذهبت إلى أديس أبابا فى مايو سنة ١٨٩٧م فى محاولة لاقناع النجاشى لتخطيط الحدود الأثيوبية السودانية ولتطلب من النجاشى سحب مطالبه بالمنطقة الواقعة على الضفة اليمنى للنيل الأبيض وقد رفض منليك لاستجابة لمقترحات البعثة ، وقد قنعت البعثة بالحصول على وعد من النجاشى يمنع إرسال الأسلحة إلى الدراويش (١٥) وكانت فرنسا متهمة بامدادهم بالأسلحة . وقد طلبت البعثة تأجيل بحث هذه المسائل إلى مابعد فتح أم درمان وهى تضمر فى نفسها أنه يمكن استخدام قطع نيلية قوية على النيل الأبيض وسوف يكون لها أثرها فى تثبيت حقوق مصر وبريطانيا (١٦) .

(١٣) نقلاً عن مقال ساندرسن عن الأمير سليمان ابن الجر عبد الله ــ مجلة السودان فى رسائل ومدونات مجلد ٣٥ جزء أول ، ص٥٩/٦٠ .

(١٤) أشار إلى المعاهدة عبد الله حسين فى ص٢٥١ .

(١٥) مذكرة ونجت وكلانجن المرفقة مع كتاب رود إلى سالسبرى ــ أوراق دار المحفوظات العامة البريطانية ــ وزارة الخارجية/ ١/ ٣٢ نقلاً عن مقال ساندرسن مجلة السودان رسائل ومدونات مجلة ٣٥ جزء أول ص٦٤ .

(١٦) نفس المصدر أنف الذكر ويلاحظ هنا أن بريطانيا قد أوضحت أن لها حقوقًا .

النشاط الروسى فى أثيوبيا:

اشتد نشاط الروس فى أثيوبيا فى صورة واضحة منذ يناير سنة ١٨٩٥م ذلك لشد أزر فرنسا فى الصراع بينها وبين إنجلترا ، وقد اتخذ النشاط الروسى مظاهر غايتها الاهتمام بالمسائل الجغرافية والدينية ، وجاء إلى أديس أبابا مغامر روسى يدعى ليونتيف فى أوائل عام ١٨٩٥م ومعه هدايا غالية للنجاشى ، ورد النجاشى على ذلك بإرسال بعثة إلى القيصر الروسى لتقديم التحية . وعاد ليونتيف إلى أديس أبابا فى نهاية العام ويعتقد أنه قد قاد المدفعية الأثيوبية فى موقعة حدوده . وأصدر النجاشى أمره بتعيين ليونتيف هذا حاكمًا لمديريات خط الاستواء الأثيوبية ومعه البرنس هنرى دى أورليانس الفرنسى كمساعد له .

وحاول الضابط الروسى أشاكوف أن يربط بين الكنيسة الأثيوبية وبين الكنيسة المسكوفية . وكان هنالك روسى آخر يدعى بولا توفيك ومعه عدد من القوزاق وبعض الفرنسيين وقد رافقوا حملة الراس ولد جيورجيوس .

وقد أخذ النشاط الروسى فى الخمود بعد انتهاء الصراع الفرنسى البريطانى وما كان له أن يستمر وليست لروسيا مطامع فى هذه المنطقة أكثر من معاونة صديقتها فرنسا ضد إنجلترا .

النشاط البلجيكى فى أثيوبيا:

أوضحنا فيماسبق محاولة الملك ليوبولد الثانى الاستيلاء على الأرتيريا عدا مصوع التى تترك للطليان ، وعلى منطقة نفوذ إيطاليا التى تشمل أثيوبيا وإدارة هذه المنطقة بشركة الكونغو للاستعمار وقد فشلت المفاوضة بعد أن تمت صياغة الاتفاقية وكان ذلك فى نهاية عام ١٨٩٦م . وجاء فى عام ١٨٩٧م البرنس هنرى دى أورليانس لانشاء شركة رأس مالها ١,٨٠٠,٠٠٠ فرنك لأغراض التعمير وقد كان ليوبولد الثانى مهتمًا كله بهذه الشركة التى كانت مؤسسة بلجيكية وبالرغم من أن هذا المشروع لم يقدر له النجاح فإنه يعطينا صورة من النشاط البلجيكى الذى يهدف إلى ربط الكونغو مع أثيوبيا وبالتالى مع البحر الأحمر .

شرق أفريقيا، كينيا، أوغندا:

يختلف هذا الجزء الثالث من المنطقة الشرقية فى أكثر من ناحية ، فبينما نجد أن سكان القسمين الأول والثانى ـ أثيوبيا والقرن الأفريقى ـ يرتبطان ارتباطًا وثيقًا بالمنطقة الأولى التى تشمل حوض النيل فى شطريه مصر والسودان فى الحضارة والمدنية على درجاتها المختلفة نسبيًا ، فإن هذا القسم الثالث تسكنه أقلية لها ماض حضارى ، وأن غالبية سكانه من مجموعات من الأفريقيين الذين تفاوتت درجات أفريقيتهم ، وهم فى صورة عامة يعتمدون اعتمادًا أساسيًا على الزراعة والرعى لذلك قد وجد فيهم الأوروبى مجالا لم يصطدم فيه بتقاليد ووراثات قديمة تناصبه العداء بين الفينة والفينة كما أن الأوروبى قد استطاع استغلال ضعف هؤلاء فى السيطة عليهم وتسخيرهم لخدمته فى الزراعة وموارد الثروة المعدنية مخالفًا فى ذلك تلك الأسطورة الكبرى التى ادعى الأوروبى أنه قد جاء لتحقيقها وفى مقدمة ذلك خرافة الرقيق والعمل على رفاهية السكان المحليين ، وترويضهم على قبول رسالة المدنية الأوروبية ، وهذه هى الأسس التى اتفقت الدول على مراعاتها فى قرارات مؤتمر برلين سنة ١٨٨٤/١٨٨٥ وبروكسل عام ١٨٩٠م . فالرقيق قد اتخذ وسيلة لامتلاك أراضى الوطنيين ، وأن الاستيلاء على أرض الوطن التى هى عماد حياته معناه أن يكون الوطنى مستعبدًا اقتصاديًا يسعى لخدمة الأجنبى لقاء فتات العيش الذى يتركه له ، وأصدر المستعمر الأوروبى القوانين والتشريعات الخاصة باستخدام الأهالى كل فى منطقته وتحرم عليه الانتقال من سيد إلى سيد ، وينقل الوطنى من مكان إلى مكان للخدمة فى المناجم والمصانع ويفرض عليه أن يعيش فى الحدود التى ترسم له فأجوره غاية من الغبن معيشته ومسكنه من أحط الدركات ، وكل هذه تهدف إلى تحطيم النظم الاجتماعية المحلية وهدم الأسرة ، ولم تختلف دولة عن أخرى من الأسس التى قامت عليها تنظيمات العمل والتى لم يقصد منها أصلا إلا منع المنافسة بين المزارعين الأوروبيين لتخفيض التكاليف فى الانتاج . ولو ترك أمر العمل لحرية الوطنى لكان التنافس والهجرات من منطقة إلى أخرى بل من ولاية إلى أخرى وفى هذا مافيه من سبل يجتمع فيها الوطنيون فى حرية يتشاورون ومن هنا تبدأ مرحلة التطلع إلى المزيد وهذا مايخشاه الأوروبى ، ويعمل على منعه ولو إلى حين . وقد تجاوزت بعض الدول ـ إن لم تكن كلها فى صورة أو أخرى ـ القيم الإنسانية

فى معاملتها للأهلين وتسخيرهم للعمل الآلى تحت ظروف قاسية ـ من تغذية سيئة وحرمان من العلاج فتفشت بينهم الأمراض المختلفة ، وزادت على ذلك بالقتل والتعذيب لأقل الأسباب كما حدث على نطاق واسع فى الكونغو الحرة الأمر الذى أثارت فضائحه الرأى العام الأوروبى ، وتصور لنا القسوة التى مارسها الأوروبى بين الشعوب التى جاء لتمدينها ورفاهيتها الأكذوبة الكبرى التى قامت عليها رسالته التى اتخذها معبراً لتحقيق سيادته التى تهدف نحو الحصول على مغانم مادية اختص بها لنفسه فقط وجعل من الوطنى منبوذاً لا يرتقى إلى مستوى الأوروبى ، وبالرغم من ضآلة الجهود التى بذلها المبشرون لتعليم الوطنى إذا قورنت بما يصرف على الأوروبيين المستوطنين فى البلاد الأفريقية ، والتى رسمت مناهجه لخدمة الحكومات ، فإن ذلك قد دفع بالوطنى إلى اليقظة بعد أن أخذت الصدمة النفسية التى تركها فى نفسيته دخول الرجل الأبيض الذى أعتقد فيه فى بادئ الأمر أنه الرجل المختار الذى جاء لرعايته .



وقد بدأ الصراع فى مرحلته الأولى بين الأوروبيين والمجموعات من العرب إلى استوطنت ساحل أفريقيا الشرقى ـ بحر الزنج ـ وكانت فيها سلطنة زنجبار (بحر الزنج) واشتد بعد ذلك التطاحن بين إنجلترا وألمانيا وعمل وكلاء البلدين على الحصول على معاهدات ومواثيق من الزعماء المحليين فى البلاد بطريقة أو أخرى . وتأسست الشركات التجارية البريطانية والألمانية . وجاءت البعثات التبشيرية ، وكل يعمل فى ميدانه الخاص لتحقيق هدف موحد هو بسط السيطرة ، فرجال الشركات قد حصلوا على امتيازات لانشاء المزارع واستغلال المناجم وفرض تنظيمات لخدمة مصالحهم ، وأخذوا ينفذون رويدًا رويدًا حتى أتموا تقويض الزعامات المحلية وتحطيم المجتمع كما تم لهم اغتصاب السيادة ، والسيادة فى نظر الأوروبى معناها تعطيل جميع الأجهزة القائمة وتسخيرها على الوجه الذى تراه ـ دون اعتبار للقيم الإنسانية والأخلاقية ـ وبالرغم من أن حكومتى بريطانيا وألمانيا لم تظهر اهتمامًا بنشاط وكلاء كل منها فى بادئ الأمر فإن عدم الاهتمام هذا قد أنقلب بعد وقت قصير إلى حماس شديد أقرب صورة إلى الصرع ، ولم يكن ذلك التعفف إلا مرحلة رياضة الفكر والرأى العام ، وامتدت سيطرة الدولة وحمايتها أو

سيادتها فى سرعة فائقة فى الممتلكات التى حصل عليها أولئك الأفراد ا لذين لم يكن نشاطهم موضع اهتمام دولتهم .

واشتد السياق فى التوسع بين الدولتين ، فألمانيا كانت تحاول أن يمتد سلطانها على منابع النيل والأقاليم المجاورة ، وأن تقيم حزامًا يبدأ من الشاطئ الأفريقى على المحيط الهندى وينتهى فى الجانب الغربى المطل على المحيط الأطلسى ، وكانت هذه الأطماع صورة لما كانت تفكر فيه فرنسا . ويبدو أن ألمانيا لم تكن فى مركز يسمح بالمبادءة بالعداء لانجلترا كانت تعتقد أن بريطانيا سوف تعاونها فى تثبيت أقدامها فى القارة الأفريقية نظير المساعدة التى قدمتها ألمانيا لانجلترا فى المشاكل الدولية وفى مقدمتها مسألة احتلال مصر .

وقد توغل المغامر الألمانى كارل بيتزر إلى حوض النيل الأعلى طمعًا فى وضع يده على خط الإستواء الذى كان يحكمه باسم مصر أمين باشا (ادوارد شنيتزر الألمانى) وكانت إنجلترا قد دبرت حملة إنقاذ أمين باشا لاخراجه من مديريته ، وجعلها أرضًا مباحًا بينما كانت موارده المحلية تكفيه للاحتفاظ بولايته التى شملت رقعة واسعة من الأرض ضمنها المادى ، واللاتوكا والأشولى والمورد والمكراكة الجزء ا لشمالى من الأنيورو ، وتنتهى حدودها الجنوبية فى نقطة شمال بحيرة فكتوريا ، ويتأخمها من الشمال مديرية بحر الغزال .

وقد أسهم فى حملة الانقاذ ولجنتها أباطرة الاستعمار ، الفرسان الثلاثة ليوبولد الثانى ملك البلجيك وصاحب الكونغو الحرة ووليم ماكينون مدير الشركة البريطانية الامبراطورية لشرق أفريقيا ، وهنرى استانلى الرحالة المعروف الذى عمل فى الكونغو لحساب ليوبولد الثانى ، وكان يعتقد أن الكونغو الحرة سوف تنتزعها بريطانيا فى يوم ما تضمها إلى أملاكها الأفريقية . وقد جمع استانلى لهذه الرحلة ١١,٥٠٠ جنيهًا وحصل من مصر على ١٠,٠٠٠ فصارت جملة المبلغ ٢١٥٠٠ جنيها وتزودت الحملة بخطابات من مصر إلى عاملها أمين باشا ، وكانت لجنة الانقاذ ورجالها الثلاثة ينظرون إلى مغنم كبير يعرض لهم المبالغ التى صرفوها ، فقد كان لدى أمين باشا حوالى الخمسة والسبعين طنًا من سن الفيل فى محطة وادلاى قدر ثمنها بحوالى الستين ألفًا من الجنيهات .

وأخذ المستعمرون بعد خروج أمين باشا قوة واقتداراً ثم مقتله على يد جماعة من الكنين ، على تقسيم أراضى المديرية فيما بينهم . ولم يكن من اليسير على المستعمر أن يستبقى الأوضاع التى عملت الإدارة المصرية على إنشائها لتقدم البلاد ورفع المستوى المعيشى فقد حملت شعلة العلم والمدنية دون شرط أو قيد لجنس أو لون كما فعل الأوروبى كما أنها أدخلت زراعة البيضاء والقطن والأرز والخضراوات وأستوردت أشجار الفاكهة من الهند وغيرها لزراعتها لمصلحة الأهالى لأنه لم تكن حينذاك وسائل للنقل سريعة لتصديرها إلى الخارج وشجعت الإدارة المصرية على غزل الدمور من القطن المحلى . وقد عمل الأوروبى على مطاردة العرب والتنكيل بهم واضطهاد الزعماء المحليين الذين فتحوا بلادهم للتجار من العرب ، وأنزلوهم عن سلطانهم ورفعوا من سار فى ركابهم ، وحتى تيبوتب (حامد بن محمد من كبار تجار زنجبار) الذى استعان بنفوذه الفرنجة فى الكونغو والأوغنده لم ينج من محاولة الغدر به كما اضطهد سليم بك مطر الضابط المصرى وأجبر على السفر وهو فى حالة المرض الشديد(١٧) وغيرهما كثير ، ولم تكن التهم التى وجهت إليهم ومنها الخيانة ، ولم تكن هنالك خيانة فى معناها الصحيح بل أنهم كانوا يمثلون الرسالة الإسلامية التى تقض مضاجع الاستعمار(١٨) ، واستخدم المستعمر الجنود من السودانيين الذين كانوا فى خدمة الجيش المصرى وبقوا فى خط الاستواء ، لإخضاع القبائل وأساء المستعمر إليهم بعد أن وصل إلى أغراضه فكان تمردهم .



وقامت على الساحل الأفريقى أفريقيا الشرقية البريطانية وأفريقيا الشرقية الألمانية وذلك فى مناطق النفوذ التى تقاسمتها الدولتان بمقتضى اتفاقيتى أكتوبر/ نوفمبر سنة ١٨٨٦ وأول يولية سنة ١٨٩٠م . وحاول وليم مكينون مدير الشركة البريطانية الأمبراطورية لشرق أفريقيا عقد معاهدة مع الملك ليوبولد الثانى بوصفه صاحب السيادة على الكونغو الحرة وقد تم الوصول إلى صيغتها النهائية فى ٢٤ مايو سنة ١٨٩٠م إلا أن الحكومة البريطانية لم توافق عليها وبقيت

---

(١٧) مات فى الطريق فى منتصف ليلة ١٦ أغسطس ١٨٩٣م . وقد اثنى عليه لوجارد ثناء عاطرًا واتهم مكدونالد بعدم فهمه للرجال ـ لوجارد جزء ٢ ، ص٤٨٨/٤٧٩ .

(١٨) جون . السرجون ملتر فى مقاله عن تيبوتب بمجلة أوغنده مجلد ١٩ جزء أول مارس ١٩٥٥ .

معلقة حتى عام ١٨٩٤م الذى اتفقت فيه الحكومتان الإنجليزية والكونغو الحرة على عقد معاهدة استمدت خطوطها العريضة من معاهدة ما كينون ليوبولد كما سنبينه فى القسم التالى من البحث الخاص بالمنطقة الغربية .

وكانت بريطانيا مهتمة باقامة حاجز حول حوض النيل الأعلى فى حدوده الجنوبية ليكون سداً أمام منافسيها وبخاص فرنسا التى كانت إنجلترا تخشى وصولها إلى حوض النيل وتثبيت أقدامها فتنتقل بذلك المشكلة المصرية فى حوض النيل إلى المجال الدولى ولفرنسا فيه الكثير من المناصرين . وفى الوقت الذى كانت فيه انجلترا تعالج المشاكل عن الطريق الدبلوماسى كانت تعد عدتها لتقوية أسطولها البحرى للساعة الفاصلة بينها وبين فرنسا ومناصريها من روسيا وألمانيا وقد كفت الدولة الأخيرة عن مساندة إنجلترا بعد أن خاب أملها فيها .

وكان نصيب هذا القسم الثالث من المنطقة الشرقية قاصراً على حماية ذلك المدخل الجنوبى الشرقى إلى حوض النيل الأعلى وخرجت حملات مكدونالد واستن الخ .

المنطقــة الغربيـــة:

جـاء الفرنسيـون ووكـلاء ليـوبولد إلى منطقـتى خط الاسـتواء وبحـر الغـزال وازداد نشـاط وكلائهما فى التسعة العاشرة من القرن الماضى ، وبدأ الزحف لبسط السيطرة عن الطريق الذى سلكته الدول فى الحصول على معاهدات ومواثيق من الزعماء المحليين وكان ذلك المسلك هو الطابع الذى تميزت به العشرين عامًا الأخيرة من القرن الماضى التى اشتد فيها التطاحن وبخاصة فى العشر سنوات الأخيرة . فقد كانت الكونغو الحرة دولة اعترفت بها الدول وهى وإن كانت قد سدت فراغاً فى الحزام الذى كانت تعمل بريطانيا على إقامته حول حوض النيل الأعلى كما أشرنا من قبل فإن الجانب الشمالى الغربى من هذا القطاع قد بقى فى حاجة إلى تدعيمه وربطه مع بقية الحلقة التى بدأت بايطاليا على ساحل البحر الأحمر وأثيوبيا ، وإنجلترا فى شرق أفريقيا والكونغو الحرة فى الجنوب ومنطقة نفوذ ألمانيا شرقى بحيرة تشاد . وكانت لفرنسا منطقة نفوذها بموجب إعلان فرنسا وبريطانيا بتاريخ ٥ أغسطس سنة ١٨٩٠م الذى تحددت فيه هذه

المنطقة فى الصحراء الكبرى وحدود منطقة النفوذ البريطانى بين النيجر وبحيرة تشاد ، واعترفت بريطانيا فى إعلانها بحماية فرنسا على مدغشقر .

وكانت منطقة النفوذ الألمانية التى أشرنا إليها قد تم الوصول إليها بين الدولتين فى الخامس عشر من نوفمبر سنة ١٨٩٣م . ومما جاء فى البند الرابع من هذه الاتفاقية «أن النفوذ الألمانى لا يمتد بعد حوض نهر شارى وأن دارفور وكردفان وبحر الغزال سوف لا تدخل فى نطاق النفوذ الألمانى حتى ولو كان أحد روافد نهر شارى يخرج من هذه المناطق غير أن طمأنينة إنجلترا بعد أن أتمت حزامها حول حوض النيل الأعلى قد انقلبت إلى قلق وذعر عندما تنازلت ألمانيا عن منطقة نفوذها هذه إلى فرنسا وذلك بالاتفاق الفرنسى الألمانى بتاريخ ١٥ مارس سنة ١٨٩٤م الذى حصلت منه فرنسا على منفذ إلى حوض النيل الأعلى فسارعت بريطانيا إلى عقد معاهدة مع الكونغو الحرة بتاريخ ١٢ مايو سنة ١٨٩٤ لمنع توغل الفرنسيين ودخولهم إلى حوض بحر الغزال ، وبموجب هذا الاتفاق أعطت إلى ليوبولد الثانى لمدى حياته منطقة اللادو (غرب النيل وبحر الجبل شرق خط طول ٣٠) وتبدأ جنوبا من بحيرة البرت إلى فاشوده شمالاً كما أعطت ليوبولد الثانى ولخلفائه من بعده المنطقة الواقعة ما بين خطى طول ٢٥ و٣٠ وتحد شمالاً بخط عرض شمالاً ١٠ ، ومنحت الكونغو إنجلترا ممرًا عرضه خمسة وعشرين كيلو مترًا بين بحيرة تنجانيقا وبحيرة البرت أدوارد وقد لقى هذا الاتفاق معارضة شديدة من ألمانيا فى احتجاجها وتهديدات فرنسا مما اضطر معه ليوبولد على تغيير موقفه ، وقد عقد اتفاقية مع فرنسا بتاريخ ١٤ أغسطس سنة ١٨٩٤ أوضح فيها الحدود بين ولايته فى الكونغو الحرة وبين مستعمرة الكونغو الفرنسية ، وقد التزم ليوبولد الثانى فى المادة الرابعة من هذه الاتفاقية بتنازله عن احتلال أى جزء أو مزاولة أى نشاط سياسى فى المستقبل فى منطقة حوض بحر الغزال داخل الحدود التى أوضحتها الاتفاقية(١٩) .

وكانت فرنسا فى نفس الوقت قد استعدت لارسال حملتها لاحتلال محطة فاشودة التى وقع عليها الاختيار بالنسبة لموقعها الاستراتيجى الخطير على مجرى النيل الرئيسى بعد خروجه من حوض بحر الغزال والتقائه بالسوباط وجاءت الحملة الفرنسية إلى هذه المحطة فى يوليه سنة

(١٩) هرتسلت ، ص٥٦٩/ ٥٧٠ نص الاتفاقية .

١٨٩٨ ، ووصلت بعدها حملة صغيرة استقرت فى شامبى ولم يكن قائدها يعلم شيئًا عن تحركات مارشان قائد حملة فاشودة . وقد سبق وأوضحنا الفشل الذى أصاب الحملة التى أرسلت عن طريق أثيوبيا ، وبقى مارشان فى فاشودة إلى أن جاءه كتشنر قائد حملة السودان وطلب منه الخروج من المحطة بوصفها بلدة سودانية تابعة للسودان الى استعادته مصر . وبعد مشاورات سياسية بين انجلترا وفرنسا أخطرت فرنسا إلى إخلاء فاشودة والانسحاب من تلك المنطقة ويرجع هذا التقهقر من جانب إلى ضعف أسطولها البحرى بالنسبة للأسطول البريطانى الذى استكمل عدته وصار على استعداد لمواجهة التطورات . وخرج مارشان من فاشودة فى عام ١٨٩٩ وعاد إلى بلاده عن طريق أثيوبيا وبقيت حملة شامبى التى قادها الضابط تنكودك وقوامها حوالى الثلاثين من الجنود السنغاليين ، وقد وصلت إلى شامبى فى ٢٠ مارس سنة ١٨٩٩[٢٠] بقيت فى محطتها حتى تسلمت أوامر الحكومة الفرنسية بالإنسحاب .

وهكذا انتهت مرحلة الصراع البريطانى الفرنسى الذى استمر أكثر من مائة عام فى هذا الجزء من القارة الأوروبية ، وقد اتخذ خلالها مظاهر مختلفة وانتقل من مكان إلى مكان ، وتصور لنا هذه الأحداث السياسية الأساليب والوسائل التى اتبعتها بريطانيا فى معالجة مشاكلها فى صبر وجلد غير عابئة باللطمات وما أصابها من فشل فى أكثر من موقف .

انسحبت فرنسا من حوض النيل بعد هذا العراك الطويل الذى كانت تهدف من ورائه مضايقة إنجلترا وإخراج مسألة احتلالها لمصر إلى الحقل الدولى الأمر الذى يزعج إنجلترا الإزعاج كله ، وقد بقيت بعد إخلاء الفرنسيين لفاشودة مشاكل كثيرة بين فرنسا وبريطانيا وبين أثيوبيا وبريطانيا لما كانت تدعيه الأخيرة لنفسها من حقوق فى حوض وادى النيل . أما عن فرنسا فقد عقدت معها الاتفاق الودى فى عام ١٩٠٤م الذى التزمت الدولتان فى مادته الأولى : أن بريطانيا تعلن أنها ليست لها فيه فى تعديل مركز مصر السياسى ، وأعلنت فرنسا من جانبها أنها لا تنوى اتخاذ أى إجراء من شأنه عرقلة أعمال بريطانيا فى مصر وذلك بطلب تحديد مدة احتلال إنجلترا لمصر . وشملت المواد الأخرى تبادل المنافع الخ الخ[٢١] ، وبدأت الدولتان صفحة

---

(٢٠) مقال البريجادير جنرل قيج ــ قطع السدود ، مجلة السودان فى رسائل ومدونات مجلد عدد ، ص٨ وما بعدها .

(٢١) هرتسلت ، ص٨٢٠/ ٨٢٢ .

جديدة فى التعاون فى الميدان الدولى أما أثيوبيا ومطالبها فى حوض النيل الأبيض وغيره من مناطق السودان فقد تحددت فى معاهدات عقدت فى هذا الشأن . وخسر السودان جزءاً كبيرًا من أراضيه الجنوبية والغربية والجنوبية الشرقية التى انتزعتها بريطانيا وضمتها إلى الأقطار المجاورة وفى مقدمتها الكونغو البلجيكية وأوغنده كما فقدت أسطورة الرقيق قيمتها كأداة للضغط السياسى وبقيت مشكلتان وهما التبشير والاستعمار .



هذه كلمة موجزة عن الصراع فى حوض وادى النيل بين الدولتين وما تخلف عنه من مشاكل كثيرة وبخاصة بعد أن انفردت بريطانيا بفرض سياستها وسيطرتها تحققت معها بداية مرحلة جديدة أساسها اتفاقية سنة ١٨٩٩م ، وهذه تتطلب دراسة أكثر عمقًا وتفصيلا لتحقيق العناصر الخفية . وترجو مخلصين أن تستهوى هذه الدراسة من يتوفر عليها .



جدول مختصر عن النشاط الدولى



١٧٩٨	نزلت القوات الفرنسية أرض مصر .
١٨٠٠ ٢٤ يناير	توقيع اتفاقية العريش بشأن جلاء الفرنسيين عن مصر
١٨٠١ سبتمبر	جلاء للقوات الفرنسية عن مصر .
١٨٠٢ ٢٧ مارس	معاهدة اميان بين انجلترا وفرنسا وأسبانيا وهولنده إلخ .
١٨٠٣ مارس	جلاء القوات البريطانية عن مصر .
١٨٠٥	محمد على واليًا على مصر .
١٨٠٧ ١٧ مارس	نزول حملة فريزر أرض مصر .
١٤ سبتمبر	خروج حملة فريزر من مصر بعد هزيمتها .
١٨١١/١٨١٩	حرب الوهابيين ــ مصر فى جزيرة العرب .
١٨١٢/١٨١٤	بورخارد فى رحلته إلى النوبة .
١٨١٥	مؤتمر فيينا الذى اقترح على الدول منع الرقيق .
١٨٢٠/ ١٨٢١	امتداد الإدارة المصرية إلى السودان .
١٨٢٧	وصل لينان دى بلفون إلى أعالى النيل .
١٨٢٨/ ١٨٣١	وصل الكاشف إبراهيم إلى ما وراء الخط العاشر عرض شمالاً
١٨٣٠ ٥ يوليه	اتفاقية بين فرنسا والجزائر ــ احتلال الجزائر .
٨ أغسطس	معاهدة بين فرنسا وتونس .
١٨٣١/ ١٨٣٣	زار روبل أثيوبيا .
١٨٣٣/ ١٨٣٤	أعلنت بريطانيا تحرير الرقيق .
١٨٣٣/ ١٨٣٧	حرب بين الأمير عبد القادر الجزائرى والفرنسيين .
١٨٣٧ ٣٠ مايو	اعتراف الأمير عبد القادر بالسيادة الفرنسية .
١٨٣٨	دفعت بريطانيا تعويضًا للمزارعين الإنجليز عن الرقيق .
١٨٣٩	حملة سليم قبودان لكشف أعالى النيل .

١٨٤٠	١٥ يوليه	اتفاقية بين بريطانيا والدول بشأن مصر .
	١٩ أغسطس	وثيقة بيع جزيرة موسى فى خليج تاجوره لبريطانيا .
	٢٧ أغسطس	وثيقة بيع جزيرة باب فى خليج تاجوره لبريطانيا .
	٣ سبتمبر	معاهدة تنازل بموجبها السيد محمد حاكم زيلع عن جزيرة أوباد القريبة من زيلع لبريطانيا .
١٨٤١	١٣ فبراير	فرمانات تركية عن حدود مصر (لمحمد على باشا) .
	١٦ نوفمبر	معاهدة بين بريطانيا وحاكم شوا (أثيوبيا) .
١٨٤٢	٢٨ يناير	أخطرت فرنسا الدول باحتلالها للجزائر .
١٨٤٣		معاهدة تجارية وصداقة بين ملك شوا وفرنسا .
١٨٤٩	٣ نوفمبر	معاهدة بين بريطانيا وأثيوبيا .
١٨٤٩		لفنجستون فى حوض الزمبيزى .
١٨٤٩/ ١٨٥٣		بارت وزميله فى رحلة من طرابلس إلى النيجر .
١٨٥٣/ ١٨٥٦		اخترق لفنجستون أفريقيا من الزمبيزى إلى لوانده .
١٨٥٥/ ١٨٥٩		صراع بين إنجلترا والولايات الأمريكية بسبب التجارة فى شرق أفريقيا وخليج العجم .
١٨٥٨/ ١٨٥٩		ريتشارد بيرتون وسبيك يكتشفان بحيرة تنجانيقا وفكتوريا نيانزا .
١٨٥٨/ ١٨٦١		رحلة لفنجستون الثالثة فى أفريقيا .
١٨٥٩	١٠ فبراير	معاهدة تجارية بين سردينيا وأثيوبيا .
١٨٦٠/ ١٨٦٣		سبيك وجرانت ـ سافرا عبر أوغنده إلى غندوكرو قابلاً السير صمويل بيكر فى سنة ١٨٦٣ .
١٨٦٣/ ١٨٦٤		بيكر يكشف بحيرة البرت .
١٨٦١	٢ أبريل	تحكيم بريطانيا بشأن استقلال كل من مسقط وزنربار .
١٨٦٢	١٠ مارس	اعلان كل من فرنسا وإنجلترا عن استقلال زنزبار .
١٨٦٢	١١ مارس	تنازل زعماء الدناكل عن أبوك بفرنسا .

١٨٦٥ مايو	فرمان تركى عن مصوغ وسواكن .
١٧٦٦/ ١٨٧١	لفنجستون فى تنجانيقا .
١٨٦٦/ ١٨٧١	شفينفورت . سافر من الخرطوم إلى نيام نيام وكشفه لنهر أويل .
١٨٦٩/ ١٨٧٣	صمويل بيكر فى خدمة مصر . حاكما على المناطق الجنوبية من السودان .
١٨٦٩ ١٧ نوفمبر	افتتاح قناة السويس .
١٨٦٩ ١٥ نوفمبر ١٨٧٠ ١١ مارس	اتفاقية عن بيع عصب لإيطاليا .
١٨٧٠	كشف ناختجال منطقة بحيرة تشاد .
١٨٧١	ستانلى يبحث عن لفنجستون لانقاذه .
١٨٧٤/ ١٨٧٧	ستانلى فى الكونغو بالنيابة عن ليوبولد الثانى .
١٨٧٤/ ١٨٧٦	غوردون فى خط الاستواء بدلاً من صمويل بيكر .
١٨٧٥	دى برازا الفرنسى فى حوض الكونغو الأدنى .
١٨٧٦	تأسيس الجمعية الدولية لكشف أفريقيا .
١٨٧٧ ٧ سبتمبر	إتفاقية بين مصر وبريطانيا بشأن ساحل الصومال .
١٨٧٧/ ١٨٧٩	غوردون حكمدارًا لعموم السودان .
١٨٧٩ ٢ أغسطس	فرمان تركى لا يسمح لمصربالتنازل عن أى جزء من ساحل الصومال لأية دولة أجنبية ، فرمان تولية الخديوى توفيق .
١٨٧٩ ٣٠ ديسمبر	اتفاقية بين سلطان رهيطة وشركة روباتينو الإيطالية يتنازل فيها عن جزائر أم البشار ورأس الرمل ودرماشيه .
١٨٨٠ ١٥ مارس	اتفاقية بين سلطان رهيطة يتنازل فيها عن للشاطئ والجزائر فى خليج عصب بين رأس لومه ورأس سنتيار .
١٨٨٠ ٢٠ سبتمبر	اتفاقية حماية إيطالية على رهيطة .
٢٥ ديسمبر	إعلان من فرنسا عن حدود أبوك .

١٨٨١	١٢ مايو	معاهدة احتلال فرنسا لتونس .
	٣٠ نوفمبر	دكريتو مصرى بشأن شرق السودان ويشمل مديريات التاكه ، ومحافظتى سواكن ومصوع ، وسنهيت والقلابات ، وتوابعها بما فيهم قبيلة الضباينة .
١٨٨٢	١٠ مارس	إتفاقية بين الحكومة الإيطالية وشركة روباتينو انتقلت بموجبها أملاك الشركة إلى الحكومة .
	١١ يوليو	بريطانيا تضرب الإسكندرية .
		موقعة التل الكبير واحتلال مصر .
١٨٨٣	١٥ مارس	معاهدة بين إيطاليا وسلطان عصب بشأن عصب صدق عليها ملك شوا بتاريخ ٢٢ مايو سنة ١٨٨٣ .
	١٢ مارس	معاهدة بين إيطاليا وشوا عن الحدود .
١٨٨٤	٢٢ أبريل	اعتراف الولايات المتحدة بالكونغو الحرة .
	٢٣/ ٢٤ أبريل	فرنسا والكونغو تتفقان على حق فرنسا فى الاستيلاء على الكونغو فى حالة إخلائه .
١٨٨٤	٣ يونية	معاهدة بين بريطانيا وأثيوبيا ومصر بشأن منطقة البوغوص والمسائل المتفرعة واعتراف النجاشى بحق بريطانيا فى الفصل فى المشاكل بينه وبين مصر بعد هذا التاريخ ، وحق النجاشى فى تعيين المطران لكرسى الحبشة .
	٢١ سبتمبر	معاهدة بين فرنسا وسلطان تاجوره حامد بن محمد يتنازل عن قبة خراب وتعهد السلطان بأن لا يدخل فى معاهدات مع الدول الأجنبية قبل الحصول على موافقة حاكم أبوك الفرنسى وفى هذه المعاهدة مخالفة لما جاء فى المادتين السادسة والسابعة من معاهدة ١٨٤٠ بين السلطان وبريطانيا .
١٨٨٤	١٥ نوفمبر	مؤتمر برلين للمسائل الأفريقية .
١٨٨٥	٢٦ فبراير	

١٨ أكتوبر	إقرار تنازل عن قبة خراب لفرنسا .
٨ نوفمبر	اعتراف ألمانيا بالكونغو الحرة .
١٤ ديسمبر	إقرار تنازل لفرنسا من اديلاى إلى امبادو .
١٦ ديسمبر	اعتراف بريطانيا بالكونغو الحرة .
١٦ ديسمبر	اتفاقية بين بريطانيا والكونغو الحرة بشأن الاختصاص القنصلى وغيره .
١٩ ديسمبر	اعتراف إيطاليا بالكونغو الحرة .
٢٧ ديسمبر	اعتراف هولندا بالكونغو الحرة .
نوفمبر ـ ديسمبر	معاهدات بين جمعية شرق أفريقيا الألمانية مع الزعماء المحليين
١٨٨٢/ ١٨٨٥	معاهدات بين بلجيكا والزعماء المحليين فى أعالى نهر الكونغو .
١٨٨٤/ ١٨٨٥	عودة غوردون لإخلاء السودان .
٢ يناير	معاهدة بين فرنسا وزعماء العيسى فى الصومال ـ حماية .
٧ يناير	اعتراف أسبانيا بالكونغو الحرة .
٢٦ يناير	سقوط الخرطوم فى يد الدراويش ومقتل غوردون .
٣ فبراير	احتلال إيطاليا لمصوع .
٥ فبراير	اعتراف فرنسا بالكونغو الحرة .
٥ فبراير	اتفاقية بين فرنسا والكونغو الحرة بشأن المحطات الخاصة والممتلكات .
٥ فبراير	اعتراف روسيا بالكونغو الحرة .
١٠ فبراير	اعتراف السويد والنرويج بالكونغو الحرة .
١٨٨٥ ١١ فبراير	اعلان فرنسا حمايتها على المنطقة من رأس على إلى قبة خراب .
١٤ فبراير	اعتراف البرتغال بالكونغو الحرة .
٢٣ فبراير	إعلان بلجيكا اعترافها بالكونغو الحرة .
٢٣ فبراير	اعتراف الدانمارك بالكونغو الحرة .
٢٧ فبراير	وثيقة الشركة الاستعمارى الألمانية .

	٢٦ مارس	معاهدة فرنسا بحمايتها على ساحل الصومال .
	١ أغسطس	اعلان من البلجيك عن تأسيس الكونغو الحرة تولى سيادتها ليوبولد الثانى .
	٢٤ أكتوبر	اتفاقية بين الباب العالى وبريطانيا بشأن الجلاء عن مصر الخ .
١٨٨٦	٢٩ أكتوبر ١ نوفمبر	اتفاقية بين بريطانيا وألمانيا عن حدود زنزبار .
١٨٨٤/ ١٨٨٦		معاهدات بين بريطانيا وزعماء ساحل الصومال ـ حماية .
١٨٨٧	مارس	معاهدة بين بريطانيا وألمانيا ـ مناطق النفوذ فى شرق أفريقيا .
	٢٢-٢٩ أبريل	مذكرات بين الكونغو وفرنسا بشأن حق الاستيلاء .
	٢٩ أبريل	بروتوكول بين فرنسا والكونغو عن الأوبانجى .
	٢٤ مايو	امتيازات الشركة البريطانية لشرق أفريقيا فى زنزبار .
	٢٤-٣١ مايو	مذكرات بين بريطانيا وإيطاليا بتحديد مناطق النفوذ من رأس كسار على البحر الأحمر .
	٧ يولية	اتفاق بين إيطاليا وزعماء الدناكل عن أوسه .
	٢٠ يولية	إعلان بريطانيا حمايتها على ساحل الصومال من رأس جيبوتى إلى بندر زيادة .
	يولية	اتفاق بين ألمانيا وبريطانيا بشأن عدم ضم أية ممتلكات تقع خلف حدود مناطق النفوذ فى شرق أفريقيا .
١٨٨٧	٢٠ أكتوبر	اتفاقية تحالف بين إيطاليا شوا .
١٨٨٨	٢-٩ فبراير	اتفاق بين بريطانيا وفرنسا عن خليج ناجوره وهرر الخ .
	٩ ديسمبر	معاهدة بسيادة إيطاليا على الدناكل .
١٨٨٩	٢ مايو	معاهدة أوتشيالى بين أثيوبيا وإيطاليا .
	٢ أغسطس	وصية الملك ليوبولد الثانى بانتقال حقوق سيادته على الكونغو الحرة إلى البلجيك وذلك فى حالة وفاته .

	٣١ أغسطس	اتفاق عن حكر للشركة البريطانية فى شرق أفريقيا فى زنزبار .
	أول أكتوبر	اتفاقية بشأن قرض من إيطاليا لأثيوبيا بضمان جمارك هرر .
١٨٩٠	٢٤مايو	اتفاقية ماكنون وليوبولد التى لم توافق عليها بريطانيا .
	١٤ يونية	اتفاق بريطانيا وزنزبار ـ الحماية البريطانية .
	١ يولية	اتفاق بريطانيا وألمانيا بخصوص مناطق النفوذ .
	٢ يوليه	قرار بروكسل بشأن الرقيق .
	٤ نوفمبر	إخطار بريطانيا للدول عن حمايتها لزنزبار
١٨٩٠/١٨٨٤		مذكرات بشأن محميات ألمانيا فى شرق أفريقيا
١٨٩١	٥ مارس	اتفاق بين زنزبار وشركة أفريقيا الشرقية البريطانية بشأن موانى بنادر .
	٢٤ مارس	بروتوكول بين بريطانيا وإيطاليا بشأن منطقة النفوذ الإيطالية من الجوبا إلى النيل الأزرق .
	١٠ أبريل	أرسل النجاشى خطابا دوريًا إلى الدول الأوروبية يعلن عن مطالبته بجميع حدوده القديمة على النيل إلى بحيرة رودلف .
	١٥ أبريل	بروتوكول بين بريطانيا وإيطاليا بخصوص منطقة النفوذ الإيطالية من رأس كسار إلى النيل الأزرق .
	٢٠ أغسطس	أعلنت الشركة البريطانية الإمبراطورية لشرق أفريقيا عزمها على اخلاء أوغنده .
١٨٩٢	٢٢ مارس	فرمان سلطانى بولاية عباس موضحًا فيه حدود مصر .
	٣٠ مارس	اتفاق لوجارد مع ملك أوغنده
	٢٢ يونيه	اخطار بريطانيا بوضع محميتها زنزبار فى نطاق مواد التجارة الحرة التى وردت فى قرارات برلين .
١٨٩٣	١٢ أغسطس	معاهدة بين زنزبار وإيطاليا بشأن بنادر .
	٢٩ مايو	معاهدة مؤقتة بين بورتال وملك أوغنده لسد الفراغ بانسحاب الشركة البريطانية .

	١٥ نوفمبر	اتفاق بين إنجلترا وألمانيا عن مناطق النفوذ فى غرب أفريقيا .
	١٥ مارس	اتفاقية بين فرنسا وألمانيا تنازلت لفرنسا عن جزء من منطقة نفوذ ألمانيا سنة ١٨٩٣ الموضحة باتفاق إنجلترا .
١٨٩٤	٥ مايو	بروتوكول بين بريطانيا وإيطاليا بشأن شرق أفريقيا وهرر .
	١٢ مايو	اتفاقية بين بريطانيا والكونغو بشأن مناطق النفوذ وحوض بحر الغزال واللادو .
	٢٢ يونيه	إخطار بسحب البند الثالث من اتفاقية ١٢ مايو سنة ١٨٩٤ بين بريطانيا والكونغو .
	١٤ أغسطس	اتفاقية بين فرنسا والكونغو عن الحدود .
	٢٧ أغسطس	اتفاق كولفيل وملك أوغنده .
١٨٩٥	٥ فبراير	اتفاق بين فرنسا والبلجيك بشأن الشفعة فى أملاك الحكومة الحرة .
	٢٥ يونيه ٧ يوليه	اتفاق مصر وإيطاليا بشزن الحدود بين خور بركة والبحر الأحمر .
	١٤ ديسمبر	اتفاق بين بريطانيا وزنزبار بخصوص الإدارة البريطانية على الساحل والجزائر فيما عدا زنزبار وبمبا .
١٨٩٦	١ مارس	واقعة عدوه التى هزمت فيها إيطاليا .
	٢٦ أكتوبر	معاهدة بين إيطاليا وأثيوبيا اعترفت فيها إيطاليا بإستقلال أثيوبيا .
١٨٩٧	٢٠ مارس	اتفاقية بين فرنسا وأثيوبيا بشأن الحدود بين أثيوبيا والمنطقة الساحلية الفرنسية .
	٢٠ مارس	اتفاقية بين فرنسا وأثيوبيا (سرية) بخصوص امتداد نفوذ الدولتين إلى حوض النيل الأبيض .
١٨٩٧	١٤ مايو	تبادل مذكرات بين بريطانيا وأثيوبيا بشأن معاملة الصوماليين الذين يقبلون الرعوية الأثيوبية .
١٨٩٧	٣٠ أغسطس	مذكرة بين بريطانيا وأثيوبيا بتوثيق معاهدة ١٤ مايو سنة ١٨٩٧ .

	٢٥ ديسمبر	إقرار تنازل من إيطاليا لمصر عن قلعة كسلا .
١٨٩٨	٧ ديسمبر	اتفاقية بين مصر وإيطاليا بخصوص ضرائب الرعى المطلوبة لإدارة أرتيريا .
	٧ ديسمبر	اتفاق بين مصر وإيطاليا بشأن الحدود الشمالية لأرتيريا .
١٨٩٩	١٩ يناير	اتفاقية السودان ثم اتفاقية ضم حلفا وسواكن للسودان
	٢١ مارس	اعلان متمم للاتفاقية التى عقدت بين بريطانيا وفرنسا فى ١٤ يونية سنة ١٨٩٨ عن مناطق النفوذ .



الملاحق
والوثائق

معالم تاريخ سودان وادي النيل



الملحق الأول

وثيقة الفقيه
محمد أبو دليق(١)



بيان حامد بن صالح الدليقابى قد توضح أفكار الزمان . والزمان وارثًا لكل مكان سنة ستمائة واثنين وسبعين من هجرة خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام أن من أهل الشروق الألسنة العربية ١٣ طائفة نزلت بدار دميس وما من أبحار النيل أربع هلالية واثنان من بنى مخزوم واثنان من كنانة وواحدة خزورجية من بنى النجار واثنان من بنى أمية واثنان من بنو هاشم فتفرقوا من الأيائم إلى تونسه العلام بعد فتوح الإسلامى التورانى بالقسمة السهمية وقسمة هلاله لأجل المساعى من شبيكة كمار إلى تونسه العلام وكنانة وبنو مخزوم من جبل أودون إلى جبال الذهب برور وبحار وبنى أمية على شاطىء البحرين الفثتين ما بين أتبره وبربر وما بين مرج البحرين الأبيض والأسود والعباسية من حجر العسل إلى جبل أبو نقاقير مشرقًا وغربًا وبعضًا منهما مع الخزرجية من ملواد إلى البحيرة (بالقطر المصرى) .

ثم بعد ذلك أولاد سرار سمار وسمرة وسميرة الهاشمية مع أعمامهم كامل وأحمد ولميمها من القوم أول ما نزلوا من الشرق استقروا ليمانى الكاسنجر وعمهم حاسن مع أهله نزلوا بأم غيره بمعائم جديدة نحو بربر وقد انتقلنا برور الغرب إلى بحر الغزال استغرقنا فيه أربعة خلفات ومنه انتقلنا إلى وادى مقدم من جبرة إلى أم طوب وقد ورثنا فيه خلفتان وكلت الديار من مشاهى المساعى قد توجهوا هنا أولاد محمد أبو دليق عبد الله وعلى وصالح إلى شرق هوات سلمى فى سرور شهر رجب سنة ١٠٠٠ ينقضى ثلاثة أعوام ووسمهم على الإبل والبقر والغنم

---

(١) نقلت هذه الوثيقة عن مخطوطة محتفظ بها الشيخ يس أحمد أبو دليق بواد مدنى . ويكتب الاسم أيضًا أبو «دلق» ومصغرها «دليق» = الخرقة البالية .

على اليمين نار فوق الأذن مطرق وشاهد وانتقل منه سالم بن معارف إلى الصعيد هو وأولاده حكار وسليمان فاختلطوا مع الجمع ومدروكون فى السجل وانتقلوا النقارة إلى كويمات النوق (دنقلة) دار مناها سبعة وعشرين[٢] خلفنا فيها خلفه واحدة ومحمد وارث الدين أبو دليق وما سمى أبو دليق كان بالتعليم قد حصل عراؤه بالمساجد والزمن وأحل لا ميسرة بيد أبيه صلاح إلا راية الإسلام الوارثها[٣] من جده عبد الله ابن العباس المنقسمة إليه من التسعة رايات المؤيدات بالنصرة ـ أنشأها صلى الله عليه وسلم بعد دخوله المدينة اثنان لأخواله أولاد عم آمنة بنت عبد الله ابن جابر الأوسى وأخيه عامر وواحدة لشقيقه جابر بن عبد الله الخزرجى وواحدة لصديقه أبى بكر وواحدة لسيدنا عمر وواحدة لسيدنا عثمان وواحدة لسيدنا على وواحدة لعمه حمزه وواحدة لعبد الله ابن العباس . ثم أن صلاح لما هم[٤] من عراء ولده كساه الراية وأمده باباجها وحفظها تكون ورثة لصاحب المقام وجرادة لمن يقدم بدينه إلى محلنا فبذلك تأثر اسم شاهر بالدليقاب . ثم نبين لك أولاد محمد وارث الدين ستة ضريس وكروم وعلى وناصر وعوض الله وحامد وأولاد ضريس شرق جبل أبو نعوق وكروم وعلى ناصر الأشقة هما بالتوقد وعوض الله وحامد فارقوا أهلهما فى النوق إلى دار الغرب بمليط (دارفور) وأولاد كروم سليم وسال وعايد وأما ناصر وأولاده أربعة صالح وصبح الله وسجاد وأمين وان صالح بن ناصر أمه كنزيه وفارق النقارة وقارن الموالكه[٥] فى وادى عريس وله ولدين واحد صبح الله وأخيه حامد وصبح الله وولده حمد تنير ولد كوكو وكوكو ولد عبيد الله ولد الضو وحامد وأخيه ولد صالح وصالح ولد الطيب والطيب ولد محمد ومحمد ولد الحسين والحسين ولد صالح فاختلطوا مع الموالكه ومدوركين بالسجل ثم أن الوسم على الإبل أربعة وجوه نار الدليقاب أولاد ضريس ومن معه القلادة على الشمال والطوق على الورك اليمين وأولاد الملك ناصر القلادة على اليمين والخرار على الشمال عميد كعنز وأولاده كروم والقلادة على الشمال والخرار على اليمين والسامع

(٢) دار مناها سبعة وعشرين . يقصد دار مناها سبعة وعشرين درجة التى للمسجد = ويشير بذلك إلى أن دار كويمات النوق التى هى دنقلة هى نهاية ما تتمنى الجماعة من امتلاكها فى الدنيا .

(٣) الوارقها = التى ورثها .

(٤) لماهم = عندما خالجته الهموم .

(٥) الموالكه = الهواوير .

وأولاد إدريس ولد عايد سكنوا وادى القعب[٦] باللقيه بالشابط وتم تبين أهل الله من الدليقاب على وابن أخيه عبد الله بالهواد[٧] وحامد بمقرات وأحمد أبو دليق لشرق جبل ابنعوف (ابن عوف) الملقب بقادى أمه زوافى بنت حسن القناوى الحسن حيدر وسليمان المعقور بن أحمد بدارفور رئيسًا بها وسالة[٨] بالارتل وصالح بجراوة وارقو والشيخ إبراهيم بأرض مصر وعبد الكريم باليمن ثم نبين لكم الوارثون . قد انتقلت من النوق إلى وادى مريخ جزيرة قشاب[٩] استقررنا بها صاحب السجادة حامد بن صالح ابن عابد بن كروم بين محمد أبو دليق إلى صلاح بن ساجد الملقب بدير بن سوان بن شرع الدين ابن أبو مرخة بن سعد الدين بن سمار ابن كروم بن حمد الحجازى بن قضاعة بن الرافع ابن مصرف بن سقف بن أمان بن حرقان بن كوثر بن موسى بن إبراهيم بن سعد الدين ابن عبد الله الفضل بن عبد الله بن العباس ثم النبى صلى الله عليه وسلم .

بيان حامد بن صالح الدليقابى والله أعلم بالصواب يا غفار اغفر ذنبى بالله .

(تعليق)

آثرنا نشر هذه الوثيقة بكاملها إتمامًا للفائدة . فهى تبين لنا صورة من صور الحياة بعد دخول العرب فى هجرتهم إلى بلاد السودان وقد جاءت ترجمة حياة الشيخ أبو دليق فى كتاب الطبقات والوثيقة مكتوبة بحبر العمارة الأسود القاتم اللون على الورق المعروف باسمه «أبو شباك» الذى يستعمل فى كتابة الوثائق .



(٦) القعب = شمال دنقله .

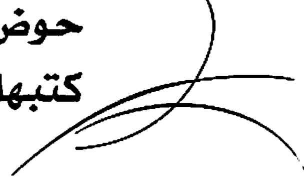
(٧) الهواد = شرق أبو دليق بالبطانة .

(٨) سالة = ينطق بفتح السين واللام والتاء .

(٩) قشاب = المعروفة باسم قوشابى . أو غوشابى فى دنقله .

الملحق الثانى

وثيقة عن حفريات أثرية فى حوض خو بركه بالارتيريا[1] كتبها كارلو كونتى روسيتى[2]





قام الضابط الإيطالى لويجى تالامونتى[3] برحلة تفتيشية فى حوض خور بركة ـ فى المنطقة بين بلدة أغوردات إلى ملتقى هذا الخور برافده (Ambacta) وكان ذلك فى شهر يونية من عام ١٩٠٢ الميلادى ـ وقد لاحظ هذا الضابط أن بعض المواقع لها قيمة أثرية من شأنها أن تساعد على توضيح تاريخ الارتيريا والمناطق المجاورة من أثيوبيا والسودان . وقد بعث إلى هذا الضابط بمذكراته عن هذه المواقع لتحقيقها وأرى من المفيد أن أنشر ما وصلت إليه من نتائج للحفريات التى قمت بها فى هذه المنطقة التى لم يكشف عنها من قبل .

مقابر الفونج :

هناك مجموعات من البنايات الصغيرة الحجم منتشرة على طول السهل الواقع فى واد الرافد (Lacreb) وتمتد على خور بركه فى اتجاه شمالى حتى تقترب من ميناء سواكن . وتعرف هذه البنايات بمقابر الفونج الذين أسسوا ملكًا فى سنار فى القرن الخامس عشر الميلادى والتى امتدت حدودها جنوبًا وشرقًا حتى شارفت على البحر الأحمر .

وهذه البنايات صغيرة مربعة فى حجمها ولا يعرف هذا النوع من فن البناء فى هذه المنطقة فى الوقت الحاضر . ويتكون البناء من أحجار كبيرة منتظمة الشكل الخارجى معقودة فوق بعضها متماسكة بطبقة طينية بين الأحجار . وهنالك أحجار طويلة متشابكة الأطراف تربط

---

(١) روسيتى مقال ١٩٠٣ ص١٣٤-١٥٠ .

(٢) أنظر مقال الدكتور مراد كامل عن ترجمة حياة روسيتى (٢٥) أبريل سنة ١٨٧٢ ـ ٢١ أغسطس سنة ١٩٤٩م) مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة المجلد ١١ جزء ١ ، ص١٥١/١٥٨ .

(٣) كان موظفًا بالإدارة الإيطالية لارتيريا .

بين الأجزاء العليا للبناية وتقوم على هذه الأحجار «قبة» من الحجر والطين . وفى البناية نافذة صغيرة فى كل من الجوانب الأربع وتقع فى منتصف المسافة من سطح الأرض لا على البناء . وتطل على السهل المحيط بها وأرضية البناء فى كل الحالات أعلى من مستوى السهل .

وقد قمت بفتح إحدى هذه البنايات المنتشرة فى أعداد قليلة منعزلة أو فى مجموعات كبيرة . وكانت تلك البناية التى نبشت من المجموعة القائمة فى وادى لنقيب (Langeb) بين تأمينات وآبار إداردى . وقد وجدت على عمق خمسين سنتيمتر من سطح الأرض بقايا عظام بشرية تحول هيكلها إلى مسحوق أبيض اللون . ولم أعثر على أوعية أو كتابات فى داخل المدفن وأضيف على ما تقدم ذكره أن عدداً كبيراً من هذه البنايات موجود من «دور طه» .

ويقال أن الفونج قد أصيبوا بهزيمة منكرة كما تذكر الرواية التى يتناقلها الأهالى أن الجماعة المعروفة بالقدين Al Gheden ترجع فى أصلها إلى الفونج التى هاجرت بعد الموقعة الفاصلة .

***

هذا هو التقرير الذى نشره الأستاذ روسينى عن هذه الحفريات ويجدر بنا فى هذا المقام أن نشير إلى ما كتبه مادجان مساعد جيولوجى إدارة السودان الذى زار منطقة البحر الأحمر شمالى بورسودان فى ديسمبر سنة ١٩٢٠ وإلى تعليق كروفوت على هذا المقال والذى حاول فيه أن يحدد تاريخ تلك المبانى وقد أنهى كروفوت تعليقه بأنه «يربط باطمئنان بين هذه القباب وبين الجماعات من البشا المستعربين الذين اتصلوا عن طريق القوافل بين بلدة قوص أو أسوان وعيذاب فى القرن الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر . «أنظر مجلة السودان فى مدونات ورسائل (S. N. & R.) الجزء الخامس ص٧٨/٨٢ مقال Madigan C. J. عن وصف الحصون شمالى بورسودان .

ومما لا جدال فيه أن هذه المسألة تتطلب المزيد من البحث الذى يتحتم قيامه فى منطقة البحر الأحمر من حوض خور بركة وعلى طول طرق القوافل عبر الصحراء الشرقية . وهذه ترتبط ارتباطًا وثيقًا بتاريخ مملكة البلى الإسلامية وحروبها التى انتهت باضعاف هذه المملكة وتفرق أصلها إلى مجموعات صغيرة امتصتها قبائل أخرى كما ذكره لوبو وكتاب فتوح الحبشة الذى نشره رينيه باسيه . وكتاب قبائل البجا الذى كتبه بول (Pavl, A.) سنة ١٩٥٤ .

الملحق الثالث

ملـــخـــص تـــاريـــخ أريـــــجـــــى(١)



أول من أسس المدينة المذكورة هو حجازى ولد معين وذلك فى عام ٨٨٠ (هجرية) ثم من بعد المدينة المذكورة أسست مدينة سنار بواسطة الملك عمارة دنفس وذلك بمعينة (معاونه) الشيخ عبد الله جماع جد العبد لاب ثم بعد انتظام وتعمير مدينة أريجى فاول شيخ تعين للمدينة المذكورة الشيخ نور محمد ولد رحيمه فى عام ٩١٣هـ وقتل فى غزوة محمود ولد كوينه حينما غزا الجعليين خرب ادريس ود ملك الجعليين حينما عصى ملك سنار . وتعين بعده شيخًا لاربجى ابنه محمد نور وتعين بعده ابنه الشيخ شمبول محمد ولد نور الذى جمع بين المشيخة ووزارة ملك سنار بادى ود رجب وكان ذلك قبل خروج الملك بادى لحرب الشكرية الذين خرجوا عن الطاعة وعين الوزير شمبول ود محمد نور لخدمة العريان جهة الداخلة الشلال ثم لما رجع الملك بادى من حرب الشكرية باتنيرة(٢) واستقراره برفاعه(٣) وكان من عادة ملوك سنار يعملون عرضات ويرمحون بالخيل أمام الملك وكان أول من رجح بالحصان أحد إخوانه أبناء عمه محمد ناجى وعادة أهل الخيل يقفون على بعد من الملك والمذكور (محمد ناجى) طلق الحصان حتى قرب من الملك وعلا الغبار على رأس الملك بادى فامتلأ قلبه غيظًا منه وأمر أن يضرب بالسياط لإساءته الأدب فلما ألقى على الأرض لم يثبت للضرب وعظم ذلك على إخوانه لعدم صبره وتجلده لأن عادة أهل السودان التجلد والصبر على المكاره وكانوا اخوان الرجل

---

(١) هذه المخطوطة من الأصل الذى يحتفظ بيت ولد شمبول بالسلمية (بين ولد مدنى والحصحيصا على النيل الأزرق) وقد تفضل بالإشراف على نقلها الأستاذ يوسف أحيمر بسكك حديد السودان .

(٢) حوض العطبرة أو الأتبرة .

(٣) ،فاعه تقع شرق النيل الأزرق بالقرب من الحصحيصا .

المضروب استأذنوا من الملك ليحملوه إلى سنار للمعالجة فإذن لهم بحمله وكان الملك بادى قبل قيامه لحرب الشكرية عزل الشيخ الأمين مسمار والشيخ أحمد على ولد هيفه شيخ الكماتير والمذكور من كبار أهل الطواقى(٤) وكان أولاد عم الرجل المضروب تعصبوا(٥) واضمروا على قتل الملك هم وعشيرتهم وبعضًا من الطواقى كالشيخ أمين مسمار والشيخ أحمد على هيفه وحلفوا على قتل الملك بادى ثم أن اخوان المضروب كانوا تحت قبضة الملك فصار كلا منهم يستأذن الملك للتوجه إلى سنار من رفاعة لأجل مناظرة أخوهم (أخيهم المضروب) حتى تكاملوا بسنار جميعهم وقويت شوكتهم وسعوا فى كيفية حرب الملك بادى . وكان الوزير إذ ذاك شمبول ود محمد نور الذى كان خليفة الملك على سنار لأجل خدمة العربان بالداخلة . فتوجهوا إليه وقتلوه وشاع الخبر إلى الملك برفاعة وقام الملك بادى من حينه بالجيوش وتوجه لسنار للحرب معهم فلما وصل إليهم قابلوه واصطفت الصفوف ثم أن الملك أمر ابنه دوس(٦) أن يفتتح معهم الحرب فنازلهم وبعد قليل ولى منهم هاربًا ثم بعد ما هرب ابنه دوس تقدم الملك بنفسه للحرب فبرز الشيخ الأمين مسمار من مشائخ طاقية العبدلاب(٧) فضرب الأمين مسمار الملك بادى بالسيف على رقبته فقطع وريده ثم أن الضربة قد أذت الملك بادى وأما الملك بادى عاقب الشيخ الأمين مسمار بالضرب بالحقه ستة ضربات بالسيف فلم تؤثر فيه ضربة واحدة ثم أن الملك لما أحس بالألم وعرف أنه هالك أمر أولاد عمه بأن يقتلوه بسيوفهم لأجل ما يقولوا(٨) قتله الشيخ الأمين مسمار وهو عار عليه وقد كان ضربوه بسيوفهم وقتل على هذه الكيفية . ثم بعد قتل الشيخ شمبول ود محمد نور تعين ابنه الشيخ مدنى ود شمبول فى أربجى أعظم مشيخة وكانت أيامه فى معظم عمارة أربجى وفى أيامه كان أحد الفقراء المشاهير الفقيه محمد علقم ثم أن الفقيه نفسه توجه إلى ملك سنار وفى ذلك الوقت كان ملك سنار محمد ولد ناصر وبعد وصوله إليه والوقوف بين يديه طلب من الملك جاها إلى حلته(٩) بمعنى خدمة جميع البلد تعطى إليه لأن

---

(٤) طواقى مفردها طاقية وهى غطاء الرأس الرسمى لشارة الحكم وتعرف بالطاقيج أم قرين (قرن) أنظر صفحة ١٢٣ .

(٥) تعصبوا = جمعوا أهل عصبيتهم .

(٦) دوس = تنطق بضم الدال وفتح السين ــ والكلمة أصلا ترجع إلى المصرية القديمة .

(٧) مشائخ طاقية العبد لاب = أى مشائخ مانجليكية العبد لاب .

(٨) لأجل ما يقولوا = حتى لا يقولوا .

(٩) حلة = قرية .

عادة ملوك السودان يعطون الفقهاء فى ذاك الزمن الأعشار وقد مضى له بأعشار حلته وصار يخدم حلته بنفسه خاصة وبدون أمر الشيخ مدنى وبعد ما أمضى له الملك لم تكن للشيخ مدنى ود شمبول سلطة عليه ولا على أهل الحلة التى بها الفقيه ود علقم وبهذا السبب الشيخ مدنى شيخ أربجى قتل الفقيه ولد علقم وجميع أهل الحلة التى كانت تخدم الفقيه ود علقم فلما سمع ملك سنار بذلك غضب غضبًا شديدًا وعزل الشيخ مدنى ود شمبول عن شياخة أربجى وعين بدله لأربجى محمد ود النو من دناقلة أربجى وأهلها القدام وكان من أهل الغناء المشهورين بأربجى وكان بعد ما عزل الشيخ شمبول توجه هو[١٠] وجميع جيشه إلى جبال العطيش وأقام هناك مدة سبعة سنوات والشيخ محمد النو الذى تعين بدله مقيمًا بأربجى وبعد حضور الشيخ مدنى من جبال العطيش بسنار هو وأخواته وجميع الجيوش والعوائل والعشيرة التى معه قاصدين جهة السلمية ليكونوا بها فلما سمع الشيخ محمد النو أن الشيخ مدنى شمبول أخذ معه الخواص من أولاد عمه وتوجه بهم إلى سنار لمقابلة الملك ليلتمس رضاه فلما سمع الشيخ ود النو أن الشيخ مدنى ود شمبول شيخ أربجى المعزول سابقًا توجه لسنار خشى منه أن يتفق مع الملك ويرجع شيخًا على أربجى ثانيًا وأن الشيخ المذكور محمد ود النو أخذ خيولاً وعبيدًا وجواريًا وذهبًا كثيرًا ليعطيه للملك لبقائه على شياخة أربجى فلما قرب من سنار قابله الشيخ مدنى الذى كان يخافه خارجًا من سنار بعد أخذه الأذن من الملك ثم أن الشيخ مدنى بادر على قتل الشيخ محمد ود النو وذهب بجميع ما جاء به للملك من خدم وعبيد وخيول وذهب ورجع به للملك وأخبره الخبر فلما سمع منه الملك ذلك غضب غضبًا شديدًا وهم بقتل الشيخ مدنى شمبول ثم أن أكابر رجال الدولة والأعيان دخلوا على الملك ليشفعوا للشيخ مدنى من القتل وقالوا هذا الرجل من بيوت الملك وأن أبناءه لهم عند الملك جاها وكانوا من أعظم شجعانه ولهم مزايا كثيرة وقد انحل غضب وقال للشيخ مدنى قد عفوت عنك فمن وقتها قد قام الشيخ مدنى لوطنه المسلمية وصار جميع عمار أربجى تحته وكان خراب أربجى سنة ١٠٤٠ (هجرية) وتعمرت المسلمية وكان بلال ود بله من أهل شورة الملك وكانت تصدر منه كلمات فى حق الشيخ مدنى ومنها كلمة قالها قال سأجيب مشيخة الشيخ مدنى وأعطيها إلى

(١٠) الشيخ شمبول .

أحد عبيدى ولما بلغ الشيخ مدنى هذا الكلام بهذه الصفة اغتاظ على بلال ودبله وكان أحمد إبراهيم من قبيلة البساتنة وهو من التجار المشهورين بأريجى والمذكور كان سافر إلى أرض المخا (مخا ـ باليمن) وأحضر معه بضائع نفيسة تليق بالملك ـ سيوف ودروع عظيمة . ولما بلغ ذلك ملك سنار قد أرسل إلى الشيخ مدنى شمبول بأن يشترى له منه سيوف ودروع بالثمن وقد أخذ الشيخ مدنى السيوف والدروع وكان مقدراً قيمة الجميع ٢٥ أوقية ذهب وأن الملك تأخر فى ردها إلى الشيخ مدنى شمبول وطال الزمن بعد وصول الأشياء إلى الملك وصار التاجر يلح على الشيخ مدنى شميول بالمطالبة وأن الشيخ مدنى عرف التاجر بأن الملك لم يرسل إليه الذهب ولما طالت المدة وكرر التاجر إلحاحه بالمطالبة على الشيخ مدنى وأخيراً التجأ إلى بلال ودبله مستنجداً به للخلاص من الشيخ مدنى وتداخل بلال ودبله بين الشيخ مدنى والتاجر وعرفه أن أصل المال له لذلك صار بلال يطالب بالمال وأخيراً اشتكى لملك سنار وقال له أن الشيخ مدنى ود شمبول قد أكل ذهبى ظلماً فلذلك ملك سنار طلب الشيخ مدنى ولما حضر عنده أمره بدفع المبلغ إلى بلال ولما اتضح للشيخ مدنى الأمر استأذن الملك فى الرجوع إلى المسلمية وبعد ما رجع للمسلمية استعد بآلة الحرب إلى بلال ودبله فى رحلته وكانت بالقرب من المسلمية وقتله هو ومن معه من أولاده وعشيرته ثم ان الشيخ مدنى عصا على ملك سنار وطلبه ملك سنار ليحضر عنده ولم يحضر عنده فقال له الوزراء ان هذا الرجل إلا نحتال على قبضه بدون حرب فقاموا من وقتهم وتوجهوا إلى المسلمية وقالوا له أن ملك سنار حلف يميناً لا يعافيك بشىء مطلقًا وحلف الوزراء أمام الشيخ مدنى المسلمية على كتاب الله وقالوا له قد قتلت قبله الشيخ محمد النو بستار قريبًا من كرسى الملك فلم يحصل لك شيئًا وان هذا هو وأهله لم يؤخذ له الملك فيهم بشىء فلما سمع منهم الشيخ مدنى هذا الكلام توجه هو وأخواته إلى سنار فلما بلغ الملك قدومهم إلى سنار قال اعملوا حيلة عليهم واقبضوهم بدون شوشرة فبوقتها قد عين الملك جيشاً قبل وصولهم حلة طيبة قندلاوى فوقفوا على الشيخ مدنى أربعة أنفار وألقوا عليه القبض ووضعوا فيه الحديد وكذلك أخيه الشيخ عدلان فى محله قبض وكذلك بقية أخواته توجهوا إليهم أنفار وألقى فيهم الحديد ثم ان الشيخ مدنى اجتهد مع الوزراء والرؤساء بالمبالصة (الرشوة) فى فك أخيه الشيخ عدلان وقال ان أنفك الشيخ عدلان وبقى فى العقب (الأهل) لم تخرب

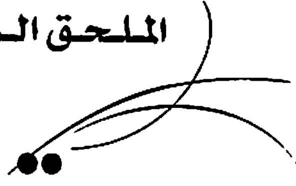
دار شمبول ما دام هو فيها وقال للوزراء قولوا له أن أخيك مدنى توجه للشرق ولم تعرف له جهة ومن وقتها قام الشيخ عدلان وهرب منهم وخرج بالشرق وأن الشيخ مدنى شمبول هو وأخواته أدخلوهم على الملك ففى الحين أمر الملك بقتلهم وقتلوا بسيف الشيخ محمد ناصر ضحى وأما ما كان من أمر الشيخ عدلان قد طلبه الملك وأحضره لديه وعفا عنه وأعطاه المشيخة وصار شيخًا واستمرت المشيخة فى بيت شمبول إلى أن حل ركاب حكومة العصملية (العثمانية) وعصت الجعليون وقتلوا ود الباشا (الأمير إسماعيل كامل) وحرقه بالنار وكان الحاج شمبول قد قدم من أرض الحجاز بصفة تاجر ولما وجد ود الباشا والأكابر الذين مقتولين معه وكانت الحكومة قد جردت العساكر لمحاربة الملك نمر لأن الملك نمر تجهز لحرب الحكومة وكان ما كان من أمره إلى أن قام من بلده ولما طلبت الحكومة المشائخ المعينين وجاءت الكشاف وكان مركزهم أبو فروع وكان إذ ذاك الشيخ شمبول فاستمر شيخًا إلى ١٢٥٦هـ وتعين بدله ولده عبد القادر شمبول أربعة سنين وبعدها عزلته الحكومة وتعين مساعد عبد القادر عام ١٢٦٠هـ ثم بعد وفاة الشيخ مساعد ولد عبد القادر تعين الشيخ مدنى ود عبد القادر وقد عزل وتعين بعده شيخًا الشيخ أحمد أبو الروس أو أم كثير من قبيلة الجوادكيك وبعد وفاته تعين الشيخ مدنى شمبول ود مدنى ود شمبول وقد عزل وتعين مأمور إدارة المسلمية وعين بدله شيخًا الشيخ بخيت عبد الصادق الشيخ عدلان شمبول وتعين بعده الشيخ مدنى شمبول مأمور إدارة المسلمية وعزل وتعين بعده الشيخ بادى ود بخيت ود إدريس وعزل من المشيخة ثانيًا وتعين الشيخ مدنى شمبول سنجق واستمر بيك باشا (بكباشى) الريسة (الرؤساء) إلى أن قتل فى أول ثورة المهدية بشات هو وأخواته فهم عبد القادر بيك باشا والعوض شمبول بيك باشا وكمتور شمبول بيك باشا ومدنى عبد القادر شمبول وعبد الصادق احمد شمبول ثم تعين بهده الشيخ عبد القادر مساعد سبعة عشر يومًا فى المشيخة وحلت المهدية . وقد تم نظام المشايخ المتقدم ذكرهم فى سنة ١٢٩٩هـ .



الملحق الرابع:

١. خطاب السلطان عدلان بن محمد

٢. خطاب السلطان الغور محمد الفضل



الملحق الرابع

بسم الله الرحمن الرحيم وصليت على محمد خير وآله وصحبه و(سلم) الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور إللهم اجعلنا من المعتصمين بسنة . . .

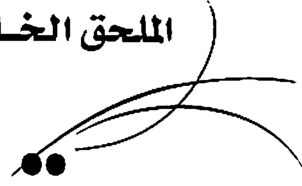
ومن وإلى السلطنة السنارية أنى قد أجزت وأمرت إلى من يتولى بأحكام مدينة ضنقلة بشرط أن يوفى كل عام من خزينة سلطان الدار الزرقاء فيدفع مرتبًا كل سنة بعد إمضاء ذو الحج لمسجد الشيخ أحمد شنبو خليفة الشيخ محمد أبو دليق مائة وعشرون مكيال من معالى عيش الدينار وأربعون شاه ساوية وعشرة أبقار ساوية وسبعين ثوب بنادى وكذا أجزت جميعًا من بالملك التحت ظل سيفى يؤدى وفاء زكاته لمسجد الشيخ أحمد شنبو ومن بعده لمن يصحب المسجد المذكور لا يعافيمنا أبدًا وكذا ألزمناكم أيها القايمون الآن بالمانجلكيه قنديل بن إبراهيم وزنادى ابن الجمرى وعجيب ابن الدكروبادى بن إسماعيل أن تجددوا بناء مسجد الشيخ أحمد شنبو وقال تعالى إنما يعمر مساجد الله الآية وقال تعالى ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند وقال تعالى ذلك من يعظم شعاير الله فإنها من تقوى القلوب وقال صلى الله عليه وسلم من أتى بشىء قليل لمسجد الله حلت له شفاعتى وكونوا من الذين يستمعون القول وقد أبدت أمرى تحت يدى الشيخ المذكور فيؤدى من يتولى ملك مدينة ضنقلة فيعامل بما أمرت فى ذلك السند وهيهات يا من يتولى السلطنة الزرقاء من بعدنا الفنجية قد يجرى لما كان مرتب لصاحب هذا المسجد المذكور أنه توصيت من السلطان جمره الأموى سنة ألف وأربع وثمانون .

الملك لله ولرسوله

ختم السلطان

عدلان ابن محمد

الملحق الخامس



(أ) بيان التقسيمات الزراعية (ب) والمعاملات

(أ) التقسيمات الزراعية :

١ ـ الأراضى النهرية :

جزائر ـ وتشمل الأراضى التى يفصلها الفيضان العالى عن الشاطىء .

رمال ـ شاطىء النهر الرملى .

براية ـ (Barraya) الأرض المنحدرة من الشاطىء حتى شاطىء النهر الرملى وتعرف أيضًا بالسلوكه (Seluka) .

القيف ـ (Qeif) الجزء الأعلى من شاطىء النهر .

القرير ـ (Qerer) الجزء من الأرض من طرف القيف الأعلى وتمتد إلى حدود الغابة . أو الأرض الزراعية السوداء المعروفة بالتربة القطنية وتشمل أرض القرير الجرف المطرى إذا كانت زراعية بالأمطار والجرف الحى إذا كانت الزراعة بالرى الصناعى .

ميعه ـ (Ma'ya) أو فراش وهى الأراضى المنخفضة وتقع بالقرب من النهر وتحيطها غالبًا أشجار السنط .

٢ ـ الأراضى التى تعتمد فى زراعتها على الأمطار :

تعرف بأرض «الضهارى» وهى تبدأ من نهاية أرض القرير النهرية وتشمل الضهارى (مفردها ضهره : ظهر) .

١ ـ العزازه (Azaza) وهى الأرض الصلبة والرملية وتصلح لزراعة الدخن أو لإقامة مبانى القرية (الحلة) .

٢ ـ البادوبه (Badoba) وهى الأرض المشـققة وهى التربة القطنية وإذا كانت تتشرب المياه بسرعة تعرف بالفوده (Foudah) وإذا كانت المياه تبقى على سطحها فتعرف بام جميده (Baom Gemeida) ومحصول هذه قليل رغم أن الزراعة تنمو فيها بسرعة .

٣ ـ حريق ـ وهى الأرض التى ينبت فيها فى فصل الأمطار (الخريف) نوع من القش يزيد ارتفاعه عن القامة . وتشتعل فيه النار قبيل الزراعة ويكون الرماد المتخلف عن الحريق سماداً كبير القيمة وتختص المناطق الآتية لهذا النوع من الزراعة :

دار الأحامدة : جنوبى كوستى

منطقة جبل مويار جبل أولى : غربى سنار

منطقة الدندر : وتشمل حوض الدندر والرهد .

منطقة البطانة : القسم جنوب غرب وشمال شرق القصارف .

وفى المناطق التى ينمو فيها القش القصير فإنه يترك للنمل الأبيض المعروف بالأرضة أو أم رصاص والمتخلف منها يترك على الأرض لتسميدها .

ويستخدم الشادوف أو النبروه (الاسم المحلى للشادوف) لرى الأراضى التى على النيل . كما تقام الساقية على النهر لزراعة الأراضى العالية على شاطىء النهر . وتحفر الآبار التى تعرف محليًا باسم المتره (Matara) لاستخراج المياه الجوفية لرى الأراضى البعيدة عن النهر .

هناك مصطلحات أخرى وهى :

البور ـ (الغفار ـ القفار) وهى الأرض التى لا تزرع .

حداب ـ وهى الأرض الصخرية على شاطىء النهر ولا تصلح للزراعة .

هدام ـ أرض الشاطىء التى تتآكل من المياه .

قرض ـ وهى الأرض الصخرية التى تغطيها طبقة طينية وتقوم عليها بعض الشجيرات .

حرام ـ وهى الأرض التى تفصل بين مزرعتين ويكون عرض هذه المنطقة على مسافة «رمى الفاس» .

نقاده ـ الأرض الزراعية قريبًا من الحلة .

مغورة ـ (Maghura) التى تقع بين المساكن وتقوم على زراعتها النساء .

بلاد ـ أو بلدات الأرض التى تزرع أذرة .

(ب) المصطلحات المحلية فى المعاملات الزراعية ـ الجبايات إلخ :

العشور ـ وهى العشر الذى يدفع عينا من محصول الأذرة .

قدح ـ يدفع بواقع أربعة أرباع من الأردب من زراعة السمسم (الأردب ٤٢٢ رطلاً والربع يساوى واحد على عشرين .

دقاقه ـ (Dagaga) (القاف صعيدية) يدفع صاحب القطية (محل السكن : البيت) عشرة قروش سنويًا لصاحب الأرض (صاحب الأصل) . ويستولى صاحب الأرض على قطعتين أو ثلاثة من أثواب الدمور من زارع الجروف بصرف النظر عن مساحة الأرض المنزرعة .

وفى زراعة أرض السلوك (البراية) يستولى صاحب الأرض على ثلث أو نصف المحصول حسب الاتفاق وذلك فى حالة قيام صاحب الأرض بتقديم التقاوى .

دقندى ـ (Dugundi) المبلغ الذى يحصله صاحب الأرض من المستأجر الجديد فى حالة ما تكون قطعة الأرض قد أصلحها المستأجر السابق وتقدر القيمة بالاتفاق .

ضحوه ـ (Dahwa) جرت العادة على أن يستخدم صاحب الأرض الرجال وهم غالبًا من الرقيق فى العمل نصف اليوم لإصلاح الأرض وتنظيفها للزراعة وهذه تحدث عند إنشاء قرية جديدة وفى الحالات التى يعجز فيها الرجال عن العمل عند صاحب الأرض بسبب أعمالهم الخاصة فإن على كل شخص أن يدفع قرشًا أو قرشين بدلاً عن شغله شخصيًا . ومما يجدر ذكره أن هؤلاء الأشخاص المطلوب منهم العمل هم «الرقيق» .

خيرية ـ ريال صغير . ويؤخذ عن تأجير الأرض لمالك الأرض وهذه متعارف عليها بصفة خاصة فى دار الحسانية والحسينات .

قيراط ـ ما يحصله رئيس القبيلة عينًا من الزراعة التى يقوم بها الأجانب فى دار البقارة .

وهناك جبايات أخرى تحصل وتعرف بالقطرة والزكاة وهى كالرسم الآتى :

١ ـ الفطرة :

تحصل بواقع ١/٣ ٥ أرطال عن الشخص ـ رقيق أو حر ـ طالما يعيش فى كنف العائلة وتدفع هذه سنويًا فى أول عيد رمضان الذى يعرف باسم شهر الفطرة فإذا كان لرجل زوجتين وخمسة أولاد وثلاثة من الرقيق يدفع رب العائلة ثلاثة وخمسين رطلا وثلث الرطل عن أهل بيته العشرة .

٢ ـ الزكاة :

(أ) زكاة النقود : تدفع بواقع خمسة فى المائة من المال أو ثمن الذهب والفضة .

(ب) زكاة العيش (الحبوب)

تؤخذ عن الزراعات التى تنتج ١٦٠٠ رطلا فأكثر . ولا يحصل شيئًا عن الزراعات التى تنتج أقل من ١٦٠٠ رطلاً .

(جـ) زكاة المال عن الحيوان

وتقدر هذه وفق نوع الماشية كالآتى :

الغنم والماعز :

رأس واحد عن كل أربعين أو زيادة إلى ١٢١ وعند ذلك يدفع صاحبها رأسين وإذا زاد العدد عن ١٢١ فتؤخذ رأس عن كل مائة .

المواشى :

من ٣٠ إلى ٤٠ : يدفع عجل صغير

من ٤٠ إلى ٥٠ : يدفع عجل عمره من سنة إلى سنتين ويعرف بالتنى

من ٥٠ إلى ٦٠ : يدفع عجل واحد عمره ثلاثة إلى أربعة سنين ويعرف بالربع

من ٦٠ إلى ٧٠ : يدفع اثنين من العجول الصغيرة

من ٧٠ إلى ٨٠ : يدفع عجل واحد صغير وواحد تنى

من ٨٠ إلى ٩٠ : يدفع اثنين من العجل التنى

وبعد ذلك يؤخذ عن كل ثلاثين رأس عجل صغير وعن كل أربعين عجل تنى أى أن تسعين رأسًا تساوى ثلاثة وحدات كل منها ثلاثين يؤخذ عنها ثلاثة عجول صغيرة ـ أيضًا ماية وعشرة من الماشية تساوى أربعين زائدًا أربعين زائدًا ثلاثين تؤخذ عنها عجل صغير واثنين تنى .

الجمال :

من ٥ إلى ٢٠ : شاة عن كل خمسة جمال

من ٢٥ لى ٣٦ : جمل صغير أو ناقة صغيرة

من ٣٦ إلى ٤٦ : جمل لبن

من ٤٦ إلى ٥٦ : جمل عمره من سنتين إلى ثلاثة سنين

من ٥٦ إلى ٧٠ : جمل عمره من أربعة إلى خمسة سنوات

من ٧٠ إلى ٨٠ : جملين لبن

من ٨٠ إلى ٩٠ : جملين لبن وعدد اثنين من الغنم وهكذا كلما تم العدد ٣٥ جملا يدفع جمل لبن أى أن ١٢٠ جملا تساوى ٣٥ + ٣٥ + ٣٥ + ١٥ يدفع عنها ثلاثة جمال لبن وثلاثة أغنام .



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده
محمد الاني العدة



من حضرت من نهابي الرجال وتحتبي من صول ابطال الابطال
يوم الحرب والنزال الواثق بالله الديان الشيخ محمد بن
المرحوم الوزير الشيخ عدلان نصره الله امين الى حضرت
الفقيه احمد ولد الفقيه ابراهيم الفرضي وكافة الفقرا
الفرضيين نسلم عليكم سلام السلام فالذي نعرفكم به
نحن زماننا هذا كله ما طلبنا القبايل قاعدين في الجزيرة
وعمادها تعبا في ... ونظرنا في حالهم وقلنا بهم
والوقت هذه تقفنا بقينا في الدندر وطالبين
قبايل الشرق والعربان وانتم اباكم من ... وفقرانا
في البلاد دعونا الصالحة وبركاتكم في الخير والشر
بعد وصول جوابي جاكم انتم وجملة فقرائكم

الملحق السادس:

خطاب الوزير محمد ابن الوزير عدلان

الملحق السادس

صورة خطاب من الشيخ محمد ابن المرحوم الوزير الشيخ عدلان(1) إلى الفقيه أحمد إبراهيم الفرضى

●●

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله وحده

محمد لا نبى بعده

(ختم) (الشيخ محمد بن الوزير الشيخ عدلان)

١٢٣١ (هـ)

(*)(١) من حضرت من تهابه الرجال وتخشى من صولته الأبطال .

(٢) يوم الحرب والنزال الواثق بالله الديان الشيخ محمد بن

(٣) المرحوم الوزير عدلان نصره الله أمين إلى حضرت

(٤) الفقيه ولد الفقيه إبراهيم الفرضى وكافة الفقرا (٥) الفرضيين يسلم عليكم جزيل السلام فالذى نعرفكم به (٦) نحن زماننا هذا كله ما طلبنا القبايل قاعدين فى الجزيرة(2) (٧) وعمارها تعبوا(3) ونظرنا فى حالهم رفقًا بهم (٨) والوقت هذا بقينا(4) فى الدندر طالبين (٩) قبايل الشرق والعريان وأنتم إياكم مرتبتنا وفقرانا(5) (١٠) وأسباب دعوتنا الصالحة وشركانا فى الخير والشر (١١) بعد وصول جوابى أنتم وجملة فقراكم (١٢) جدوا واجتهدوا واتعبوا بسؤال الله (٣) على نيه قضا حاجتنا بهمة عالية (١٤) ونية صادقة لا يكون منكم غفلة ولا تهاون

(*) النمر الموضوعة بين قوسين تشير إلى ترتيب السطور فى الخطاب المذكور الذى لا يحمل تاريخًا .

(١) أنظر كتاب الطبقات ، ص٢٢ ترجمة الشيخ إبراهيم بن عبودى الفرضى .

(٢) ما طلبنا القبايل أى إننا لم نطلب القبائل الموجودة فى الجزيرة .

(٣) تعبوا = أصابهم اليأس .

(٤) نزلنا فى الدندر .

(٥) يقصد أنتم سندنا ووسيلتنا إلى الله ـ فقرانا جمع فقير أى فقيه .

(١٥) ولا فترة[٦] وإن سألتم عن الترك سلطنة (١٦) مصر بلغنا خبر قدومهم فى ماية وثمانين (١٧) ألف وهذا شيا قاسى على كافة المسلمين (١٨) اتركوا جميع أموركم واصرفوا همتكم بالسؤال (١٩) إن شاء الله ربنا يبطل سفرهم ويرجعون (٢٠) إلى محلهم كونهم ما يعرفوا مرتبة ولا غيره (٢١) ولا عندهم اعتبار فى خاص ولا عام لأننى واثق بذلك .



(٦) لا تفتروا وتتكاسلوا .

الملحق الرابع:

خطاب السلطان محمد بادى عجيب

الملحق السابع

خطاب السلطان محمد بادى عجيب



(ختم السلطان) (بسم الله الرحمن الرحيم)

قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير . هذا مسطر من السلطان محمد بادى عجيب إلى بنوا أمية الساكنين دار ضنقلة امراء القوم فقد نصركم الله بعون دائم إلى المانجلك الشيخ قنديل ولد بادى والشيخ بادى ولد قنديل والشيخ حماد ولد تميمه والشيخ الفيل ولد الحجاج انكم ارسلتو لنا ابن أخينا لمانجلك إسماعيل ولد قنديل بمكاتبة منكم الجميع بأن يرسلوا لكم أصول ابايكم إلى مركز الصحابة عليهم رضوان الله . . . . . .

فإن يا أهلونا تعرفونا فى كتابتكم الأصول عز شأن ولم لنا سوى شأن عز غير ذلك من ماتوروا الأصال

أولاً نخبركم أنتم من بنو أمية علية أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فبنوا أمية قبل النبوة سلاطينًا وملوكًا ولما ظهر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قد جعل الله أبكاراً من بنوا أمية أبا بكر وعثمان ابنه وعمر وعثمان ومعاوية ومن محبة النبى صلى الله عليه وسلم لمعاوية يدعو اللهم رد كرمكم الذى كنتم به شأنا آبايكم بقدر جاه النبى لم خفضت درجتنا ومستوين فى زمن ادلان عشرة سلاطين على المنابر فى دار الدنيا فأنا العاشر وأيضًا إسماعيل ابن المانجلك الشيخ قنديل ابن بادى ابن إسماعيل ابن السلطان جمرة ابن السلطان صابر الشاهر بعجيب ابن عامر ابن عبد العزيز ابن صابر ابن عميرة ابن الهاجر ابن مرامة ابن مدين ابن صبيحة ابن دهاشر ابن حذيفة ابن مروان ابن عبد الحكيم ابن

معاوية ابن اليزيد شره الله به يكيد ابن . . . . معاوية حبيب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وأيضًا الشيخ بادى ولد قنديل ابن إسماعيل . . . . سلطان جمرة ،أيضًا الشيخ حماد ابن عيمة . . . . ابن عيسى ابن الكامل ابن عيسى ابن جناح ابن هزيمة ابن الولى عياد ابن منابر ابن عبد الله الجهنى جد الجهينة وأيضًا الشيخ الفيل ابن . . . ابن بطيحه ابن الفيل ابن غريمة ابن شاهر ابن كميدة ابن زايد وش ابن عما . . . . . . ابن ضفروسة ابن دياب ابن هامج ابن بصادير ابن كنابة ابن صملة ابن قيا ابن حجاز ابن بهرة والهجرة مع بهرة من بنوا مخزوم والنسب عز والا . . . . سف جارح فقد ترى وقايع والألسنة صامتة والعبد عزيز ترى مكارمه الحذر من مجارح الألسنة أيها الأهل بعد حضور ابن الأخى عندكم إسماعيل ابن قنديل فاحضروا عند الولى الصالح الفقيه محمد أبو دلق . . . . بعده فابرزوا جميع وأجمعوا رؤوس الديار بمناهات الخيول النحايس بعد الجمع يصير تلاوتها جهراً على الخلق وبعد التلاوة فقد صارت من شرف نسبنا من يدرك وكانت النسبة منى إلى سيدى محمد أبو دلق امانة عنده لا يسلم لأحد . . . . . . اسم لشىء لازم يحضر بصورة من للنسبة الأمية وتفضل بطرفه امنة وأيضًا . . . . من أمراء القوم فقد وكلنا لكم المانجلك إسماعيل ابن أخينا قنديل وطالبين . . . . حضوره عندنا لاستواء المجلس بعد الاتمام لأجل حضور الرسايل . . . . منكم إليها الأمراء بالاستماع للمانجلك بعدم الخلاف وأوصينا المانجلك إسماعيل لحظيرت مسجد القيه محمد أبو دلق كل عن بيته عموميًا الجميع ما يسهل قدر الطاقة وعن كل سنة تعطوا الزكاة له وعقدنا نيتنا عليه واتباع خلف ذريتنا لذرية خلف الولى الصالح محمد أبودلق ابن الفقيه . . . . نفعنا الله ببركته فى الدارين آمين .

(ختم السلطان) **المكاتبة من السلطان**

محمد بادى عجيب

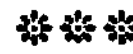


الملحق الثامن

أحمد ممتاز باشا
مدير عموم قبلى السودان



قد يتساءل المرء عن سبب اختيار هذه الشخصية من بين الشخصيات التى تولت حكمدارية السودان فى الفترة من ١٨٢٠م إلى ١٨٨٥م وبينهم من أثبت جدارته وكفاءته وحسن إدارته . أما أحمد ممتاز باشا فقد اكتنفته ظروف غامضة حاولت أن تطمس معالم نشاطه وجهوده لرفاهية السودان وتقدمه الاقتصادى على أسس سليمة . وتبين لنا التقارير والمكاتبات التى ننشرها فى نهاية هذا الملحق مدى اهتمامه بالزراعة بخاصة القطن وعمله على رفع مستوى المعيشة وتحسين البلدان باعادة تخطيطها وتوفير مياه الشرب وادخال تعديلات على الضرائب بما يتمشى مع حالة الأهالى . كل ذلك قد خلق له أعداء وحاسدين وجدوا فيه منافسا قويًا سوف يضعف من مركزهم وحظوتهم لدى الخديو المتعطش للمال وحتى لا تضيع عليهم فرص مطامعهم التى أغرقت البلاد فى الديون التى ذهبت ضحيتها مصر والسودان فمصر احتلها الأجنبى والسودان ترك فى أيدى الأجانب من الموظفين الذين عمدوا إلى هدم كل أثر للاصلاح الذى قامت به الإدارة المصرية ، لكى تعود به إلى حالة بدائية حتى يصبح أرضًا بلا صاحب فتسهل سيطرة المستعمر بطريق أو آخر . ولذلك لجأ منافسوه إلى دس الوشايات فى صورة شكاوى أرسلت تباعًا إلى الخديو كما سنتعرض له فيما يلى .



عين ممتاز أفندى محافظًا لمصوع بعد أن كان فى ضبطية مصر وأسندت إليه الرتبة الثانية[١] وقد تلقى علومه فى ألمانيا وتخصص فى الهندسة العسكرية وذلك بعد تخرجه من مدرسة

---

(١) انظر مكاتبة رقم ١ صفحة ٦٦ دفتر ٥٣٧ (تركى) عابدين المعية وتاريخه ١٦ يونية سنة ١٨٦٥م (١٤ محرم سنة ١٢٨٤هـ) نقلا عن كتاب الحكم المصرى فى السودان للدكتور محمد فؤاد شكرى ص٢٥١ .

المفروزة[٢] التى أنشأها عباس الأول فى مارس سنة ١٨٤٨م . وقد عين ياورا للسلطان عبد العزيز خلال زيارته لمصر فى مارس سنة ١٨٦٣م وشغل منصب محافظ البحر الأحمر وعمل على ادخال تحسينات فى سواكن كما اقام خزانا عند الشاطه[٣] لحفظ مياه الأمطار لتوفير مياه الشرب للميناء .

كما وضع مشروعات لزراعة القطن فى دلتا القاش وخور بركة عند طوكر وانشأ قنوات للرى فى دنقله مازالت أثارها باقية إلى اليوم وطلب من الخديو انشاء خط حديدى يربط بين البحر الأحمر وبربر بدلاً من شندى وقد كافاه الخديو برتبة الباشوية وبتعيينه محافظًا لشرق السودان وشمل اختصاصه موانى «سواكن وقطاع مصوع وساحل الصومال ومديرية التاكه وامتد نشاطه إلى تعمير حوض خور القاش وحوض نهر العطبرة باستغلال الأراض الصالحة لزراعة القطن التى جعل زراعتها اجبارية عندما تولى منصب مدير عموم قبلى السودان فى ١٨٧١م لموسم زراعى واحد وكان غرضه من ذلك التكليف أن يتعرف على الطاقة الإنتاجية للفدان الواحد بالنسبة للمزارعين وقد أقامت الحكومة محلجًا للقطن فى كسلا بلغت تكاليفه نحو الثلاثين ألف جنيه وذلك استجابة لطلب أحمد ممتاز باشا . الذى يرجع اهتمامه بالتوسع الزراعى للغلال وزراعة القطن بالذات إلى رغبته فى بناء مجتمع جديد يقوم على ممارسة الزراعة وبعض الصناعات فتستقر الحياة ويرتفع المستوى المعيشى وبذلك تزداد طاقتهم على رفع الأموال الأميرية فى يسر وسهولة واقترح ممتاز باشا فى تقريره أن تحصل الجبايات عينية من المحصول كما اقترح أن يحلجقطن الأهالى فى كسلاً ويرسل لسواكن حيث يباعبالسعر الجارى فى تلك الميناء . وكان السعر اثنى عشر ريالاً ونصف الريال للقنطار ويحمل الجمل بالتين[٤] (وزن البالة قنطارين) وكان من رأيه أن ينقل القطن الذى تجمعه الحكومة على صالات للقاهرة فى أيام الفيضان حيث أن سعره فى القاهرة أعلى من سعر سواكن وهنالك عامل آخر لا يقل أهمية عن العامل السابق ذكره عن اهتمام ممتاز بالتوسع الزراعى وبخاصة القطن ـ ألا وهو العجز فى إنتاج

---

(٢) انظر سرهنك فى كتابه «حقائق الأخبار فى دول البحار» جـ٢ ، ص٢٧٤ .

(٣) تقع الشاطة بجوار سواكن مباشرة .

(٤) عبارة عن مجموعة من الأشجار تضم إلى بعضها وتستخدم لحمل القطن أو غيره بأقل التكاليف وفى نفس الوقت فإن الأشجار تباع بعد وصولها غايتها لاستعمالها فى المبانى وغير ذلك .

القطن العالمى الذى تسبب عن الحروب الأمريكية وكان طبيعيًا أن يحاول ممتاز باشا استغلال هذه الفرصة لتنمية الموارد المالية وقد بذل الخديو كل معونة لممتاز لتنفيذ مشروعاته لأنه كان يأمل أن يدخل عليه القطن أموالاً تساعده فى مشكلاته المالية .

وقد دخل ممتاز بسبب نشاطه فى مشاكل دفعت إليها الغيرة والحسد فى قلوب رجال إسماعيل المقربين وعلى رأسهم إسماعيل صديق المفتش . فمدير التاكه يعرقل جهود ممتاز ويعطل توزيع بذرة تقاوى القطن وأرسل هذا المدير شكوى للخديو . واشتبك مع جعفر باشا مظهر حكمدار السودان حينذاك ورفع الأمر إلى الخديو الذى استدعى جعفر باشا مظهر بعد أن قام شاهين باشا كنج بالتفتيش على أعمال ممتاز فى شرق السودان ورفع تقريرًا للخديو مثنيًا على جهوده وحسن إدارته وكان ذلك حوالى ١٨٧٠/ ١٨٧١م .



عين ممتاز باشا مديرًا لعموم قبلى السودان لما عهد فيه من كفاءة وجدارة وخبرة بشئون السودان الاقتصادية والإدارية . ودخلت فى اختصاصه مديريات الخرطوم وسنار والنيل الأبيض وفاز وغلى[٥] . وفى المدة القصيرة التى قضاها فى مركزه هذا وجه اهتمامه نحو فحص موارد الميزانية ومصروفاتها . وعمل على معادلتها أو على الأقل تخفيف ما تدفعه الخزانة العامة لتغطية عجز ميزانية مديريات السودان لذلك أوقف الإحسانات التى كانت تدفع للعلماء . كما أدخل تعديلات على الضرائب التى رفعها سلفه جعفر باشا مظهر بما يقرب من الخمسين فى المائة لغير ما سبب أكثر من أنه أراد أن يعرف ما ستكون عليه حالة دافع الضرائب وعند ذلك ينظر فى تعديلها . كما رفع ممتاز عن أهالى النيل الأبيض وغيرهم المبالغ الإضافية التى فرضها جعفر باشا لسداد قيمة نصف استحقاق ومرتبات سوارى وعسكر المعينين للمحافظة على الأمن . وقد جعل ممتاز جباية الضرائب تقوم على أساس مقدرة الفرد المالية . فكان على الأغنياء أن يدفعوا أموالاً أكثر مما كانوا يدفعونه فى الماضى الذى كان فيه المواطن العادى يتحمل أكثر العبء . ومن هذا يتبين لنا مدى ما كانت عليه السياسة المالية من تخبط بسبب الارتجال وفقدان الكفايات والخبراء . فأثارت هذه التعديلات التى أجراها ممتاز باشا الطبقة الغنية صاحبة النفوذ ومن هنا

---

(٥) أمضى ممتاز فى منصبه كمدير عموم قبلى السودان حوالى عشرة أشهر .

بدأت الدسائس تدبر للخلاص من ممتاز باشا وقد تزعم هذه الحركة معنى بك الشامى(٦) وكيل مديرية الخرطوم صنيعة إسماعيل باشا صديق المفتش الذى كان عدوًا لدودًا لممتاز باشا بسبب خشيته من ازدياد نفوذ ممتاز لنشاطه وقدرته على معالجة مشاكل السودان المالية والإدارية لذلك كان إسماعيل باشا صديق اليد الخفية التى تلعب لإعداد الشكاوى وإرسالها للخديو عن تصرفات ممتاز باشا التى صورت بأنها تزوير فى السجلات وادعى البعض كما تناقلته الروايات «أنه تقبل الرشاوى» ولم يكن من العسير فى زمن ساد فيه الانحلال أن يذهب ممتاز ضحية منافسيه من رجال السلطة فى مصر الذين كان يهمهم اختفاء أمثال ممتاز وإقصائهم عن مراكزهم والقضاء عليهم ليخلو لهم الطريق للوصول إلى تحقيق مطامعهم الذاتية .

وكان من نتيجة هذه الشكاوى التى صاحبها الرسل يحملون الهدايا ومنهم معنى بك الشامى . أن تعطلت المشروعات التى بدأها ممتاز لمعارضة المديرين لتنفيذها لأسباب غير معروفة . كما ألقى القبض على ممتاز عند وصوله إلى القاهرة ووضع فى السجن فى القلعة بالقاهرة حيث أمضى حوالى الشهر حتى ظهرت براءته وأطلق سراحه . وقد كافأه الخديو باهدائه عزبتين مساحة كل منها ٢٥٠ فدان إحداها فى دار البقر فى المحلة الكبرى والثانية فى كفر الدوار . وقد حزت فى نفسه حالة القبض عليه وإيداعه السجن بسبب الوشايات وعز عليه أن يعامل بمصل هذه المعاملة بعد جهود المضنية التى بذلها لرفاهية السودان وتقدمه الاقتصادى . وعاد إلى الخرطوم بمفرده بعد أن ترك عائلته فى القاهرة . ولا شك أن طول مدة السفر قد ضاعف من هواجسه حتى وصل إلى الخرطوم فى حالة نفسية غير طبيعية وبينما كان متأهبًا لاستقبال المهنئين فى إحدى المناسبات المعتادة وجد أنه قد خرج مبكرًا عن الموعد المحدد فاستلقى على أريكة ليستريح قليلاً وطلب من خادمه الخاص أن ينبهه عند اقتراب الموعد ولما ذهب إليه وجد أنه قد فارق الحياة وله من العمر ما يزيد قليلاً عن الخمسة والأربعين عامًا . وهذا ما ذكره خادمه الخاص نقلاً عن حفيده الأستاذ إبراهيم رياض المحامى . وقد أيد هذه الرواية أكثر من شخص من المعمرين . وطويت بوفاته صفحة شخصية قدمت للبلاد أجل الخدمات فى الوقت الذى وصل فيه الانحلال إلى مرحلة حطيرة وأراد الخديو أسماعيل أن يرسل ابنه الوحيد محمود فى

(٦) أنظر سرهنك فى كتابه حقائق الأخبار عن دول البحار جزء ٢ ، ص٢٧٤ .

بعثة إلى الخارج مع البرنس حسن غير أن والدته قد رفضت أن يفارقها وحيدها الذى استمر فى صرف معاشه عن والده ممتاز باشا حتى وفاته فى سبتمبر سنة ١٩٤٢ (ولد حوالى ١٨٦٧م) وله من العمر خمسة وسبعين عاما ويرجع استمرار المعاش طوال هذه المدة لعاهة فى إحدى العينين وقد أنجب ممتاز ابنتين تزوجت واحدة المرحوم محمد بك فهمى الغمراوى والثانية من المرحوم محمد بك توفيق وبعد وفاة ممتاز تزوجت أرملته من الأميرالاى محمد بك رستم ـ وتزوجت ابنة خال أرملته من محمود باشا خليل والد السيد محمد محمود خليل .

وهكذا يتبين لنا أثر الشائعات التى استطاعت أن تقلب الحقائق وتزورها وقد جاء فيها أن ممتاز قد حبس فى الخرطوم لأكثر من خمسة أعوام فى انتظار هيئة المحاكمة برئاسة خالد باشا .

وقالوا أن أملاكه قد صودرت وأنه مات مسموما وكل هذا لا نصيب له من الصحة . فأبن ممتاز تقاضى معاشه حتى وفاته فى سنة ١٩٤٢ والأطيان التى أعطاها له الخديو بقيت حتى زواج ابنتيه . وخالد باشا ذهب إلى السودان فى ١٨٧٤/ ١٨٧٥م وشغل منصب وكيل الحكمدار إسماعيل باشا أيوب عن أعماله . وجاء فى خطاب آدم باشا العريفى مأمور إدارة عموم قبلى السودان الذى استلم أعمال المديرية بعد وفاة ممتاز باشا ما يفيد بأن وفاته قد حدثت فى أواخر عام ١٨٧٢م(٧) .



(٧) أنظر وثيقة ٣٤ حيث جاء فيها .... تحصيل الأموال والبقايا (يقصد المتأخرات) من عهد حضوره لغاية قيامه وقد حاولنا أن نراجع هذه الكلمة الأخيرة فلم نعثر على الأصل ويرجح أن قيامه قد كتبت بدلاً من «وفاته» .

١ ٦ دفتر ١٩٣٤ أوامر عربى . صورة الأمر رقم ٨ ص١٤ بتاريخ ٢٣ صفر سنة ١٢٨٧هـ . بشأن نزع محافظات سواكن ومصرع والتاكه وباقى سواحل البحر الأحمر لحد بربرة . وجعلها محافظة مستقلة تحت اسم «محافظة سواحل البحر الأحمر» وتعيين أحمد ممتاز باشا محافظًا عليها .

٢ ١٧ دفتر ١٨٤٩ وارد معه صورة رقم ١ ص ٨ و٩ بتاريخ ٩ جمادى الثانى سنة ١٢٨٧ . من مديرية التاكة إلى المعية السنية بشأن الاهتمام بزراعة القطن فى أراضى المديرية .

٣ دفتر ١٨٤٧ معيه عربى صورة المكاتبة العربية رقم ٨ ص ٥٢ بتاريخ ٢٩ رجب سنة ١٢٨٧ . من محافظة سواحل البحر الأحمر إلى المعية السنية عن زراعة القطن واعتراضات مدير التاكه .

٤ دفتر ١٨٤٧ معية عربى صورة المكاتبة العربية نمرة ٧ ص ٥٢ فى ٢٩ رجب سنة ١٢٨٧هـ من محافظة سواحل البحر الأحمر إلى المعية السنية عن زراعة القطن .

٥ دفتر ٣٩١٠ معية صادر سواحل البحر الأحمر . صورة المكاتبة العربية نمرة ٨ص ١٧٨ فى ٢٩ رجب ١٢٨٧ . إلى المعية السنية عن زراعة القطن .

٦ ٢٦ دفتر ٣٩١٠ صادر سواحل البحر الأحمر صورة المكاتبة العربية نمرة ٧ ص ١٦٩ فى ١٦٩ فى ٢٩ رجب ١٢٨٧ من محافظة سواحل البحر الأحمر إلى المعية السنية . تقرير عن امكانيات التوسع فى زراعة القطن فى حوض القاش . وتفنيد اعتراضات مدير التاكه .

٧ دفتر نمرة ١٩٣٥ (أوامر كرام) صورة أمر كريم صادر إلى محافظة سواكن نمرة ٤٤ ص٥٩ فى ٢٣ شعبان سنة ١٢٨٧هـ ــ شكر المحافظ لما بذله من مسعى للتوسع فى زراعة القطن لما يترتب عليه من التقدم والرفاهية للسكان المحليين .

٨ دفتر ١٩٣٥ أوامر عربى . صورة أمر رقم ٣ ص ٣٦ فى ١٦ شوال سنة ١٢٨٧ إلى محافظة سواحل البحر الأحمر بشأن الموافقة على رفع عبد الرازق بك مدير التاكه

ووكيله وتعيين الأميرالاى ألماس بك مديراً والبكباشى فرج افندى وكيلاً للتاكه وارسال ثلاثة آلاف أردب بذرة قطن لتوزيعها على الأهالى .

٩ دفتر ١٨٤٩ وارد معية عربى صورة المكاتبة العربية نمرة ٣ ص ٨ بتاريخ ٢٥ شوال سنة ١٢٨٧هـ . من مديرى التاكه إلى المعية السنة ــ شكوى مدير التاكه بسبب ما يلاقيه من محافظ سواحل البحر الأحمر .

١٠ ٣٣ دفتر ٣٩١٢ جزء رابع صادر سواحل البحر الأحمر صورة المكاتبة العربية رقم ١٦ ص ٤٨ بتاريه ١٢ ذى الحجة سنة ١٢٨٧ هـ من محافظة سواحل البحر الأحمر إلى المعية السنية ــ عن زيارة المحافظ لساحل البحر الأحمر .

١١ ٤ دفتر ١٩٣٥ أوامر عربى نمرة ٥ ص ٩٤ بتاريخ ٩ محرم سنة ١٢٨٨ أمر كريم إلى محافظ سواحل البحر الأحمر . أمر كريم بشأن أقليم «سمهر» التابع إلى مصوع .

١٢ ٥ دفتر ١٩٣٥ أوامر عربى رقم ١١ نمرة ١٤٦ بتاريخ ١٣ محرم سنة ١٢٨٨ أمر كريم إلى محافظة سواحل البحر ــ بشأن طابية حرقيقو .

١٣ ٦ دفتر ١٩٣٥ أمر عربى رقم ٦ ص ٩٤ بتاريخ ٩ محرم سنة ١٢٨٨ أمر إلى محافظة سواحل البحر الأحمر ، بشأن الموافقة على تشكيل مجلس مخصص للنظر فى القضايا والدعاوى ، وان أعضاء من نظار الأقسام بمديرية التاكه .

١٤ ٧ دفتر ١٩٣٥ ، أوامر عربى رقم ١٢ ص ١٤٦ بتاريخ ١٣ محرم سنة ١٢٨٨ هـ ، من المعية إلى محافظة سواحل البحر الأحمر . بشأن الموافقة على تخفيض المربوط على أهالى دهلك إلى النصف .

١٥ ١٢ دفتر ١٨٤٨ معية مكاتبة عربية رقم ٩ ص ٢١ بتاريخ ١٨ ربيع أول من محافظة مصوع للمعية السنية .

١٦ ١٥ دفتر ١٩٣٦ أوامر عربى جزء ثان رقم ٤٢ ص٢١ بتاريخ ٢٤ ربيع الثانى سنة ١٢٨٨هـ إلى محافظة مصوع . بشأن الموافقة على إنشاء سد على خور بتلك الجهة ، لحفظ المياه للزراعة ، وتعيين المهندس الفرنسى بولان لهذا العمل .

١٧ ١٦ دفتر ١٩٥٣ . أوامر صورة أمر كريم صادر رقم ١٤ ص ١٥١ بتاريخ ١٥ ربيع أول سنة ١٢٨٨هـ إلى محافظة سواحل البحر الأحمر ـ بشأن تشكيل مجالس محلية فى التاكه ، وسواكن ، ومصوع ، للنظر فى شكاوى الأهالى المدنية والجنائية والتجارية والفصل فيها .

١٨ ٤٠ دفتر رقم ١ (بدون نمرة معية) ترجمة ألوثيقة التركية نمرة ٢ ص ٤ بتاريخ ١٥ رجب سنة ١٢٨٨هـ ـ إرادة سنية إلى رئيس المجلس المخصوص ـ بشأن إلغاء حكمدارية السودان وتعيين ممتاز مديرًا عامًا لمديريات الخرطوم وسنار وفازوغلى والبحر الأبيض . وتعيين علاء الدين بك مدير التاكه ، على المناطق الشرقية من السودان والممتدة أراضيها إلى حدود الحبشة وسواكن وجعلت هذه المنطقة إدارة مستقلة ، وتعيين حسين خليفة مديراً على مديريتى دنقلة وبربر كما أوضحت الوثيقة توزيع القوات العسكرية فى مختلف المديريات .

١٩ دفتر ١٨٥٩ معية عربى . صورة المكاتبة رقم ١ مرور ص ٢٥ بتاريخ ٢١ شعبان سنة ١٢٨٨هـ من مدير عموم قبلى السودان إلى المعية السنية . بشأن مقابلة ممتاز فى أسيوط للمهندس المكلف بكشف الطريق إلى شندى لإنشاء سكة حديد ويذكر بعض المقترحات .

٢٠ دفتر ١٨٥٩ معية عربى . صورة الوثيقة العربية رقم ٣ ص ٢٥ بتاريخ ٣ رمضان سنة ١٢٨٨هـ من مدير عموم قبلى السودان إلى المعية السنية . بشأن تعيين أورطة لأشغال قطع الأخشاب .

٢١ دفتر ١٨٥٢ معية عربى . صورة الوثيقة العربية رقم ٥١ ص ٤٢ بتاريخ ١٤ رمضان سنة ١٢٨٨هـ من المعية بختم المهردار لارسال مائتى أردب تقاوى نيلة مع الآلات المهمات الأخرى .

٢٢ دفتر ١٨٥٢ معية عربى . صورة الوثيقة العربية رقم ٢٣ ص٤٣ بتاريخ ٢٤ رمضان سنة ١٢٨٨هـ من المعية إلى نظارة المالية لارسال تقاوى قطن من صنف الأشمونى كذا عشرة أرادب من بذرة سيلان .

٢٣ دفتر ١٨٥٩ معية عربى رقم ٩ ص ٤٢ بتاريخ غرة شوال سنة ١٢٨٨ من مديرية عموم قبلى السودان إلى المعية السنية بشأن زراعة القصب واستخراج العسل الأسود للاستهلاك المحلى .

٢٤ دفتر ١٨٥٢ معية عربى رقم ١٠ ص٤٣ بتاريخ غرة شوال سنة ١٢٨٨ من مديرية عموم قبلى السودان إلى المعية السنية بشأن الاهتمام بالتوسع الزراعى ، القطن ، النخيل ، والفواكه والخضروات ، وأقترح المدير تحويل ماكينات بعض البواخر النيلية لحلج وكبس القطن .

٢٥ دفتر ١٨٥٩ معية عربى صورة المكاتبة رقم ١٨ ص ٥٠ بتاريخ ١٣ شوال سنة ١٢٨٨هـ من مدير عموم قبلى السودان إلى المعية السنية ـ يؤكد فيه ضرورة الماكينات اللازمة لحلج القطن ويطلب ارسال تلامذة من مدرسة الخرطوم أو من غيرهم إلى القاهرة لتعليمهم بمدارس العمليات الميكانيكية والزراعة ، وبعد تمام تعليمهم يرسلون إلى السودان للعمل فى المناطق اللازمة .

٢٦ دفتر ١٨٥٩ معية عربى صورة المكاتبة العربية رقم ٢٤ ص٥٣٧ بتاريخ ٢٠ شوال ١٢٨٨هـ . من مدير عموم قبلى السودان إلى المعية السنية ، يقترح إنشاء مديرية جديدة مركزها القضارف وتضم مناطق القضارف وراشد ودوكة وكنجاره وما يجاورهم من الأهالى والبلدان التابعة لمديرية سنار وفازوغلى ـ كما يطلب تشجيع زراعة القطن والنيلة .

٢٧ دفتر ١٨٥٩ معية عربى صورة الوثيقة العربية رقم ٢٨ ص ٥٦ بتاريخ ٢٥ ذى القعدة سنة ١٢٨٨هـ من مدير عموم قبلى السودان إلى المعية السنية يذكر فيه أن الأمول

المتأخرة فى مديريتى سنار والخرطوم لغاية ١٢٨٨هـ تبلغ ١٤ بارة و٢١١ قرش و٩٦٧١٦ كيسة ، ويرجع أسباب التأخير إلى اهمال التوسع الزراعى .

٢٨ دفتر ١٨٥٣ معية عربى رقم ٤ ص ٢٥ بتاريخ ٤ ذى الحجة سنة ١٢٨٨هـ من المعية السنية إلى ممتاز باشا مدير عموم قبلى السودان بشأن ارسال عمال لمراقبة زراعة النيلة .

٢٩ دفتر ١٨٥٣ معية عربى . صورة الوثيقة العربية رقم ٦ ص ٢٥ بتاريخ ٢٥ ذى الحجة سنة ١٢٨٨ من المعية السنية إلى ممتاز باشا مدير عموم قبلى السودان ، بخصوص أطيان جفلك الدائرة السنية .

٣٠ دفتر ١٨٥٢ معية عربى رقم ١١٨ ص ١٤٩ بتاريخ ٧ جمادى ثان سنة ١٢٨٩هـ من المعية السنية إلى المالية ، وهو عبارة عن :

اخطار عن تعيين إسماعيل أيوب باشا مديراً إلى عموم قبلى السودان بدلاً من ممتاز باشا .

٣١ دفتر ١ بدون نمرة أمر نمرة ٤٤ ص ٣٤ بتاريخ ٣ جمادى ثان سنة ١٢٨٩هـ من المعية إلى إسماعيل أيوب باشا تبليغه أمر تعيينه مديراً للسودان القبلى .

٣٢ دفتر ١٨٥٢ معية عربى رقم ٥٧ ص ١٥١ بتاريخ ٣ جمادى آخر سنة ١٢٨٩هـ من المعية السنية إلى المجلس المخصوص ، إخطاراً بتعيين إسماعيل أيوب باشا مديراً على عموم قبلى السودان بدلاً من ممتاز باشا الذى صار انفصاله من هذه المأمورية .

٣٣ دفتر ١٨٦٤ معية رقم ٣٩ ص ٤ بتاريخ ٢١ جمادى ثان سنة ١٢٨٩ من آدم باشا مأمور إدارة مديرية عموم قبلى السودان ـ يذكر فيه أن ممتاز باشا قد أدخل تعديلات فى التنظيمات والمقررات وأنه لم يهتم بتحصيل الأموال من عهد حضوره لغاية قيامه (وفاته ـ التى حصلت بالخرطوم) .

٣٤ دفتر ١٨٦٤ رقم ٤٠ ص١٤ بتاريخ ٣٤ جمادى آخر سنة ١٢٨٩هـ من سعادة أدم باشا مدير عموم قبلى السودان (مأمور إدارة مديرية عموم قبلى السودان وقائم بأعمال المدير المتوفى) إلى المعية السنية يذكر فيه أن الأموال المتأخرة لغاية حضور ممتاز باشا كالآتى :

بارة	قرش	كيس	
١٧	١٢	١٨٠٥٤	متأخرات الأموال
١٩	٢٧٩	١٥٣٦٧	الأموال المربوطة عن سنة ١٢٨٨
٣٦	٢٩١	٣٣٤٢١	
٢٥	١٨٠	٣٩٨٨	الأموال التى تحصلت فى فترة إدارة ممتاز باشا
١١	١١١	٢٩٤٣٣	

المبالغ التى أمر ممتاز باشا بخصمها

بارة	قرش	كيس	
٣٠	٨٣	١٠٧٤	نصف استحقاق الجنود التى كانت مفروضة على قبائل النيل الأبيض .
٢٥	٤١	٥٣٧	خصم من زمام القسم .
٠٠	٠٠	٢٠٠	الغرامة التى حكم بها على أهالى النيل الأبيض .
٢٠	١٨١	٤٥٩	خصم من زمام عربان رفاعه الهوى لعدم مقدرتهم على الدفع .
٣٥	٣٠٦	٢٢٧٠	جملة الخصومات
١٦	٣٠٤	٢٧١٦٢	المبالغ المتأخرة

ملحوظة : الوثيقة عن ٢٧ توضح أن الأموال المتأخرة عن مديريتى سنار والخرطوم لغاية سنة ١٢٨٨هـ هى ١٤ بارة و١١١ قرش و٩٦٧١٦ كيس ، ومما لاشك فيه أن المسألة الضريبية فى حاجة إلى دراسة تفصيلية للكشف عن أوجه الضعف فيها وأن لا تركن إلى القول أن المسألة مجرد إهمال شخص معين فهى فى الواقع أبعد عمقًا عن مثل هذه الأقوال .

F. A. Brockhaus Esq

34 De Vere Gardens

[illegible] 27th 1890

My dear Friend

A number of Germans and Austrians write to me in the same [illegible] you write but unfortunately they write to me in their own language - [illegible] I - to my shame be it said - do not know a word. When I am married to a certain fair lady I shall be better able to appreciate their sentiments. [illegible] the sentiment [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] I must [illegible] [illegible] [illegible] German [illegible]

order to stimulate a healthy rapid [illegible] [illegible] Africa. [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] the process of attrition [illegible] [illegible] would produce [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] dearly love [illegible]. England [illegible] [illegible] care [illegible] [illegible] for the Congo [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] drawn out of East Africa she will [illegible] it. and the Germans will then [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] in it which their pride [illegible] [illegible] [illegible] otherwise [illegible] in the neighbourhood [illegible] a rich [illegible] [illegible] fertilizing [illegible] [illegible] [illegible]

الملحق التاسع:

خطاب هنرى ستانلى إلى بروكلهوس

الملحق التاسع

خطاب هنرى ستانلى إلى بروكلهـــــوس

«٢٤ حدائق دى فيى»



صديقى العزيز

يكتب إلى فى كل أسبوع عدد من الألمان والنمساويين فى لغتهم التى لا أعرف منها مع الأسف كلمة واحدة ، وربما أكون فى موقف أحسن أقدر فيه ما تحمله إلى هذه الرسائل من عواطف ، وذلك عند ما يتم زواجى بسيدة معينة تعرف عدداً من اللغات منها الألمانية ، وحتى يحين ذلك الوقت فإنى قانع بإهمال هذا العدد من الرسائل ، ولا أعلم ما تحمله إليه من تمنيات أو لعنات .

(ويستطرد فى حديثه عن المشاكل الخاصة بأمين باشا مدير خط الاستواء ، وعن المنافسة بين البريطانيين والألمان وفى شرق أفريقيا) .

ثم يقول فى الصفحة السادسة من خطابه ما يأتى :

«إذا كان المستعمرون من الألمان يعتقدون أنهم سوف يجدون مالاً كثيرًا عندما يطردون الإنجليز من شرق أفريقيا ، فإنهم يقعون فى خطأ عظيم .

ان التنافس بين الإنجليز والألمان يجعل قيمة لشرق أفريقيا ، وان خروج البريطانيين من هذه المنطقة فى صورة مزرية سوف يحدث انعكاساته على المصالح الألمانية فى القارة الأوروبية وإذا حدث وخرج الألمان من شرق أفريقيا فى مثل هذه الظروف فإن المصالح البريطانية سوف تنعدم .

وانى أود أن تصل الدولتان إلى اتفاق مناسب تتوفر معه لكل من الدولتين الإمكانيات لاستغلال المناطق التى تسيطر عليها كل منهما وتجنى ثمار جهودها . وأرجو أن تفكر قليلاً فى هذا الموضوع فإنك سوف تجد نفسك قد وصلت إلى نفس النتيجة التى وصلت إليها .

أن جميع القارة الأفريقية لا تساوى شيئًا فى نظر بريطانيا إذا قورن ذلك بما سيكلفه النزاع مع ألمانيا ، وان القارة الأوروبية لا تساوى شيئًا بالنسبة إلى ألمانيا إذا انقطعت العلاقات بين الدولتين فالخير كل الخير أن تتفق الدولتان على تخطيط الحدود بينهما ، وليكن بينهما التنافس فى البناء والتقدم الأمر الذى أتمنى أن أراه فى أفريقيا التى هى موضع اهتمامى .

. . . . . وان حماس الألمان سوف يموت إذا خرج الإنجليز من شرق أفريقيا لأنهم سوف يفقدون جارة غنية وقوية .

المخلص

هنرى م. ستانلى

ملحوظة:

المرسل إليه هذا الخطاب هو ف . أ . بروكلهوس صحفى ألمانى من عائلة بروكلهوس الشهيرة .

خريطة رقم ٢

حدود
الشلال الثالث

أمدرمان

تانا

المناطق المختلفة كما يعرفها أهل البلاد



عطمور
الصعيد
الجنوب
دار غرب



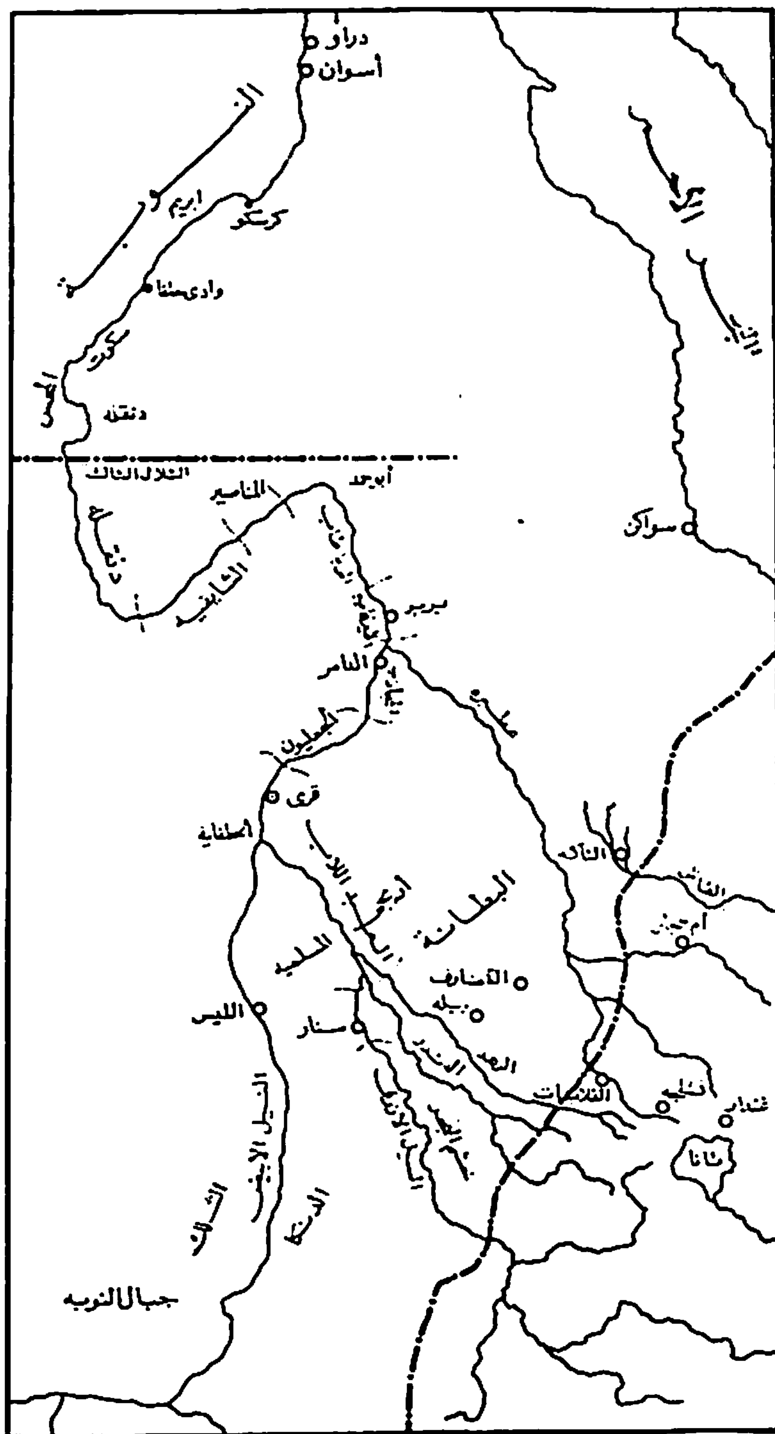
دار صباح
أرض الكنوز
السافل



خريطة رقم ٣
السلطنات الإسلامية فى أثيوبيا فى القرن الثالث عشر الميلادى

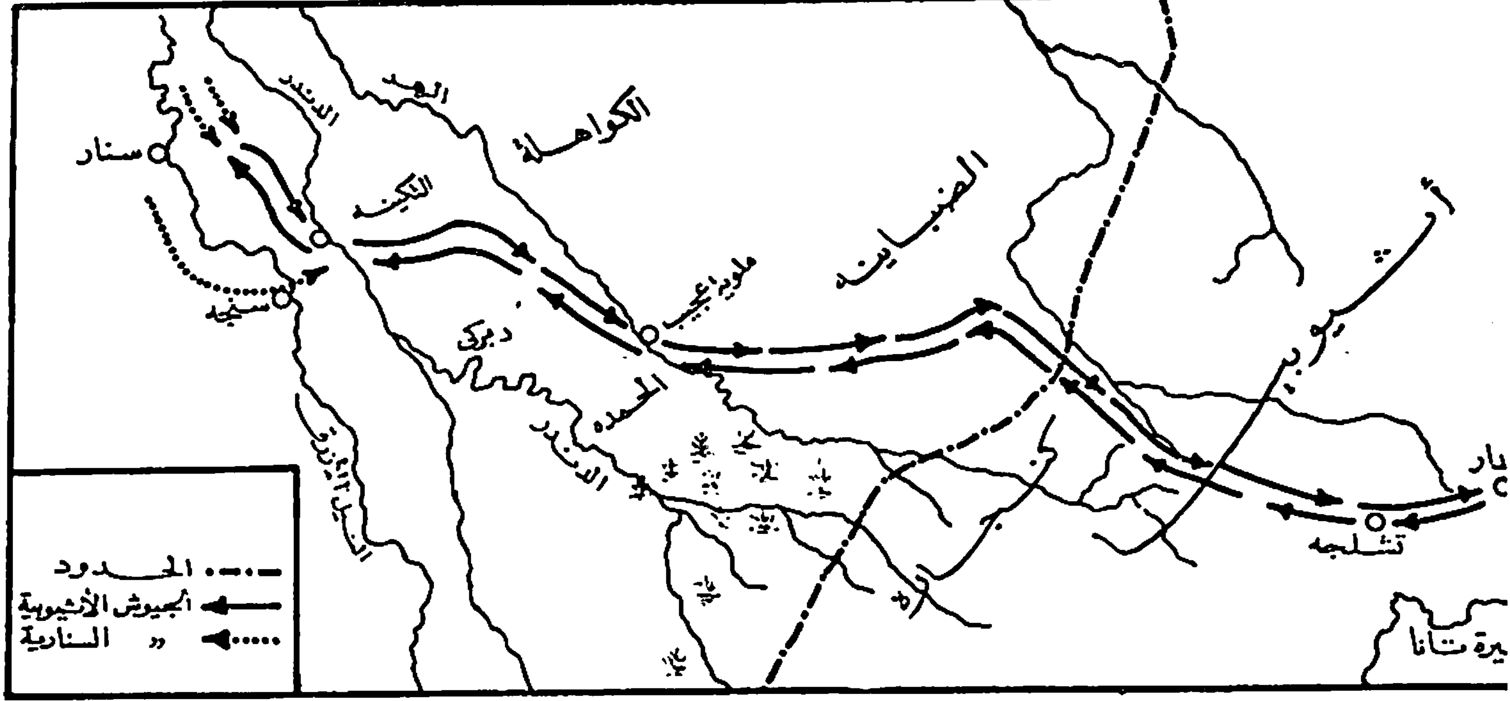
خريطة رقم ٤

أثيوبيا فى القرن السابع عشر كما رسمها لودلفس

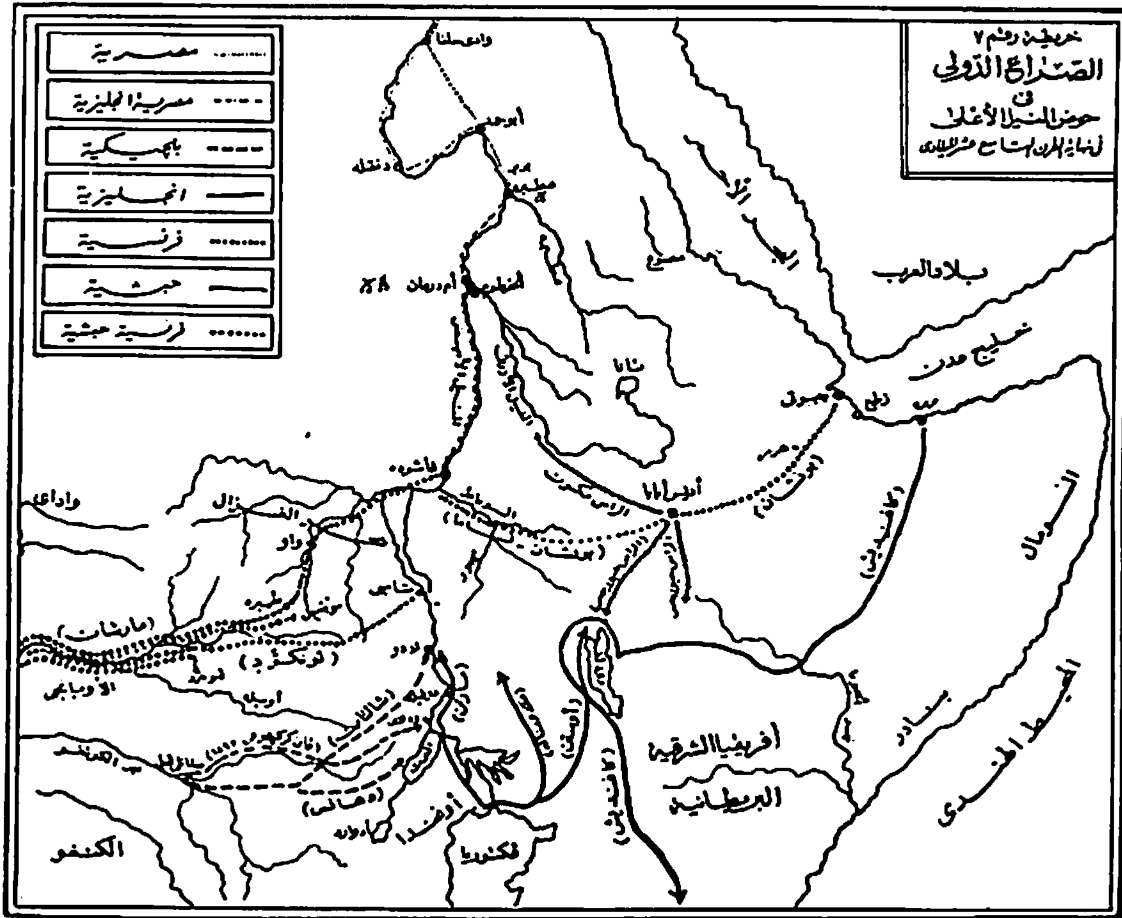


خريطة الديار
القبلية التى
تكون منها
الحلف السنارى

ـــ . ـــ . ـــ حدود خارجيه
ــــــــــ " داخلية
خريطة رقم ٥



خريطة رقم ٦
موقعة التكيتة - أو الزكيات - ٧ أبريل سنة ١٧٤٤ م



خريطة رقم ٧
الصراع الدولي
في
حوض النيل الأعلى
في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي
مصرية
مصرية انجليزية
بلجيكية
انجليزية
فرنسية
حبشية
فرنسية حبشية
بلاد العرب
خليج عدن
الصومال
المحيط الهندي
أفريقيا الشرقية
البريطانية
الكنغو
فكتوريا
أوغندا
أديس ابابا
الخرطوم
فاشوده
أم درمان
دنقلة
أبوحمد
وادي حلفا

مصادر البحث



١ ـ مخطوطات ـ لم تنشر بعد

دار الكتب المصرية القاهرة :

(أ) تاريخ مدينة سنار لكاتب مجهول . تحت رقم ١٨م ـ كاتب المخطوطة كما هو مذكور فى المتن هو أحمد ابن الحاج أبو على ـ المشهور بكاتب الشونة ـ وقد كان موظفًا فى الديوان العام فى الخرطوم .

(ب) تاريخ ملوك الفونج والسودان وأقاليمه . تحت رقم ٢٥٤٧ مصورة عن النسخة المحفوظة فى المكتبة الأهلية بباريس .

ـ مخطوطة تاريخ قلاوون .

المكتبة الأهلية ـ فيينا ـ النمسا :

(جـ) تاريخ السلطنة السارية ـ وهى القسم الأول من مخطوطة تاريخ مدينة سنار ، وقد نقلها أحد الفقهاء فى الخرطوم كطلب المبشر اجنازكنوبلخر الذى أودعت باسمه فى المكتبة الأهلية فى فيينا . وتشمل تاريخ السلطنة السنارية حتى نهايتها ـ وفيها بعض زيادات سقطت من النسخة الموجودة فى دار الكتب المصرية تحت رقم ١٨م .

المتحف البريطانى ـ لندره :

(د) تاريخ ملوك الفونج ـ وتنتهى بالفترة التى سبقت حكمدارية غوردون ـ وقد أودعها غوردون فى هذه المكتبة .

(هـ) نسخة أخرى من (جـ) أرسلها غوردون للدايرة السنية وهى باسم تاريخ مختص بأراضى النوبة ومن ملكها منذ ملوك الفونج .

وثائق نقلها المؤلف من السودان :

انساب الركابية

أنساب أولاد جابر

* مخطوطة الشيخ أبو دلق

كتاب مفيد الإيمان فى بيان من سكن من قريش فى أرض السودان .

* تاريخ أربجى .

* خطابات من سلاطين سنار .

* خطاب الوزير الشيخ محمد ابن الوزير الشيخ عدلان .

* منشورة ضمن ملاحق الكتاب .

٢ ـ مخطوطات منشورة

تاريخ ملوك السودان ـ وقد نشره الدكتور مكى شبيكة تحت رقم ١ تاريخ من مطبوعات كلية الخرطوم الجامعية .

٣ ـ مطبوعات عربية

إبراهيم صديق ـ الطبقات فى خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء القاهرة ١٩٣٠م .

إبراهيم فوزى ـ السودان بين يدى غوردون وكتشنر القاهرة سنة ١٣١٩هـ جزءان .

إسماعيل سرهنك باشا ـ حقائق الأخبار عن دول البحار بولاق مصر سنة ١٣١٢هـ .

ابن تغرى بردى ـ النجوم الزاهرة . دار الكتب المصرية .

أبن حوقل ـ كتاب صورة الأرض . طبع لندن سنة ١٩٣٩ . أنظر كرامر .

الشاطر بصيلى عبد الجليل ـ على أطلال مدينة سنار . القاهرة ١٩٣٥ .

الشاطر بصيلى عبد الجليل ـ تاريخ المواصلات فى سودان وادى النيل . جزء أول القاهرة ١٩٥٠ .

سليمان داود منديل ـ كتاب الطبقات فى خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء فى السودان ـ الخرطوم ١٩٣٠ .

شهاب الدين ابن الشيخ أحمد بن عبد القادر .
المعروف بعرب فقيه أنظر باسيه Basset, R.
شمس الدين أبو عبد الله محمد الدمشقى نخبة الدهر فى عجايب البر والبحر . أنظر ميرن .
ضيف الله ـ أنظر إبراهيم صديق وسليمان داود .
عبد الرحمن زكى ـ يوميات عباس بك . المجلة التاريخية المصرية أكتوبر ١٩٥١ .
دكتور عبد العزيز عبد المجيد ـ التربية فى السودان فى القرن التاسع عشر .
جزءان ـ القاهرة .
عرب فقيه ـ أنظر شهاب الدين بن أحمد بن عبد القادر .
عمر محمد على ـ أتيوبيا ـ القاهرة ١٩٥٤ .
العمرى ابن فضل الله ـ كتاب مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ـ ترجمة فرنسية طبع باريس ١٩٢٧ .
أنظر Gudefrory Demmlynes
الطبرى ـ أنظر مقال استانلى لين بول .
فيليب جلاد ـ قاموس الإدارة والقضاء . الإسكندرية سنة ١٨٩١م .
دكتور محمد فؤاد شكرى ـ الحكم المصرى فى السودان القاهرة
المقريزى ـ المواعظ والاعتبار نشره فييت ، المعهد الفرنسى للآثار الشرقية .
ـ الإلمام بأخبار من أرض الحبشة عن ملوك الإسلام ، مطبعة التأليف ، القاهرة سنة ١٨٩٥م .
محمود طلعت ـ غرائب الزمان فى فتح السودان ، مطبعة الإسلام بالقاهرة سنة ١٨٩٦م .
محمود القبانى ـ السودان المصرى والإنجليز ـ طبع جريدة الأهرام ، مجموعة مقالات نشرت أصلاً فى جريدة الأهرام .
فعوم شقير ـ تاريخ السودان القديم والحديث ، القاهرة ، مطبعة المعارف ١٩٠٤م .
اليعقوبى ـ تاريخ نشره هوتسما طبع ليدن سنة ١٨٨٥م .

BOOKS OF REFERENCE

Abbreviated reference	AUTHOR AND TITLE
Etiopia I.	Teodosio Somigli De S. Detole, Fr., O.F.M., Biblioteca Bio-Bibliografia della Terra Santa del'-Oriente Francescana, Tome I, Quarachi presso Firenze, 1928.
Etiopia II.	Giovanni Maria Montanò, Dr.,O.F.M., Biblioteca-Bio- Bibliografia Della Terre Santa Del'Oriente Francescana, Tome II, Firenze, 1948.
Hill, I.	A Bibliography of the Anglo-Egyptian Sudan up to 1937 Hill, R. L.,
Hill, II.	Hill, R.L., A Biographical Dictionary of the Anglo-Egyptian Sudan, Oxford 1951
Ministere	Documents Diplomatiques Affaires d'Egypte, 1884-1893 (Ministere des Affaires Etranger) Paris 1893.
Parliamentary	Parliamentary papers relating to Egypt in Blue books since 1877 onwards.
Stewart	Stewart,C.E., Col., Report on the Egyptian Provinces of the Sudán, Blue Book, London 1883.

PUBLISHED SOURCES IN OTHER THAN ARABIC

Abbreviated reference	AUTHOR AND TITLE
ابو صالح	Abu Salih, trans. by Evetts, Churches and Monasteries of Egypt, Oxford, 1895.
ادلر	Adler, Elkan. Jewish Travellers, Broadway, London, 1931.
الكف	Almkvists, Nubische Studien. Leipzig. 1911
الفارز	Alvarez, F., Ed. by Lord Stanlev of Alderley, Narrative of the Portuguese Embassy to Abyssinia, Haklayt Society, London, 1881
امير على	Ameer Ali. Spirit of Islam, London,
اركل	Arkell, A.J., An Outline History of the Sudan, Khartoum, 1945.
اركل (٢)	Arkell; A.J., A History of the Sudan up to 1821 A.D. London, 1955.
اوليا	See Evliya.
بيكر	Baker, Sir Samuel, The Nile Tributaries of Abyssinia London. 1867.
بيكر (٢)	Baker, Sir Samuel, Ismailia, London, 1874.
باسيه	Basset. R., Histoire de la conquéte de l'Abyssinie, Chehab El Din Ahmed Ben Abd El Qader. Paris, 1897.
بكارى	Beccari. Rerum Aethiopicarum, Roma, 1904/17.
بير	Beer, G.L., Ed. Gray, B.H. African Questions at the Paris Peace Conference, New York, 1923.
بيبر	Biberfeld, E., Der Reiseb. des David Reubeni, Berlin, 1892.
بلنت	Blunt, W.S., Gordon at Khartoum, second edition, London, 1912.
بصيلى	Bosayley, C., The Greek Influence in the Valley of the Blue Nile. Khartoum, 1945.
برون	Browne, W.G., Travels in Africa, Egypt and Syria, 1797-9, London, 1806.
بروس	Bruce, J., Travels to discover the sources of the Nile, Edinburgh, 1805.
برون . روليت	Brun-Rollet, N., Le Nil Blanc et le Soudan, Cairo, 1855.
بكل	Buckle, G.E., Letters of Queen Victoria, New York, 1926.

Abbreviated reference	AUTHOR AND TITLE
بدج	Budge, E.A.W.. The Egyptian Sudan, London 1907
بدج (٢)	Budge. E.A.W., The Book of the Saints of the Ethiopian Church. London, 1928.
بدج (٣)	Budge, E.A.W..A History of Ethiopia, Nubia and Abyssinia, London, 1928.
بورخارد	Burchardt, J.L., Travels in Nubia, London. 1819
بيرتون	Burtun, R.F.. First Footsteps in East Africa, London 1856.
كايو	Cailliaud, Fred.. Voyage à Meroé au Fleuve Blanc, ou dela dela de Fazoqqi dans le midi da Royaume de Sennar, Paris, 1825.
تشرشل	Churchill, W., River War, London, 1949.
كوبان	Cobban, A.. Ambassadors and Secret Missions, London, 1954.
كونزلمان	Conzelman, W.E., Chroniques de Galawdéus, Paris, 1895.
كروفورد	Crawford, O.G.S., The Fung Kingdom of Sennar, Glous., 1951.
دیسی	Dicey, E., England and Egypt, London, 1881.
دیسی (٢)	Dicey, E., The Story of the Khediviate, London, 1902.
دوان	Douin, G., Histoire du Soudan Egyptien, Cairo, 1944.
دريو	Driault, E., La Formation de l'Empire de Mohd Ali (1814-1823), Cairo, 1927.
الـتن	Elton, Lord, General Gordon, London, 1954.
انجلش	English, G.B., Narrative of the Expedition to Dongola and Sennaar under the Command of His Excellency Ismail Pasha. Boston, 1823.
اوليا	Evliya, Chelebi, Seyahatnemesi, Misr, Sudan Habesh, 1672-1680. Vol.X, Istanbul, 1938
ابن فضل	Ibn Fadl Allah Al Omari, Masalik el Absar Fi Mamalik El Amsar, trans. by Gaudefroy Demombynes, Paris, 1927.
فيلد	Field, Henry, The Anthropology of Iraq, Chicago, 1840.
جودفرى	See Ibn Fadl Allah el Omari.
جسي	Gessi, R, Seven Years in the Sudan, London, 1892.

Abbreviated reference	AUTHOR AND TITLE
جبن	Gibbon, E., Decline and Fall of the Roman Empire, London,...
جليخن	Gleechen, Count, With the Mission to Menelik, London, 1898.
جرايتز	Graetz, H., Gesch. der Judan. Leipzig.
جريفث	Griffith, F. LL., Studies presented to London, 1932
جون	Gwyn, S., and Tuckwell, G.M., The Life of the Right Honourable Sir Charles Dilke, London 1918.
جراى	See Beer.
هيك	Hake, H.E. The Journal of Major-General C. G. Gordon, C.B., at Khartoum London, 1885.
هرتسلت	Hertslet, Sir Edward, see Map of Africa Bytreat 3rd Edition, 1909.
هنرى	See Waddington.
ابن حوقل	See Kramers.
هومل	Hommel, F., Ethnologie, Geog. des alten Greints, Munchen, 1926.
هوسكن	Hoskins, G.A., Travels in Ethiopia above the second Cataract of the Nile. London, 1835.
ابن جبير	Ibn Jubayr, Travels ed. Goeje, M.J.de, Gibb Memorial Volum V.
ارون	Erwin. Eyles, A series of Adventures in the course of a voyage up the Red Sea on the coasts of Arabia and of a Route through the Deserts of Thebais in the year M.DCC.LZXVII. London, 1780.
جكسن	Jackson, H.C., Tooth of Fire, London 1912.
جراى	Jackson, JAMES GREY, an account of the Empire of Morocco, donda, 1811.
كاميرر	Kammerer, A, Essai sur l'histoire Antique d'Abyssinie Paris, 1926.
كاميرر (٢)	Kammerer, A., Le Mer Rouge. l'Abyssinie et l'Arabie depuis l'Antiquite, Cairo, 1929
كرمب	Krump. T., Hoher und Fruchtbnrer translated in the Fung Kingdom of Sennar, by Grawford.
لاجرانس	Lagercrantz, Stüre, Contribution to the Ethnography of Africa, Upsala, 1950.
لانقر	Langer. W.L., European Alliances and Alignments, 2nd edition, New York, 1950.

Abbreviated reference	AUTHOR AND TITLE
لانقر (٢)	Langer, W.L., Diplomacy of Imperialism, 2nd Ed. New York, 1950.
لبسوس	Lepsuis, R., Discoveries in Egypt, Ethiopia and the Peninsula of Sinai in the years 1842-5, London, 1853
لو	Low, Sydney, Egypt in Transition, New York 1914.
لوكاس	Lucas, Sir Charles, The Story of the Empire Vol.II, London. 1924.
لودلفس	Ludolphus, J., A New History of Ethiopia, London, 1684.
مكميكل	MacMichael, H.A., A History of the Arabs in the Sudan, Cambridge, 1922.
ماجنوس	Magnus, Ph., Gladstone, a biography, London, 1954
ميك	Meek; C.K., Tribal Studies in Northern Nigeria, London, 1931.
ميك (٢)	Meek, C.K. Sudanese Kingdom, London. ...
ميرن	Mehren,A.F.,Manuel de la Cosmogrpaphie du Moyan Age, traduit de l'Arabe de Shams Ed Din Abu Abou Abdallah Mohd de Damas, 1874.
مرى	Murray. G.W.,A An English-Nubian Comparative Dictionary Harvard African Studies Vol. IV. Oxford University Press. 1923.
مرى (٢)	Murray; G.W., Sons of Ishmael; London.
مفضل	Moufazzal Ibn Abil Fazail, Histoire des Sultans Mamloukes, Texte Arabe publié et traduit en Français par Blochet, E., Patr. Or. T. XII.
نكلس	Nicholls, W., The Shayikiya. Dublin, 1913.
اوروالدز	Ohrwalder, J., Ten Years Captivity in the Mahdi's Camp, English edition by Wingate.
العمرى	See Ibn Fadl Allah and Gaudefroy-Demmombynes.
بادمور	Padmore, G., Africa Britain's Third Empire, London, 1949.
بالمر	Palmer, Sir Richmond, The Bornu Sahara and the Sudan, London, 1936
بول	Paul, A., The Beja Tribes, London, 1954
برهام	Perham; Margery, Native Administration in Nigeria, London.
بتريك	Petherick, John, Egypt, the Soudan and Central Africa, London, 1861.

Abbreviated reference	AUTHOR AND TITLE
بونسيه	Poncet, Jaques, The Red Sea and adjacent countries at the close of the Seventeenth Century, Hakluyt Society London, 1949.
رنل	Rennell Rodd, Social and Diplomatic Memories, 1884-91 London, 1923.
رى	Rey, C.F., In the Country of the Blue Nile, London 1927.
رى (٢)	Rey, C.E., The Romance of the Portuguese in Abyssinia London, 1929.
روز	Rose, J.H., Life of Napoleon, London 1913.
روسيني	Rossini, C.C., Storia d'Etiopia, Milan, 1928.
روبل	Rüppel, E., Reisin in Nubein, Kordofan und dem fetrāischen Arabien, 1829.
روسل	Russell, Henry, The Ruin of the Soudan, London, 1892.
سولت	Salt, H., H., A Voyage to Abyssinia, London 1814.
سلجمان	Seligman and Brenda, Z., Pagan Tribes of the Nilotic Sudan, 1932
شبيكة	Shebeika, M., The British Policy in the Sudan, 1882-1902, London, 1952.
شكرى	Shukri, M.F., Khedive Ismail and Slavery in the Sudan, Cairo, 1937.
سلاتين	Slatin, R., Fire and Sword in the Sudan, English edition by Wingate, London, 1896.
ستانلى	Stanley, Lord, see Alvarez.
ستراشى	Strachey, Lord Lytton, Eminent Victorians, London 1949 (Penguin Series Book No. 649)
تريمو	Tremaux, P., Rapport sur le voyage au Soudan oriental Paris, 1853.
تريمو (٢)	Tremaux, P., Voyage en Ethiopia au Soudan Oriental Paris 1862.
ترمنجهام	Trimmingham, J.S., Islam in the Sudan, London, 1949.
ترمنجهام (٢)	Trimmingham; J.S., Islam in Ethiopia, London, 1952.

Abbreviated reference	AUTHOR AND TITLE
فلارد	Villard, Moneret de, Storia della Nubie Cristiana, Roma, 1938.
وادنجتون	Waddington and Hunbury, B., Journal of a visit to some parts of Ethiopia, London 1822.
وسترمان	Westermann, D., The Shilluk People, Philadelphia, 1912.
وسترمان (٢)	Westermann, D., African Today and Tomorrow, London.
ونجت	Wingate, R., Mahdism and the Egyptian Sudan, London 1891.
ونجت (٢)	Wingate, R., Ten Years Captivity in the Mahdi's Camp by Chrwalder, ed in English. London 1892.
ونجت (٣)	Wingate, R., Fire and Sword in the Sudan, 1879-1895, ed in English. London 1896.
ولف	Woolf, L., Empire and Commerce in Africa, London, 1922.
ورثام	Wortham ; H. E., Gordon an intimate Portrait, London, 1933.
وايش	Wyche, Sir Peter, A Short relation of the river Nile, London, 1669.

Encyclopœdia of Islam, Vol.I; Fasc.I.Leiden 1954

Periodicals :

Abbas Bey, عباس بك	Diary of, found with a Dervish who was killed in the battle of Omdurman in 1898. S.N. & R.Vol XXXII.p.179-196. See Zaki
Arkell, A.J., اركل	King Badi wad Nol, granting land, S.N. & R. Vol.XV.p; 248—50.
Arkell, A.J., اركل (٢)	Fung Origins, S.N. & R. Vol.XV.p 201—250
Arkell, A.J., اركل (٣)	More about Fung Origins, S.N. & R. Vol.XXVII,p 87—97.
Arkell, A.J., اركل (٤)	Fung, correspondence, S.N. & R. Vol.XXXIII,p 181—182.
Bloss, J.F.E., بلوس	The Story of Suakin, S.N. & R. Vol.XIX;p 272-300(286-287)

Periodicals (contd.)

Cerulli, Enrico, شيرول — Document arabi per la storia dell'Etiopia, R.Accadamia Nazionale dei Lencei, classe de Scienze morali, momorie, Vol; II. serie,p 39—101.

Chataway, J.D.P., شتاواى — Note on the History of the Fung, S.N. & R. Vol. XIII, 247—250

Chataway ,J.D.P., شتاواى — Archaeology in the Souther Sudan, S.N. & R., Vol. XIII,p 288—91.

Chataway, J.D.P., شتاواى — Fung Origins, S N. & R. Vol.XVII.p III—117.

Crawford, O.G S., كروفورد — Tagia umm Qerein, S.N. & R.,.Vol. XVI. pp333—334

Crawford, O.G.S., كروفورد — Lul; 335—6

Crowfoot, J.W., كروفوت — Some Red Sea Ports in the Anglo Egyptian Sudan, Geographical Journal, May 1911.

Crowfoot, J.W., كروفوت — Christian Nubia, Journal of Egyptian Archaeology, Vol. XIII. p 141—50.

Cumming, D.C., كنج — The History of Kassala and the Province of Taka, S.N. & R., Vol.XX.,p 1—45 (4.9)

Disney, A.W.M. ديزنى — The Coronation of the Fung King of Fazoghli, S.N. & R., Vol XXVI.,p 37—42.

Elles, R.J. الس — The Kingdom of Tegali, S.N. & R. Vol XVIII, p 1—35 (10—12)

Evans-Pritchard, E.E., ايفانس برتشارد — Ethnological Observations in Dar Fung. S.N. & R. Vol., XV., 1—61 (57)

Gray, Sir John, جراى — East Africa and America, Tanganyika Notes & Records, 1946

Griffith, F.L.L., جريفث — Christian Documents from Nubia, Proceedings of the British Academy, Vol.XIV. pp 117 ff, 1928.

Guidi, جويدى — Giom. della Societa Asiatica Italiana Tomes III

Periodicals (contd.)

Hebbert, H.E., هبرت	El Rih, a Red Sea Island, S.N. & R., Vol. XVIII, 308
Henderson, K.D.D., هندرسن	Fung Origins, S.N. & R, Vol. XVIII,p 149—154.
Henderson, K.D.D., هندرسن	Fung Origins, S.N. & R..Vol. XXXII,p 174—175
Henderson; K.D.D., هندرسن	Fung Origins, S.N. & R., Vol. XXXIV,p 315—316.
Hillelson, S., هللسون	David Reubini, an early visitor to Sennar, S.N. & R, Vol.XVI,p 55—66
Holt, P.M. هولت	Mahdiya, S.N. & R. Vol; XXXIII,p 182-186.
Jackson, H.C., جكسن	The Nuer of the Upper Nile Province. S.N. & R Vol. VI.,p 69—70
Kirwan, L.P., كروان	Note on the Topography of the Christian Kingdom, Journal of Egyptian. Archaeology, Vol; XXI, p 59-62.
Lane-Poole, Stauley, لين بول	The First Mohammedan Treaties with Christians, Royal Inst. Academy Proceedings Vol. XXIV Part 5 — 1904.
Madigan, C.T., مادجان	A description of some towers in the Red Sea North of Port Sudan, S.N. & R., Vol, V. p 78—82.
Mathew, J.O., ماثيو	Land Customs and tenure in the Singa District, S.N. & R., Vol.IV p 1—19.
Nadler, L.F., نادلر	Tales from the Fung Province, S.N. & R. Vol. XIV,p 61—86.
Nadler, L.F., نادلر	Fung Origins, S. N. & R., Vol. XIV,p 61—66.
Neubauer, A., نيوباور	Anecdota Oxoniensia, Semitic Series, Vol.I parts 4—6 1895

Periodicals (contd.)

Owen, T.R.H, اون — The Hadendowa, S.N. & R. Vol.XX. pp 183-200 (185)

Paul. A., بول — Ancient Tombs in Kassala Province, S.N. & R., Vol. XXXIII,p 54—59.

Penn, A.E.D., بن — Traditional Stories of the Abdullah Tribe, S.N. & R., Vol. XVII,p 59—82.

Pumphrey, M.E.C, بمفرى — Shilluk "Royal Language Convention" S.N. & R. Vol. XX. p 319.

Pumphrey, M.E.C., بمفرى — The Shilluk Tribe, S.N. & R. Vol XXIV,pp 1—45(12)

Robertson, J.W., روبرتسن — Fung Origins, S.N. & R., Vol.XVII,p 260—265.

Robinson, A.E., روبنسن — The Mamlukes in the Sudan, S.N. & R. Vol.V. p 88—94.

Robinson, A.E., روبنسن — Abu El Kaylik, the King—maker of the Fung of Sennar, American Anthropologist, Vol. XXXI.

Robinson, A.E., روبنسن — The Conquest of the Sudan by the Wali of Egypt, Journal of African Society, October and January 1926.

Robinson, A.E., روبنسن — The Fung Drum or Nehas, S.N. & R., Vol;IV. p 211—212.

Robinson, A.E., روبنسن — Nimr the last king of Shendi, S.N. & R., Vol VIII,p 105—118.

Rossini, C.C., روسيني — Documents per l'Archaeologie iritrei nella bassa Valle de Barca, R. R. A L., Vol. XII serie V. Rome, 1903 pp 139—150.

Sandars, G.E.R, andOwen,T.R.H. ساندرز — Note on Ancient village note in Khor Nubt and Khor Omek with note by Shinnie,P.L., S.N. & R. Vol.XXXII,p 326-332

Periodicals (contd.)

ستيوارت ورتلي
Stuart-Worthley, Montague, E.J. Major-General, The Hon. — My Reminiscenes of Egypt and the Sudan, S.N. & R. Vol. XXXIV pages 17-46 and 172—188.

طوسون Tousson, Prince Omar, La Fin des Mamloukes, Bullet Inst. d'Egypte, Vol.15, pp 193 ff.

وطسن Watson, C.M., Maor, Trad Prospects with the Sudan, Journal of Manchester Geographical Society, Vol. 3 7/12, 1887.

وطسن Watson, C. M., Lt. Col., Suakin Berber Route to the Sudan, Journal of Manchester Geographical Society, Vol.1., 1894.

ونجت Wingate, F. R., Beseige and Fall of Khartoum, S.N. & E. Vol. XIII.

ويلد Wylde, A. D., The Red Sea Trade, Journal of Manchester Geographical Society, Vol. 3,1887.

زكى Zaki, Dr. Abdel Rahman, Diary of Abbas Bey in Egyptian Society for Historical Studies (Arabic).

ACKNOWLEDGMENTS

In recognition of the many obligations which were extended to me in various ways and means. I have to place on record my indebtedness to Professor Mohammed Shafik Ghorbal. Dr Mohamed Awad Mohamed. Dr. Selim Hassan. Dr. Sulliman Huzzayin. Dr. Mohammed Mitwali. Fathers Simons and Bombachi. A. J. Arkell Esq.. Dr Mohammed Mahmoud Es Sayad. Sayed Salih Khalil. R.L. Hill Esq.. Dr. Georgi Sobhy. Sayeds Abdul Fattah Hassan. Abdul Fattah Ibrahim. Ahmed Abdul Salam Kafafi. Dr Mohamed Ahmed Anis. Dr Abdul Magid Abdeen. Abdul Aziz Ismail. Ahmed Eisa and Badr El Deeb for patronage. Dr. Mohammed Foad Shukri for suggestions and criticism which were of great value. Dr. Hassan Osman for encouragement and promoting the work. Sheikh Yousif Ibrahim Baqoy. Sayeds Mohammed Kamil. Dr. Fred. Slezak. Mohammed Abdul Rahim. Sayed Medani Yehya. Hag El Sheikh Omar Daf'allah. Ahmed Mohammed Salih Ez Zahid. Mohammed Ahmed El Gabri. Marion Laburda. Abdul Ghani Sa'oudi. Salah Esh Shamy. Omar Mohd. Ali. Ahmed Mohammed Salama. Abdul Rahman El Faysal Chater. Yousif El Amin Eheimer. late Engineer Taha Salih. late Prof. C. C. Rossini. late Mohammed Salah Ed Din El Baghir and all those who have contributed in one way or the other towards the production of the research.

I also wish to thank Mr. Anis Abu Fadil. proprietor of Abu Fadil Press and his staff for their support in many ways.

It is admitted that there are mistakes in the print. for which my apology is submitted.

C.B.A.

مجموع الدراسات التاريخية السـودانيـة للمـؤلف



بالعربية :

البحث الأول : على أطلال مدينة سناء . القاهرة ١٩٣٥ .

البحث الثانى : الدويلات الإسلامية فى سودان وادى النيل . الخرطوم ١٩٤٦ .

البحث الثالث : تاريخ المواصلات فى سودان وادى النيل . القاهرة ١٩٥٠ .

البحث الرابع : تاريخ المواصلات فى سودان وادى النيل جزء ثان (للطبع) .

البحث الخامس : السلطان رابح . ترجمة عن الألمانية لكتاب أوبنهايم ترجمه إلى الإنجليزية (دكتور سلزاك) عربه وعلق عليه . (للطبع) .

البحث السادس : رحلة أوليا شلبى فى السودان والحبشة بالاشتراك مع الأستاذ محمود نفص .

البحث السابع : معالم تاريخ سودان وادى النيل .

البحث الثامن : جغرافية السودان مترجمة عن التركية بالاشتراك مع الأستاذ محمود نفص .

Note No

1. The Greek Influence in the Vlley of the Blue Nile Khrtoum, 1945.
2. The Flight of Sudnese Tribes to Lebensrum in the Niger Vlley. For Press.
3. The Origin of the Sennr Sultnte. For Press.
4. Geogrphicl Dictionry of the Vlley of the Blue Nile. For Press.

The Mahdi's movement was a natural outcome of the local institutions under the prevailing conditions with Europeans holding key posts in the Sudan Administration and consequent British Occupation in Egypt, the latter event had paved the road for further developments, and rapid changes in the nature of the rise.

This Mahdi's move is discussed in relation with foreign influencing elements, which had over-ridden the divine proclamation of the Mahdi. The foreign activities and their surroundings were responsible in one way or the other for the bloodshed and anarchy that prevailed in the country for about twenty years.

The survey presented in the third book, as outlined above, ends with the discussion of the broad lines of events up to the years of the nineteenth century with particular reference to the imperialistic struggle with its theatres in Ethiopia, East Africa, Uganda, Kenya and Congo State and French West Africa.

With the ending of the survey as such, it is not claimed that the very detailed account of events from within were fully treated but treatment is made on the turning key points in relation to agents from without.

It is hoped that the numberless problems, that are still awaiting study, would interest research workers to proceed with for the advancement of knowledge and to throw light on events which will, no doubt, be of great help in building up a sound and long term policy deeply rooted on facts, whatever these may be, for the promotion in gradual and steady stages and to fit in with the Sudan's share of responsibility in World affairs in general and African problems in particular.

C.B.A.

Cairo, December 1954.

in the maritime and colonial interests that decided this attitude, which had taken the human colour, secreting behind it economic aspects, with the power placed behind the interventionary zeal. The suppression of slavery, as a politically effective force, had undergone successive modifications during the late eighteenth and the whole nineteenth and early twentieth centuries. It was begun with human characteristics in the early eighteenth century, changing to a force of political pressure and ending with its final shape in the economic field. The fundamental basis of slave labour has never been changed, and it worked in parallel lines with the progress of industrialization. It is, therefore, rather difficult while approaching this question, to isolate it, as an historical event, from the successive modifications and from the contemporary events of each decade, which influenced the attitude and nature of the slavery question. An epitome is given, on attached Arabic table, illustrates the developments and the role it played in the international politics and imperialistic expansion.

We are mainly concerned in this study, which is confined to the Nile Valley regions, so our interest in discussing slavery comes within this field with due reference to forces from outside. A survey of Britain's use of this influencial weapon, which ended with the Slave Convention of 1877, is given in the text. Contrary to the provisions of this Convention, which was intended to regulate the abolishment of this trade, within a specified period, Gordon and his assistants, who were of inconsistant European origins, have taken drastic measures in fighting this trade with the wide powers conferred upon them, which included Summary Trials with capital punishment and confiscation of property. This attitude had resulted the destruction of the substantial economics and social advantages offered by the new Egyptian administration, which was extended to the Sudan, during the period from 1821 to 1871. The European Lieutenants appointed by Gordon, as being of his own calibre and social standing, were his subordinates, and they followed the policy initiated by him for combating this trade, as it were in its disgraceful, inhumane and painful character, as experienced in the West; Gordon in one way or the other, was wrong in his hypothesis to fight domestic slavery to end the hunting of slaves, ignoring the place of domestic slaves in the social structure of the country; its abolishment needed time for assimilation and reorganisation of labour problems. This attitude had resulted dissatisfaction and serious relapse of the developments achieved; this state of affairs, for which the policy adapted by Gordon is responsible, had given way to the accumulated forces of the ages to revive with ultimate outcome of the emergence of a Saviour who was found in the Mahdi. It is necessary to mention that the policy for combating slavery, was originally framed by the British Government.

authority had ceased to function in its own means; this state was an opportune for the remnants of the Memlukes, who were in the country some years before the extension of Egyptian Administration, to take advantage of this dissatisfaction by agitating and stirring up the factions. This had resulted in the catastrophic end of Ismail, son of Mohd. Ali, and his party at Shendi. This catastrophe is treated in the light of local traditions, tribal rituals, prevailing conditions and other factors with the conclusion that the intrigue was coined by the Memlukes and that Mek Nimr was the scape-goat and victim. The case of Ismail's death at Shendi with his party, was interpretted in different ways to serve purposes other than the truth.

The Administrative system was, however, reframed as a result of experience gained in the first thirty years, when Mohammed Said visited the country and promulgated his four decrees which laid the sound foundation of the new administration with the local chiefs and inhabitants having the full opportunity both in sharing and in handling their affairs. Unfortunately, these decrees were too late to function as planned, owing to the appearance in an effective weight of the imperialistic beliefs and desires which brought the Nile Valley within its orbit. The Great Imperialistic Powers have exercised their respective ways and means for supremacy in the Nile Valley. These powers stood aloof and appeared behind the screen pulling the wires for the requisite chance fit for interference. Britain, one of the great powers struggling with its opponent France, used its pressure on Egypt and on the Porte, for the abolishment of slavery, which was brought before the European and American public opinion in the very inhumane state known to those people, whereas, the treatment of slaves in the orient was in a quite different way than that experienced in the west. The humane treatment in the Moslem country is given in the Islamic teachings. Britain had also used other means to achieve its plans for supremacy, such as the financial crisis of Egypt, to interfere in the affairs of the country landing its troops to crush the Nationalist movement under the pretext of safeguarding the Khedivial throne and many other reasons to meet the problems brought out to end the occupation of Egypt. The state of affairs in Egypt has reflected on the Sudan which had already been, more or less, in an administration of terror for the suppression of slavery instantly.

It is place and duty to take a pause to review the question of slavery and its developments in the international field as an imperialistic and economic weapon. Britain, after having been the leading power that profitted from this trade and had maintained slavery in the vast colonies over seas, had adapted a reverse policy towards slavery and its trade. An explanation of this change is found, among other reasons,

Republic• principles which did not allow for advancement and developments in other phases of activities. No wonder, then, that the Sultanate had caused the country to be torn by the ideological and social conflicts with the decaying chieftainships and restless populace. This state of affairs was a direct result of the reliance on trade and trade only, which was restricted mainly to transit transactions, hence the country failed to produce items for exchange on a reasonable scale. This system received a fatal blow with the appearance in the Red Sea of the Portuguese and Turkish struggle for mastery of this trade route, also with the establishment of trade stations of the African coast by the European powers, who used these centres for the expansion into the interior of the Black Continent; there were also further causes emerging from within with the failure in building up a central authority and modifications of the land tenure and the machinery of oriental feudalism.

In the early years of the nineteenth century, new trends and traits have endangered the country, consequent upon the flight of the remnants of the Memlukes from Egypt in face of the new regime which had brought the Memlukes to an end. The coming of the Memlukes into the Sudan was a serious threat to the interests and welfare of both countries. So a combined effort was made to throw them out of the country and the Egyptian Administration was extended to the Sudan to restore normal conditions, on a progressive scale.

In Book Three, a survey is made of the new Egyptian Administration in which an equilibrium was vested to the Local Chiefs; this administration was the first experiment of its kind embarked upon by Modern Egypt. Actually it was in no way an expansion of exploitation as given by a number of writers. It was an organization to promote local conditions by putting an end to the tribal wars and anarchy, and to prevent foreign influence from gaining foot hold therein. It is admitted that there were mistakes which were normally expected in such an experiment. The new administration, when compared with any other European organisation in Africa, demonstrates great differences, the simplest of which is the local inhabitants of the country of the Sudan were not rejected under colour bar institutions of the Europeans, furthermore they were allowed full participation in the affairs of the country. This was because Egypt had no beliefs and desires in the sister land. The Administrative mistakes were due to the fact that they did not take into consideration, in the first stage, of the institutions and the structure of society and its interrelations, which were inherited with the accumulated forces of all ages and the country was at the time torn by feudal wars. This ignorance had caused dissatisfaction to leap out in the regions where the tribal jealousies found that the chief's

customs which allowed sons of the sisters of the ruler to ascend the throne, and that tradition had allowed the sons of local wives and daughters of the new-comers to seize power hence the Arabs were able to effect gradual modifications in the social organisation with the time going on; taking into consideration the fact that the Arabs were full of zeal for the new faith of Islam and their penetration was continious for some length of time when the country was in a state of deterioration with social strains in morals and aberration. It was, therefore, possible for the new-comers to take over the chieftainships and throw the ancient dynastics off; t must not be forgotten that the modification caused by the Arabs did not go deep into the social structures of the local societies, but coated the old traditions for a while. The provinces of Dongola or Makura had disappeared in the early years of the fourteenth century, and Alwa followed the same fate two centuries later.

Turning to the study, under review, it discusses in the first book the developments of events and their consequences as a result of culture contacts and reflections on the social structure with conflicts with old traditions and inherited rituals, which were able to revive and retain their vitality and influence conditions. This is very interesting point showing the part played by local wives and the calibre of the character of the new-comers. These points, with others, are of great value with the Sudan now emerging into a wider horizon in the international field. This emergence is throwing more responsibilities on the country, because of the serious position, it occupies in the world strategy.

It is attempted in this study, which is not pretended to be a complete one, to present the broad lines of the turning key points in the history before the rise of the Sennar Sultanate, with a survey of affairs in Ethiopia and Egypt, which have contributed to the transplantation and restoration of a central federated power with its seat at Sennar, on the Blue Nile. A discussion of the arguments relating to the vexed question of the origin of Sennar Dynasty, brings the first book to an end with the conclusion that this Dynasty was originally functioning, in one way or the other, in the region of the south-west corner of Eritrea, through which the thorough-fare linking the Red Sea ports and up country was operating.

The Second book deals with the Sennar Sultanate in its new capital, after flight from the region of Lamul; its relations with the confederated sheikhdoms on the Nile Basin are also dealt with together with the causes that contributed to the Sultanate's progress and decline. The seeds of the decline were sown with the rise of Dynasty because of its organisation and functions which were confined within the «Commercial

had set on march northwards and north-westwards; this point is left for systematic archeological work in that part of the country.

The relations between Egypt and the Sudan, as illustrated by Churchill, in his work «The River war», as resembling a palm-tree, at the top the green and fertile area of the Delta region, spreads the greenful leaves and foliage-the stem with the root of the tree begin to stretch deeply in the Sudan, need be implemented by the fact that although the circuit begins with the flowing of the Nile waters which carries life and fertility to both the Sudan and Egypt, as illustrated in the palm-tree, it does not cease its activity with the discharge of its blessings; but it changes to another energy of inspiring influence which runs back in the form of a multi-pronged torch, diffusing culture and civilisation into the upper regions of the Nile Basin. It, therefore, resembles a magnetic field flowing in one direction with its waters and coming up with the torch of culture. It is no wonder that one finds that events in one country-the Sudan or Egypt-reflects on the other, as proved by historical evidences of various decades.

It is out of the province of the study, now presented, to enter into details of the past historical events of remote ages; and it was found necessary to limit the research to begin with the destruction of the Meroitic kingdom in the middle of the fourth century of our era, when the central power had fallen in decay and the inhabitants set on flight, as a result of the invasion, which was engineered by foreign elements not originating from Aksum, of King «Aezana». The Country of Meroe was deserted and left for the adventurers and new-comers. In this central zone of the Sudan which formed the provinces directly ruled by Meroe, rival chieftainships arose and entered into conflicts with other tribes. The other provinces lying on the southern and northern borders of the Meroitic Kingdom proper i.e. Alwa and Dongola respectively, have, more or less, been attending to their daily life and the inhabitants, who were agriculturists, were not affected by the differences which stormed the chiefs.

The State of internal wars continued in the central zone for almost ten centuries during which decade, Egypt was under the mastery of foreign powers. At the end of this epoch, the Arabs, who conquered Egypt in the seventh century, began, on the rise of the Memluke to power in Egypt, to pour into the country in mass immigrations; because the Memlukes were rivals to the Arab elements. The infiltration was carried in a peaceful and steady manner without serious violance; and through intermarriage of the new-comers with the local inhabitants, the power was transfered to the sons of the Arabs by virtue of the local

INTRODUCTION

The Sudan of the Nile Valley, a vast tract of country of about one million square miles, extends from (approximately) latitude 3° to latitude 22° North i.e. between the Equator and the Tropic of Cancer, through which the river Nile stretches for about 1400 miles; the country, therefore, runs from a lacustrine area to semi-arid regions and this setting exhibits a wide variety in climate and vegetation. These geographical features of the different zones have moulded the variant sizes of economic and social institutions of the relative habitats. The story of tribal struggle and immigrations lies secreted behind this physical setting.

One finds the primitive life in the far south and gradual stages of settled conditions, north thereof, in the open country on the banks of the Nile and its tributaries; and nomadic in the regions lying on both sides of the river and in the highlands of the Red Sea littoral and in Darfur. In the highlands, there are massifs ranging from about 4000 feet to 10000 feet (above sea level).

Taking into consideration, the anomalous place of the Sudan on the Nile Basin, which forms the main artery linking the Mediterranean and the Red Sea with the heart of Africa, the country holds a strategical position, which has given access to impulses from the bordering regions of Africa horn, lake plateau, the Sahara and Egypt; and the country, with such a situation, had rendered a transformation theatre of the impetus of varied stages of civilisations and cultures, the remnants of which are traced in the transition and cradle zones of the Blue Nile Basin and on the banks of the river Nile north of Khartoum, and in refuge pockets and isolated areas which are lying at the remote and inaccessable parts amongst which are the salient lines of Dar Fung and in Tegali Hills, Dar Fertit and Mahas regions; these pockets are worthy of an exhaustive field team research.

The history of the country, particularly the northern part, is tied mainly with that of Egypt since very remote decades of history, and the history of each of the two countries forms an indispensable part of the other for various reasons which include the favourable climatic conditions prevailing in both countries, the waterways of the river Nile, their serious position in the strategy of trade between the main sea routes and the fact that the earlier inhabitants who spread over the banks of the river were, more or less, from one origin interrelated with their economical interest. One theory says that the Blue Nile Basin was the kernel/cradle zone from which or in which the inhabitants of the Valley

SUDAN HISTORICAL STUDIES

AN OUTLINE HISTORY OF THE NILE VALLEY SUDAN

By
Chater Bosayley A. Galil
librarian, institute of sudanese studies
faculty of arts, Cairo university
(formerly of sudan civil service, 1919-1915)

محتويات

الملاحـق

فهرس الخرائط

فهرست الصور

فهرست الوثائق المصورة